أراغــــون

مجنون إلسا

ترجمة
د. سـامي الجنـدي

الكلمة
دار الكلمة للنشر

أراغـــون

مجنون إلسا

ترجمة

د. سامي الجنـدي



دار الكلمة للنشر

قسمت ثمرة حياتي
قسمين توأمين
كما يتشابه الصمت والصوت لدى الأصم
فخذ الحكمة أو اختر الجنون

أدع هذا الكتاب دون تقديم . أدفعه للقارىء « عاري الرأس » ، لأن كل وسيط بينه وبين القارىء يظل غريباً عليهما مهما تفنن في طريقة التدخل .

أدعه كما هو ، فخير النشيد ما كان عارياً حتى القلب .

سامي . . .

[١]

غرناطة

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة
فإن لم تكن لي فرصة فجبان

معاوية بن أبي سفيان

البداية كانت خطأ لغوياً بالفرنسية . الله أعلم لماذا تحوي مكتبتي مجموعة من جريدة مينيستريل الموسيقية التي عمدت منذ سنة ١٨٣٣ ، كل أحد إلى نشر أغنية « رومانس » لم تطبع من قبل وهي في مجلدات ضخمة تعيق المكان لم أقرأها بل تصفحتها أحياناً . ربما كنت ضائعاً حين عدت إليها سنة ١٩٦٠ فوقعت عيناي على احدى الأغاني التي كتبها السيد فيكتور لوكونت ، الذي لا أعرف عنه شيئاً ، ووضعت موسيقاها الآنسة بولين دوشانج صديقة مارسيلين ديبورد - فالمور ، وما كان هذا كله ليستوقفني وانما العنوان : عشية سقوط غرناطة ، والسبب هوس داخَلَ حياتي كلها كتلك الأحلام العائدة ، الأحلام التي تحلمها مرة ثانية فترجع بنا إلى بيت ما رأيناه أبدا ، عالم ليليّ ، بأزهاره وأنواره ، وعلائق بين بشر لا صلة بينهم وبين من حولنا من بشر اليقظة ، كل ما فيه مختلف ، الاحساسات ، والمراتب ، الفلسفة أو الدين ، والرموز ، والعادات ، والثياب . . . مع ذلك نجدها جميعاً بعد شهور وأحياناً بعد سنوات من الغياب ، حقيقة صارخة ، حتى ليصحّ أن نتساءل . هه ، المقعد الذي كان هنا في آخر مرّة ، ليس موجوداً ، أو نقول لشخص : لقد كبرت يا صديقي . . . غرناطة ، غرناطة الأيام الأخيرة ، غرناطة التي حاصرها الملكان الكاثوليكيان ، مرّت ، ولا أدري أين في المرة الأولى ، ربما في جريدة أطفال ، في حلمي ، وما كانت غرناطة تلك إلا كما أغلفة الكتب الرومانتيكية تبدو كاتدرائيات ، أو زوجان مذهبان تحت الجرس الزجاجي القائم على ساعة جدار :

قبل أن أعدو إلى حيث يدعوني البوق
تعالي إلى قلبي ، لأن العاشق الوفيّ ،
يحمل له دائماً السعادة
وداع جميلته ،
يحمل دائماً له السعادة .

لم يكن هذا باب أحلامي وكنت أغلقت ، معتكر المزاج ، ذلك السِّفْر الضخم بجلده الهولاندي الذي طبعته دار بوسيلج ١٢ شارع كرواسان مونمارتر ، لولا أني في بيت الأغنية الأول استوقفني نغم وتر ارتخى ، نشازٍ في اللحظة الأولى . لم أدرك أين موقعه .

. . . عشية سقطت غرناطة
قال فارس لجميلته . . .

لم كانت هكذا عظيمة مرارة البيت الأول على الأذن كما في الفم ؟ عشية سقطت

غرناطة . . . أعدته مرات ثلاثاً أو أربعاً قبل أن أتملىّ من السر الذي يكمن في خطأ بياني . الصحيح أن نقول عشية اليوم وليس عشية . . . من طلاق الكلمات هذا ، من الأدغام اللغوي أتاني الشعور بغرابة قصيدة الناظم ، كأنها بديع أبولنيري[1] يكمن جماله في الغلط نفسه . هنا كان مفتاح الأحلام ، ونهدت أعيد عشية سقطت غرناطة . . . عشية سقطت غرناطة . . . حتى تفتح الألحاح الآليّ فيّ عن نوع من أغنية ظننت للوهلة الأولى أنها أتتني من صورة شبيهة بها . ١٣ حزيران المشؤوم . سمعت قبل أن ينقطع التيار ، وأنا في بيت في « المين » نبأ سقوط باريس . . . بل ربما كان ذلك « وداعاً ما للعالم » . . . وأخيراً قبضت على نفسي في سرقة موصوفة لبيت من أغنية . لقد انتهكت قفلا فريداً فوجدت مزلاجه طوع بناني . . . عشية سقطت غرناطة . . . كان في الأغنية ، عندي ، سرّ آخر : أقحمتني الكلمات درباً لم يكن في بالي ، توحدت وملك هذه المدينة السحرية ، هذا الأبو عبدالله الذي أدري جيداً كيف أنسرب إلى أحلامي ، لكن هل كنت أستطيع وفي أية مرآة ، أن أراني في ملامحه ، ويخيل لي أن صورته الشوهاء هي من فعل الشعر الاسباني ، والأزجال الموريسكية[2] ، والخرافة العدوة ؟ هملت مضحك ، يوريك الفقيرة هي عنده عالم كبير ، نعم أعرف من أين جاءني في البدء ، كيف صعد على خشبة مسرحي الداخلي . منذ سنة مناولتي الأولى حفظت هذه الجمل ، كأنها نصّ من تعاليم المراطقة ، من كتاب : هدية غريبة قدّمتها لي مدرسة سان بيير في نويي!

ان سقوط غرناطة شهير كسقوط طروادة : الأغنية التي تدفع للتأوّه تثبت في ذاكرة الناس حين تسليهم كما تشدّهم التراجيديا أل ريّو تشيكو[3] ، الملك أبو عبدالله الصغير ، الجبان ، الخائن ، القاتل ، نراه وقد حجبته إلى نصفه أغصان وردة الغار المائلة التي نجا بنفسه من تحتها في اليوم الذي كان يلاقي جنده ، شجعاناً ، الموت من أجل قضيته . واننا لنأسى له وندفع عنه لأنه لقب بالزغيبي ، أي السيء الحظ ، ولأنه ولد تحت نجم نحس . كان ينظر إلى الباب الذي ترك منه الحمراء وقد طلب منحة ملكية ، أن يُسدّ إلى الأبد ، ونزل الطريق الذي يمرّ حدّ كنيسة القديس ـ انطوان ـ العجوز ـ وكان شاده كي يفر من معسكر المسيحيين دون أن يلتقي بعربة ، ويروى أن هذا الملك الصغير الحقير قد ذاق ملذّات ليس مثلها أحكمت تعلقه بالحياة .

وما انتبهت إلا بعد زمن لطبيعة مصادر باريس ، وأتتني الفكرة أن الملك المغلوب هو دائماً جبان وخائن عندما يكتب الغالب التاريخ . ولما زرت موريس باريس في العشرينات وأبديت له هذه الملاحظة ، نظر إليّ مستغرباً وربما ظاناً بأن فيّ روحاً شريرة ، من ألمانيا التي عفونا عنها ، من أمير ما من آل هوها نزولرين التزمت بالدفاع عنه أو بارسفال الذي لا يخلو من شبه بالملك ـ الولد ، وقد امتاح باريس منه من أجل (نظرة على البرية في الدم واللذة والموت) وتمتم وكأنّه لا يكلمني وإنما يكلم تمثال وجه باسكال القابع أمامه : « هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بمن يدافع عن أبي عبدالله » . وهذا ليس جواباً . والحق أني انتظرت أربعين عاماً حتى أكون هذا المدافع عنه . . . وهكذا كان عندي مؤلف « عاشق الأرواح » ما كان لوسيان دوساموزات عند ويلاند .

(١) نسبة إلى الشاعر الفرنسي بول أبولينير .

(٢) المسلمون الذين أصبحوا كثالكة .

(٣) ملك الطفل ، بالاسبانية .

وذلك لما ترجم له رسالة الهجاء عن حياة وموت بيريجرينوس وتملّى ويلاند من صورة الرجل حتى لداخله الشكّ بحقيقتها وبدأ يفكر أن أعمال الموصوف التي ليم عليها تبدو هكذا شنيعة لأن اللائمين يجهلون دوافعه . وبحث عن هذه الدوافع عند قدامى المؤلفين مساء كله وبعض الليل ، حتى آل إلى الكرى : عندها زاره في نومه بيريجرينوس بورته وروى له قصته ، فكتبها ويلاند لدى استيقظ . . لم أسعد بمثل هذا في بحثي عن أبي عبدالله . كان ينسلّ وراء عوسجه الذي من ورد الغار . تلك الأزهار العربية التي جاءت من أرض نجد ، منذ الزمن الاسلامي السالف لسقوط القسطنطينية ، إلى الشمال وآسيا عبر فارس ، وخلل جمر افريقيا حتى الأندلس التي تسيل فيها مياه الثلج . وما كان أبو عبدالله في تصحيح معرفتي عنه ما كان عليه بيريجرينوس عند ويلاند . لقد ضللت في غابة الاسلام بحثاً عنه من بغداد إلى الاسكندرية ، في أعماق رمال الطوارق ، في أقصى غرب الجزر الاسلامية وما وجدت إلا ما يكذّب ما روي لنا عنه .

وما كنت لأصحح وأنا ماضٍ في سبيلي معرفتي عن الملك ـ الولد وحده فأنا أمتّ بالتقاليد والمعرفة والأفكار السابقة إلى العالم المسيحي : وعلى هذا ما استطعت الوصول إلى عالم الاسلام بالطريق المباشرة ، أي الدراسة والسفر .

كان دليلي الحلم وحده كأولئك الذين نزلوا إلى الجحيم ، أورفة[1] ، أو دانته . .

ومضى الزمن ، عبرت بي سنون كاملة لم يطف بي فيها حلم غرناطة . وأدركت مع بياض الشعر أيّ دوار ينطوي عليه عدم الاهتمام والعمل دون انتباه للزمن الضائع . وعندما نزن ما يبقى لنا وهو قليل ، من غثّ الاختيار وسمينه ، على هذه الأرض نعرف جيداً ما يعنيه ضياع الزمن . زمننا ، ونقولها ، دون أن نرتجف .

هذا وليست كل الأحلام أحلام غمض العيون . كنت في غرناطة في آخر خريف **١٩٢٦** في الوقت الذي يتجلّد فيه الهواء .

كانت غرناطة البيديكر[2] وواشنطن اريفنج[3] : تقع مدينة غرناطة في وسط المملكة ، تحميها وهي في حضن السيرا نفادا سلسلة جبال تعممها الثلوج . . . يا له ما أسعده ! كانت الحمراء التي أسلمها الاسبان للاهمال ، له وحده كي يكتب : غزو غرناطة . . . أما أنا فقد قضيت فيها أياماً ثلاثة وليلة في الساكرومونته في مغارة الغجر (والهواء الجليدي الآتي من سلسلة الجبال المعممة بالثلج يدفعني دفعاً غريباً للتفكير باسمه العربي الشلير أو جبل الشمس[4] ، ثم سافرت متعللا بالرجوع ، لكن التاريخ هو الذي يشاء لنا ولما عدت إلى اسبانيا كان جبين غرناطة ملطخاً بدم فريديريكو . وحيث سقط جارسيا لوركا كان غازٍ آخر عاد من افريقيا مع الفرسان

---

(١) باليونانية أورفيوس .

(٢) كتبيّ ألماني واضع الدليل السياحي فسمي باسمه .

(٣) شاعر أمريكي اشتهر بما كتب عن غرناطة .

(٤) والحق أن العرب كانوا يسمونه جبل شلير الساج أو جبل الشمس والثلج ، لقد ذهبت الشمس معهم وبقي الثلج للمسيحيين .

العرب يدفع من كان مثلي عن الدخول . كان ذلك حينما عاودني اسم المدينة القرمزية من سبيل أخرى .

لماذا نبدع لأنفسنا بلاداً خرافية ما دامت تغدو منفى قلوبنا ؟ كل ما أسكرني في ماضيّ كل الذي أدرت له رأسي أكان موسيقى أم رسماً أم بطولة أم شعراً يبدو لي إذا التفت إلى وراء وكأنه يجري إليّ من كل ناحية ، يلتقي فيّ كي يبذر ، ويخصب أرضاً وحيدة ، فيجني منها حصاد حياتي ويعدّ غذاء عشقي . فاجنر وتشايكوفسكي ، شكسبير ورامبو . . فيرمير ودولاكروا . . . والرجل ليس سوى آلة أعدّت ليدي امرأة . وهو عند النساء ما نحتته فهذّبته الآلام والأحلام بعد أن كان بهيمة . .

ما كان ذلك صدفة بل لقاء . كان ينبغي أن يجيء اليوم الذي أسمع فيه من المرأة الوحيدة التي أحببت ، أودّ أن أقول الوحيدة التي كان يمكن أن أحب ، أغنية من أرضها البعيدة ، والعجيب فيها أنها ممتلئة من غرناطة :

Гренада Гренада Гренада моя...

قصيدة ميكاييل سفيتلوف عرفتها من السا ، أصغيت ، بناء على رغبة السا ، إلى مؤلفها وهو يقرؤها ، وكنت أجهل لغته ، فما سمعت إلا لازمة من غرناطة . . . وهذه القصيدة التي تختلط فيها المهارى العربية بالخيول القوزاقية ، الحرب المقدسة بالحرب الأهلية ، وأوكرانيا بالأندلس . . . غدت فيما بعد روح رواية السا التي يدوم فيها ألم القرن العشرين العظيم ، وما انتزع من رجال ونساء من أوطانهم وصوت الاحساس الجديد ، وكأنه غزو حديث ، صوت البروليتاريا الدولية فتمنحها اسمها الكبير الدامي . . . على هذه القصيدة بُنيت « موعد الغرباء » وأنا الذي أعرف ثمن مثل هذه الرواية ، فلا مندوحة لي من أن أقرأ فيها قدرنا المشترك ، ونداء غرناطة الخفيّ ، والمعنى الذي ينتظم حياتينا ، ولغز حلمينا ، وقد اتحدا . . .

غرناطة يا حبيبتي، غرناطة يا غرناطة . . .

وأقول لكم أني ما كنت أحلم بها طويلا إلى هذا الحد لولا أني وجدت ، أن قد ارتبطت بها تلك التي ما كانت حياتي من دونها غير رمل جفّ . وقد تكون وافتني الضرورة من كتابها الذي صدر عام ١٩٥٦ ، كيّ أكتب نوعاً من قصيد تلتقي فيه تتعانق وتمتزج ثم تخصب أفكار خفية ، وموسيقى داخلية ، حملتها فيّ طوال حياتي ، وكانت جميعاً تهيب بي أن أدعها تتفتح . وهل كانت غرناطة قبل السا غير حنين لا يختلف عن سواه ؟ كل بذرة بحاجة إلى الأرض والشمس كي تزهر . وهكذا انبثقت غرناطة من أرض أحلامي تحت نور المرأة التي فاهت باسمها . . وأما الذين يقولون تلك صنعة أو يظنون أن دخولها هنا في القصيدة ، في صوت عجوز وجنونه ، ليس سوى لعبة مسرحية وأولئك الذين لا يرون إلا بلاغة في قصيدة شيخ غرناطة ، الذي كان في عمري غير بعض شهور ، وهي صدى جامي في المجنون وليلى التي أنجزها قبل سقوط غرناطة بثمانية أعوام وقد بلغ السبعين شتاء ، أما الذين يذهبون إلى أن هذه القصة وهم ، ماذا تريدون أن أقول لهم ؟ أما اللائمون على أني مزجت النثر بالشعر وأشكالا هجنية في اللغة ليست هذه ولا تلك من بديع الكلمة ، فهل أعلمهم أن الشعر العربي هو في الغالب توضيح لنص نثري أو رسالة في الشعر ،

تورد فيها الأمثلة والأشعار ؟ وأن الفرنسية مثل العربية قادرة على أن تستجيب لكل الحالات الوسط التي يتميز بها بيت الشعر العامي ، ومنهـا النثـر المحـكم بالمعنـى الـذي يراد في الحـديث عن الموسيقى ، ومَثَلُهُ السجع العربي الذي أتى به القرآن . إلى الذين يقرؤ ون مجنون السا فيتمسكو ن بالحرف أقول اذهبوا مع أبي عبدالله كي تصغوا في الليل إلى تلميذ ابن رشـد . . . أو أذكرهـم بكلمات شاتوبريان في بداية « حكاية آخر بني سراج » التي يشرح فيها لماذا لم ينشر كتابه حين كتبه : كانت مقاومة الاسبانيين لبونابرت[1] ، مقاومة أمة عزلاء لذلك الغازي الذي قهر خير جند أوربا ، تثير حماس كل القلوب القمينة بأن يؤ ثر فيها التفاني العظيم والتضحيات الكبرى . كان الدخان ما يزال في خرائب سرقسطة وما كانت لتسمح الرقابة بالمديح ، الذي تكتشف فيه ، عن حقّ ، ما أخفيت من اهتمام بالضحايا . . . اليوم لا رقابة ، والسبب أننا اتقنّا وسائلها . هذا وبعد فالاسبان في أيام جويا لا يشبهون أبداً اسبان ايزابيلا الكاثوليكية ، فالعرب منهم يزعمون فضلا عن ذلك أنهم اسبان وما كان لشاتوبريان أن يعرف أبا عبدالله الحقيقي ولا ارفنج واشنطـن ولا باريس . ومذبحة بني سراج بناء على أوامر الملك الصغير ، والتي يسميه من أجلها باريس بالقاتل ليس فيها شيء من الصحة : والمؤ لفون المسلمون يقدّرون أنها كانت من فعل الملك العجوز أبي الحسن أو أخيه الزغل وليست فعلة أبي عبدالله الذي كان بنو سراج سنده الرئيسي على ما شهد به أوجست مولر . والحسناء المسيحية هي التي أرت ، إلى بطل شاتوبريان نبع الماء في الحمراء الذي آلت إليه رؤ وس أبناء سراج المشوّهة . . . والحق أن المؤ لف ما أخذ الحكاية عن « بيريز دوهيتا » الذي ما ترجم كتابه إلا بعد سنتين من زيارة الأول لغرناطـة . أية أكاذيب تلك التـي تكتـب التاريخ ، ويبدو لي أن القرون لم تبدل في هذا الأمر شيئاً . وليست الرقابة هي التي أخرت نشر « آخر بني سراج » . وما القصة غير قناع يخفي غراماً : فقد قرأ فرانسوا رينيه دوشـا توبـريان المخطوطة في ميريفيل[2] ، عند صديقه الكسندر دو لابورد[3] الذي يتعرف فيه ، ولا شك ، كل الناس في بيانكا على الراهبة ناتالي دونواي ويتبينون من الحكاية اللقاء في الأندلس الذي انتهت إليه « رحلة من باريس إلى القدس » لكن أكان حرياً به أن يرهق السيدة دوشا توبريان بأن يبوح علناً بعشقه لبيانكا ولم أمّ المسافر من تونس غرناطة ؟ سنة ١٨١٧ غرقت ناتالي في ظلام الجنون ، وانتظر رينيه ثمانية أعوام حتى أيقن من الا شفاء لها ، أي إلى ما بعد لويس الثامن عشر الذي أبقى ، دون عذر ، على الرقابة النابوليونية . . . التاريخ ، نعم انه التاريخ وغرناطة ما هي عند شاتوبريان ؟ ما هي عندي ؟

الغايات هنا هي عن عمق مني تبوح بها في يسر الكناية ، أو قد تجنح بالقارىء عما أقول لنفسي وحدها ، ولآخرين فيما بعد ، وهي عندي فيما وراء حرفية الكلمات ، ودم الأشياء . تلك الأشياء التي يذهب القرآن إلى أن معناها لا يعلمه إلا الله .

---

(١) كان يلح شاتوبريان على تسمية نابليون بونابرت بوونابارتيه اشارة إلى منشئه الكورسيكي.

(٢) ميريفيل : مدينة فرنسية تقع في مقاطعة « اسون » .

(٣) الكسندر لابورد عالم آثار فرنسي (١٧٧٤ ـ ١٨٤٢) .

أغنيــة بـدايــة

قضيت كل زمني الانساني
بلا غد في الحفر
أنتظر فجراً حيران
والموت حدي قابع
أنا الملك الولد طردوه من قصره
عشية سقطت غرناطة

عشت كمعتوه
في « حمراء » الرياح الجليدية
عينان مائتتان ، شفة ، رمادية
نافورة ماء تتمتم وتنكسر
مرآة من قبل جريحة
عشية سقطت غرناطة

أنا ليل تبدد
يبحث في الصبح عن أفكاره
مقامر بلا فلس
يمزق قميصه
سددوا إلى قلب مطعون
عشية سقطت غرناطة

عشية سقطت غرناطة

في البدء امتدت الحروب زمناً طويلا لا تعدو فيه نزال الفرسان . هكذا تكبر الأسطورة ، تولد بالنسبة لديلريو ، بطل أحد غواة النفوس الكبيرة : كان يريد أن تأخذ كل أمكنة الحمراء من باب الفيرا حتى باب بيفارامبلا معناها العظيم الساذج في خيال حبيبته وأن تحيا أساطير السيدات العربيات والفرسان العرب في تنانيرهم الخضر وأرديتهم الحمراء ومهاميزهم الذهبية والركب

الفضية وقد امتطوا أفراساً جونا ومهارى تشمخ بعدّتها وريشها . . . اننا لا نؤمن بالحرب إلا عندما تدخل بيوتنا ، لا نؤمن بالقدر إلا عندما ينشب فينا مخلبه . وهناك الشعب المسالم وتمتمة تتردد كل يوم بلا هوادة في أن يعيش .

وليَدُرْ حصان النوريا ، الناعورة كما يقول العرب فهو يعرف بالفاجعة عندما يخترق أحشاءه سهم طائش . وبالانتظار . . . نحن أيضاً عشنا في جهل ما يجري في البعيد تحت ألوان علمنا ، التعذيب والأطفال الذين حالوا إلى مسوخ ، فساد كل شيء والدم المراق على الضحك الشنيع . كان يبدو وكأن الأعصار ما ينبغي له أن يعود ، والعمل الدؤوب حتى العمى كان يستمر ، فيخترع أعراق زهور ، ينقش لمن شاء الحلى ، ويكسر سلاميات العازف الموهوب في عزفه موسيقات رائعة . . . نظرت طويلاً عبر زجاج دكان في الباليه رويال إلى صناع يهذّب جنوداً من رصاص كي يجعلها شبيهة بجند نيرويند أو جند فلوروس . .

يا ليالي الغزو بأية كلمات تلقى الفلاحون الفاليون تلك السبائك الذهبية الصغيرة ، كما استقبلني ، وأنا أطرق باب مزرعة في أيار سنة أربعين في مكان ما من تلك الناحية ، طفل صاح بأمه : الرعاع ! الرعاع ! وكيف كانت تقال هذه الكلمة في المرج ، البستان الغرناطي الكبير ، لما كانت تبدو فرسان فرديناند ؟ أو مجاهدو الزغل ؟ في دنيا الألفاظ يقاس البون بالطريق القصير التي تقطعها كي تتبدل . . . وبالزمن .

وهذا العالم الذي هو نحن وماضيه ، كل شيء يتخذ فيه مكانه الهادىء ، من القسوة ، إلى الوحشية وحرائقها ، إلى الجوع . . . ، فصول من التاريخ يحملها التلميذ معه بريئاً ، ثم يتوقف على دربه لما تفر العصافير . وما كان ذلك في هذا العمر وحده . يبدو لي في مجمل القول أني سعيت ، حياتي كلها بين بيت أمي والطاولة التي أعود عليها للمسائل التي أهملت . حتى إذا تغيبت عن هذه المدرسة وجدتني ضالا . أقول أننا عبر القرون تواطأنا ، بقال الزاوية ، وسيدات الساعة الخامسة ، وذو الأكمام المزركشة ، أصحاب المحراث أو الزريبة ، أنا نفسي ، وبكلمة الفرنسيون ، وقد صبغتنا حلاوة هي علينا وقف ، فنسينا أقفاص لويس الحادي عشر والبالاتينا وجمعيات التنين . . . من ذا الذي حرق باسمنا المدارس ؟ وهل بوسعنا أن نقارن بين الحرب الاسلامية المقدسة وحربنا في الأنجو ؟ وفي حلقنا لا يستطيع لفظ الأندلس إلا أن يدور رقيقاً كغناء ترغلّة . . . بعد أن ضاعت الـ (v) الفاندالية مع الغناء العربي . . . نهدت من فم إلى شفة فتعادلت الباءات والفاءات ويتحدث باريس غير واثق عن باب بيفارامبلا الذي تدعوه الخرائط الاسبانية بيبارامبلا ويلفظه الناس في يسر فيفارامبلا ، وسماه العرب بيب الرملة ، باب الرملة لكني على كل حال لن أترجمه ببورت دولاسابلير .

رأيت لما حلمت بغرناطة ، بستاناً كبيراً ، لا أعرف من صاحبه ، ينزل من هضبة جنّات العريف وعجبت لعمل البساتنة الضخم الذين يعيدون زرع البصلات كل عام : لكنه في الربيع الأول ، الذي هو عندنا شتاء ، اكتسى بملايين الزنابق من أزرق إلى وردي فأبيض أو نيلي . . . متراصة ، متراصة حتى ليجهد أوراقها أن تفتح مروحتها الخضراء ، ومن يفقد هنا خاتمه لا يجده أبداً . . . غزو من زنبق ، تنحني فيه دروب ضيقة ، لا يستطيع عاشقان أن يمرا بها معاً .

انه بستان قصيدي ، كل ما يتفتح فيه لك وحدك ، والزنبقة تنهدة إليك وذكرى ودغدغة . تلومين أني لم أمهّد الدروب لعلي أرافقك فلا أكتفي بظلك . ومن أين لي أن أدفع الزركشة الملونة الهائلة عن أن تغطي كل الأرض غير ما مهدت فجعلت مسلكاً من زليج ، من أثولبخوس ، عرضه على قد ضيق قدمك ؟ سوف آتي بك إلى هذا الحقل المنذور ، بين باقاته العطرة ، كرقص في روحي وأقودك وأنا أتراجع القهقرى أمامك ، بين أرياف الزهر . . . يا زنبقاً كمدن كبرى مصغّرة ، أبراج وأجراس ، قلوب وألوان ، تهدر نحلا ، كأوركسترا من قبل . . .

هذا الخزف من زهر ينمّق حياة تجهل أنها مهددة . مدينة سلالين وشعراء ، نجاري عربات وتجار ، فخاريين ونساجين ، وصناع سكاكين وقرميد . . . وفي آبار الشوارع المظلمة تغني أغان ، والبرية تفتح ذراعيها لفتيان هاموا بعطورها . وفوق غرناطة ، خارج أسوارها ضجة كأنها مزاد في سوق خيرات لا ترى .

ســـوق القـوافـــي

جاء كل من في غرناطة من شعراء إلى شاطىء ماء السد كي يتنافسوا حتى مغيب الشمس
و في هذه المدينة منهم ما لا يحصى كأنها حقل حجال
أولا يتعلم الناس فيها الشعر قبل قراءة القرآن نفسه
منذ أن ملأ هذا الشعب اسبانيا كما تمتلىء الكوب
منذ أن نسي المحار بو ن رائحة الناقة
الأطفال عندما تحدث أشياء مدهشة
يقفو ن فيرتجلو ن بشفة لونها مطر

مكان تحيط به أشجار تر ى إلى نفسها منذ الأز ل في المستنقع الأسود تراقب نموها مقلو باً
وما كانوا ليتخيلوا مكاناً مثله ملاءمة لمناقشة جوازات اللغة
والأحرف الصوتية إذا امتدت والساكنة إذا ما بينها بُدّلت
وما كان الفتيان ليقولوا شيئاً خشية أن
يبين نقص في معرفتهم

وذاك الذي يقف ثم يتحدث أولا
تأتي الكلمات فتأكل الخبز عن كتفه
يمتاح من الطير غناءه ودو ره
شفته دائماً ر بيع شجرة تفاح

الشعر للملوك لمسرّتهم ومجدهم
فانتق من الشعر ما على قدّهم وضع في النهاية القافية كي تؤ منوا أنه كذلك
ثم ارسم الأمير بلون الله فتجيء صورته كمرآة
اجعل له عيناً وسيعة وذراعاً مخيفة كما ينبغي أن يراه الشعب
يصطاد النسر ويمشي إلى الأسد ومن يده تأتي كي تشرب الأيلة
وار بط معرفتك وبختك بخطاه الممعنة في العمر وفي الذاكرة
كن بوقاً على التنهدات إمزج دوماً بين الخرافة والتاريخ

ضع على جبين امراء غرناطة يوم صيف لا مساء له
اعرف كيف تصقل أجسامهم المتناسقة واعطهم جناح النصر
جدْ لهم كلمات من نار تجعل الليالي أقل طولا وسوادا
لعل الغد يأتي فيجلس إلى أقدامهم يغني خافتاً حالما

وتكلم الذي قاطعه مغمض العينين
أمن أجل أن يصغي لوزن داخلي
وكأن حديثه جاء في بدايته من بعيد
كملاك ضائع في مكان مريب

أعيدوا لي أعيدوا لي ظلام الروح وفوضى أن أكون في أعماق الصيحات الهادرة أعيدوا لي ضجيجاً بلا هدف ومزماراً عبثاً ينتفض فيه « باليه »[1] من ظلّ وتعشق نفسها العتمة الحريرية آه
أعيدوا لي تمتمة عميقة أنسى فيها شهادة الكذب واستعباد الأشياء
هذا عندي فحسب بحر بلا شطآن وان فضلتم هوة بلا قرار يكمن فيها ما نسميه شعراً
ادعو بالشعر ما كان نزاعا بين الفم والريح وبلبلة بين القول والصمت
وذهولا بالزمان الهزيمة المطلقة
ادعو شعراً الصرخة التي تنتزعها مني اللذة والجملة انسحقت تحت حجر
ادعو شعراً ما ليس بحاجة لأن يفهم وما يهيب بثورة في الأذن
أما شعرك فلا لا أدعوه أبداً شعرا

اسكتوه وتكلموا جميعاً معاً عالياً
كل له نهجه ولكل جماله
يحملون جميعاً طفلا ميتاً لأنه غنّى
ويظنون أنه يتحرك لأنهم يرتجفون
كان في الحقل مراهقون عيونهم ياقوت
ورجال من البلاط يودون لو يقبضون على الفجر أو العاصفة كي يجعلوا منهما وشاحاً للملك
وأناس استنفذوا أبد أيامهم في صقل الكلمات حتى لقد فقدوا منذ بعيد الاحساس بالهار مونيا
ومنهم المعجب بكل صوت يزهر فيهم
ومسافرون جلسوا بحثاً عن وحي فما وجدوا
ومعتوهون كفّوا عن الاغتسال حتى لقد فقدوا الحق في الصلاة
ومغنون غلاظ ينتظرون عابراً يمنح قصائدهم باقة عتّال
ونساء صبغن أطرافهن
ومجانين يقولون ما لا يفقهون

---

(١) سوف يجد القارىء كلمات أضعها كما هي في الأصل لأن ترجمتها قسر لا يؤدي المعنى

وقبل هؤلاء عجوز ابلاه الزمن فتأنّق حتى لتخاله من صنع عنكبوت
علّق على الأقوال بهذه القصيدة
من رويّ الراء كما يبدو لي وشعر لا ريب فيه
تبنّى فيها البحر الكامل

نشيد باب البيرْة

حدثني أتذكر عن جمال ذاك النهار
يوم قصفت رمحك على باب البيرة
يوم رنت إليك عيون الأسوار البعيدة
كأنها ثمار سوداء تنزف دمها في بساتين الكرز

يا لروعة المنظر الذي استقبل طرادك
كمرآة تصطفق فتندهش فيها الريح
أتذكر حدثني عن الخيل والرجال
وعن عظمة الغرور في أن تكون فتى حيوياً

الفرسان كانوا كذاهبين إلى مدرسة
عليهم حلل الموت بألوان الصباح
يغنون الهوينى أغاني بلا كلمات
يرنون إلى إيذان يوم أجلهم

أتذكر حدثني عن يوم قصفت رمحك
في ظاهر غرناطة وعن الهاجس
الذي ران منه على جيشك لحظة صمت
وكلّل جبينك بالشحوب لحظة
ثم ما لبثت الطبول أن تقدمت النزهة
وسابق السلوقيات النار
يوم قصفت رمحك في ظاهر غرناطة
أسقطت السماء درعها العظيم الأزرق

عندها قامت ضجة زيزان كل

يئزّ باللائمة ويستعيد
الصورة والموسيقى وما ليس نقياً من كلمات وضحالة التفعيل
بعض افتقد لون الثياب وبعض حمحمة الخيل
وتأففت النساء أنه لم يأت على ذكر الحب
وعجبن لغياب قيس
المسمى بالمجنون وهو الذي يبدو في البلاد
رغم عمره آخر من يَنظُم القُبَل
وهنّ يعنين اليوم ولا غرو ذلك المجنون
الزري وقذف من هم أصغر عمراً القصيدة المرجوة قذف حجر على بركة ماء
هل يعلمون كم بها من دموع هل يعلمون
لماذا يخفق صدر ذلك الفارس الشاحب وهو يسمعها
وهو خارج الجدل يتّكىء على رمحه

وماذا يعنيه هو الوزن والقافية
مفاعلتن أو مستفعلن
إنه لا يفهم غير معنى الكلمة القاسي
كما تسلّ سكين تمر تحت أهدابه
ليكن بيت الشعر خيمة شُدّوا حبالها كيف قدرتم إلى الأوتاد
انه يذكر شبابه كيف كان يومها يمسك من عنانه بحصان
الملك الأنصاري
وقد أحاط يعسوب أسود من الروم بخيشوميه وصهيلها
أيها الجندي يا شبه صباح ما بخرت الشمس بعد نداه
من أين أتتك هذه الدموع الطويلة على وجنتك
ألم تجعل منك ست سنوات وجهاً من جلد
والحقّ أن هذه الأبيات ناقصة وفقيرة كراحة شحاذ على باب حانة

أعرف انها ملأى بالضعف والذكريات
والنغم في العصر الذي نحن فيه ولا شك
يدفع الموسيقيين الجدد للابتسام

لكني أذكر الزمن الذي تحدث عنه
يوم كان أبو عبدالله سجيناً عند المسيحيين

لا شيء يكون تماماً مثلما يبدو في الظاهر . يظل عبر القرون محمد بن أبي الحسن بن عبدالله الملقب بأبي عبدالله ، الملك ـ الولد ، أل ريوتشيكو ، لأن أمه عائشة الثغري هربته وهو في الثالثة

عشرة من الحمراء فأصبح سنة ١٤٧٦ ملكاً على وادي عشّ التي نعرفها بقادش باسم محمد الحادي عشر . من الذي اذن اخترع وردة الغار ؟ يبدو لنا أن أمير المسلمين لم يوفر نفسه فقد كان في الصفوف الأولى عام ١٤٨٣ لما دعته الحرب . أو كان بوسعه ، ولو أنه اقتيد أسيراً في معركة مكشوفة ، يرسف في أغلاله إلى بلاط ايزابيلا وفرديناند ، أكان بوسعه أن يدع أهله لحيلة ووحشية الملكين الكاثوليكيين ؟ استطاع أن يدرك مقومات المملكة الكاثوليكية ، هذا الدين المخيف الوجه الذي يزيد أبداً صور أوثانه . هل داخله الريب آنئذ بسلطة الملوك . . . وملكه أليس بحاجة كيما يدوم إلى نور الهلال أمام ظلمة الصليب ؟ والقرآن الذي يعلم باسمه ، فلا يفهمه ، أهو الحقيقة بعينه أم نقيض الأناجيل العدوة ؟ لأن الله لا يبيح معنى أمثاله المكنون ، وتظل آيات الكتاب الكريم مغلقة على أبي عبدالله ما دام علمها عند الله وحده .

لقد قبل ولا شك الفدية عن حريته ، ومنها ابنه الصغير ووعوداً لم يف بها ، لما عاد إلى حقيقته ، وهل هو يهودي أو مسيحي فيضع كلمته في مقام أعلى من شعبه ؟ هل بوسعه أن يعتمد على أعيان مملكته وهو يعلم أنهم يُشترون بالمال والأراضي والجواري الجميلات؟ رجع ولم يف بوعده للكفار . . . قاتل ، وفاوض ، جهد في أن يخدع جلادي الاسلام . . . ولماذا وجب علينا أن نأخذ بصورة الدعاوة القشتالية عنه ؟ انها تريده ضعيفاً وشاحباً ، طفلا أبديا مع انه بلغ مبلغ الرجال . ان حقيقة العدو هي الكاريكاتور ، وما عرف في المقبل سواها عن هذا الرجل . آه كم ترعبني هذه الطريقة التي تسفه ، عند أعدى أعدائي ، الوجه الانساني ! وتلك أيضاً احدى الحقائق التي تُقدّم للشعب ، وهو يعمه في ظلماته ، ان الملك في الطرف الآخر ملامحه بشعة وروحه فظّة ! أكره هذه البراهين الجسدية . ولو أني علي أن أحتملها . أولست من معسكر ؟ وكل من فيه يطلق النار على من في المعسكر الآخر . . . أعرف أني لا أستطيع شيئاً ضد البغض الذي يهين الانسان في الانسان ، وعواطفه ، عائلته ، وأمه إذا اقتضى الأمر . . .

أذكر قصة لا علاقة لها بما أنا في سبيله . كان ذلك ، كما بدا لي ، في آخر حرب . والحروب ، لو لاحظتم ، تنتهي مرات عديدة في العالم الحديث . . . كنت من جيش مهزوم في أرض أحزاني . وقطعناها من ضباب الشمال إلى شمس آخر الجنوب الحزينة . كان لا أمل أبداً . فلقد سقطت غرناطتنا نحن . كنا جنداً ضالين ، في مدينة صغيرة كراحة يد مفتوحة نحاول تنظيم القافلة . عينّا شاباً من رجالي في مكان تلتقي فيه مختلف المصفحات والعربات . تلك المدينة بنيت قبل أبي عبدالله . وتذكرت شاعراً من أولئك الذين في القرن الثاني عشر ، واسمحوا لي هنا ألاّ آخذ بالتقويم الهجري ، زاوجوا بين ما تعلموا من دروس الغناء العربي وبين الحنين الذي من عندنا . . . ولأختصر كان خفيرنا ، وهو مزروع على ملتقى الطرق ، يحرك ذراعيه كطاحون لا حيلة لها في أن تفعل شيئاً آخر وكان انقياد الفارين والكتائب المهزومة لما ابتدع من اشارات غريباً ومضحكاً . كان إذعاناً يمزقني . . .

عندها اقتربت من ذي الاشارات امرأتان عجوزان لا يعلم إلا الله كيف وصلتا على قدميهما وكلمتاه . أما هو فلم يهتم بهما أبدا . كما لو أنهما عيبتان . . . حتى ولو كان هذا ممكناً ذلك اليوم . كلمتاه ، عمّ كانتا تسألان ؟ عن طريقهما حتماً ومعلومات عن الحكومة ، وأين كانت الحكومة عند رجلي تلك الساعة . كان يحرك ذراعيه ويدور بذقنه كسهم ، في غضب ، وما ذلك إلا كي يقنع

نفسه قليلا بأهميته ، وبأنه شيء ما في العالم . . .

أسرّتا إليه ، حسب ظني ، أنهما أم وأخت رئيس الوزراء ، لا عن غرور وإنما كي يهتم بهما الفتى ولو انه ما من أمر تنتفخ له الأوداج في تلك الدقيقة ، وكان واضحاً أن المرأتين المسكينتين لم تعلما بما جرى والا بدّلهما من زمن تتعودان فيه على سقوط الأمجاد . . . كانتا تجهلان على ما أظن أن ابنهما وأخوهما أوقفته السلطة الجديدة أو هي على وشك أن توقفه مرضاة لنوع من الفرديناند ولو أنه غير كاثوليكي جدا ، هذا الابن والأخ الذي منح العائلة كثيراً من الرضى . . . ولم أروي لكم ذلك ؟ آه نعم ، من أجل الصفقة اللانهائية . أكان لدينا أي ظل للعطف على هذا الوزير الأول الذي سقط ، والذي جسد جنون حرب باعونا فيها حتى التفاصيل ؟ تأملوا ، أتكلم حتى الآن عن هاتين السيدتين فلا أبوح باسمهما ولو أنه بين أسناني . . . ولربما لامني اللائم إذا أحسست تجاههما بغير الكياسة الساخرة . أو لا تتخيلون أني في الحقيقة لم أكن على يقين أني أكن لهما مثل هذا الشعور الضيق . أنا قمين بألا أنظر إليهما إلا بعيني الشقاء . أوه أعرف أنه كان شقاء بلادي . . . بلادي ، مثلما هو ، لدى هاتين المرأتين المتعبتين ، فما تفقهان شيئاً عن الأحداث ، وقد وضعت احداهما على الأرض كيساً صغيراً ، ثقيلاً ، ماذا فيه ؟ ربما حلي أو ذكريات حياة ، أو صورة رجلهما العظيم في ساعة انهيار الوطن هذه ، أين من قلبي الغضب المقدس أو هل أعترف . . لم يكن فيّ إلا الاحترام . أنتم لا تدركون علائق الأشياء وهل تريدون من أجل هذا أن أكون أضرى على أبي عبدالله منّي على بول رينو؟

*

ومرّت السنون . مات أبو محمد ، فطرد هذا من غرناطة عمّه ، زغلاً القاسي وقد تجرأ فادعى أنه محمد الثاني عشر ، وقاتل الغرباء من قشتاليين وكاثوليك ومشركين ومعهم زغل وقد صار حليفاً لهم . . .

لأن تسموه أبا عبدالله الصغير لا يبدل في الأمر شيئاً . هذا الأمير هو آخر ملوك غرناطة ، يعجم في فمه منذ أمد بعيد هذه الكلمة المرة ، ويمسك نومه طويلا ، اجهاشاً فظيعاً . وما كانت الألقاب لتبدل الأشياء ولئن دعوتم غرناطة العرب باسم جرانادا الهجين ، أو أطلقتم على النهر الذي يجري تحت قدمها فيصب في جوادا الكفير ، الوادي الكبير ، صورته القشتالية خينيل أو الفرنسية كزينيل عوضاً عن كتابته الاسلامية السنجيل أو الشّنّيل أو الشْنيل . . . إنّ محمداً الحادي عشر الناصري سليل الأنصار ، صحابة الرسول ، يقبض الآن بيديه على ميراث الأندلس ويهيمن على الشعب الذي نما من كل القبائل التيْ كان بعضها لبعض عدوا ، وقد جاءت من افريقيا فانتزعت هذه الجنة ، حتى لترى اليوم في الجند الملكي وهم نخبة فرسان غرناطة ، جنباً إلى جنب بربر الصنهاجة وزناتة ، وقد كانوا أنداداً لما كانوا رحّلاً ، فإذا بهم اليوم يدافعون معاً عن آخر معاقل الاسلام .

إلى محمد بن أبي الحسن بن عبدالله
أمير المسلميــــن

تقدّم أيهّا الملك المقهور قدّام التاريخ والأسطورة
أنت يا من اقتصرت عظمتك على الفاجعة وللقبر
ولِيَنسَدِل سجف الزمن الأحمر العظيم على دموعك
إليك بالوجه الذي زيّفوه لك هل تراه جميلا
أهذي وجنتك أهذا جبينك في لفح سوط الاهانة
وعيناك وقد أصبحتا أبداً مقفرتين كالسموات
أتحب شحوب النجوم هذا وملامح الطفولة تلك
هل تتعرف على شفتك وكيف يرتجف فيها الوداع
وذراعاك الملكيان السمراوان كذراعي ممثل وقد سقط عليهما كماك
وفجأة يبدو قدر الانسان الهزيل إذا تمسك به
مزّق أمامنا قلبك وثوبك الأبيض
وليَبْدُ دم شعبك المراق كأنه دمك
فما أنت غير عطر حزين فاسد يتبخر
والرياح سوف تذهب بآثار ما كنت أنت
وما اسمك غير زهرة ـ مضغة يمضغها ويعض عليها جندي
اسمك صار آخر أمّك لا تفهمه
اسمك حتى اسم الطفولة أخذوه منك كأنه من أراضيك
اسم لذّاتك الاسم الذي كان لمن أحبك من نساء
اسم مجدك المنطفىء في ذاكرة البشر
هذا الاسم الذي خلعك منه المستقبل للأبد
كاقتراب مجداف من شاطىء جزيرة
ككرة طفل تفر على درج
كقافية تشوبها مرارة لست أدركها يا أبا عبدالله
وتر تحطم في قيثارة الليل .

جاسوس من قشتالة يعبر جبل شلير الساج
ويصل إلى فوق غرناطة

يا باردة ولاهبة يا خاطئة في جسد من مرجان
يا مدينة اليهود ذات الألف والثلاثين برجاً على أسوارك الحمراء
اكتشفك وبساتين لوزك في ظل الهلال وأنا
ركبتاي داميتان ثقبتني الإبر أصمّني الثلج وروحي نازفة
أجيئك يا ابنة ماحوم بمسامير تحت ردائي
وشجرة الله الحقيقي كرسالة محب غيران
هي ذي أنت تحت قدمي يا أرضاً مستحيلة تُمرعُ برتقالا
وأني لأخشى الآن أني أفرط في فهمي الشياطين
وأني أغراني جاذب الجحيم بأن أعود إلى الأندلس
اني غزاني فجأة عطر الردّة
غرناطة يا جسداً من بنفسج وياسمين تأتيني ريحها
كما من حمامات عامة برائحة بشرية دون اسم
تلك هي شهوة الفؤاد إليك حتى لأقول لنفسي
لا بد من حريق كي تتعرف إلى شميم الخشب
لن أمتلكك لذاتي إلا بهذه الوسيلة
أنا رسول ملك بعث بي لأقول لك أنه يهواك
وأنه حرباً أم سلماً سوف يأخذك بين ذراعيه
ويشدّ عليك بين فخذيه الذهبيين حتى تدمى السماء
لن أروي لك حكايتي الطويلة الأسْيا
ولماذا أشم الهواء إذا جزت المسالخ
ألعوبة من أنا   كيف بتّ لا أملك نفسي
لأني خلّفت حياتي ورائي   الطاعة وحدها من حقي

لم يبق لي شيء من الأيام التي كانت شبابي
لقد انقلبت القصعة التي ما شرب أحد فيها حليب الأتان
أنا ثمرة سقطت عن شجرة   أنا خَدين السقوط
ملوث دامٍ مرذولٌ مصفرٌ وسخٌ جَفَفتُ من ريح الأهواء الأسود
لعبت بسمائي ودمي أحرقت أيامي وظلي
دفعت الأبد ثمناً لفصل من لذاتي المظلمة
جرجرت صورة الله في الطين والخزي
وفي كابوسي أنا الذي أُعاقِبُ نفسي
وأقرأ في مرآتي رواية جرائمي
صرت جلاد نفسي بت ضحيتي
سجين ما أفعل سجين ما كنت
كل خطوة تدفعني إلى ما هو أسوأ وما لاحقّ لي في رفضه
النميمة واجبي والفساد منهجي
أصبغ من أريد مضيعته بسواد تجديفي
بخنا لياليّ الخبيء والدم الذي أراقته يدي
أنا جندي في هذه الحرب البشعة التي لا طريق فيها سوى الشر
جئت إلى هنا كي أرى ضعف الأسوار وأمكنة السلالم
وثغرة في نفوس البشر والساعة التي ينام فيها الحرس
يجب أن أسبر اليأس وأضرب حيث يرن الفراغ في الانسان
من يرتجف لفقدان الثروة ومن كان بائساً
وأن أحْفِزَ الطموح في مرعى من هم بين الناس وسط
أن أزرع الشك في كوى الأبراجِ وأرشو ديدبان السرداب
أن أبلّل النجم وأقطع رقبة الصيّاح
ولن تتحرك غير الخيول حركة غامضة في اسطبلاتها

لكن دوار جمالك يأخذني وأنا أفتح نطاق أشجارك
أخون سيدي والصّليب في باحاتك التي من ظل ومرمر
أفقد اله عمادي في ماء بساتينك البارد
فلا يبقى منه على موسيقى قلبي غير كلمات أجنبية
أنا كالأمير سانشول على منحدرات الشلير
وقد حلق رأسه وبدل اسمه الاسباني باسم شنجول
وما يعلم أحد على أية ثمرة قاتلة قد عضّ

ولا إذا كان حقاٍ باع نفسه بعدة من دوانق
أما أنا فَيُفْسِدُ هواء أنفي بعض من استرخاء
ظلي بات لا يتبع خطوي قلبي بارح صدري
سيدي وإلهي أعف عني إذا فضلت عليك هذه الخمرة الرقيقة
الكفر على لساني أتخلى عنك وأنا على ركبتي
أرتجف كالزاني بأمه بين ذراعيها .
لأن فَعْلته لا تنتهي إلا في أرض مرة
ومتعته هي عاره وشقاؤه
أيّان ذهب يلاحقه العقاب
وأنا أسوأ ممن يلوث أرومته
أنا الذي أخون خيانتي وأكذب على فمي
روحي في نزاع مع يدي في مهزلة دنيئة
يمتزج فيها الموت بالقبلة والخطيئة بالجنة
اني لأرى منذ الآن عنق المدينة يتدحرج بين أذرعة أخرى
ويصّح على جسدها ما صح على قرطبة واشبيلية
وكلمات القرآن تشطبها كلمات لاتينية
وكل من شوارعها سكران دام غدا كقحبة
يضاجعها جنود سعداء يجأرون بشتائم غريبة
لياليهم كلها بعد الساعة فيها عطر البرتقال
يحملون معهم كرنفالا من آلهة عملاقة
والكفن والقفطان والنار للكفرة
ويقيمون أكواخهم على عتبة قصر الموحدين
ينشرون غسيلهم كي يجفّ على وجه غرناطة

*

أما غرناطة فكانت مدينة تنكرت للوصايا ، وأسلمت عنانها للأغاني في اطار انطاكي النقش تحفر فيه دون وازع صورة الانسان في الخشب
أما غرناطة فكانت مشرعة للأفكار الملحدة
كانت غرناطة وفي فمها مذاق التجربة
يقبل أهلها على دراسة الشعر أكثر من القرآن
فلا تسمع من نافذة المدرسة أحاديث النبي وانما
رواية ابن زيدون والغزالي
سمعت أصوات أطفالها تردّد خرافة السماوات التي كتبها في السجن ذلك الذي طلبها منه

أمير اصفهان لما مررت في الزقاق الذي ترسم على أرضه الشمس خطاً ضيقاً من معدن استخرج من الأنهار

معدن يدعونه هنا التبر وأجهل لماذا تلمع عندي هذه الكلمة لمعاناً لا يضاهيه كل ذهب العالم .

تخيل السماوات
حسب ابن سينا

صوت المعلم	أصوات الأطفال
السماء الأولى	وصف ابن سينا السماء الأولى بأنها سماء القمر حيث المدائن التسع أهلها صغار حيويّون كأسماك يغدون طيوراً إذا غادروا مطارحنا لكنهم لا يتحدثون في أغانيهم عنها لا يتحدثون عنها في أغانيهم
السماء الثانية	السماء الثانية هي سماء عطارد بشرها أصغر وأبطأ محبّون للفنون وأذكى فيها عشر قرى لكنما يظل عميا علينا لماذا يدعي عطارد فضة لامعة يدعى فضة لامعة
السماء الثالثة	السماء الثالثة على صورة مملكة اسمها الزهرة فيها المرأة ملك والرعية موكولة بالفرح العود يصدح فيها والطيبة تضمخها أما المدن فأعدّ منها ثلاثا في ثلاث ثلاثاً في ثلاث

سماء الشمس

سماء الشمس هي السماء الرابعة
بشر الشمس كبار القامة جميلون
القرب منهم هو بحث عن الموت
المريخ والمشتري هما الخامسة والسادسة
زحل السابعة ونعرف ما تسوى
ما تسوى

الثامنة هي

الثامنة هي سهل قفر
البروج فيه اثنا عشر قطرا
هنا لا شيء يجري كما كنا نظن ونحن في غيره
فالكوكب يتحرك ولو بدا من بعيد ثابتاً
يظل وحيداً مع أنه كوكبة
مع أنه كوكبة

أخيراً السماء

وأخيراً السماء التاسعة التي من دون كواكب
سمها كيف شئت شمساً أم نجماً
فليس في هذا الحقل من قمح غير الملائكة
بذرها الله ثم أرسل إلينا البذور
ارادة إلهية من أجل قلوبنا المسحوقة
قلوبنا المسحوقة

هاتان الأخيرتان

هاتان الأخيرتان هما سماء المادة
تكونان في الغرب بحر الطين
أما الشرق فهو الطرف الآخر
مكان فراغ كأرض كاملة
هواؤه تلك النار التي ماؤها يغلي
ماؤها يغلي

في ما وراء ذاك

في ما وراء ذاك تُكتشف شطآن
من يعيش بلا كلمة ولا ضجة
أسماك حيايا كل زهرة وكل ثمرة
الذهب والفضة الغيمة والماء الحي
في مناخ يزوره المطر
يزوره المطر

هنا ترى

هنا ترى الصور والأنواع ....

ولا يصغي إلى أكثر من ذلك ، الرائد الفاحص هذا الشعب الذي ليس كما وصفه الرهبان على منابرهم وهو يحس روحاً لا يدركها تخفق كفراشة يخشاها فلا يعلم إذا كان يقدر أو يجب عليه أن يعمل على ضياعها .

وصلّب وهو يمر حد تلك الزقزقة الغريبة عن تراتيل جماعة المصلين الأتقياء في بلده .

وهو يجهل من يتفادى شيطان الاسلام الذي حلّ في هؤلاء الأطفال أم الجحيم الذي يحمل في نفسه ويحيل أذنه صمّاء وأنفاسه من نار وقدمه قدم ابليس .

الفنــدق

النساء هنا لا يتحجبن إلا لماماً ولا يمُنع دم العنقود الحلو على من يمضي عاري الرأس غير معمم وطيلسانه الخفيف على كتفه . وإذا آذن عهد صبغ الشعر فمن النظافة أن يكون بالحناء إلا إذا كلله البياض فأمسى كالغسيل .

وعلى هذا كانت رؤوس الناس في هذه الأرض حمراء ما بين عمري الحب والحكمة . هذا الشعب باقة لا تميز فيها تنوع الأزهار ينمو فيها الآس حدّ وردة شارون . إن أحداً في غرناطة لم يحلم بأن يكون نزاع بين اسماعيل واسرائيل . الغرور وحده ، لا الغضب ، كان يمُلي على اليهودي اعتمام الطاقية الصفراء . كأن العنف حين قطع البحر من افريقيا سقط كهواء لا تعنوله صحراء أو ريف . شيء غريب عند هذا الرجل القادم في الصيف من اسبانيا وقد خبأ صليبه تحت حزامه ، شيء مثير له لأنه ما زايل عينه بعد دخان المحارق التي عمت منذ سنين عشر كل مملكة المصلوب . تحتدم نارها في الأعياد الشعبية . هنا لا يحرق اليهوديّ أمام العامة . مع ذلك عندما تكلم هذا الآتي مع الجنود في الحانات لمح في أصواتهم الافريقية الأفكار القديمة والكلمات التي تشبه سكاكين ذبح . ومن يدري فقد تكون بين العيون التي ترنو إلى روما ، والتي تقتبل مكة لغة مشتركة على أهبة اليقظة تحدوها روح المذبحة . . .

قعد الزائر مساء في نوع من الكارافانسيراي ، أو ما يدعون هنا فندقاً بين تجار آتين من الشرق ، وجبليين نزلوا من البشارات ، وبحارة يبحثون عن ذكريات قديمة ، في باحة حولها أعمدة تقوم عليها طابقاً شرفات ظلّ ، تعج فيها خيول ، وأبقار ، وبغال ، وصخب أسلحة وأغاني . كانت هذه الدارة في فوضاها تخلو من الصرامة القشتالية ، تدخلها نساء خططن عيونهن بالكحل ، تصطخب عليهن الحلي اصطخاب الفضيحة . مثل الأفكار التي تدور حول خروف يقدم لأناس غيرّهم العمر والأنواء . فتستمع إليها وقد اختلطت فيها الآلهة القديمة بالقرآن ، بفلسفات صقلية ومصر . وأصغى الرجل . فاضطربت روحه التي ربيت على الصمت . ووجد نفسه مقسماً بين حب الاطلاع الحاد وخوف السماء . أولم يلحظ في قرطبة الخلفاء ، كورد وبعد أن انتزعت من الاسلام ، وقدمت إلى العذراء ، آثار موسى بن ميمون وما زالت حيّة منذ عهد الموحدين ؟ لقد تقنع بالاسلام هذا الفتى اليهودي كي يَسْلَم ، ومعه الفلسفة الوثنية ارسطاطاليس وأفلاطون ، الذي يلفظ اليونانيون اسمه بلاتون . أما هنا وبعد قرنين ونصف ، فما كان يكون بحاجة لأن يقصّ شعره الأجعد ، ولا أن يدّعي كذباً ديناً غريباً ، هنا في الحديث بين أرقام التجارة وقصص تجار العبيد الخليعة ، تلمس بلا عجب ، أفكاراً فيها رائحة الميمونية ، تنكر الجنّة والنار .

أليس مستهجناً أن يدخل إلى موقع مهدد ، كل هؤلاء الغرباء ، القادمين من افريقيا وآسيا ، تجار من بحر صور ، بلْه الفرنك أو الفرنج ، وكيف لا يمنح هذا الطمأنينة لرجل قشتالة ، وبعد فهو ليس وحيداً هنا ، لأنك تتعرف من دون حرج على مسلمين اسبان ونصارى لا يعلم أحد أية تجارة جاءت بهم ، لا يتنكرون بعد أن اختاروا الأمان فكانوا مستأمنين ، أي تحميهم معاهدة ذمّة . والحرب لا تعني لدى الغرناطيين حدوداً مغلقة . الشعوب تختلط في الأندلس . . . أما الجاسوس فلا يرى هذا الرأي ، فهو ينظر للأمر ، في رعشة خفية ، على أنه من أمائر الخلل ودليلاً أكيداً على انهيار قريب . ويتتبع هذه الفجوة فيجد فيها طفيلياً ، حياً ، يعيش على هواه ، يثيره ، هو اليهودي حين وجده يعايش علناً الأندلسيين . وعندما عبّر ، رغماً أو تقريباً رغماً عنه ، عن ملاحظته لجاره ، وهو بستاني من المرج ،«لابريري» البستان العظيم الذي يقطع المملكة ويسميه القشتاليون فيجا ، وقد جاء المدينة يحمل نتاج أرضه ، أجابه هذا وهو الذي يبدو عليه أنه لا يعنيه إلا ما يجد له من مشاغل بين فلاحته أرضه الثانية والثالثة ، على دعواه أن المسافة بين المؤمنين بالمسيح والمؤمنين بمحمد أقل مما هي عليه بين أيّ منهما وبين الشعب الذي قتل ابن النجار ، وقد توقف عن مضغ ورقة أرض شوكة ، والتفت ناحية الرومي هذا الفلاح الضعيف الأسمر ككرمة بعد القطاف وتهدّج صوته على مثل ما يفعل المتحدث إلى أجنبيّ كي يفهم قوله :

رجل المرج يرتجل قصيدة جواباً على الأجنبيّ

أكان إيماني بالله الذي يعبد سيّدي أو المسيح
وما أنا عنه بسادر
أو كان إيماني بقصعتي امتلأت أم فرغت . . . أتفهمني
فما من أجل البساتين العامرة بالنحل
ولا من أجل المناجم أو الفضة التي نغسلها بماء النهر
نجدنا على استعداد للموت وإنما في سبيل الأندلس
من أجل بوتقة الانسان والرقة
هذا الكتف من لحم ودم الذي اتكىء عليه آخر النهار
من أجل رائحة الياسمين في هدأة المساء
واليهودي الذي رَبِيَ في غرناطة
أقرب إليّ ولا شك
من البربريّ الذي يأتي عبر البحر وذقنه مخيفة
ولو أنه يشبهني ، ومن القشتالي الذي في دمه من العرب أكثر مما يظن
اللقيط الذي نما على فقر الجدار كشوكة الصيفي
ونحن هنا نعيش على كل حال في علاقة حسنة مع الكلاب من أمرائنا
وأنا أعيّد المهرجان اليوم الذي يدعوه المستعربون عيد القدّيس حنّا

لا أريد أن يسودني فيملك أمري بربري
ولا أن أريق خمري مرضاة للدين ولا
أن يأتيني أسقف قرطبة مع ملك اسبانيا المزعوم
فيحرق من لا يدين بدينه
أمّا الأول فأقول له مكّة في الجهة الأخرى
وليذهب إلى الصحراء فيقتات منها كحجل
وإلى هذا الملك وقد أكل خيله القراد
لينظر إلى هزال شعبه قبل أن يغزو كرمتي
ونحن لسنا بالذين يرتضون بصلة على رغيف أسمر
نحن الذين اخترعنا القافية والموسيقى للآخرين ولنا
لأننا نشارك في كل شيء من مسرة أو منفعة
ذلك الذي يأتينا مسالماً فيجلس على أرضنا الحارة الخصبة
وليتعلم منا كيف نطعم الشجرة ونزرع الزهرة
وكيف أتينا من بعيد بالماء بالحيلة والناعورة
وإذا فتحت له ابنتي ثوبها
فلينعما معاً هكذا
يفقد الأجنبي حتى ذاكرة كل شيء إلا الأندلس
هكذا ينسرب فيه نور الأندلس كانسياب الجبال
كمجد الانسان والسكْر
ربيع من دهشة بين الثلج والماء

ونهض الفلاح فجأة، يحرك كميّه وعصاه لأن احتجاجاً صدر عن دوابه المربوطة إلى عمود الوسط، وقد ترك محدّثه إلى أكثر من غضب. عندها التفت جاسوس قشتالة إلى جهة يهود اجتمعوا فاقترب من جماعة من الحاخامين بدا عليهم أنهم يستقبلون رجلا ارتدى الجلد والفولاذ الأسود قد يكون فاراً من الجيوش الكاثوليكية: وما فعل لأن طريدة النار هؤلاء لها جاذب فريد عنده وهم الذين يدعون اسبانيا باسم سفاراد[1] ويزعمون أن اسم سيفيليا، اشبيلية المسلمين، أو ما يلقبها الشعراء بحمص، هو مقلوب شيبوليث العبري ومعناه سنبلة... السبب هو ذاك السائح الذي يستقبلون في الفندق والذي يظن أنه تعرف إلى ملامحه القاسية المكارة، ولفح الشمس على يديه وعنقه، والعنف في نظرته... ما تفعل هنا، أيهذا البحّار بلا سفينة، وفي مثل هذه الصحبة؟ رأيتك مرات عديدة في مرافىء ايطاليا، في لشبونة، وسلمنكة... ألست الذي كنت تجرّ قدمك بين خيل ورماح صاحبي السموّ الملكيين عندما أتيا قرطبة عام ١٤٨٦ لميلاد سيدنا... منذ قرابة سنوات عشر واليهود يحرقون بأمر ملكيّ. أحقاً أنك من هذا الشعب الذي يأتي بالفتيات من الأديرة كي يزني بهن، ويسمّم الآبار؟ هكذا قيل لنا في القدّاس، وأجهل أية حماية تظللك وأيّة دراية جنبتك عشرين مرة أو تزيد عقاب الكفرة. ما جئت تفعل هنا تحدّق إلى خارطة للبحار على

(١) سفاراد: الاسم العبري لشبه الجزيرة الاسبانية البرتغالية. ومنه السفرديم وهم يهود شبه الجزيرة المذكورة.

ركبتيك رسمت عليها ملائكة بهية ودليل الكواكب ؟ إخش هذه المرة يا كولومب ، إذا عدت إلى معسكر المسيح ، الوشاية المميتة ، ولننته من حكاياتك عن كروية الأرض ، وما تردد من هرطقة توسكانيليّ !! لقد جاوزت الحدّ ولا شك ، وبعد أن فاتك المال الكاثوليكي ، جئت تطلب من أثرياء غرناطة عوناً مراكب إلى الهند ، ذهباً ملعوناً كي تفتح رداء المحيط كزانية في وجهتك لبلاد الكفرة . آه ان ملكتنا ، هذه التاعسة ، تحلم بعونك وقد رددناها عنه مائة مرة ، لكنني حين عودتي ، سوف تعدّ لك المحرقة ! يبدو لي أني أختنق من احترامات هذه الطيالس السوداء ، والرطانة الحاخامية وقد اختلطت فيها العربية بالعبرية ومن شاماي وهو يهنىء عزرا ، ويبادله كلمات الفطير ، مرحبا بذقنك ، بيضاء أم زرقاء ، أفواه الكفر ، ثرثارو التوراة ، يوتوتون بالجمار أو المشنا ، مرحبا ربّي مناحيم ، مرحبا ربي ناحوم ، ربي ، ربي ، ربي داود ، بلقام ، هيلينيل ، ابن باروخ ، ابن زاخار ، أبي جابوون ، أبي ميلش ، باركيبا ، عثانين ، تفتافون ، علاكون ، نعاج ثاغية ، طريدة محرقة ، أيّ هدف مظلم ، أيّة ثرثرة ، أيّ نقيق ، أيّة جعجعة ، أيّ سخف ، أيّة فوضى ، أيّ أغبياء ، أيّ غش ، أيّة فظاعة ، أيّة قبالة[1] خفيّة تدبّرون مع دساس المراكب هذا ، مستثمر السبت هذا ، هذا الشيطان المعمد ، نمس البحر ، المغامر ، ذو الوجهين ، الغشاش ؟

عندما أرى إلى هذا الرجل وملامحه الضخمة ، وعينيه البارزتين ، وذقنه الهاربة ، وجلده المسفوح ، ومن يدري من أين جاء وأيّان يذهب ، أذكر ذات مساء في ماديرا منذ سنوات عشر . . . أنا نفسي ما كنت أفعل في ماديرا . . . يقول أنه يتخلّ عن الجنة في سبيل ذهب « أفير » ، وأنه يبحث على الأرض فيما وراء المياه عن النجوم . . . أذكر أني راقبته في لشبونة كان يرسم خرائط تظهر عليها قارات مجهولة ، أذكر أنه رُوي عنه أنه كان يبحث عن الجنة يعتقد أنه واجد « الكاتي » في اليونان كما في لقاء ماركوبولو . . . ويبرر ألف هرطقة باسم هداية المتوحشين . . . لكن من كان يعلم أنه من قتلة المسيح ؟

وحلّ المساء كبرتقالة . ومرّ في النهج بعض فتيان مرحين في ثياب بلا حشمة . يا غرناطة ، يا مدينة الاغراء ، الشرّ فيك عيناه جميلتان حتى لنظنه الخير . . . لكن ما كان يغني هؤلاء الفاسقون ؟

أغنيــة العيّــاريــن

فتيان بلون الغرور
حملة طيور وخناجر
أقدامهم سريعة كالعين

يا للحصى التي ترمون

---

(١) cabale تفسير اليهود للتوراة باطنياً كما كان يفعل القدامى قبلهم .

ناراً تلاحق النساء مساء
أنتم أعاصير سعادة الآخرين
يا سارقي الدجاج والثمار
يا لضحككم في العوسج
لاذهب لكم الا ما تأخذون ولا حقّ الا بأن تكونوا
فتوات الحارات المنطفئة
نشم فيكم دم القريب

أنتم مهارى الجحيم أيها المسعورون

ما أهمية الجدران والبشر
ما هي غير كؤوس مقلوبة
واللذة في الحفر

كل شيء أو لا شيء يا ذئاب الأرض

يا من تفضحون القوانين والنساء
سكارى بأن عمركم أقل من عشرين
أنتم يا من تُشنقون قبل الأوان

أوغاد أنتم أيها العزّاب

جدّفوا ما دامت أسنانكم بيضاء
ارموا بروحكم على أقدامكم العارية
قاتلوا قبل أن يقتلوكم

كطريدة في زاوية نهج

اختنقوا الأشباح بين ذراعيكم
اصرخوا مات الله وأن الحب بهتان
كسرّوا الأيام كقشّ

يا أطفالا ولدوا من أجل نهاية العالم

يا فتياناً في ستر سوداء يا من قبل أن تبلغوا مبلغ الرجال قبل أن تعانوا قوة روحكم أُسلمتم

إلى عنف الوجود في الأرض السكرى بالقرنفل والفرفحين التي يزدهر فيها أكثر من القرنفل والفرفحين فاسق مسلم على ما نصّ الاسلام أكان هذا في غرناطة أم اشبيلية كما هو الأمر عن دون جوان المتنكر في القرن الثالث عشر للمسيح نفس الشمس تجعل الفم مشغوفاً بالقبل واللذة بلا غد والأخلاق حيلة ونصر زنديق .

لأن الفتوة عند المسلمين أو المسيحيين هي من مملكة الخديعة الساطعة وكلما ابيضت الأسنان كان صغير الذئب أقسى .

*

أي عطر فاح فجأة أية ريح في الرمل أخرجت هؤلاء الفتيان من نفوسهم عند المغيب كان بينهم كسالى تكونت فيهم خلال مدّة طويلة صورة لا تعلم ما هي وموسيقيون يوقعون لحناً خفيضاً لا ينتهي

بدأوا من ساحة أو باحة وربما من نافورة ماؤها ساخر
كان في الخارجين فيض من قوة فكان زحام لعوب لأن ضيق النهج
ما مكّنهم من أن يكون اللهو على قدّ عرض الأكتاف
هذا وبعد فالانسان يتعبه أن يحمل شبابه إلى دار الخراج حيث تتزيّن النساء
من الذي اذن فتح فجأة مصاريع الأسطبل للمهارى
أنظر إليهم يتزاحمون يتراكضون يضحكون يتزيّنون لغزوهم بما يقع تحت أيديهم

العازفون على البندور[1] يسيرون في المقدّمة كأنهم في عرس جيل وما أشبه ذاك ببداية حرب مجنونة أو رَفٍّ طار أو ضربة جنون أو ضربة سيف

منحوا أنفسهم كل ما في ظاهر المدينة من برية ونهدوا كضائعين كي يمتلكوها

كان أفضل أن يرسلوا إلى المدرسة حيث يتعلمون تجويد الدين معاً
أنظروا الآن لمعان نظراتهم وأسنانهم البيضاء وسكاكينهم
لماذا نبدو إذا شغلتنا ممارسة الحب وكأننا نعدّ لمذبحة

والأغنية التي يتخاطفون يبدؤها الأوّل فتمر للآخر ويتناوب فيها الفحش الداعر وطهارة النجوم

المسؤولون طبعاً عن هذا هم الملعونون على ما يسمي الناس هنا الموسيقيين بأجر

انهم لا يساوون حبل المشنقة كي يعلّقوا في الحقول فهم على استعداد لتأجير أنفسهم للمتهتّكين ولأن تضيع رؤوس الناس في الرقص والأغاني

وتلك أفضل حيلة عند نشّالي الثمار والحلي والنساء
هل يفكرون لحظة بأننا قيد اصبعين من ضياع الاسلام

(١) Pandore : آلة موسيقية تشبه القيثارة .

وأن زمن الحصاد الذي تموت فيه شمس المساء يرتسم فيه دم أهلهم

هل يفكرون لحظة بأن ما يتنبأ به عمق المنظر هو خفق أعلام وتلك الصلبان فوق المحارق البعيدة

حلّ الصيف على البرية وغادر الناس القرى إلى عطر الهشيم لكن الأوغاد جاؤ وها قبلهم متعلّلين أنهم مدعوّون لعيد أو حفلة

كان الفلاحون طوال النهار يتوقفون عن العمل ويتجهون في ساعات الصلاة ناحية المؤذنين الذين لا تكتفي أصواتهم بترديد العظات الالهية بل تذكّر أيضاً بفتح السّكر فتنهمل الماء في قعر القنوات وتسقي الأرض

وهكذا تمضي على نفس الخطا طراوة الأرض والروح معاً

حتى إذا رجعوا وجدوا قرب المزارع ما يدهش له الحمار والثور في هذا الأعصار وآلاته وضحكه

ما تفرّ منه الطاووسة في خوف له ما يبرره

صعب أن يعرفوا كيف يلقون هؤلاء الغرناطيين وبينهم ولا شك أنـذال ما تركوا المدينـة جزافاً وغجر تلمع أفواههم وعيونهم

وقد تبعهم بعض من صغار الباعة والشحاذين والقوادين وكلاب وراء عربة لحّام

تأمل بعظمة أو أحشاء
أو مشهد حرام أو خلاعة أو وليمة أو عراك أو جريمة دامية

وبين هذا وذاك كلمة تعني معركة ومن يدري ما ينجم بعد النهب وما هو أسوأ . وفي أحيان كثيرة تجد حدّ الشنيل بعد أن مرّوا من هناك رجلا أوسعوه ضرباً فقضى على الأثر

ومهما كانت الحال يجب ألا تدعهم يقتربون من النساء لأنهم
حينها لا يعلمون ما يفعلون
كافرون بكل شيء لم يحفظوا من الدين إلا احتقار أمهاتهم ولذّة المحارب
أو لم ترهم يرمون بحجر مطرب الشوارع العجوز

المجنون الملقب قيس بن عامر النجدي الذي عنده لفظة حب تعني غير ما تعنيه لديهم

هم يبشّرون بأن ندوس الزهرة بعد شم فلا تذبل أبداً
ولأن لهم ضحكة الفجر لا يعدمون فتيات
يرتمين عليهم كما على خنجر
وإذا حصلت جريمة قتل كان أهل الابن العازب مسؤ ولين وأوقفت الأم مع الأب .

فتاة في ناحية ما على شاطىء الشنيل

جاؤوا بأزهار
وأغاني لصوص
ونسيج ملون
النهار يفر منهم والليل يخشاهم
شفاههم أشدّ صفرة من طمبورهم
ولها طعم السعتر

في قُبلهم دم التوت
وما أن تضبط الايقاع
قدمهم حتى تخلع الحذاء

يرقصون كما يتنهدون
بين ذراعي الحبيبة
حتى لترتجف الأرض

يخرج صوتهم فتظنه الروح
كأنه نصل من قراب
كأنه لهب من فؤاد

عيونهم من الأرض العربية
هؤلاء الفتيان كرغيف أسمر
سريعون في انتزاع ثيابهم

كما يخرج نهر من ضفتيه
تظنّهم من كلس حي
الماء وحده يجلوهم

يا لرهبة مساء ذي نجوم
أنتم يا من تبدون يا من تبدون
رياحيناً سوداء في حضن القمح

يا زوّاناً قاسياً عند من يسكر
أن نراكم فحسب يستسلم القلب
يموت القلب إذ يراكم تحيون

الــدرويش

وآلوا إلى شاطىء النهر ، كي يشربوا في حانة بحارة ولصوص ، زعموا أنها تدفع رشوة لجباة الضرائب كي تتغافل المدينة عما يجري بها ، لكنك كنت ترى فيها دائماً مندوباً لصاحب المدينة ، أي ما نسميه عميل بوليس المدينة ، يخمّر نبيذه أو يجري في الغرف وراء احدى المتبرجات من اللائي لا يدفعن ، كي يُدفع لهنّ . . . واستقرّ الملعونون خارجاً وعزفوا في ضجة من جحيم رقصة يمثّل فيها الفتيان اثنين اثنين الأبهّة والاباحة . مثلوا الصيد والحرب ، واحتلال المدن وفضح البنات . كانت الخمرة ثقيلة وحلوة أخذت مأخذها من الصغار واحداً بعد الآخر . عندها برز رجل أخذ في هزاله وشقائه يدور حول نفسه وذراعاه ممدودتان في سرعة تبدّى معها الراقصون وكأنهم ذباب طردته منشفة . بعض منهم ذهب سكره ، وبعض فقد في هذا الدوّار ما بقي له من عقل . كان الراقص ، في ثوبه الذي بلون التراب وهو ينفتح على سرّو صدره ، قدماه عاريتان تشققتا ، رأسه حليق ، عار أعجف كمروحة ، يدور في ريح كُميّه ، وتندّ عن تلك الطاحونة الحية تنهدات تكبر ، انسحاق بيدر ، أنين قمح يتعذب تحت حجر ، حنق الأسنان ، وغضب المفاصل . . . واندلعت فجأة منه كلمات ، ينسدل عليها نسيج الحركة ، ثم تخرق بركبة ، أو كتف ، حتى تتعرى عند الأذن ، فوضوية ، مختلطة ، دائرية ، ثم تأخذ ، بقوة الفرار من مركز النطق ، معنى من دوار كماء صافية معلقة في سطل مقلوب . . .

يا كلـ . يا كلـ . يا كلـ . . يا كلمة الله
شقاء شحوب لون ألم دموع دموع دموع
والمدينة التي شقاؤها أن يمقتها الله
تظلّ في شحوبها قاعدة على التلّة
أبراجها تفقد لون الدم المراق في الألم والغضب
ويجلس الغريب في روعة الحجارة الوقحة
ها ها ها ذراعاي ذراعاي المسكينتان وكعباي
سحقتم عظامي خنقتم عنقي وطعنتم وجنتيّ
رأسي خليّتموها للطيور على أسوار أهينت
صمت غرور النوافير والنهار صار من جبس
ولا باب يصطفق أبداً في الليالي
شعبي تفرق والصفصافة تبكي تبكي

ولما انصرم سيل الجُمل خل المستحيل والخذروف
زاد سرعة دورانه ضعفين بل ثلاثاً بل عشرا
وكبرق ظهرت في أطراف الكمين

من أين خرجت تلك السكاكين سريعة بين الأصابع
كأنها رعب أجنحة حمام خلسة سرقوه
أو كؤوس فارغة تمتلىء أمام عيوننا خمرا من وهم
وسريعاً ضرب الراقص نفسه
طعنت اليد اليسرى الذراع الأيمن
وامتلأ الجسد جراحاً آه كيف كانت الحراب تعمل فيه في الضلوع
فلا يبطىء الحركة دمه المهدور
دون أن يبدو على القافز أنه يعرف شيئاً أو يحسّ
حتى استعادت التّميمة وهي لا تشعر أبداً بالجراح
سيرتها في الدوران والطاووس
إذا ضرُب يغدو كعجلة

إلهي إلهي أنا مجلود مجروح مطعون ممزق مطرود
ركبت أسداً حملني في لبدته عبر مياه بحر لا حدود لها
في اليوم الثالث امتلأ الهواء رملا وصاحت الطيور بأنه الشاطىء
وارتميت عليك يا أرض افريقيا كما يرتمي فتى
على حبيبته الأولى فلا يدري كيف يطيل لذّته
عشر سنوات وأنا أقطعك بالرجاء والغزل
بذرت فيك أغاني وصياحي
انتزعت منك في عشر سنوات الدموع بقسوة نبوءتي
طلبت منك ابناءك كي أدفعهم للموت
كي أرميهم كحقل محصود على الأندلس
كي يذبحوا في الحقل كي يذبحوا في الجبال
طلبت منك عبثاً دمهم القرمزي
لأزيّن به غرناطة بألوان علم الاسلام
عشر سنوات تعثرت كجهشة من الاسكندرية إلى مراكش
عشر سنوات جأرت بالخوف مما سيجري الآن
عندها جئت بيأسي ورفضك إلى وطني
أبحرت مثل طارق إلى الصخرة التي غطّتها السعادين اليهود الذين عاقبهم الله
لكن ملك افريقية لم يعطني الثلاثة الآلاف من خيله
زعزعت بنداءاتي جبال البشارات
التي يجري فيها اليوم حكم الله القدير

أنتم يا من لا تسمعون صوت المذبحة
يا أهل المملكة « البيتيّة »[1] يا من أصمّكم الله
عن كل ما ليس لذّة بأصبعه وقد وضعها ثقيلة على آذانكم

سقط الصوت من جديد وانتثر وصنعت الكلمات حول الفقير مطراً من أزهار
فلا يفهم أحد من جديد شيئاً مما تضطرب به فتحة شفته
من جديد هيمنت الطبول على كل شيء
وما يرى ضحك الشذاذ غير شحاذ يجهد نفسه بالدوران على محور مكسور كي يرموا له ببعض الدراهم
واستأنت خادمات الحانة حتى يسقط أرضاً كي
يأتين بالخروف الحار
من جديد اشتعل جمر الرجل وسقطت شرارته على السامعين تبحث عن القشّ والحريق

لا لا يا سيّدي لا تأخذ فمي
لا تولج فيه نار لسانك يا لها قبلة راعبة
تجتاحني بما لا أريد أن أؤمن به أو أسمعه أو أرى لماذا
لماذا زرتني لماذا عاملتني كأنني زانية
أنظرني في الساحة العامة أبصق
شعلتك بين الأغبياء وهم يتراجعون
لا لا يا سيدي لا تكرهني على أن أتكلم لغتك
لا تجعلني تتردد فيّ لعنتك
الرحمة آه إني أحترق بالله في حلقي الرحمة
إني أحترق صرت بنفسجياً من هذا الاجتياح الالهي أنازع
لا أتعرف إلى صوتي أنا
مسكون بانتقامك أيها السيف وأسمع في دهشتي
وجهي يقول ما لم أشأ أن أقول
دماري يخرج مني
لا لا يا سيدي لا أقوله لا أقو
له لا أقول لا أقو أنا لا
هو
أقول آه لا تصغوا لهذا الآخر فيّ الذي يحل

(١) Betique : اسم احدى المقاطعتين الرومانيتين اللتين كانتا تشكلان مملكة غرناطة .

محلي أيها البائسون أبعدوا عني بائسكم
يد الله تخنقني لا أستطيع أيها البائسون
أن أقاوم أكثر احذروا

وتدحرج المضطرب على الأرض في صياح بهائم كأنه
رعيل حيوانات خائفة تضج خيشوماً وجناحاً
زريبة انقلب عاليها سافلها فرار ثيران تلسعها سياط ورفس
خيول جرّ بين عرش العربات
الهيستريا حين يدنو اللص
وها هوذا يغدو قراب الله نفسه
رداء الكلمة الوضيع وقيثارتها أخذ يرتجف
يرتجف لا قبل له على المقاومة ينثني يقف يخفق يتكلم
تكلّـــم

لقد أنذرناك يا مدينة القرمز والأرجوان
وما الطفل الذي اخترتِهِ ملكاً إلا حجر الوعيد
أثرنا الأب ضدّ ابنه والابن ضدّ أبيه
وإذ لم يكفك هذا النذير
أنفذنا إليك مرات الأمر بطرد الفاسد والملحد
لكن اليهود قبعوا على عتبتك يتباهون بأن قلوبهم مطهرة وهم الذين رفضوا القتال يوم بدر
كنت تستمعين معهم إلى الموسيقى وتقاسمينهم الثمار التي باركنا بها أرضك فيما
يمرع الطاعون والجفاف في أرض أعدائك
لكننا قلبنا نظام الأشياء لضياعك
فنفخنا في صدور الكافرين الموجدة والقسوة
ووضعنا الحديد بين أيديهم وجعلنا الرعد في عجلاتهم
فدخلوا البعيد والقريب من المواقع
رأوا ولو أنهم عمْـيٌ صُمٌ طريقنا وسمعوا صوتنا
لقد بعثنا بهم إليك فدعسوا بقدمٍ على غرورك وعشبك
وداسوا رياءك بالأمس حتى نفذوا إلى صلواتك
فليدخلوا بيت الحذّاء وبيت الملك

يحملون الرمح والبندقية السهم والقوس
ومن ذا يفرق بين أحشائك المبعثرة وأحشاء بنات اسرائيل
ايه لقد نسيت درس أيام الزيريين حين طردنا يوسف بن صموئيل بن نجريلة كخنزير

وباديس الذي كان آنها ملكاً على غرناطة دفع الثمن إذ استخدم ذلك الوزير وأبناء دينه

ففتحنا وجره لرهط الصنهاجة قذفناهم ضدّه وهم شعبه

وقضى تحت عينيه بيد البربر أربعة آلاف يهودي بينهم يوسف في التاسع من صفر لأربع مائة وثلاثين سنة خلت للهجرة

أعوام عددها كاف كي تعودوا إلى مزبلة اسرائيل
ألا تعلمون أن الذهب اليهودي يسلّح اليوم ضدّكم ذراع الروم

لكننا زينا لعدلهم ومعه محارقهم التي تضرم في قادش وطليطلة وقد سموها كادس وتوليدو

فيمحى الأولون وينتصر عليكم الثانون

لقد حلّلنا لهم استخدام النار لعلها تطهر الأرض ولن تنجوا أنتم من هلاك اسرائيل

ونحن الآن بلا وازع سلاح الكافر الذي أخذنا شدّته من عليّ نفسه

نحن في القبضة التي على أهبة أن تهشم وجوهكم
في قلب العلج الذي يلوث أمام عيونكم شرف بناتكم
حتى نذكي النار الكافرة في بيوتكم
علّها تشوي في المهد أبناء لذاتكم
ها نحن أمام الحمراء على وجه الصليب
وانظروا آنها إلى ملككم في عاره واضطرابه
ومفاتيح الحمراء يعطيها بيده إلى من بعثت بهم إليكم قدرتنا
الذين سيلقبونه بأبي عبدالله الصغير ويداعبونه كابن لهم في عار الشمس
أنتم يا من تكتبون « لا غالب إلا الله » على جبين أوابد دواركم
اقتربت ساعتكم التي تتجسد فيها الكلمات عقابا
الساعة التي تعانون فيها حقّ كلمتنا ووعدنا

بلغ حدود نفسه فما يلامس الأرض   يقسم خبز الله في فمه
بات لا يعلم من ينفخ فيه الكلمات
يا قدمي الملهم ليتها القدمان القافزتان المتجلدتان المسا المسا الأرض لأنه
صعب أن نرى القفزة تمتد ولا تنتهي أبداً
ولقد امتلأت الكؤوس واقتسمها الفتيان
بعض يبحث عن ظلّ امرأة وبعض يحلم بالدّم المراق
ولا يسمع أحد فكره نفسه بين الطبول والقيثارات
دوروا بخمر التمر ولنشرب من الدّن
ما دامت الأقداح أقل عدداً من الطفيليين
وسقطت الدمية التي
أراني المشعوذ فجأة خيوطها
وانحنى عليه رجل قشتالة الذي
اختلط بغوغاء التابعين المكلّلين بالقش والغبار
بأية لغة يكلم تلك الأذن وما زال بها رنين الله
الفارسية أم البهلوية أم العربية
أكاد لا أتبينّ الكلمات السوداء كالسَّبَج

قال له ألا تعرفني تحت وطأة خنجر السنين
وتجاعيد الجبين وهيروغليفية الجلد وضياع الأسنان
ألا يذكرك ما بيننا وشم الكلمات في ذراعك وذراعي
كيف تبادلنا الدم دون اعتبار لشريعتك أو شريعتي
أنظر مرة أخرى إلى رفيق الاثم يا حامد
لقد عاد الزمن الذي يلتقي فيه اليوم
جاء زمنك وزمني وزمن بوعبديل
ولسوف تشرب معي مرة أخرى خمرة المكر
ولتمت المملكة الناصرية فقد ذبلت كذبة ولادتها كزهرة قديمة
وليحق السخر بآخر أبناء الأنصار
نحن الغدر الجديد الذي ورث السلطة
وآل إليه الملك ولذة الانسان التي تمتد أبعد من نفسه
أنظر أمامك أيها الفقير المشدوه كعبد خضع لارادة سيد نجس

لقد ارتبطنا بالجحيم المقبل ونيرانه التي لها عندك طعم الجنة.

القيصـــريـــة

الشارع الذي شقوه بعرض كتفين
ينزل كحيّة من فضة بين الصناديق
والبسط والمحارم والأردية المخططة
خلل الصياح والنظرات والرغبات والعروض

كل سلسلة ألوان الشرق
من وردي وزعفران ومرجان وجاد وفيروز
لحن نسيج ملأ قيصرية
في شمس الشتاء تحت الخيمة الملونة

أصوات خصيان تبازر فيما بينها بالأسعار
عراك بحارة وخيالة من زناتة
يهود بنجومهم يتحسسون الصوف والحرير
حرسٌ سودٌ يلاحقهم قوادون بعرض

وفي السوق لعبة شطرنج
غريبة انحنى فيها كل تاجر على خانته
والنعّال يدق على قدمه الحديدية والاله
في يد الرباع وترين على الجميع نغمة
المشوي العطرة

باعة خطابات

حمّالو ماء فلاسفة سلاّلون ومشعوذون
شحاذون وسقطيون يعرضون ما عندهم
سلافيون على المناضد يبحثون عما ينقصهم

يداعبون الوجنة ويجسون الركبة
أسرى مسيحيون من بلدان منهوبة
سودان جعد ولصوص خيل نافارية

وأولئك اللائي يقرقرن من دكان إلى دكان
ضحكتهن الخفيفة كلعبة طفل
وصوت الحلي إذا تحركن
يدرن بعيونهن الكحلاء على الناس
نساء مصبوغة أصابعهن
في ثياب حمراء

آه من الذي لا يثيره الجمال الارجواني
يرتدين الدم الذي يرتعش فينا
يبدو أن أصواتنا تنتزع منا على خطوهن
يتحرك الرجل فينا وتتفتح الروح

كوشاح يماني الناسج
أول من شحب والزجاج بدا
كفم فرنه أما اللحام فمختلف
ما الذي هزه فضيع نعله

لقد رأى المجنون تعرفون من هو مجنون
السا
لا
التفت الناس جميعاً كي
يضحكوا ضحكة لأنما ينخلع العنق
لمرأى هذا المجنون العجوز الذي يقول في الحبّ

يظن نفسه قيساً العامري الذي مات عشقاً في ديار نجد والذي لا شك فيه أن البحارة الذين حملوا في سفينتهم قصيدة جامي حيرات حيث الملوك من أبناء تيمور
كانوا يجهلون أنهم عبروا المتوسط ومعهم نبتة جنون
كأولئك الذين جاءوا في متاعهم سهواً ببذور من سورية

فما يتخيلون حين زرعوها أن يأتي يوم تتمايل فيه ربيعاً عناقيد الكرز في مرج ظاهر غرناطة

لا أدري متى جاءت إلى هنا مخطوطة مزينة بالزخارف
عن حبّ المجنون وليلى اللذين ما زال يغنيهما المنشدون

لا أدري ما كان سعرها ولا أي دكان أندلسي باعها فإذا بها وما انقضت خمس سنوات على انتهاء الشاعر منها

تنتش حبة الجنون التي في عمق خطها فتمرع نبتة جنون في البيازين
وإذا قارىء يتوحد بعاشق ليلى
ففقد مثله اسمه واسم أبيه
فما يسميه أحد إلا مثله بالمجنون
وما فعل إلا أنه أحل اسم حبيبته محل ليلى
اسم ليس من هنا ولا من المغرب أو فارس
اسم لم تغنه الركبان مساء في أرض العرب
ولو أنه شبيه ثمرة باردة في صيف قائظ
صوت من ثلج وأزهار قادم من دنيا مجهولة
أما هذا فوحده يزاوج بين السماء وبحر الرمل
لا كما نظم عجوز حيرات الذي استعار من نظامي غانجا ميراثه
أي ليلى العربية في دلهي وقد غناها أيضاً الأمير خسرو
أما المجنون الأندلسي فقد تجرأ على تقاليد شعرنا
وتبنى نشيد الزجل العامي الذي ابتدعه الكافر ابن باجة
لقد اختار كوثني يجهل طريق الحجر الأسود
عبادةً مثيرةً امرأة غريبة على الاسلام
على عكس ما تقادم عليه البشر قريبة لكنها يحجبها ألف حجاب
عشق مستحيل يفيض بالجنون كماء نافورة
لكنها امرأته لا امرأة منحها لآخر
امرأة حياته وذراعيه وتظل موسيقاه الطويلة
ولم لا نحترم جنونه الغريب
الذي لا صلة بينه وبين قواعد الحب السائرة

وكأنه صفعة في وجوهنا جميعاً نحن الذين نعيش ناعمين مع زوجاتنا ومحظيّاتنا

ننتقل من الأولى للثانية وفي أحيان كثيرة
نغمض العينين على عشاقهما دون مشكلة
ولهذا نضحك من هذا الرجل عندما نلتقي به في طريقنا
وهو يقبل على الشتيمة يقبض على حجر
يكاد يلقيها قبل أن يبدأ نشيد السا كمغتصب
جاحد بالتقاليد الموروثة
كفضيحة في رابعة النهار
لا تطاق لأنه ليس من شريعة تصفها بالجريمة
إلا إذا اخترعناها من أجله
إلا إذا شئنا لهذا الحب صليباً آخر
غير صليب القدمين واليدين
عفواً ما كنت أقول لكم أنه يغني
ثقيلا كأنه يكرر نفسه
عودة الخطيئة الوقحة
كفراً يكفره وحده يزيد في بشاعته
انه لا دولاب تعذيب لأعضاء المعتوه[١]
ولا مدقّا يكسر الجنون
ولا خيل تقطع أوصال الشعر

*

ويتبع الأطفال قوال الزجل
كما تهيج الأوراق الهواء في النهج
عيون سوداء وأقدام حافية تجري وراءه
إلى الضواحي الفقيرة وهم يقرشون فولا أخضر
ويصمت حوله ضحكهم نقطة نقطة
أية حورة عملاقة تبدو كأنها دوماً تندف ثلجاً
على الليل في رابعة النهار وينصتون إلى أغنية
ككواكب في ثيابهم القطنية الخفيفة

عندما وصل المجنون إلى الجسر المسمى بالحورة أنشد ما لا يستهدف أحداً فعل الريح في

---

(١) هو دولاب التعذيب في القرون الوسطى الذي كان يوضع عليه الانسان وتشد أعضاؤه حتى تنكسر أو تجره الخيول فيتمزق أربعاً .

المدخنة أو ماء الطواحين في الدولاب وأقولها أنا الذي ما حاولت أن أعالج البيت الأندلسي وحيد القافية على طريقة قصائد أبطال شارلمان الطويلة بل اهتممت بالصدى العامّي هنا أكثر مما اهتممت بزجل هناك حتى لأقول ما لا أعود له مرة أخرى أني لم أحلم بأي من تلك التراكيب الماضية منذ أن دخلت في عالم الخيال الذي امتحت منه نغم صوتي وحلم ليلي .

ان المسافة الزمنية بين موت بايازيد وما كتبه عنه راسين ليست أطول من تلك التي بيني وبين اللحظة التي قضى فيها لينين فليغفر لي من شاء ما دمت قيد أربعة قرون وثلاثة أرباع نسبة في الخطأ جائزة لمن يُدلج في الديمومة .

قلت أنه وصل إلى جسر قنطرة الحور التي تؤدي إلى المنتزه الذي يرتاده العشاق .

زجل قنطرة الحور

هي وحدها تمتلك السماء
ولن تستطيعوا أخذها منها
هي وحدها لها قلبي
من يجرؤ أن ينتزعه أو يصدعه
هي وحدها تصل إلى الأحلام
التي تحيل لياليّ رماداً
هي وحدها تنجو من اللهب
كما تفعل السمندل
هي وحدها تفتح روحي
لما لا يمكن سمعه
إليها وحدها ومن يدري من أين
يأتي طير صفو الزمان
هي وحدها إذا تكلمت
حديثها رحلة
هي وحدها صمتها
على جمال الظلال
هي وحدها وكل الحب
عندي أنا وجه واحد
هي وحدها والعجائب

تندهش إذا مرّت
هي وحدها والشمس
ما تكاد ترى فيها صورتها
إليها وحدها ومن يدري من أين
يأتي طير صفو الزمان
هي وحدها وليأخذ
ما عداها الشيطان الأخضر
هي وحدها ومن أجلها
وحدها عشت هكذا وتألمت
هي وحدها يا أغنيتي
يا دمي عروقي وأبياتي
هي وحدها ولتخرج
من الجحيم كي أبقى فيه
هي وحدها وما تعنيني
هذه الحياة والعالم
هي وحدها وأعرف من أين
يغني الطير صفو الزمان

غرناطة التي أسمها حياة

يا كلمات طارت دون تبصر من الشفة . . . تود ألا يعود إليك زجلك فيصفع وجهك يا من لا تزن كيف وممن جاءك التعبير ؟ أو يجرُمك الناس وقد فضلت عليهم حبك ووضعت في الميزان امرأة شال أمامها وزن كل الوجود ولؤلؤة الفجر وحجر الآلام ؟ كيف تريد أن يغفروا لك عصف روحك ، وهم يعيشون بين القاعدة والقياس ، يا من لغتك استعارة وعينك دهشة ؟

ألا تعلم أن العالم الذي فيه تحيا كان نائماً ولسوف يبقى إلى الأبد عالم الكذب التقي ؟ أولئك الذين لا يخشون التعجيل في موت أب كي يجرّدوه مما ملك ، أولئك لصوص السعادة ، نهابو الأحلام ، تجار الجوع عاهرون في السر ، مرابون ، بوليس ، قوادون ، باعة جسد وعرق ، جلادون شرعيون ، قتلة وملوك ، لحاسو صحون القصور والحرب والعهر ، آه انك لتمنحهم بثمن بخس فرصة عرض عواطفهم النبيلة ، وقلوبهم الكريمة ، حب الله ، والقريب والشعب ! أو ما من مغن يفضح ، وجه الوحش اللئيم الذي ينضح قيحاً ، تحت قناع الخير ويطلق تعويذة تميت المقنعين

بروائحهم المفضوحة ؟ متى تنقطع الفضيلة عن أن تكون العطر الذي يخفي الانحلال ، وتمر القرون عبثاً ، تتعاقب المجتمعات ، الآلهة والفلسفات ولا يبدل الطاعون غير ثوبه ، وتعرض الجيفة على هواها بوزها وقد تزين في رابعة النهار . . . طموح الروح ، عظمة الفكر ، كرم الانسان ، كلها يستخدمها ستاراً له الرياء القادر فيظل منتصراً وله يتملقون . وفي ركبه يمشي أصحاب الرسميات ، ما يقولون كلمة إلا وقد وزنوا وتفحصوا وسووا ، لغة ذلك التهذيب الذي فيه ثمن يومهم مدفوع لهم ، ذلكم رواة الشواهد ، الناس ـ الأصداء ، الذين تكفيهم لفظة كي ينقلبوا على ايمانهم ، لأنهم ارتشوا وزيدوا فشكروا . . . أولئك أصحاب الركوع الأيسر عليهم أن يبدّلوا الصنم من أن يبدّلوا الطقوس . . . ولئن لم تر ما أود أن أقول ، فلا تتعب نفسك . فليست غرناطة الأيام الأخيرة بحاجة لأن تفهم ، وما على الغبي الذي يجهد في قراءة ما بين السطور ، إلا أن يرفع مشعله بيد راجفة ، وأن يقرأ خسّته في أول شيء يشبه المرآة !

ولتكن الكلمة كما قيل موقعة : إليكم عن طريقي أيها المراءون !

أنا عندما أكلم هذه المرأة ، وما الفرق بين الصلاة والنشيد ، لا أخبىء حبي وراء الدين ، ولا أتظاهر فأجعل لله ما لهذه المرأة ، وضوئي لها ، الأسماء التي يفوه بها فمي لها .

وتتباهون أنكم عن تقى تقربتم إلى الله بمائة اسم ، ونسيتم أنه هو الذي منحها لنفسه ، أو تسعاً وتسعين وبعدها اسمه . وتقولون أنها الأسماء الحسنى كأنها من جودكم . وأنا ، وأعلنها ، أني منحت هذه المرأة أسماء عجيبة ما لا تجدون ما يكفي من نجوم لو عددتم . وتقولون : « من تلك التي لا بد له من كل تلك الكلمات كي يصفها » وأنا أجيبكم أيها المراءون ، أن ربكم إذا نفد بمائة اسم بينها اسمه فهوالدليل على أنكم تتقربون إليه بعبادة بخيلة، وأنا أيها الأفاكون أؤكد لكم ، أن التي أغنيها لها بديع الأسماء ، لعلها تنتقي منها عقد يوم ، ما ترميه الا وأقدم لها من الأحجار نادر البريق مما تجهل صلاتكم الفقيرة . . .

أبعدوا عن دربي أيها المنافقون ! هوذا المكان ، هنا يفترق الظل عن النور ، هوذا الانسان الذي أحل مكاني فتتجه إلى حيث أحدد موضع الله ، راحته مشرعة إلى قبلتي ، قدماه متباعدتان ، لأنما يعظم القربان عندما لا ترى اليد ، ويعمق النشيد حين لا تدرك أين الفم .

يا عجوزاً ، خذ مكاني ، كن قلبي وصيحتي .

التي اسمها يكتب أشكالا

غرفة ظل نافذتها عالية ضيقة ضائعة لا تدخلها الشمس إلا ساعة الصلاة الشرعية كاصبع صفراء تدل على مخطوط على الأرض خطه جمع كل بيارق اللغة الفارسية حيث تهمي كثلج نقط التصحيف فكأنما فيه تستمر الحرب المقدسة لا مدائح الحبيب
ونشيد الرمل لجامي حل محل القرآن

غرفة ظل لا يرى فيها ما خلا الهدوء والرقة إلا جرّة ماء بارد تطفي من حين إلى حين ظمأ الشاعر

ظمأ يملأه ناراً لا تهدأ وتحيل بلا قوة
ظمأ لا يتبدل مرّ مرّ مرّ
وخشبة ينام عليها كتاب أبلته العينان وباب
يطل على النهج عبر سجف
لآلىء سوداء وبيضاء سجف من خط
غرفة ظل شهباء رجل وحده قعد فتربع
وفي أعلى غرناطة في عمق البيازين
يأوي بيازون[1] وغجر وفقراء وأمراء
لا يأبه أحد ما الساعة تسمع أطفالا في الخارج أو صوت خشوع مؤذن
في أعالي غرناطة ليس للانسان إلا أن يتكلم أو يضحك وهنا لا مكان
إلا للوحدة ولا شيء سواها والصمت ولا شيء سواه أين أنا أو لا
أسأل من يعيش هنا الصفح أني دخلت إلى قلبه ولا شيء سواه
لكني والحقّ لست في هذه الغرفة
حيث لا أراني على هوى جنونه
هذا الرجل الذي يقتصد نفسه

في أعلى غرناطة في عمق البيّازين

لا شيء على درج الحجر ولا على الشمسية المخططة
يبيح الوصول عن هذا الرجل ولا سقف الظلمة ولا
طنين ذبابة عابر

وعلى الجدران لفظة سين ولام بين ألفين من اليمين إلى اليسار اقرؤها معكوسة بعيني اللاتينيتين كسؤ ال SL ايس ا ل هل هي تتكرر بالحوارة والفحم بالحوارة والسكين بالحوارة والحبر بالحوارة وتقلب بالأحرف اليونانية ايتالامبدا سيجما ألفا من اليسار إلى اليمين على علو الرجل الذي على ركبتيه أو لاتينية على علوّ الفم أو سلافية على علو الجبين ...ƐΛΣA ELSA ЭЛЬЗА

(١) مربّو البـاز .

ومن يتعرف في الف باء الغرب على كلمة أنكسا EN-XA المشتقة من المستقبل في بلاد الجنوب المقهورة .

هكذا يصنع الأطفال من النهج لعبة موشومة وللبدو لغة فيما بينهم لا تفهمها البيوت المرقمة ولا بشر العيون الهاربة من الشتيمة والحنا .

في تلك الغرفة في أيامنا الأولى أتذكرين كتابة لا تنتهي من يحب يكتب على الجدران من يحب يكتب على الجدران من يحب

كتنقيط في سرّ الصمت

هناك في أعلى غرناطة في عمق البيازين

هي غرفة وزنزانة وكهف مغارة كتلك التي يسكن غجر اليوم الذين لا يكتبون حروفاً على الجدران بل في اشارات لغة اللصوص

أوليس حبّ هذا الرجل سرقة « قبالة » مستقبل السرقة كسر في روحي سرقة ما سوف يولد والظلّ ملكة اختلسوها من عينيّ ياله سحر

لا يدخل أحد إلى هنا نعرف
أن عجوزاً يخرج لقبه المجنون ووراءه
أطفال أشرار يجتمعون إذا غنّى ويلحقون به في الأزقة
وأحياناً يخطىء فيرتل لغة بعيدة لا يفهمونها فارس الضائعة أو سواد الحبشة
أو يزعم عبيد الملك في قصر الحمراء الأحمر
انها ما لا أدري من هرج سلتي
والأطفال وراءه يضربون أفواههم بالاسم الغريب في غربته
في سخر أصابعهم واللسان والريق

من أعلى البيّازين تنزل المسيرة وينزل الزجل والنساء يلتفتن إليه فيتضاحكن هوذا قيس

قيس ديار نجد الجميل غنّ يا قيس ليلاك التي اسمها شواذ لا يحفظ
غنّ يا مجنون تلك التي لا تدل عليها أحدا
ويمضي وحمّال الماء يملأ حذراً جراره
فلا تضيع قطرة منه
مما يجيء من الخزانات تحت القصبة ويدفع لقصر الأمير أتاوته

ويمضي المجنون بحاشيته في اسمالها يغني ينزل إلى غرناطة وهي تعيش حياتها العادية

رغم حقد واحتقار الذين عندهم علم الشعر يعتمدون فيه على القرآن الذي جاء فيه أن حب المتعة من أين أتت من نساء، أم خيل أصيلة أم أرض زراعية، هو من خداع الدنيا، يعوض الله عنه في الحياة الآخرة، - وكيف ينسون أنه قال: وخلقنا من كل شيء زوجين - رغماً عن السخرية والاهانة، يمضي المجنون، بين الجمهور، عبر الأحياء الفقيرة وفي البرية بين عمال المزارع والقطعان، في أسمال حياته، وتجاعيد الزمن في وجهه، يمر بالبؤس والتهديد، يسرع وربما كان يخالجه الاحساس بأن ما لا يغنيه الآن لن يغنيه أبداً. لا تحكموا عليه بشريعة القانون المدني لأنه اتخذ اسم أمير من بلاد العرب مع أنه من منشأ متواضع وليس هو من ديار نجد، بل من تلك الهضبة في شرقي غرناطة التي تحمل نفس الاسم وإليها ينهد العشاق في نزهاتهم، فكأنه ما سرق اسم النجدي، ولو أن أحلامه نبعت ولا شك من جهة محبّ ليلى، قيس بن عامر. لا تقولوا ألق شعراً يضع السلاح في الأيدي الغرناطية، والنار في قلوبهم، والتهور على جبينهم. وليوكل غيره اليوم بهذه المهمة! هو يدري أن في دمه وروحه أنه ما بقي له في لحظات الفصل السابق للحريق الا تمجيد الحبّ الذي يحمل اسم حبيبتي. أنتم حكماء وعادلون يا من تزنون كل شيء وزن الذهب والفضة والفيروز والزمرّد! أما أنا، الذي على أهبة الموت، ما بقي لي كثير من نفس كي أسمي السا ... أقدم لكم هنا قصائد المجنون، كما وصلتني، ممزوجة بالشحاذين وأولاد الأزقة، لأنه يتكلم عني، في غرناطة التي اسمها حياة، وفيها لا أخشى عاراً أو ضحكاً، وإنما فقط أني ما قلت قبل المغيب شيئاً خلقت من أجله.

اغاني المجنون

كثيرون نادوها بياتريس وهم يجهلون أن اسمها كذلك .
دانتي : الحياة الجديدة

ألف لام سين ألف ، تلك اشارات قلب يرى .

ما وصلنا شيء من عديد أغاني قيس بن عامر النجدي الملقب بمجنون السا أو الزا (عند البربر الزين والسين شمسيان ، وعلى ذلك وجب أن نقول اسّا أو عزّا ، ومن هنا افترضنا أن هذا الاسم العجيب قد يكون تحويراً لاسم الالهة الجاهلية العزّى . . .) لم يصلنا شيء من الأغاني التي نثرها عبر حياته في النهج ، والحقول ، والوديان ، أو مختلف المساكن التي قطن ، كما لا تنسخ صلوات التقى وما تحفل به من أسماء حسنى يتقرب بها لله . لكنه لما بلى الجسد ، وباتت رؤية سدوة وجوده مستطاعة ، وأوتار روحه التي كقيثارة زحفت على كل الحجارة التي فيها أثر من ركبتيه ، حدث أن طفلا لحق بالمجنون وتعلق به ، أهله غير معروفين ، واهتم بالعجوز من جمع ما يقدّمه له مستمعو غنائه ، وغسل عتبة بيته ، وحمل الماء إليه ، وتنظيف ثيابه ، وغطاء سريره .

وتعوّد قوال الزجل على ألا ينتبه إليه ، فسماه زيد ، وهو الاسم الوحيد الذي عرف عن الطفل . وأصبح زيد ظلّه وخادمه ، صامت وسريع لونه زيتون وفيه رشاقة ضبّ . أما كيف تعلم كتابة ، لا العربية فحسب ، وانما عدداً من اللغات ، فأغلب الظن أنه أخذها عن عائلة من المتأدبين اليهود تسكن في جوار المجنون ، وبفضل موهبة مبكرة فريدة ، قد تكون من أصول خارقة للطبيعة . وما كان يرى إلا جالساً كاتباً أجمل خط معتمداً على ذاكرة مدهشة مكّنته من حفظ ما يرتجل أستاذه ، وما كان يسأله أبداً تصحيحاً ، لأن المجنون كان يرى أن الكتابة وجدت من أجل اسم واحد لا يخطه إلا على الجدران .

اننا مدينون لزيد وحده تقريباً بما سجل من أغاني النجدي . والعناوين هي من وضع الناسخ ، كان يبتدعها كي يسهل المرجع لمن يود أن يعرف حين يطلب نسخة ، من تلك التي كتبها على ورق من قنب وكتان أو ما يسمى بالشاطبي نسبة إلى المدينة التي تصنعه ، وكان الولد يحمل الدراهم إلى البيازين في قصعة من فخار . ولقد عجب بعض رجال العلم أن زيداً لم يسجل الأزجال والشعر الذي خصّ به النجدي ، كما يعلم الناس ، تاريخ غرناطة وشقاءها ، وانما اكتفى بما قال عن السا وحبها . وعندما وقع زيد بعد زمن في يد التفتيش ، عذّب كي ينتزعوا منه تفسيراً لهذا الأمر الغريب . لكنهم ما حصلوا منه ، وهذا ليس اعترافاً ، إلا على أن الخط ليس تسجيلا لما يزول ، بل لما يبقى . حتى إذا وضعوا يده في النار ، أغضبه أن ملوك غرناطة على كفرهم ليسوا أهلا لأن تحفظهم الذاكرة مثل السا ، فصاح ألماً ، بما جاء في تعاليم أستاذه ، أن مستقبل الانسان هو المرأة ، لا الملوك .

الأشياء ليست تماماً
كما تبدو
الحياة بيت
مظلم وهادىء

إذا كنت في الغرفة التي حدّي
وانتبهت لك
طارت من صدري
روحــــي

النأمة عندي كدر
إذا صدرت عنك
ما أفظع شريعة
أن تعيش حياة مزدوجة

أموت كل لحظة
مما أحبّ
مع ذلك أعيش
والله يعلم كيف

ما نحلم شيئاً عن الحب
إلا وينكره الحب
لا ينتهي أبداً منه القلب
يكون هذا حيث يفر ذاك

تعليق زيد : لم يكن في بيت النجدي غير غرفة واحدة . هنا لك مجال للظن أن هذه القصيدة تلمح إلى قصر يسكنه الناس في المستقبل يكون فيه لكل زوج غرفتان ، احداهما للحب ، والأخرى للبكاء . لم أضع عنواناً لهذه القصيدة لأن استاذي قال لي عنها مرة أنها بوسعها أن تظل عارية الرأس .

مجنــــون

يا اسماً لا أسمي يقف في فمي
كشيء من طهارة يكسر نغمه
كزهرة في الزيزفونة نشم قبل أن نرى
يا اسماً من فانيلا وجمر يا مثل طائر على غصن
خفيفاً على الشفة الراعشة حلواً على لمس يد
كزجاج تحطم كمثل مداعبة
كاعتراف بحضور على طرف الظل واغرائه
اسم كريستال بعيد في المدينة أو قريب كتمتمة عاشق

يا اسماً يحمر على لساني وما أن ألفظه
حتى أشتهي أن أبقى كذيل ثوبه أو عبيره
ألا أكون غير غباره ذكرى خطوه الدقيق
ألا أكون بالنسبة إليه غير ذكرى مبهمة
أو أقل من هذا كرجفة ايقاع أو تنهدة
مما لا ندري عما ننسى من حركة منها أو نبرة
ظل تميزت في الصوت نفسه أو بوق في الأوركسترا
أقل من صدى في الدرج أو صوت باب يضيع
أو مع ذلك إذا ذكر أحد ذات يوم أني
قلت هذا الاسم الذي لها وتضطرب روحي له
فافعلوا ما يريده القلب أن أبقى بلا اسم
في جوارها وعلى دربها ولتقولوا أني مجنونها

تعليق زيـد : علّمني النجدي ذات مرة ، أنه في السنة التي سلمت فيها غرناطة وحدها من الطاعون الأسود في القرن الماضي ، ماتت من هذا الوباء في مدينة من مدن الفرنجة المرأة الوحيدة التي يمكن أن يكون إسمها بعينه شبيهاً باسم السا ، لكنه لم يتلفظ به ذلك اليوم وكأنها آلهة ، وأضاف انه يتمنى أن يرتبط بهذه الأبيات أكثر من سواها ، فقد زعم أنه قلد فيها شاعر تلك الميتة ، وقد قال لي عنه أنه قام برحلة إلى أبعد أرض في الشمال ، إلى جزيرة تدعى تيلي أو تيلي الأخيرة . ولو أنه فاه بذاك الاسم لما استطعت حفظه لأن مخارج حروفه لا تأتلف مع الحلق الأندلسي . عندها سميت هذه الأبيات مجنون ولقد فهمت أن أستاذي أراد أن أدرك ، أنه إذا وافق على تسميته بقيس الذي قضى في ديار نجد ، فلا يعني هذا أن ليلى يمكن أن تحل محل السا . إلا مجازاً .

البـــاقـــة

عبثاً فعلت عبثا قلت
كنت الظل الذي يتبعَك
والزمن يفرّ من أصابعك
كرمل الليالي الأسود
كالشمس المكسورة في المطر

عبثاً فعلت عبثاً قلت
كنت الشتاءَ والصيفَ
لحناً يبقى في الرأس
لأنّا دائماً غنّيناه
أو أبسط من ذاك لأنه كان

عبثاً فعلت عبثاً قلت
وراء خطوك أيان مضيت أريد
أن أكون هسهسة النار
ذاك الصدى الذي كاعتراف
أو صلاة[1] الريح في شعرك

عبثاً فعلت عبثاً قلت
ما استطعت أن تميزي
بين ما كان وما بدا لي
من هذا الحب الذي منه أرتجف
من تلك السعادة التي سرقت

عبثاً فعلت عبثاً قلت
أن تغلقي نفسك على ما قلت

---

(١) L'ave هي صلاة للعذراء .

أن تقسمي بالله أني كذبت
أن تلتفتي بعينيك إلى النسيان
أن تنكري قلبي وجنوني

عبثاً فعلت عبثاً قلت
قادمة أيام من دوننا
وأنا عند الناس أي الناس
أظل على ركبتك باقة تنفرط
فعلت عبثاً قلت عبثاً

تعليق زيد : في آخر بيت من المقطع الرابع[1] ، توجد كلمة شككت بها طويلا ، ويبدو لي أنها لفظ لاتيني يتقرب بها المسيحيون من طائفة المريميين إلى مريم ، أم المسيح . وذلك يثبت لنا أن النجدي خرج من دار السلام وساح في بلدان غريبة ، ربما عند الفرنجة ، وقد يكون تعرّف فيها إلى السا . أو ربما أراد أن تكون **غاية** حجه ، وهو الذي لم يحجّ إلى مكة ، مطارح سكنتها ذات يوم السا أو تحدثت عنها .

قصيدة شهري كانون

حبي بنفسجة شبيهة بلدغة
حبي ينغرز في قلبي فعل قدم عارية في الرمل
ترقب أثره نهمة قبلة الماء العميقة
حبي حلاوة نصف الليل من سطح إلى سطح
حبي أنت ومنك تغدو فضة مرايا الغرف
حبيبتي الوحيدة الغافلة كالهواء كظل قلب
حبيبتي الحية تمشي في حياتي بخطا زنبق
حبي الجميل لونها وحده صبغ روحي
أنت في قميص المساء الطويل حبِّي اللاهب يا امرأتي
كما تنزل الشعلة من المشاعل على الأرض
يا حبّاً يمزقني كباقة تنتشر على لمسة

---

(١) بل في المقطع الثالث للرابع .

يا حبّاً لا أهمس به إلا وأرتجف يطوف بفمي أيّان كان
حبي يا من كل لغة لديه زنار محلول
والجملة التي نعقدها نجهل أين يكون رأسها
لأنها على عتبة حبي تفقد الكلمات كل حيلتها
على هذا الباب لا أجد أية كلمات أبوح فيها أني أحب
ومن ذا يستطيع أن يبين للأعمى كيف يكون النهار
والقصيدة تموت حباً حين لا تتمتم إلا بالحب
تموت كما تقضي السنة في ربعها القمري الأخير
كمملكة بلا موسيقى تتدنى فيها الذاكرة
فعلت في الساعة التي أنا فيها في وجر البؤس
ما يفعل الرجل الذي لا يرى غد آلامه
الذي على حجره لا يبتدع شيئاً غير
هاتين الكلمتين يا غرامي اللتين كموت الورود

تعليق زيد : بعد حديث كان لي مع استاذي تجرأت فأرخت هذه القصيدة حسب التقويم السرياني كما كان يفعل شعراء الأندلس الأوائل . قال عن الشيخوخة أنها شهرا كانون الانسان يبقى فيهما الحب لكن دون ورود .



قطعنا الحياة كأرقام متشابكة
كتبناها من ثلج على غطاء من يسار إلى يمين وأنا
حرف في نومك يحرسك من فجر على سفين
وعلى وسادتك الشاحبة الحلوة حرف السا مقلوب
في ألفباء بلادك هذا الحرف معكوس
تترجمه لي المرايا فيبدو لي طائراً طار
كأنه قوس حب أو ملجأ لايماءة بيضاء
قبلة ضائعة يد وداع هلال قمر أو قلب مفتوح
في توقيع ذراعيك في عناقهما يكتب كل شيء
السعادة والشقاء لما نام معاً حتى الصباح
يا غرامي لون الزمن كل ما يرتجف يشبهك

وصوتك الحبيب يدخل فيّ كصيحة

تعليق زيد : نقلت حرف أوبوروتنيّا، عن جدار غرفة النجدي وقد رسمه أشكالا لا نهاية لها مرات كنورس يطير من يسار إلى يمين ، ومرات في الوجهة الأخرى كمذراة ويزينه أحياناً بزهور أجهل اسمها .

التينـــة

ما كان البيت غير عقدة من ظلمات
عودي ألا تريدين أن تلتقي خطواتنا
أما زالت درفاته جنائزية
ودرج الحجر ودرجاته المحطمة

أو تذكرين سياج جدرانه
والزنابق كيف جنت أزهاراً
كيف نما العليق فسال دم الجدران
وحلمنا بأن نجد فيه ملجأ لنا

ما زلت أرى فيه ثوبك الخفيف
فلنعبر العتبة بعد أن ألغيت عبثا
علّنا نستعيد رائحة عابرة
تصعد إلينا من عمق السنين

أحفر اسمك على التينة الذكر
لأنما فيها عطر تجاذب جسدينا
سوف يكبر اسمك في القشرة الشاحبة
مع الشجرة وظل البستان المغلق

قليلا قليلا تزول صورة الحروف
وتتباعد كما تتباعد الجراح
فلا يقدر عابر أن يقرأها

تلك الصيحة من شمس التي كنت أناديك بها

الكلمات التي تفوه بها الشفاه تموت
وينطفىء معناها لأياً فلأي
ثم وليس لنا حيلة لا يبقى منها شيء
فتظل القبلات وحيدة ويرحل العشاق

أنا ما منحتك غير قصيدة فانية
وكذلك القلب ولو أنه خفق
آه يا عشقي الحزين يا قصراً من رمل
وتظل القبلات وحيدة ويرحل العشاق

تعليق زيد : يبدو لنا أن هذه الحكاية على علاقة بحادث من حياة السا والنجدي في ديار الفرنجة حيث عاشت في القرن الماضي تلك المرأة التي تحدثت عنها وماتت بالطاعون الأسود . كان استاذي يلمح كثيراً إلى تلك المدينة التي فيها قبر لافرا أو لاوورا أو لاورا ، إذا لم تخني الذاكرة وكان يقول عنها ، وخاصة للغجر ، انها غرناطة ثانية . ويخيل لي أنهما التقيا فيها في حرب احتلال ، ونظن أنهما رجعا إليها فيما بعد . ولقد حلمت مرارا بفكرة ، أخذتها عن أستاذي ، أن الناس هناك هم طائفة مصرية كالذين يدعون هنا روم - ميني أو كاليس ، لكن لغة الغجر فيها كلمات حسب الظاهر من الشرق السلافي ، وهم يقولون عن الموت ميرلا ، بينما يدعونه هنا ماريبين .

يـــدا السا

أعطيني يديك من أجل القلق
أعطيني يديك اللتين بهما حلمت
اللتين حلمت بهما طويلا في وحدتي
أعطيني يديك فيهما سلامتي

آخذها فخّ أسقط فيه
فخّ من راحة يد وخوف من عجلة واضطراب
عندما آخذهما كأنهما ماء ثلج

تفر من كل النواحي إلى يدي أنا

أسوف تعرفين ما يعبرني
ما يبلبلني ويقتحمني
أتعرفين ما يخترقني
ما خنته لما ارتجفت

ان ما تقوله هكذا اللغة العميقة
كلام الاحساسات الحيوانية الصامت
بلا فم ولا عينين مرآة بلا صورة
انه رعشة الحب التي بلا كلمات

أسوف تعلمين بماذا تفكر الأصابع
عن فريسة ما تمسك بها فيما بينها
هل تعرفين أن صمت الأصابع
برق عرف المجهول

أعطيني يديك علّ قلبي يتكون فيهما
ويصمت العالم فيه ولو إلى لحظة
أعطيني يديك لعل روحي فيهما تنام
فلتنم روحي فيهما إلى الأبد

لم يعلق زيد على هذه الأبيات التي لحنت مرات عديدة . ومن الممكن أن تكون من مصدر غيره أو كتبت على الأقل بعد زمن ، أي بعد سقوط غرناطة ، عندما داخلت عدوى القواعد الاسبانية الشفاه العربية . أو ما كانوا يدعونهم الموريسكو ، فعم شكل الفعل في المستقبل . وربما يكونون أخذوا الشكل الجديد للفعل من الغجر حين اضطهد العرب فتعلموا من ذلك الشعب التائه كيف يعيشون خارج قوانين الغالب . وقد سهل ذلك أن تصريف المستقبل له نهاية واحدة في لغة الكاليس وهي آ في كل الضمائر (والذي ينقص أشكال الفعل عند هذا الشعب هو الأمر فليس لدى الغجر من يوجهون له الأوامر) .

العنوان منقول حسب تقاليد الحفظ غير المكتوبة . أما الموسيقى فقد عزفت على آلات عليها رسوم منقوشة بالصدف يحملها مغنون رحل ينقلون معهم عربية الأيام البائدة إلى قمم الجبال التي لم يستعجل الاسبان للحلول محل العرب فيها ، وهناك كثيراً ما كانت الذئاب والخنازير المتوحشة تقتحم الموسيقيين .

لـغــز

وحقل كتان كبير أزرق بين أعناب سوداء
تميله نحوي الريح راعشاً
حقل كتان كبير أزرق هو مرآة السماء
وأنا الذي أرتعش حتى أعماق دمي
أحزري

حقل كتان كبير أزرق في يومنا العائد
ما زالت منذ أمد تتسكع في ضبابة أحلام
وأخاف أن أرفع إليه طيوراً مجهولة
يتطاول ظلها المجنح في البعيد
أحزري

حقل كتان كبير أزرق بلون الدموع
مشرع على أرض لا يعرفها غير الحب
كل ما فيها له قوة العطر وسحره
كأنما ترووده القبل أبدا
أحزري

حقل كتان كبير أزرق فيه الدهشة
أن نكتشف دائماً ماء صافية وعميقة
ما يغطي بشكل عجيب بردائه
بحيرة أم بحراً أم كتفي العالم
احزري

حقل كتان كبير أزرق يتكلم ويضحك ويبكي
أغطس فيه وأضيع قولي لي هل تحزرين
أي بذار يصنع فيه الفرح والألم
ولماذا حبه يسكرك ويقتلك
احزري

تعليق زيد : يلاحظ النجدي أن الكتان ينمو في المرج وفي ديار السا . وكان يبدو له أن في هذا ما يكفي لتفسير اللغز .

صليب للظـــلّ

السعداء بلا قصّة
هذا ما يزعم الناس على الأقل
القمح الذي نرمي في الغربال
والثيران التي نجر إلى المسلخ
لا تستطيع أن تقول نفس الشيء
السعداء بلا قصة

انها سعادة القتلة
الذين لا يزعجهم الموتى
ولا مجال للرهان
بأننا لا نسمع صراخهم
ينامون وهم يضحكون ملء أشداقهم
وتلك سعادة القتلة

الحب سعادة من نوع آخر
يرتجف شتاء وصيفاً
يده دائماً على باب
قلبه كورقة ميتة
شفتاه داميتان
الحب سعادة من نوع آخر

الحب أن نفقد العقل
الحب ألا ندري ما نقول
الا يكون لنا أفق سواك
وألا نعرف الفصول
إلا من ألم الرحيل
الحب أن نفقد العقل

آه أنت التي دائماً يجرحون
مرآتك دائماً مكسورة

يا سعادتي المسكينة وضعفي
أنت التي يشتمون ويهملون
أنت التي في كل جسد شهيدة
آه أنت التي دائماً يجرحون

الجوع والتعب والبرد
كل أوصاب العالم
أو من بها عبر حبّي
منها أحمل صليبي
من لياليها يشاد ليلي
الجوع والتعب والبرد

المـــــرآة

لو تجرأت المرآة على تقليد
الوردة وذهب الميموزا
وصفصافة مزهرة تميل مع الريح
والقويسة الدامية التي ترعف أحمر
البنفسجة والليلك
فمن أين تتحمل العيون المتعبة
لو أن المرآة أخذت من زهرة العناق نظرتها
ومن الحمامة جناحها الأبيض
أو لخّصت فيها السماء
والتقت الشمس بالمطر
لو أنها كانت هي الليل أو كانت هي النهار
أو أنها ضاجعت النور
لارتجفت لما جئت
شربت شفتيك كخمرة
وضاعت على نغم موسيقاك
في قلب الجنة الجسدية
فلا ترى شيئاً إذا ذهبت

في نومها العميق تحلم
بك عمياء عما عداك
عن الميموزا والوردة
لا تحس بما أسكرها
تغدو غير مرآة إلا لألسا

تعليق زيد : ان أحداً لا يدري أكان يعني مرآة زجاج أم معدن ، ولقد قيلت الأقاويل عن المعنى الذي يكنّه النشيد . عندما فتشت شرطة الأمير بيت أستاذي ، كانت مكلفة بايجاد هذه المرآة التي زعموها سحرية ، يقرأ فيها الماضي والمقبل . سألت النجدي وأنا الطفل الطلعة فأجاب « هنا لك مرايا ماء أو سماء (سراب) . . . لكن الناس أبسط من أن يفهموا أنه توجد مرايا كلمات (أو صور) . ولهذا كان الشعر عندهم سراً . هذه الأبيات تعني ، ما دمت مهتماً بخفيها ، أني في شعري ، لا صورة إلا واستخدمها لابراز السا لا صورة إلا لألسا ولو ظن بعض أني أتحدث عن سواها » .

نقيض ـ النشيد

عبثاً تلتقي صورتك بي
لا تدخلني فما أنا إلا كي أريها
تلتفتين إليّ فلا تجدين
على جدار نظرتي غير ظلك أحلم به

أنا البائس الذي مثل المرايا
تعكس الصور ولا ترى
عيني مثلها فارغة ويسكنني مثلها
غيابك الذي صنع عماي

دُعي النجدي ذات مرة إلى طهور فوجد الناس هذه الكلمات غامضة في غير مكانها لا تأتلف مع الحفلة . وسألوا زيداً ! « ما أراد أن يقول ؟ أما كان حرياً به أن يتكلم هنا عن السعادة فحسب ؟ » . وأجاب الطفل والحق أنه أعاد أحد دروس أستاذه فقال أنه يجب أن نؤمن بالسعادة حين نتكلم عنها ، وطالما كانت المرايا من الآخرين ، دون أن نقدر على رؤية أنفسنا في الآخرين ، أي عندما الآخر الذي فيك يرى نفسه دون أن يراك ، فليس ثذ أبـأس من الحب .

عندها طردوهما معاً .

واعتماداً على هذه الحادثة يرجع زيد بعد زمن طويل في بداية السنة المسيحية ١٩٤١ كي يعلق على « الساعة » وربما على نقيض ـ النشيد الذي لا يمكن فهمه دون النشيد الأول والذي يليه .

الليلـــك

أحلم وأفيق
في رائحة ليلك
في أية ناحية من النوم
تركتك هنا أم هناك

كنت نائماً في ذاكرتك
ونسيتني نسياناً خفياً
ربما كانت القصة عكس ذلك
هل كنتُ حيث ما كنتِ

أعاود النوم كي أصل إليك
في البلاد التي بها حلمت
حيث يفر كل شيء ويرائي
لكنك أنت رحلت عنها

في الحياة وفي الحلم
كل شيء له هذا البريق الغريب
من عطر يمتد
وغناء يطير

يا ليلاً منيراً ونهاراً مظلماً
وغائبة عني بين ذراعيّ
ولا شيء آخر يبقى في
إلا ما تمتمت به

اللـذة ـ اللـــه

الله اللذة التي لي منك
التي تجعل الحياة هكذا قصيرة

كل يقظة مثل حلم آخر
هي أن أراك مرة أخرى
كأني من جديد أوقع هدنتي
مع الموت حين أراك
الله اللذة التي لي منك

الله لذتي أن ألمسك
وأن يكون لي احساس فوق انساني
لو أكون على دربك
قمحاً تطويه فتُنيمه قدمك
يا أَخْذَ يدك بيدي
كأن الكلمات أخذت تضحك في ثغرك
الله لذتي أن ألمسك

الهي الحاضر الهي الماضي
تتركينني في كل اللحظات
وقلبك الذي يخفق
وأفكارك التي تختلط
الأنك تفرين مني يخفق هكذا سريعاً
كعقل المجنون
الهي الحاضر الهي الماضي

اللذة الاله في أن تكوني لي
دائماً ابني في الصباح
وهذه السماء الأولى القريبة والبعيدة
قبل أن نفتح النافذة
كرداءسامري
يا شمساً يا شمساً تدخلني
اللذة الاله في أن تكوني لي

اللذة الحلوة اللذة ـ الاله

حيث ينفلق الجسد عن الروح
اللذة ما تفعل السماوات بالنظر
لذتي أن تعيشي
اللذة ما لي من عينيك
اللذة الحلوة اللذة الاله

تعليق زيد : كان يقول النجدي أن هذه القصيدة ، بالرغم من الرداء الذي استعار من الكتب المسيحية ، هي الدليل الوحيد بين ما اعطي من أدلة على الاله الواحد الذي يدين بحقيقته البشر جميعاً .

في طلب المغفرة

لا تراعي
ان غنيت اللذة
ما ذاك إلا كي أمسك بروحك
بأصابعي المتوحشة

أن أمسك منها بالصيحة ورائحة
الزهرة الهاربة
اغفري لي قحّة
فظّة وساذجة

والكلمة التي أطلقت للشمس
وكان علي أن أصمت عليها
في كل مكان غير أذنك
سرير الأسرار

هل قضي علي أني عن ضعف
أخطأت هذا الخطأ
هل قضي علي أن أجرحك
حين أرفع صوتي

أنا ما استطعت أن أكتم من يومي

ما نحبس من أشياء
فإذا شمسه تفضح الحب
الذي ما هو غير تمتمة

لكني مع ذلك يبقى فيّ
مكان لذات مساء
مات في صمته
نشيد أسود

وكما على العالم فجأة
تصمت العاصفة
يغدو كل شيء بستاناً يغرقه
عطر النعنع

لكني أخاف أصغر اشارة
أقل غفلة
يفرّ الطائر وتبقى اليد
على القلب الذي يرقص

الريب يأتيني من ذاتي
وألم خفيّ
ريب في حبك لي يأتيني
آه توقف الزمان

وليتخذ لوناً أبدياً
ألماً بهيمياً
لأن نوجد جريمة
عندما نتوجع إلى هذا الحد

لا شيء يعنو لي أو ينصرف عني
والكل يمزقني

ما يجب أن أفعل
كيف تلينين

ألم يكن كل شيء كذبا
خبّأته الكلمات
هذه الوحشية تقضمني
روحاً وجسداً

كيف كان الثمن أصغي
للساعة والألم
لقد سكرت ولا شك
من طيف حلو

ظننت أني أعيش ببساطة
سعادة النظر اليه
كنت سكران كنت سكران
دون أن أدري

الهي الهي أي غياب
أحسّ به وألمسه
الليل والنهار باتا من دون معنى
والصيحة من دون فم

تعليق زيد : عندما انتهيت من خط حروف هذه الستين بيتاً ، طلب مني أستاذي أن أقرأها عليه ، ففعلت دون أن ألتفت إليه ، خشية أن أرى الدموع في عينيه . لكنه لم يبك أبداً وقال « زيد ، أعد عليّ هذه الأبيات أبطأ ، لعلي أفهمها » .

أبيات للرقص

أكان الأحد أم الاثنين
مساء أم صباحاً نصف الليل أم الظهر
في الجحيم أم في الجنة

العشاق يشبهون العشاق
البارحة قلت لك
سوف ننام معاً

ذاك كان البارحة وغدا
ليست لي من طريق سواك
وضعت قلبي بين يديك
كي يتّسق سيره مع قلبك
ما دام لديه زمن انساني
سوف ننام معاً

حبي كيف كان سوف يكون والسماء فوقنا غطاء
أغلقت عليك ذراعيّ
أحبك حتى لأرتجف
ما أردت من مدّة
سوف ننام معاً

هذه الأبيات واضح أنها تنتمي إلى فترة التقليد الموريسكي أو الغجري من شعر النجدي وقد رأينا سابقاً مثلا عنها ، وذلك للسبب نفسه اختلاط اللغة .

غزل في عمق الليل

دخلت البيت كلصّ
كنت تشاركين الأزهار راحتها الثقيلة **في عمق الليل**

سحبت ثيابي وقد سقطت على الأرض
قلت لقلبي أن يسكت لحظة **في عمق الليل**

كنت لا أراني ضيّعت عمري
عارياً في هذا العالم الأسود بلا نظرة ولا صورة **في عمق الليل**

جردت من ذاتي خلعت أيامي
فما لي أية ذكرى إلا منك يا غرامي   في عمق الليل

سرّي الراعش ألمسه دون تبصرّ فلا أرى
يا ذاكرة يدي يا ذاكرة فمي   في عمق الليل

يا عطراً طويلاً مستعاداً من أيامنا معاً
أرتجف على شمه كما في أيامنا الأولى   في عمق الليل

ها أنت يا زنبقتي أسيرة ذراعي
تتحركين ناعمة في السرير إذا وصلت   في عمق الليل

كأنما توسعين لي مطرحاً في حلمك
في هذا المنظر الذي لا يعرف إلا الله ما يجري فيه   في عمق الليل

وأظل عن غير حق إلى جانبك سهران
أخشى أن أسقط منك في نومك   في عمق الليل

ننفخ ضباباً في المرآة كي نثبت وجودنا
كذلك السعادة هشة حتى لنكاد لا نؤمن بها   في عمق الليل

أخاف صمتك لكنّك تتنفسين
وأضمك إليّ يا امبراطورية في الخيال   في عمق الليل

أنا حدّك الديّدبان المضطرب
على كل خطوة يخطو على الصدى الذي يردده   في عمق الليل

أنا حدّك رقيب عني جدران

أتألم من ورقة أموت من همسة　　　　**في عمق الليل**

أعيش من أجل أنه في الساعة التي ترتاحين
أعيش من أجل الخوف الذي فيّ من كل شيء　　　　**في عمق الليل**

تعليق زيد : لاحظت لأستاذي أن غزله لا يأتلف والتقليد الفارسي الذي يقضي بأن يظهر اسم الشاعر في آخر بيت ، فيفتخر به ، فأجابني أن جامي فارسي ، وأن قيساً العامري ينتمي إلى عشيرة بدوية ، وأنّ حبّ قيس لليلى هو نموذجه ، لا شعر حيرات المرهف . أما هو ، الاسباني ، فليس لديه ما يفخر به ، لأنما الأثمار في بلادي هي كرم من الطبيعة لا من حيلة الانسان . وارتجل فجأة :

قل يا غزلي إلى بشر المستقبل
أن اسم السا هو وحده توقيعي　　　　**في عمق الليل**

الصيـــد

من يستطيع الزعم أنه في الليل
يكتم سرّه
ويدع لي امبراطوريتي
التي يتوقف فيها الوجود
كعطر أتنشقه

كل ما يحدث في الليل
كل ما يوقظه نومك
غابة الطيور هذه وهذا البئر
من موسيقى في أذنيّ
بئري وبئرك أي قلب يضطرب فيّ

كل ما يحدث في الليل
الكلمات الخرساء التي أقولها لك
ونفرّ انه الصيد
عبر جنة سوداء
تعوي فيها الكلاب بصوت خفيض

بدأت الخيل عدوها
وارتجف الظل الذي يستقبلنا
أين نحن لا أدري
كيف أميز بالدعس أوراق
القبقب من الكاتالباس

من هذا البرج العجيب
حيث الزمان رقيق حلو
نرى بركاً من قمر وذهب
أين نحن من أين جئنا
الحب مر وأنت تنامين

العيون المغمضة

لا تطبقي عينيك أنا
من هذه الناحية من جفنيك
لا أستطيع ولوج الليل
حيث تذهب نظراتك بلا نور

لأي شيء تبتسمين أمامي
أي ظل يمشي فيك ويمسك
آه اني خائف مما ترين
ومن أن تديري فمك

زمننا يمضي افتحي عينيك
فكري بما تسرقين مني من سعادة
تسرقين مني بعض السماوات
التي ابتدعتها لك وفاء بوعد

كأني خاسر قضيته
مطرود من مملكتك

التي رحلت أحلامك إليها
إلى الشاطىء الذي عليه تتنزهين

أعرف أنت تعيشين زمناً آخر
كل شيء فيه بدّل حدوده
والانسان نفسه تغير حتى
لكأنه الله لكأن الله يقلّده

زمناً تصنعين منه رواية
تتخذين له رمزاً غرناطة
ونحن أولاء هنا موتى
مرتين بلا شهرزاد

دار العقرب ضالا
ساعة من عالم خيالي
حيث الصاعقة على جبين الانسان
وهو يتكلم عالياً كالرعد

يتجاوز الفكرة
يدعها للآلات
وعلى طرق حمقاء
يسير كي يكتشف صيناً جديدة

وراء الشموس المعروفة
والصحارى التي لا يمكن أن تعرف
التي تنتشر تحت قدميك العاريتين
نجوماً بدل حبّات الرمل

وأنت كثيراً ما تسبقينه
على الدروب الأخرى بعد الواحدة
حيث المستقبل يميل مع الريح الكبرى
من نهايات العالم إلى القمر

أنت يا من تعرفين السموم الخفية
والوجدان السيء
والحيلة والغش
وطاعون الظنون

أنت يا من ترين البعد
صوتك يجيئني من زمن آخر
لكني لا سرّ لدي يرقى إليك
يسمح لي بأن أستمر بالعيش

في هذا البلد الذي إليه أنتسب
موثوق به حتى لأموت
غلب العربي أم المسيحي
حبك وحده يسكنني

أعرف أنك تعيشين حيث لا شيء
مما كنّا أو ظننا
مكتوب علينا أن يكون الوجود آخر
أن تتمزق الضبابة على شكل آخر

وأن يتبعثر البخور الخلب
أن يتولى العدل أنبياء كذبة
أن يولد على مذابحنا المقلوبة
وازع للتضحية آخر

كل خطأ نحكم عليه حكماً آخر
الحياة لها ألوان أخرى
الموت نفسه صار الأوج
والألم تجربة

نحدد تحديداً آخر الخير

والشر كل شيء آخر
نمزق يومنا أسباباً أخرى
ونطمح لأمجاد أخرى

أين من دوني من دوني أين
تشقين طريق ذاتك
ترحلين من دوني تنسين كل شيء
تنسين حتى أني أحبّك

افتحي لي هاتين العينين المعبودتين
لعلي أجد فيهما امرأتي
افتحي عينيك البلا شطآن
على قدّ روحي

تعليق زيد : عنوان العيون المغلقة أعطانيه استثناء النجدي نفسه ، وأضاف أنه لا يريد أن يدع لأحد مهمة التعبير عماّ له صلة بعيني السا .

والمبالغة التي في الكلمة الأخيرة تلمح ، باعتراف أستاذي ، إلى كتاب من المستقبل ، يرتبط به ولا أعلم كيف اسم السا .

نشيد الأناشيد

بين ذراعيك قضيت نصف حياتي الآخر

*

أنت الطائر الالهي الذي زعموه لا وجود له
أن أرحل إليك ما أعمق البحر
لن تعرف عامة الناس غير اسمك

*

أي شيء أنادي وراء اسمك
إلا ويغدو دم الدّنس

*

في اليوم الأول لما بين أسنان آدم
وضع الله كلمات لكل شيء

ظلّ اسمك على لسانه ينتظرني
كما ينتظر الشتاء ولادة الورد

*

ليس في السماء ما يكفي من عيون كي تراك
وأنا لا مرآة لديّ غير قلبي أمدّه لك
لعله يحفظ له وحده وجهك الخفيّ

*

أعندهم كفاية من علم لقدميك على الرمل
هيروغليفية معبودة دائماً تمحّى

*

أنت يا شمس البركة يضمحل فيك
ما نرى من عبير المدائح الانسانية

*

أنت الظمأ والماء المساء والصباح
جسد شبيه لونه بالأضداد

*

كل ما يفضله عن عمى عليك العالم
ما هو غير صنم هزيل بدلا عن الله الحيّ

*

هنا أتكلم لغة الطيور
التي ترى راحلة
ترسم في الهواء أكداس مقصّات
تقص بها الغيوم
تطير فكأنها تعبر السماوات
تفتق لها خراطتها
تطير إلى أصقاع لا تدركها العيون
يقودها هدهد
يهتف بملكة سبأ
بجمالها ومدائحها
إلى أرض أبعد من هناك
حيث تسكن الملائكة
أنا لست الملك سليمان العظيم
صاحب القيثارة الراعشة

الذي كان يرقص في شمس كالسلمون
وشاحه قوس القزح
لكن الحب الذي يغيرني
أعنف من حبه
أنا الذي أعلم لغة الطير
مثل هذا الملك
ملكتي أنا ليست تمثالا
ولا شبه امرأة
وعليّ أن أحمل حيث لا يدرك شيء
لون روحي
أن أحمل أيتها الطيور أعلى منك
يا ذات ملايين الأجنحة
إلى حدود مدينة اللاّأين
مرآة ليست إلا منها
ولتنفتح آنها صحراء الله
كفم على قبلة
ولأكن الله الذي ليست له عينان إلا منها
أو اللمس وحده

*

يا شفتي ـ السنونو

*

يدي الخجول تلمس ركبتيك
تندهش إذ تحسّ أن قلب طفل يرتعش

*

أنا مثل الذي جاء الهضبة
وأخذ صدفة حجلا بيديه
كان هناك لا يدري ما يفعل بحظّه
آه ما أحلى الريش وهذا الخوف الخانق

*

كل نساء حياتي
كانت أزهار ربيع منك

*

عندما تأوهت شفتي كان ذراعاك تاجاً
زرع حول روحي حقل شقائق نعمان

لو تعلمين كم أتألم عندما تكون الكلمات
ثياباً لا تليق بظلّك
تعتقدون أني ألعب تظنون أني أكذب
أنتم لا تستطيعون أن تروا ما يخبىء قلبي

*

النشيد الدامي فيّ هو نشيد شفتي

*

أسهر عليك أبداً يا شعلتي الصغيرة
فجأة تكبرين من جعلك جمري
من أجل وهج منك أدع روحي
انما نقلّم الوردة كي تزدهر الورود

*

بوسعك أن تقولي عني هوذا شعبي

*

تنزلين بطيئة من سطح إلى سطح
يا حبي الجميل بخطا قمر في ليلي

*

لا تكلميني عن البحر
يا من كل حياتي
غنّيتك
لا تكلميني عن أمّك
أنا من كل حياتي
حملتك

*

في النهج وراء الجدران
ماذا يحدث من ضجة
أية أشغال أي صياح أية دموع
أو لا شيء الحياة ثياب خام

تجّف في البستان على حبل
في المساء رائحة سعتر

صوت عربة ينطفىء
قيثارة تدوزن في البعيد

لا لا لا لا ـ لا لا لا
لا لا لا ـ لا لا لا لا لا

كأنما هو النهار في هذا الليل
قشرة قمر غيمة
مرت فحيَّتْها شجرة
والقلب لا يسمع إلا نفسه

لا تتحركي انها هشة
ضعيفة خطرة
لحظة الظل هذه عند اثنين
في صمت المدينة

لا لا لا ـ لا لا لا لا
لا لا ـ لا لا ـ لا لا ـ لا لا

*

من جهة صورتك المقنعة
من جهة أخرى وجهك
خطوك صوتك كل هذا غاب
كله عندي موعدا أخلفت

*

راحتي تحتفظ برائحة كتفك

*

هل تسمعين حديثي إليك وأنت غائبة

*

هذا السر المضاعف بين
المعارف المنتصر

امرأتي لا محدودة أنا ولدتها
في عالم ولدني .

*

لحن لشهر نيسان

لا أستطيع أن أحبك أبداً
لطول ما أحبّك

*

سعادتي الهائلة تغدو بلا حراك لحظة قبل الفجر
عتبة الوجود القلقة والحلم

*

بلا حراك انتظر فجرك بعد الفجر
أمسك إلى ما لا نهاية بذراعك الحلو في يدي
آنئذ يزهر فيّ شيء لا يوصف
وعلى شفتيك أرى شحوب الغد

*

وجهك سماء حياتي ذات النجوم
أنت التي فيّ تمشين موسيقاي الحلوة
أصغي إلى عبير خطوك يبتعد

*

الريح تتدحرج على منحدرات السطوح
حبات زعرور شقراء
حلمت بك طويلا
حتى لقد فقدت النطق

*

لقد امتلأت من صمت الحب الذي يصم

*

أتعرفين الأرض التي فيها المرأة حلم

*

أن ألمسك أجل من أن أوجد
أن أراك حلو حتى الموت

يا حبي يا عشبتي العظيمة
دعوني أنام فيها أبدا

*

عبثاً قطفت كل زهور العالم
انها للذبول أمامك على الأرض
بلا ماء ولا قافية

تعليق زيد : عندما رأى معلمي العنوان الذي وضعته لهذه القطع التي من جسده غضب مني وقال : « كان سليمان يتكلم لغة الطيور ، وكان سهلا عليه ولا شك أن يكلم الهدهد ، وما أفعل أنا بهذا الهذر لأن الكلام عن السما لا يكون إلا صلاة ؟ » نيسان هو في التقويم السرياني أول شهور الربيع .

رؤيـــا المستقبـــل

أحدّثك تفرين
أتبعك تطيرين
عيناك بعيدتان عن حيث أنا
قلبك أغوته كلمات أخرى
وفي حاضري الأعمى
أيامي أيام شتاء

أحدثك وقد استسلمت
لأحلام من هناك
تفرين مني تسيرين على دروب
ما عرفتها خطاي
أتبعك وأخشى
ما تنصتين له في البعيد

ماذا ترى يا حب
مما ليس لي أن أرى
ما تقول تلك الأصوات
الأبعد من حدود ايماني
لي أنا الذي لا أؤمن بك
ولا أستطيع أن أتخلّ عن صليبي

هذه الحياة تنتهي

يا حب مطلقي الوحيد
شموس لا غروب لها
تطلع من أجلك
هذه الحياة طويلة وقصيرة
يا حباً وراء الأحلام

الغد ليس آيتي
الغد ليس مملكتي
لا أستطيع الوصول له
حتى في آخر أسبوعي
المستقبل ما هو
أجهل وأنت تعرفين

تقولين أشياء مظلمة
على عتمة الأزمنة المضيئة
كما قبل أن يتفتح الورد
تكون شجرة الورد براعم
حيث تحطين يزهر الكل
يا السا التحولات

تعليق زيد : فاتني طويلا تفسير هذه القصيدة ، فما أتجاوز حرفيَّتها . فكان لزاماً علي أن أحدث النجدي في شأنها ، وهذا ما سوف أروي لعلّنا نقارب معناها . في ذلك الزمن كنت لا أفهم ما يعنيه أستاذي « بالمستقبل » وهي لفظة كان يستعملها كثيراً (لكن في معنى مختلف طبعاً عن ذاك الذي تعطاه عادة) . لم أكن أفهم أيضاً ما يفصله عن السا كبحر محيط . ذلك أني كنت ما أخذت بعد درس ربّي ناحوم بن صموئيل ، الذي تعلمت منه عدة لغات ، حتى لقد نسيت الكلام الذي حفلت به طفولتي وهو كما يبدو لي كلام شعب من الرحل (وقد أكون اختطفت من ذات قرية لا أذكر عنها شيئاً) وجوههم أشد سمرة من وجهيْ ، يزعمون أنهم من السند ، بلاد بعيدة ، ظننتها أمداً جنة على الأرض ، إلى أن درسني ربّي ناحوم أنها أرض من الهند غنّى فيها الأمير خسرو ليلى ، وذلك عندما طرد تيمور جدود الذين تعهدوا طفولتي .

عند هذا الشعب ، مثلما عندي أنا ، مفهوم المستقبل غامض كما هو مفهوم الماضي نفسه .

القميـــص

ليلة خريف كما يبدو لي

من الرائحة التي حملتها الريح
كنّا كنّا معاً
أين كان هذا أكان من قبل
أكان من بعد لا شيء له معنى
غير حلاوة الوجود معك
فقد الزمن قوته
ولونه وروحه وصوته

ليلة خريف أو حزن
شحوب بيننا نحن
ورائحة ماذا كانت
أكانت من حديثنا عنهما
الآخرين نحن الآخرين
الذين نخشى أن نمسهما على مرآة
وعندما قالت الشفة أحبك
الكل صار وردة سقطت

ذات ليلة كنت لك ربما
أكثر قليلا من أي وقت مضى
وكنت أقل سيادة لنفسي
لم أقل أني أحبك
لم أقل ما يوقظني
أو ما أنام منه نفس القدر
الظل يدور حول الشمس
لكنه أبدا لا يصل إلى نفسه

ليلة من أجل أن أذكرها
أما كان ينبغي أن تكون
أنفاسك أنفاسي
مع ذلك لم يكن شيء مثل نفسه
حلمت فما علمت عن حلمك شيئا

ما كنت موقنا من شيء
مثل يقيني أن الليلة تختبىء
بين المساء والصباح

ذات ليلة هي قميص
فررت مني فيها أسوأ من طائر
لماذا عن خبث ارتديته
فإذا أنت لست حيث أنا
بعيدة في حقيقة
ترتسم بخطا ذئب
ثنيات أسرار رحلاتك
والأحلام التي تجعلني أغار

ليلة هذا قليل ولا شك
ولو أنك تستطيعين عن يسر
ضياع قلبي فيها ودربي
كيف ما كان كيف ما اتفق
وفي خلجات الروح
جسدك مجعد النسيج
أعرف ألفباء المرأة
أكثر أسراراً من النّرد

ذات ليلة كنت وراء الأثر
نزلت الخطا بعيداً عني
ذهبت من سطح إلى سطح
خارج جنتي المفقودة
ذات ليلة ليس إلي فيها نصيب
ففي الكتاب الذي تقرأين
أرى كلمات على الصفحة
مقاطعها من النسيان

الحمّـــى

قضيت عمري خائفاً هذا الشيء الحارق فيك وفجأة أشاحت عينـاك فإذا بي في الجحيم والرعب والشك بالديمومة وفي هذا اللهيب من يديك قضيت عمري أخشى الأحلام البشعة وأن يعود الخوف الذي أهملناه في المرة الأخيرة يا غرامي قضيت كبحار يجد في الرذاذ الفكرة ـ القلق من الغرق قضيت عمري حدك من أجل نأمة كلمة تنهدة اشارة أوما هو أقل سوءاً صمتاً مخنوقاً في الحلق كمحكوم يعد في الدهليز خطا فجر يقترب لكنها تتوقف ثم تبتعد

وتهم النار فجأة بوجهك
أية ريح تثيرها بك فتمزقك
والطيور ترتجف تحت أوراقك
فيك سوف تنزل الصاعقة يا غايتي

من أية شمس داخلية نَجَمَ تكلّس وجودك كحجر تسكنها روح لاهبة حجر من أيام القهر العالم كله عندي حقل مشويّ بلا ظل ولا نبع أبحث فيه عما يبرد جبينك عن ضماد عن ثلج عن لطف من السماء

كيف وجد الألم مكاناً فيك
مع أن القلب أضيق من أن يتسع له
الروح هل تستطيع المرور من قبضتك
جسد دقيق لا حق له بالعذاب

وجهي هذا ما بقي له مني سوى الخوف هل تظنين أن العمر هو الذي صنعه لي وأنت لم تسمعيني أبكي وراء بابك منك لم تسمعيني أبداً أدمى منـك وأنـا أشيح هذا الوجـه لم تري أصابعي تكسر أصابعي تحت الطاولة وتختنق منك أنفاسي كسباح في العاصفة وأنا لا أؤمن أبـداً بالممكن المستحيل ثم انهار

أنت لا تريدين أن ألمسك
تفرين من يدي تنفخين تتأوهين
ويلحق خوفي بأنتك إلى فمك
كخطر أرجأناه لحظة

يجعلك ما لا وصف له وما لا تنفع فيه كلمات أرميها طعاماً شفيعاً إلى الجمر يحدوني أمل

سكران بأن أبعد عنك هذا الظمأ وأن تتلاشى الحمم في سماط مجهول كأن أقول كان كي أؤمن بالنقصان فأرمي إلى الماضي ما لم نبعده عنا إلا في الظاهر وكأنه هدوء الأرض الكاذب بين هزتين يا ألم الديمومة

نامي مداعبة الزمن وحدها تهدؤك
ولندع العاصفة تمر على السطوح
سأسهر على الجمر سوف أذكيه
سوف أطرد الليل من حولك

معطفك الأحمر الكبير على الأرض بطانته من كل الألوان شالك الصوفي الأبيض ويدك تدلت من السرير تمايل دون شعور

تعليق زيد : يقول النجدي نستطيع أن نقول عمن لا يغنى في المرأة إلا مجدها وبريق عينيها أنه محب ، غير أن الدليل لا يقوم أكيداً إلا إذا صحبت النشيد موسيقى امتزجت بالألم وقلق الوجود إلى ظلام الوجه إلى ضلال خطر إلى ذاك اللهاث بالمستقبل . . .

وهكذا كان بوسعه أن يطيل اللحن إلى ما لا نهاية لكنه فضل الصمت .

وقال أيضاً ان الشعراء إذا لم يبرزوا الحبيبة إلا في ريعان صحتها فهم أقرب إلى الكلب من الانسان .

النشيد الثالث

أنا الصليب الذي فيه تنامين
الطريق الفارغ الذي يضرع للمطر
أنا ظلك المرجوم

أنا ليلك وصمتك
منسّي في ذاكرتي
موعدك الملغى

شحاذ في بابك
ضجران لأنك لا تخرجين
على شفير الموت إذا تأخرت

وأظل كما تموت

اشاعة على أذنك
مرآة لك لم تتزين بك

أن آخذك إلى الله على صدري
أن نضم نضم ما نحب
وما عداه لعب بالنرد

أن أتبع ذراعك أن ألمس فمك
أن أكون أنت حيثما مسستك
وما بقي ليس سوى وهم

تعليق زيد : ذلك اليوم وجدت أستاذي خارج بيته وقد أغلق بابه ومدّ اليها يده يبدو انما كان في مسكنه من غنّى له هذا النشيد ، الذي دعاه بالثالث ، وليس ذلك من أجل تعاقب الأبيات ، وإنما من أجل الشخص الثالث الذي اتجه إليه بهذا الدعاء .

وفتح الباب فجأة فأراني الغرفة فارغة ، بضحكة عالية حزينة تدحرجت حتى وادي « حضروه » وهو المسيل الذي لم يبق منه غير صدى في الوادي القائم بين البيازين والحمراء ، نستشفه عندما يختصر القشتاليون جلجلة اسمه في مقطعين دارو ، لا ينقلان الحصا لا يقدران على اقتلاع الجسور .

الفجـــــر

من كان يخطر بباله دون هذا الحب
دون هذا الحزن دون هذه النجمة
أن يوجد هذا المجنون في غرناطة
كمخمل أسود في أذن امرأة
لولاك ما كنت غير مهرج كلمات
بال أنوار ومودة(١)
حصاة ملقاة تحت أقدام الشياطين
لعبة العالم والمسوخ
كان رأسي مفتوحاً لهوى الرياح
كبيت وضع في مزاد

---

(١) bal لا تترجم إلا كما هي وكذلك مودة Mode .

وما كان يهدر فيّ غير نرد الصدى
تقلباته كانت مدرستي

لما طلعت علي ذات مساء هل تذكرين
أين بدأت مغامرتنا
أنت التي علمتني معنى ومذاق الحياة
أرجعت النظر لعيني الفارغتين
أنت التي وجهت خطاي على طريق الآخرين
التي خلصتني من خرابي
أنت التي بفضلك بأعجوبة قضيت زمني
على غير شاكلة الذين لا يعون
بفضلك حملت قسطي من العبء
الذي يحمله البشر الآخرون
ومكاني في جحيمهم وأساي ونصيبي
ورأيت بزوغ الفجر

تعليق زيد : قرأ أستاذي هذه الأبيات لشعراء فاختصموا معه لغرابة قوافيها . قال لهم : « هل تفصح الشمس عن قوافيها مع الأرض التي تغمرها حسب القواعد ؟ سموا هذه القصيدة الفجر مثل السورة التاسعة والثمانين التي تبدأ بالقسم بالشفع والوتر » . وأضاف : « أن القافية هنا لها خاصة الوترية العجيبة القائمة بين الرجل والمرأة والتي تعطي المرأة حق الكلمة الأخيرة » .

قال لي أيضاً : « فيما بعد إذ عاد للموضوع ، أن أكمل قافية هي الرجل والمرأة ، اللذان لا يخضعان للمتّبع ، وأن الشعر هو فن الحياة المزدوجة . وأن يوماً يجيء يغدو فيه الكمال الذي اسمه « زوجان » ملك الأرض الذي لا يحصى عدّه » .

مقاطع عن أمكنة الجلوس

أنا جالس على طرف الرمال
أغني الموت والقبل
في الساعة التي تلتهب فيها السماء
فتمنحني صورة مقروءة
عن المستقبل بلون حكاية

أنا قاعد على حافة الرياح
حيث لا تسمع إلا خفق أجنحة

ولا تموت الضجات إلا فيها
منها العواصف تشتق
غيوم البعد والقبل

أنا قاعد على حافة البحار
وهمهماتها العريقة
تتحدث عن بلدان غريبة
العيش فيها مرٌّ مثل هنا
أيضاً عن آخرين مثلنا عشقوا

أنا قاعد على حافة الزمان
الذي يدق سريعاً أسرع
هل يود حقيقة أن تتركيني
مع هذا لا أستطيع أن أوقف
هذا القلب المجنون الذي يدق مثله

أنا قاعد على حافة الأحلام
التي هي منك فحسب
منك النجمة على السطح
منك الألم الذي يهدأ
منك الفجر الذي يبزغ

أنا قاعد على حافة الصياح
على حافة الحروب والمآسي
لعبت فخسرت روحي
وشعري شاب
أخذوا مني ما أحببت

يزعمون لكل امرىء نصيب
وان الشكوى غير نافعة
هل يسمعونني ماذا يسمعون

أولئك الطرشان عن النحيب
الذين عندهم الدموع ماء

لا يعلمون غير شراء وبيع
صرختي منك هل يرون
كيف حيكت من كل العذابات
كل النيران وكل الرماد
كيف يستطيعون أن يسمعوا

قرن شهيد قرن جريح
فمه مصبوغ بالدم
أنا قاعد بين الأنين
أما اكتفى من العذاب
أمضوا يا ماضين امض يا ماضي

وليأت الفصل قبل أوانه
فصلَ ما له أفق سواك
يا عقلي المجنون
منك يتربع نصف الليل على عرش النهار
ظهر آخر من حب فحسب

سعادة الأول التي فقد
دفع ثمنها الآخر بشقائه
والأغنية أغنيتنا
اتخذت معناها الذي أردت
ثم تقرؤها عيون أخرى

هذا المجنون الذي أنا الآن
حتى وراء حدود موته
رفعه اسمك عالياً
فكتب في كل مكان على الجدران والسماوات
ما لا يقدر ولا يجب أن يضحك منه أحد

نظمت هذه القصيدة يوم اقتلعت جسور الدارُو والبيوت التي تعلوها. وهي القصيدة الوحيدة التي لم يعلّق عليها الطفل زيد . لأن ما أشرنا له حدث قبل أن يبدأ خدمته لدى المجنون[1] . قصيدة لم يفهمها أحد ولو أن كل الناس رووها .

النـــيران

أنا قادم من نسيان بعيد
أنا قادم على طرف مأساتي
ضعي قلبك على الأرض واثْني
ركبتك فوق روحي المسكينة

سيل الثلج الآتي
من جبال ضائعة لا ينمو فيها شيء
لا يبكي فيها شيء ولا يحترق شيء
اشربيه في راحة الزبد

حيث تمر الطيور الراحلة
حلمت الليلة حد البرك
قرعك الانذار
أيتها الكوابيس يا كوابيسي

كخمرة كأس مكسور
أين أنا أسير أرافق ظلي
بنفسجات مسحوقة
تسكر خطوي بعبير مظلم

ها قد صمتت البهشية
ها هو هوذا الرقص الصاخب
حيثما كان كيفما كان

(١) سنة ٨٨٢ للهجرة (١٤٧٨ ميلادية) هي السنة التي قام فيها كريستوف كولومبس برحلة بترارك لسنة ١٣٢٧ إلى أرض توله البعيدة . ولقد كانت في القرن الماضي تعتبر من احدى الأرخبيلات التي ظنوها أولتيماتيلي لسنيكا ، وحوّلها كولومبس ومعاصروه إلى الغرب ، في ايسلندا . وهكذا تختلف أحلام الانسان مع الزمن .

وجر يكفي كي ننزل فيه

نزلت أبعد في ذاتي
أعرف عمق الهوة
أوقدوا النار كي نرى
نزلة أخرى ما رأينا

لما كان زمان فيه
النسيج أقوى من البلى
عندما كان يخفق الزمان
والقلب يضرب على وزنه

عذوبة حلاوة هو قدري
وعلى شفة النائم
مثل السنين واحدة بعد أخرى
ماتت قُبلي

أوقدوا النار انتهى كل شيء
فرقوا الناس والعربات
هي ذي الوقفة التي تنكرني
هوذا الحجر الذي أقف عنده

أصغي مرة أخرى لما كان
لأيام السأم أيام الضلال
الحب أعظم من الرفض
فيه اللذة والألم

انه يمنحني البقاء
إذا ارتجف على اسم السا
إذا زها بلفظة الحب
أولد ثانية في ما يشبهني

يدي على اللوح الممحى
لا تؤمن بما تلمس من كلمات
وما أنا غير نشيد مضى
ما زال يحتفظ بشكل الفم

وتظل حقول الشتاء خضراء
ولو فقدت الزهر والعبير
عندما أنزل إلى ديار الموتى
سوف أبقي عيني مفتوحتين

الحب والموت لهما نفس البريق
أريد أن أرى طرف ذاتي
أوقدوا النار هأنذا
أني أحب

لقد تفوه النجدي بهذه الكلمات ، على عكس القصيدة السابقة ، بعد أمد طويل من ترك زيد له ولا أعرف كيف أبرر وضعها في هذا المكان ، في عكس تيار الزمن كحطام يصعد إلى منبع النهر . لكن ربما كان فيها يوجه الكلام إلى زيد ، دون أن يعرف أين يجده ، فيعود إلى الحقبة التي كان يخدمه فيها الطفل .

الأيضـــــاً

هل حق على النشيد أن ينتهي ذات يوم
هل يتبدل الزمن قريباً
وكما تفترق الطيور
يحل هذا القلب الذي لي

قبل المستقبل ووابل المطر
قبل أن يمحي تاريخنا
ايتوني بعازفي الناي
وانثروا عليهم الدراهم

ولتردد مرة أخرى

موسيقى غرامنا
قبل أن تتلاشى في البعيد
آخر أصوات آخر يوم

هنالك « اسلاميّون » ، أو ما ندعوهم فيما وراء الديار التي تنبت النخيل نوعاً من الفقهاء ، يعتبرون هذه القصيدة منحولة : يتساءلون من سجلها ؟ وزعم آخرون انها ليست أبداً من النجدي ، وذكروا أسماء عدة أدباء ممن نقلوا إلى الغرب تراث الأندلس . وأعتقد انها متأخرة عن ذلك العهد وبوسعي أن أنسبها إلى شاعر من عصر السا كان يعرف اللغة التي يتكلمها أهل بلاده ، أو يعرف منها على الأقل ما يمكنه من فهم الصورة التي رسمت عام ١٨٥١ والتي يرى فيها ضابط شاب أراد أن يقفز كلبه على عصاه مرة ثانية فقال له Ankor iécho ankor أوما يعني « أيضاً » أخرى ، « أيضاً» أخرى على مذهب من يصطنع كلام الافرنج .

[٢]

الحياة الخيالية للوزير ابي القاسم عبد الملك

أغنّي لك أغنية عن مدينة جنوبية
ساد فيها الشيطان

فيل أوكس

أغنية اكسفورد ، ميسيسيبي

لن أدع شيئاً مما عرف عن نهاية غرناطة إلا وأرويه لكم ، أنا الذي تتبّعت مغامرة البشر والله هذه من مرقاة موغلة في القرون والأفكار التي ندعوها المستقبل ، وتاريخ هذا القدر بالصورة التي نستطيع أنتم وأنا أن ندركها . بعد أن عايشنا أكثر من سقوط ، ورأينا موت وولادة أوطان عديدة ، وقرأنا على طريقتنا آية في القرآن من سورة الاسراء تقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وفيما يناقش الحكماء فيطيلون كي يتميزوا الشر فيما قدرته الأوامر الالهية ، نجدنا نحن ، وقد وجب علينا أن ندرك هذا الأمر في خلال تاريخنا نحن ، فأرى كما تخيلت هذا الوزير . الذي جعله الله شبيا . ينظر اليه أكثر المؤرخين ، على أنه كان رجلا محترماً ، لكنهم يجدونه غامضاً من أية جهة درسوه . والخيال في هذا المجال له نفس قوة التراث . وأنا لن أتحدث هنا عن مصادري ولن أدّعي الدقة التاريخية . وأرجح في هذه الشخصية أنها على ما جاءنا في وصفها تلاءمت مع فلسفة السلطة على ما كانت عليه ابان انحلال السلالة الناصرية ، ولا يعنينا فيها أبهّة الذقن أو فخامة الحركات .

ربي أبو القاسم عبد الملك على مذهب المالكية السنية وكان معروفاً بعظيم تقاه . وكان يرى أن السلطة ليست تكليفاً ، وإنما من إرادة الله . وما كان يعنيه من ينقل إرادة الله ، فما الملك إلا السبيل إليها . وهذا هو ما مكن له في الاستمرار رغم اختلاف أمراء غرناطة فقد أبقوا عليه جميعاً وزيراً للمدينة . وما كانت ثروته لتتعارض وتقاه : ولقد ملك أراض واسعة في السهل والجبل تجعله قادراً في التأثير على تموين غرناطة ، وكان له من الأولاد والأحفاد عدد عظيم قسم بينهم ادارة ممتلكاته . ولقد كان له في عبيده ومعتقيه وفلاحيه شيعة يتزعمها ويحسب الملوك حسابها . كما كانت له أربع زوجات ، ومن السراري ما لا يستطيع زيارة احداهن في العام مرة ، على رغم قوته العظيمة وخضرته الدائمة . وعلى هذا اشترى لهن الخصيان السلافيين ، جميلي الأجسام كتماثيل بتراء . لأن الجسد عنده مرآة الروح . وظل هؤلاء على صلة بسلاف الحمراء فكان يعرف منهم هموم ورغبات الأمير أبي الحسن فيسرع بسبق الأوامر بالتنفيذ . واستطاع لما استحوذ على ثقة الملك من السيطرة على البراري والهيمنة على الشرطة بصفته وزير المدينة كما كانت له السلطة على كل أعضاء مجلس الوزراء ، حتى لقد كان بوسعه الارتفاع إلى مرتبة الامارة . ولقد سوّلته بذلك نفسه ، لكن الله أراد غير ذلك .

وفي فترة خاف فيها أن يفقد حظوة الملك (فقد لحق الجفاف بأراضيه ، ومات كثير من فلاحيه) علم من أحد السلافيين أن الأمير ينوي أن يورث الملك إلى اثنين من أبنائه بعد أن شبّا ،

وقد كانا له من أسيرة مسيحية وأن يخلع طفل الملكة عائشة بعد أن ملّها . حتى إذا استشار الوزير صاحب المدينة ، أو ما نسميه مدير البوليس ، قدم له هذا متنبأًهذا اسمه حامد بن سرّاج . وهو من عائلة أخنت عليها النوب ، يقسم حياته بين اللذة والتقى : وقد وضع تحت التعذيب بهذه الذريعة ثم جيء به كي يساعد أبا القاسم في خطته فتنبأ أن التشيكو « الصغير » (كما كانت تسميه المسيحية) سوف يكون آخر ملوك غرناطة .

وتوهم أبو القاسم ، حين اصطنع الفقير ، أنه يستجيب لطاعة الله ، ويؤثر عن طريقه ، إذ أوحى لفرديناند زوج ملكة قشتالة ، أن يدعم « ابني المسيحية » وقد توهم هذا أيضاً أنه يعمل بنصيحة الكاردينال دومندوزا .

وأقنعت السرية الأمير بأن يثبت بطلان نبوءة الفقير . بسيف الجلاد في عنق أبي عبدالله وأخيه الأصغر يوسف : وعلى هذا بعث أبو القاسم من أنذر عائشة وسهل فرارها وابنيها ، واحتفظ هكذا لنفسه بأوراق من أجل المستقبل . ولقد شك الملك بالأمر ولو أنه لم يتأكد . كما أن أبا القاسم ، وقد اطلع على ذلك علماً من البوليس أن مؤامرة تمت بين عشيرة بني سراج وبني السغري ، وقد كان بعضهما لبعض عدوّاً ، ثم ألف بينهم كره ابني السرية فعزما على خلع الأمير وتنصيب أبي عبدالله ملكاً في وادي عش التي نسميها كادش ، وفهم الوزير حينئذ أن ريح الله بدّلت وجهتها (ذلك كان لما نزل الفتى كولومب في لشبونة وبدأ يحلم بجزيرة « تولي » آخر مرفأ قبل المجهول . . .) ونفذت المؤامرة ، حين كان أبو الحسن يقاتل جيش فرديناند في الحامة ، واستدعى الطفل إلى غرناطة ، وأصبح أبو القاسم عبد الملك وزير أبي عبدالله الصغير اعترافاً من عائشة بفضله ، كما أنها أرسلت إليه لما رجعت ، دليلا على ايمانها بمشيئة الله ، كوبا رائعة الصنع خارجها زجاج وداخلها ذهب ملأى بأحجار الياقوت التي تبدو إذا عرضت للشمس وكأنها قطع جليد .

وامتدت المعارك حتى سنة ١٤٨٣ بين أبي الحسن والقشتاليين ضفر المجد فيها اكليله للزغل ، أخى الملك العجوز ، غير أن هذه السنوات لم تكن من تاريخ الوزير الذي نصح في غرناطة ، حسب مشيئة الله ، أبا عبد الله الصغير سلوكاً التزم به ولو أنه سلوك لا ينتسب إلى نزوات عمره . كان الرأي بأن يدع عدويه : أباه وفرديناند ينهك أحدهما الآخر . وهي السياسة التي نشأت عنها سمعة الجبان التي التصقت بالملك الفتى الذي كان يصفر ويحسّ بالاهانة وهو يسمع لقب المذلة التشيكو يجأر به الناس حتى أبواب الحمراء . وساءت الأحوال بينه وبين أبي القاسم الذي ظل يدافع عن سياسته في عدم التدخل . وتريد الحكاية القشتالية أن زريمة زوجة الملك استعطفته عندما عزم على ارتداء لبوس الحرب أن يبقى بين ذراعيها . مشهد أوبرا لا يتفق مع الواقعة التي تفيد أن أبا الملكة ، على العطار ، وهو قائد موقع لوشة (يقول القشتاليون لوخا ، ونحن لوكسا) نصح أبا عبدالله فعمل بنصحه وسار إلى ليسينا وفي نيته أن يعزل الوزير ويعين مكانه رجلا أصغر عمراً من بني السرّاج ، وهم من يدين لهم بالكثير . غير أن فاجعة لوسينا التي قتل فيها عم الأمير ، ووقع هو أسيراً أنقذت أبا القاسم من العزل . وسرت اشاعة أن الملك الشاب قد قتل فحزنت غرناطة أشد الحزن وجعلت منه رمزاً للاسلام . شاعر الزجل نفسه وهو الذي ما كان يقول على ملتقى الطرق غير أبيات شعر مجنونة وجد نفسه وقد اختلط بالحُسّاب ، وهو الاسم

الذي يطلق على قوالي مفارق الطرق (كان ذلك عندما رفض ملك البرتغال خواوو الثاني ثرثرة كريستوفان كولون الذي طلب منه أن يجعله نبيلا حتى يبحر ناحية سيبانجو) .

رثاء الأندلس لملك شاب

أخذتم قلبي من صدري
وأظلمت عتبة الزمان بضربة
ولم يبق لي غير فجر حقود
حين قصفوا نخلة المدينة

انه بقية دم الأنصار
غنوا له آخر نشيد
ما كانت معركته بدراً ولا كانت أحدا
ومن ذا بعده يدفع عن العليّ القدير

أيها الشقي أمن أجل مصيرك
عبروا المضيق الفاصل عن افريقيا
مروا في اثر طارق
الألى شادوا بصباحهم مساءك الفتى

أيها الشقي يا من جاءت أعراقه تتلو
اسم الله في سماء الأندلس
وأنت تروي من قصر وراء موتك
مجد الله من السمت إلى النظير

انه يومك الموعود أيها الشقي
يوم ربيعك وقد داسته الأقدام كفراش
وليدخل الجنة بلا حساب
ذلك الذي كان قوّاماً على الحدود

أيها الشقي ضياعك ضياعي
هل تسمع أيها الزغيبي الحزين
الذي ماتت فيه الصبا العربية
ويبحث الملاك ضالاً فيه عن قبرك المفتوح

كثيراً ما يستعجل الناس فيغنون الملوك إذا حلت بهم مصيبة . أولم يلم الخجل بهذا الذي ارتجل هذه القصيدة لما علم أن أبا عبدالله أسير لا أكثر ؟ خبر قلب المجد واستغلّه أبو القاسم بحيث لا يستغنى الأسير ، إذا أطلق فرديناند سراحه ، عنه وزيراً ويتخلى عن تعيين ابن سراج مكانه . وسرت بين الناس همهمة تطالب باستدعاء أبي الحسن . وخشي أبو القاسم مغبة الرأي العام فاستبق الأمر وأعاد الملك العجوز الذي ثبته في مركزه ، لكنه اضطر لأن يحاصر في الحمراء لما انسحبت الملكات إلى البيازين مع أنصار أبي عبدالله ، وبات مهدداً بهجوم مسيحي يأتيه بغتة أو ثورة في غرناطة . وحافظ الوزير على التوازن بين العشائر ، طيلة أسر الأمير ، واتبع سياسة الأمر الواقع .

وأخذ الحزبان يتصل كل منهما لحسابه بفرديناند ، ولقد عرض الملك العجوز أن يسلم الابن لأبيه ، ابن عائشة ، كي يذبحه لأنه سلّح الشعب ، وعرض أبو عبدالله أن يعترف بسيادة الملكين الكاثوليكيين . أما فرديناند فكان جوابه الزحف إلى غرناطة ، وهو يخرب كل شيء على طريقه ، دون أن يتصدى له أي من الحزبين فقد كان كل منهما يخشى الآخر ، لكنه لم يجرؤ على نزال شعب من مليون انسان مستعدين للقتال حتى الموت بجيشه الذي لا يزيد عن بضع عشرات من آلاف الرجال . وكان كاردينال ميندوزا يفضل أن يدع للزمن مهمة اشعال حرب أهلية في غرناطة . وتلك سياسة شبيهة بسياسة أبي القاسم لاطالة حكمه . واستمرت المساومات بين المعسكرين حتى تم الاتفاق في قصر بوركينا بين الملكين الكاثوليكيين وأسيرهما وهو اتفاق خلو مما كتبه المؤرخون عن شهامة ايزابيلا : ومقياس عظمة روحها تفصح عنه ، التعهدات التي أملتها على أبي عبدالله ، ومنها أن يسلم ابنه ، رهينة هو وأربع أو خمسمائة من فتيان الأشراف وتلك شروط كان لا بد من التفاوض في شأنها ، في المدينة نفسها ، حيث كان أبو القاسم وحده قادراً على تنفيذها . وعندما جاء الملك الشاب إلى عاصمته في نهاية الصيف اندلعت الحرب بين البيازين والحمراء . وذهب الملك عملا بمشورة الوزير ، وضد رأي أمه ، إلى المرية كي ينتظر فيها نهاية تلك الحرب .

عندها أصبح أبو الحسن وكأنه ملك غرناطة الوحيد . وهذا ما لم يكن يرضي أبا القاسم الذي يعتمد وضعه على تعادل القوانين . وعلى ذلك قدّم للملك العجوز كشافة وجواسيس كي يدفعوه بتقاريرهم إلى البحث عن نصر اسلامي في منطقة دندة التي لا يوجد فيها غير حاميات كاثوليكية ضعيفة لكن التحركات الغرناطية كشفت ، وانجلت معركة الملك الشيخ ، في نفس الشهر الذي حبس فيه أبو عبدالله نفسه في المرية ، عن نصر للمسيحيين في لوبيرا .

لكن ، رغماً عن هزائم العرب المتكررة في أواخر سنة ١٤٨٣ وكل سنة ١٤٨٤ (وهي السنة التي قدم فيها كولومب إلى قشتالة بعد أن سرق من البرتغاليين خرائط البحار الغربية التي رسمها توسكانيلي) ورغماً عن انحدار صحة الملك الشيخ وقد عمي فلا يغادر غرفته ، بقي أبو عبدالله في المرية : وإذا بعمه الزغل يظهر أمام هذا الموقع ويحتلّه ، ففرّ ابن الأخ إلى قرطبة ووضع نفسه في حماية الروم أما في المرية فقد سجن الزغل عائشة ، وقتل بيده أخا عبدالله الصغير يوسف ، وابن السراج الذي حظى بثقة الأمير ، وأعمل الجنود السيف في رقاب عشيرة بني السرّاج . فهل استوحى شاتوبريان من هذه المذبحة أسطورته ؟ ومهما كان من الأمر حدث في المرية أم غرناطة ،

كان القاتل الزغل أو أبا عبدالله ، فالشعب الأندلسي لا يرضيه أبداً أن تزهق يد أمير أو يد أخرى دماً مسلماً . في تلك الأيام ، ما كان شاعر البيازين الشيخ يردد كلمات الحب فيتبعه الأطفال وتصيح به النساء : « يا قيس ، هل نسيت اسم حبيبتك » ، أما هو فكان يحرك خصلات شعره البيضاء ويقول :

رثاء الأندلس

هذا البلد الذي لا تنام فيه المياه
عبر سبعة قرون كاملة
لم يهدأ فيها الأعصار
مرّ كربيع
السيل المحمدي العظيم
في هذا البلد الذي لا تنام فيه المياه

في هذا البلد الذي نشم فيه الدم
ارتطمت أمواج السيوف
وكحصان شبّ
كتب الله الغالب إذ مر
على الغبار الارجواني
هذا البلد الذي نشم فيه الدم

في هذا البلد ذي الحجارة الطرية
صعد الطريق
أو ما تفعل بالنار السمندل
إلى جبال المغرة والقُرمز
في هذا البلد ذي الحجارة الطرية

في بلد البرتقال الحلو
حيث ضلّ السائح
وهو يصغي لأنفاس الليل
ثم جلس في الظل الأصهب
ينتظر الفجر المذهب
في بلد البرتقال الحلو

في هذا البلد بلون الريح

كانت آنئذ الخريف
حين يذهل صاحب الأشجار
ويبقى هنا يحلم
بيوم هادىء ورتيب
في هذا البلد بلون الريح

في هذا البلد البعيد عن افريقيا
حيث الفم له طعم الثمار
والحب ناعم كالليل
والماء تمر في القناة
والزمن لا نهائي الفرار
في هذا البلد البعيد عن افريقيا

في هذا البلد الذي صار بلدي
جعلت نفسي على مثاله
حيث موسيقى الصمت
تضبط ايقاع قدم عارية
كطفل يتأرجح
في هذا البلد الذي صار بلدي

في هذا البلد الذي ابيض نرجسا
قلبه مثل قلبي
جعلت الجمال ملكي
وملأت اللازورد بأبنيتي
ليست الأزهار شيئاً أمامها
في هذا البلد الذي ابيض نرجسا

في هذا البلد الذي من ذهب وفضة
الموشى كقدح
الحقول والمدن والناس
كأنها في حلّة «بال»
والهواء فيه عبير الصنوج
في هذا البلد الذي من ذهب وفضة

في هذا البلد ذي الأبراج العالية

الخمر فيه حلال
كان لا بد من أن نجيء
كي تكون لعبة الحب الالهية
من زيتون ومخمل
في هذا البلد ذي الأبراج العالية

في بلد الشعر هذا
الجسد على حرارة النحاس
والقبل تبدو تلاحق
سرّاً من آسيا العتيقة
الأحلام أجمل من أن تعيش
في بلد الشعر هذا

في هذا البلد الذي عطّره الله
أي نسر اسود طار
عالياً وبشرنا بالعقاب
عما نحن وعما كنا
نحن الذين ما حلمنا بغير العشق
في هذا البلد الذي عطّره الله

في هذا البلد الخائف
فجأة من نذير مظلم
قولوا أيها الملوك ما يجري
أية نائبة ولدت عندكم
من جعلكم دميمين في مرايا كم
في هذا البلد الخائف

في هذا البلد تهتز الأرض
تموت السماء وينكفىء البحر
ولا كائن فيه نجاة نفسه
كل شيء كأنه زانٍ بنفسه
لا شيء يبدو كذاته
في هذا البلد تهتز الأرض

في هذا البلد الذي تمزّق شذرا

في هذا البلد الذي اخترمته النصال
هذا البلد المتآكل حتى الروح
الذي أحدق به آلاف الأعداء
حانت ساعة الاسلام
في هذا البلد الذي تمزق شذرا

في بلد الفاجعة هذا
آمنوا بما أقول لكم
عن وميض الحريق
انه مستقبل مرحلة
وغدا نطرد من جنة
في بلد الفاجعة هذا

الشعلة ليست مشعلا
يحملها في قبضته ملك اسبانيا الكاذب
وما يربحه لا يربحه
إلا بلعبة نرد القبر
وإذا كان المشعل رفيقه
الشعلة ليست مشعلا

وخضع أبو القاسم للزغل ، وهو الغريب عن الأحداث العسكرية ، لا يرى فيها غير دليل على ارادة الله . في تلك الفترة بدأ أيضاً الرعب الأكبر في المملكة الناصرية : كانت المعارك حتى الآن بعيدة عن العاصمة وإذا بكوين ومربلة تسقطان ، وتبعتها قرطمة ، ثم جاءت القوات القشتالية فأحاطت برندة .

مدينة دائرة كاسمها[1] ، قدَّتْها في وسطها ضربة سيف عظيمة ، فإذا بالسيل يجري في عمق جُرحها . ما كان بوسع الانسان أن يقفز التاج ، فالشق أسود وعميق لكنها كانت من جهة الشفة الجنوبية مدينة بساتين كتلك التي كنت فيها بائساً . كان في أساسيها نفس العبير وقد امتزج فيه الماضي الروماني ، بالماضي البونيقي ، بالماضي الغوطي ، وكان يظن أن المدينة لا تؤخذ بفضل أسوارها العربية ، وريف الجبل ، والحفر الطبيعية . كنت تشبهين إلى حدّ بعيد ألمي بجرحك الذي يستحيل أن يندمل . والعرب يشدون بركبهم على خيلهم السريعة ، أعصار أبيض ورمادي ، ينزلون على المهاجمين ، يفاجئونهم من كل ناحية . ما كان أطول تلك الليلة التي رأيت بخيالي . . . يا رائحة رندة في ظل جمادى الأول لعام ١٣٤٦ من الهجرة ! لم تستطع السنون أن تطردها من أنفي . هنا يئست من الزوجين .

(١) يتصور أراجون أنها سميت كذلك لأنها دائروية من اسمها اللاتيني Ronda .

اتخذ القشتاليون لهم مواقع في خمسة اتجاهات على طرق المدينة . ومضت ذبابات الاسلام في انهاكهم ، وتهديم ما يشيدون بصبرهم . عندها ظهرت الآلات ، التي بدأت عملها الشيطاني من مواقع بعيدة .

كان ما سمع أحد بعد بالمدافع على اختلاف أسمائها . في رندة ، للمرة الأولى سقطت النيران من السماء على مدينة بشرية ، مطر السوء الذي ورد عنه في السورة الخامسة والعشرين من القرآن . مع أن شعب المدينة ، ما كان أخا فحشاء ، ولا كانوا أمة كفر ، ولا راودتهم اللذة في الذكور . هل رأيتم سقوط مواد النار على السطوح ؟ كيف تتدحرج أجزاؤها مع كرات الحريق ؟ كيف ينفتح الجحيم على بيوت الطيور والأطفال ؟ أكتب ما أكتب أنا الذي كنت أتنزه في باريس وقد خلت فجأة ، في الساعة التي سقطت من السماء أول قنبلة ، عام ١٨ ، أنا الذي رأيت سنة ٤٠ يوم الحساب في دنكرك . . . أكتب هذا في الأيام التي تهدّم النار فيها من جديد المدن والمرافىء على جانب البحر الآخر . كل شيء عندي غدا صورة فظيعة ، أفظع مرآة . .

ان رندة حزيران سنة ١٤٨٥ لا تنسيني وهران ولا غرناطة : هنا النار للمرة الأولى ، ولقد تكامل هذا الاختراع الانساني كي يهدف من السماء بساطة الحياة . بوسعكم أن تقولوا لي أن حريق رندة ، إذا قورن بهيروشيما ، لا يعدو مندرينة بالمقارنة مع الشمس ، لكنما هنا بدأ الرعب وإلى الأبد .

كان الزغل في الواقع قائد الجيوش المهزومة ، ولو أنه لم يكن بنفسه في رندة التي كان أحد أبناء الثغري حاكماً عليها . وهو من عشيرة الملكة الأم ، وزينت جماعة أبي القاسم للشعب أن الابن ليس أفضل من أبيه كما دفعته إلى تقديم التاج للزغل ، فهو محارب بلغ من العمر أشده وعلى ذلك ذهب إليه في ملقة فعرض عليه التاج واتخذ الملك الجديد سمته إلى العاصمة التي فر منها أخوه عملا بنصيحة الوزير . وعملا بنفس النصح ، نقل الزغل ، الملك الشيخ المعزول من ملجئه في المنكب ، أو كما يقول القشتاليون المونيكار ، إلى قصر أفضل مناخاً في الصيف ، في شلوبانية حيث مات منذ وصوله ، حين تلقى قبل موته ، دليلا على العطف الأخوي ، هدية رأساً مقطوعة ، تعرف إليها بأصابعه ، فإذا بها رأس ابنه يوسف .

وأقنع أبو القاسم العاهل الجديد بأن يأتي بجثة الميت إلى غرناطة ، فلا تندّ شائعات أنه حي ، تستغل في التآمر عليه ، أن يجري الدفن سريعاً . أمر ما ارتضاه الشعب فاتهم الزغل علناً باغتياله . وهكذا أصبح الملك الشيخ بعد موته ، حليف الوزير ضدّ شعبية الزغل . لكنما في المدينة كان كل شيء طبيعياً ، طالما ظلت العادة على هيمنتها ابّان الخطر ، ظلت طبيعة ثقة العامة بالحياة . وهذا ما أصف في هذا السجع الذي تعودناه من تلاوة القرآن من صلواتنا اليومية ، صلى الله على رسوله :

مـا تقوله العامـة

نثر العامة لم يبدل عوائده نفس قافلة الجرار ضجة خيل محدية أصابع سلال مجدولة

صياح الحمّارين طقطقة الخفاف صوت أعمى يشحذ
وفي السهل تختلط بجريان يد اسنان في قوارب الفخار طنين نحل ولف على بكرة تلك هي

رياح الثلج في جبين أشجار التوت في بساتين البرتقال
الحرب القائمة في مكان ما لا تعنيهم وماذا
تبدّل في قسمة الرز الذي يؤكل بفليفلة حلوة
في تعب الأيام الآلي وهي تمضي في جهد الحفارين في ما يحملون من أثقال وضنى العيون على حسابات التجارة

في رائحة خروف مشويّ
ماذا تبدل هذه الحرب القائمة في مكان ما بفخذي الخياط المتصالبين بالكتف التي جرحها حمل الحجر بصيحات امرأة تضع

شعر موزون خلقوا للبحر الطويل وللرويّ « ر » في حريرهم وسيوفهم السمراء هم زهور البساتين المعلقة تماثيل

السطوح في أماسي القمر حين تنزل عليهم الرطوبة كبرنس خفيف من الجبال

هم الذين عرقهم من مسك ومن قرنفل أصفر أنفاسهم

انهم ولا شك يتحدثون فيما بينهم عن الحرب بين ضحكات وأغاني نساء الحمراء

فعالمهم التي بها يتأملون سوف تمسي أبيات شعر تندرج تحت خطوهم كأنها أرض فارس حالت نسيجاً

يعيشون في الأعالي في دقّ ورهج الطبول الطويل الدائم لكن لا
طبول تضربها عصّي أو
تداعبها أغصان ريحان لا أو
قفز بلا وزن لراقصين أقدامهم عارية وكل يوم
يتهالك أمامهم رسل أضناهم التعب يحملون أخباراً تصلنا منها نتف
وكل مساء يزداد فخاراً بموتى النهار
ما يحدث لا ندركه كثوب فصّله الخياط على غير قياسنا
فلا نعرف عاليه من سافله ولا الكمّ من الرقبة
فهل وقعت خطأ على بازار لا تعرض على حصره الأثمار مجهولة
قعوداً على الأرض لعلنا نفهم خصومات الأبطال
الرائعة القسوة تختلط فيها
وقائع تراجية جمل جميلة تحفظها عواطف عظيمة
وهم على كل حال كائنات من لحم ودم تحت رحمة السيف وكثيراً ما
يا لكرم ضربة الجلاد
نرى رؤوساً تتدحرج على المرمر الوردي ثم يغسلون الدم بدلاء ملأى

أبناؤهم أنفسهم لا ينجون
ثم وبعد نشيد برونزي إذا مر السفراء
وقد أعجبهم البناء والتهذيب
يعودون إلى أوطانهم القصية ومعهم
وعود بالتحالف وأشياء بلغ صنعها الكمال
لكن هذا لا يمنع روايات الجنود وقد علاهم الغبار
ولا ضجيج أسوار المواقع الضائعة التي سقطت في البعيد
والأسنان القشتالية تقضم حبة حبة غرناطة
ويقام الصليب مسبة في وسط جامعها كما في قرطبة
سعداء نحن إذا لم تزأر المذبحة هنا كوحش مجنون
مع هذا لا بد لنا من أن نمد جلود الدباغ
وأن نجمع بعضاً إلى بعض خشب التوابيت وأن نخيط السروج
أن نطبخ الذرة وأن نحمل سلال التين ونحن نترنح
يجب أن نذيب الجبس وأن نعدّ
الحليب الملون الذي تطلى به القباب
ويمضي يوم بعد آخر ومعه أثقال العمل والدهشة والألم موتاه وولاداته
لا وقت لدينا نميز فيه بين القش والغبار
ويقول الشيوخ أن الأمور كانت دوماً كما هي
فالجار يشتهي زوجة جاره والسيد يتصرف بالعبد في فجوره
كانت دائماً حرب وضريبة الفتيان الذين لا يعودون
وما دام هنا لك بشر فلا بد من وجود اللصوص والملوك والسكارى

كان مزاج الأمير الجديد وقسوته يهددان كل يوم رأس الوزير ، فعزم هذا على الاتصال بكاردينال مندوزا فيحيطه بالعطف الذي أخذ ينعم به أبو عبدالله عند شعب غرناطة الذي بدأ يسميه بالزغيبي شفقة وحناناً . وسمح فرديناند للملك الشاب بأن يقيم في شمال مقاطعة المرية ، على حدود تدمر تقريباً . في فيلزبلانكو ، لعله يدخل عاصمته من هناك إذا استطاعت الجيوش المسيحية تثبيت قوات الزغل في الغرب . في تلك الفترة مكن الكاردينال دومندوزا كريستوف كولومب من الاتصال بالملكين الكاثوليكيين في قرطبة . لكنهما كانا مشغولين بأمر آخر ، هو التحضير لعملية واسعة .

كان هدف فرديناند لوخا ، التي نكتبها لوكسا ، ولا يفصلها عن غرناطة غير عشرة فراسخ . وخشي أبو القاسم أن ينفذ الزغل إلى لعبته المزدوجة فأرسل في طلب حامد بن سرّاج الذي خبأه مدة طويلة في قصره أيام ملك المدينة أبو عبدالله . وكان هذا وصل إلى كمال القداسة ، أي حين اختفى أكثر شهود شبابه الفاسق أو فقدوا ذاكرتهم فكان يرى الناس فيه قدّيساً ، يعتاش مما يقوله على عتبات البيوت من كلمات يختلف تفسيرها حسب ما يعطى قطعة من خروف أو بعض الأرضي شوكي تبعاً لثروة الناس . ولقد دفعت أخبار حملة الملكين الكاثوليكيين إلى التحامات دامية

بين حزب الحمراء والحزب الشعبي الذي يهيمن على البيازين .

وكان إذا برز حامد خلال المعارك توقف القتال للاستماع له ، فكان يستنزل اللعنة على الزغل والزغيبي . ولقد كانت حركة الفكر عند الأندلسيين العرب مثل النار في حطب الصنوبر : هبّة ريح ويحترق كل شيء . وبان الخطر عظيماً لعيون القوم والنبلاء فاتفقوا على حل وسط اقترحه أبو القاسم : السلام بين الملكين واقتسام المملكة ، فيكون الوسط بما فيه غرناطة ومدن الساحل الجنوبي للزغل ، ولأبي عبدالله المحيط في الغرب والشمال والشرق كي يكون منطقة حامية للعاصمة ، تقبل فيها السيادة الكاثوليكية . لكن فرديناند أصمّ أذنيه ، أما أبو عبدالله فقد قبل هذا الدور بناء على وعود وزير المدينة السابق عنده ، وتقدم ناحية لوكسا فوجد نفسه أمام الجيوش الكاثوليكية . منذ رندة لم يستعمل المسيحيون مدافعهم فقد خافوا من قوتها . لكنهم هنا ، في شهر أيار سنة ١٤٨٦ ، عاودوا ما فيه نهاية العالم ، وأجبرت هذه المرة عساكر أبي عبدالله قائدها على التسليم . واتهم شعب البيازين الملك الذي أمامه في الحمراء بسقوط المدينة ، والشروط التي أمليت على الزغيبي ، ما خفي منها أو ظهر ، والمواقع التي احتلها ايزابيلا وفرديناند ، وخاف الزغل أن يضيع غرناطة إذا خرج منه ، فلم يعترض تقدم العدو وفقد بذلك كل الثقة به . وما كان ايزابيلا وفرديناند ليجرؤا على استعمال السلاح الجديد ضد المواقع الأندلسية ، بعد أن تبينا قوته المخيفة ، لكن كان يكفيهما أن يركزا المدافع تحت الأسوار حتى تستسلم الحاميات .

وهكذا استطاع الملكان الكاثوليكيان بقوة الههما هذه أن يكفرا بالله مدناً كاملة ، وهما يقدران أن تتبنى تلك المدن سبيلهما في الحياة والموت يا دينا جاء والنار ! لكن الصلاة الموسومة بالخوف ليست سوى تمتمة ، وقامت ثورات في المدن التي بدّلت دينها ، كما أن المتصلبين ، حين أجبرهم ذوو قرباهم ، فضلوا الموت على الملاينة وفروا وانسربوا إلى غرناطة من كل ناحية كماء ممسحة معصور وكعرق الفخار . والتسليم في غرناطة مستحيل لأن اللاجئين يقتلون كل من يتحدث عن الاسلام . وهل يفكر اليوم الملكان الكاثوليكيان أن تلعلع مدافعهما أمام العاصمة وقد ظلت خرساء في ايلورا ، وموكلين ، وزغرا ، وبانيوس ، وأنتقيرة ، وهو يسكار ، وبسطة التي لا أجرؤ على تسميتها بازا إلا بعد سنتين . . . هل فكرا باخافة غرناطة ؟ أو لا يجازف من يطلق النار على الحمراء بأن تلعنه الانسانية جميعاً ؟ أو لا يخدش اسمه حناجر الأطفال ؟ هذه القناعة جعلت الحياة تندرج وهي يمازجها خوف يوقظ الناس في ليلهم ، لكن من يراهم في النهار يكاد يقسم أنهم نسوا . ولو أنها أكثر الحاحاً عند القائمين على حراسة الحدود باسم الله ـ أو ليست الاقامة في الثغور أقرب إليه من خوض المعركة ؟ يصيحون في الظلام كي يذيبوا الأشباح كسكر في القهوة . .

الذي قال الرجل لابس الظل
ذات مساء في البرج
الذي يظل على السهل المظلم

من الذي بلغ قلبه قتاما

يدفعه لأن يحمل فيه الموت
من الذي بلغ قلبه من القسوة
ما يجعله يرمي غرناطة
بنار تلهب الفقراء
قاتلة حارقة
لكن الكلمات تتعطل

وكضبابة على المملكة
تتوقف ما تعنيه يضلّ
يتيه بين البارحة والغد
وتبقى اللعنة
معلقة على شفاه البشر
تضيع في النظرة
تتردد ترتعش تموت
في رعب كسدوم

أحقيقة يا الله أحقيقة
ينتهي جمال الأيام
ويمحي من الذاكرة
ما كان مدينة
موسيقى تاريخنا
كل ما كان جسداً
شعبا عالما روحاً عمرا
حلم الملوك والأشجار
الأشياء التي لمستها أيدينا
حوار الغيوم
والمياه التي غنّت على المرمر

في البدأ كان رعب في أشرعة السفينة وقد خفقت فيها الريح تذكّر بالقدر واصطدم بالصاري جناح طائر عظيم أسود . وفي رفوف شمع الخلية ، ذهب الظن إلى أن ما يجري هو يوم كسوف لا ظلمات خالدة . واستمر البشر بالحب قناعة منهم أنهم سوف يعيشون ، وحطت اليد على الحجر دون خوف من القبر .

في سنوات الخوف الأكبر هذه ، قنع شعب العاصمة ، بجبن الزغل ، وبدأ يلهج بوجوب تصفيته جسدياً ، متعللا أن يقوم أبو القاسم بالادارة دون تاج . ووصل فرديناند عن طريق المرج إلى غرناطة ، لكن المعارك كلفت كثيراً ، فرجع الملكان الكاثوليكان إلى قرطبة ، بعد أن انكفأ الزغل إلى داخل الأسوار .

وتنفس الزغل ، فسوّد في العاصمة الرعب ، انتقاماً من المؤامرات التي تهددته ، فألقى ببعض إلى الجلادين ، وصادر ممتلكات بعض آخر ، وطرد مئات من العائلات بكاملها . وعمد إلى تثبيت سلطته على المملكة دون رجعة ، فخطط لقتل ندّه ، الذي رجع إلى فيليزبلانكو . وكان الوزير عالماً بخطته ، فأنهاها إلى الملكة الوالدة . وأرسلت هذه إلى أبي عبدالله أن يلحق بغرناطة لأن حركة تتمخض فيها لمصلحته .

لكن لم يكن قيس وحده هو الذي ينشد في النهج عواطف الشعب ، الذي تعب من الأمراء وخصوماتهم ، التي يدفع ثمنها كل مرة . وبرزت فكرة حكم الجماعة الانتخابي .

رثـــاء آخـــر

يا رملا قسّمته يد الملوك
قاس أنت على نفسك إذا واجهت نفسك
أيها الشعب يا من لست غير دم يهرقون
غير أحشاء خيول يجرونها في الحلبة

أنظر انه مثلك ذاك الذي يقتلون
أعطوك الحجر والسكين كي تكون
جلاد نفسك حين تختار سيداً لك
وعلى من تهوي ضربات ذراعك

على من على أي جسد صراخه يمزقني
يرتسم عليه أثر السياط الأبيض
تضرب فمك ذلك هو هوسك
سقوطك صياحك شهادتك أنت

يا رملا مقساً أكثر من حب قنب
يا شعباً كسروه آلاف الشظايا كمرآة
أبوسعك أن تؤمن بعد بأمراء الله هؤلاء
الذين يلعبون الكعاب بحياتك على بطنك

أنت يا من تحمل صورة الموت في بؤبؤك

وعلى جسدك الجريح صفرة الجوع
أنت يا من لا تعرف من النهار غير عمل لا نهاية له
كأنك تخلد أوجاع الأمهات

حتى متى تظل العملة والثمن
الذي يدفعه الآخرون كي تكون لهم السماوات
حتى متى يجب أن يكتب وجهك
سيف الملائكة لمجد الله

جمع ظهور أبي عبدالله المفاجىء حوله فقراء البيازين وقد ارتد عنها الزغل إلى الحمراء حين خرج لحربه . وظلت المعركة طويلا غامضة النتائج ، فجاء فرديناند في هذا الوقت إلى بلج أو بقول آخر فيليز ملقة فحاصرها . ولقد زعموا أن أبا عبد الله طلب منه النجدة : ولقد كانت سياسة فرديناند ، بناء على وعود الملك الشاب ، ولو أن هذا لم يطلبها لكن نبؤات حامد بن السراج في البيازين وقد كان منها أن أثارت الشعب ضد الزغل ، تميل إلى أن تثبت الوزير ربما كان هو الذي استدعى الروم ، حين وجد نفسه في خطر مزدوج ، ولقد عمد إلى نصح العم بمحاولة الاتفاق مع ابن أخيه ، فيتنازل عن التاج ، ويذهب لنزال المسيحيين في الجبال كي يرفع الحصار عن بلج . لكن لما رفض أبو عبدالله العرض ، قرر الشيخ أن يبقى في المدينة قوات تكفي للمحافظة على الحمراء في غيابه ، وأن يسير على رأس جيش إلى المسيحيين ، لعل فخار النصر ، يجمع الشعب حوله ضد أبي عبد الله .

لكن الله شاء غير ذلك ، وعندما رجعت قوات الزغل المهزومة إلى العاصمة ، وجد أبو عبدالله أن الشعب برمته والوجهاء يحبونه . ولم يعدم غير أربع شخصيات كانت خيانتهم له واضحة . ولقد أذهل كرمه هذا كل شيعة الزغل فاعترفت به ملكاً . ولجأ الزغل فيما بقي له من جيش إلى وادي عش ، التي يسهل الوصول منها إلى غرناطة إذا قامت فيها ثورة . وتلك كانت نصيحة الوزير ، الذي بقي إلى جانب الملك المؤقت ، خدمة لسيده الحقيقي .

انشغل المسيحيون طويلاً في حصار ملقة واخضاع بقية المواقع العربية في غربي المملكة ، فنعمت غرناطة بفترة هدوء ، اعترف فيها أبو عبدالله بسيادة فرديناند ، فرمم ما خرّبته الحرب ، وحرث وشجر المرج . وعادت التجارة فازدحم التجار الأجانب ، واستؤنفت المبادلات مع باقي اسبانيا ، وايطاليا ، والمغرب ، ومصر وفارس . رجعت الثروة والحياة سريعاً حتى ليخيل أن ذراع الله توقفت عن ضربها . غير أن الأمير وقد شك بوزير المدينة ، كلف بالمالية والعلائق الخارجية البربري يوسف بن قوميا

سنة ١٤٨٨ جاء كولومب إلى المرسية وقد كان فيها ايزابيلا وفرديناند . لكن هذا كان خرج من المدينة بأربعة عشر ألف فارس وأربعة عشر ألفاً من المشاة ، وقد عزم على احتلال الأراضي الشرقية التي يملك عليها الزغل وسقطت المدن سريعاً خوفاً من النار الكاثوليكية ، وحاصر الملكان الكاثوليكيان المرية وبنفس الوقت بسطة ، مفتاح وادي عش . لكن السيول التي خربت الأندلس

المحتلة وقشتالة والآراجون أكرهت فرديناند على العودة عن القتال تلك السنة . وفي سنة ١٤٨٩ رجع إلى بسطة . التي أمر عليها السيد يحيى ، ابن أبي الحسن والمسيحية . وقاوم هذا الأمير الحصار حتى الخريف ، لكن الزغل أرسل إليه أنه لا يستطيع المجيء لنجدته خوفاً من أن يرى وادي عش بين يدي أبي عبدالله . عندها سلم السيد يحيى الموقع الذي جاءه كريستوبال كولومبو كي يرى فيه الملك فرديناند ، ودان سرا بالكاثوليكية ، ثم ذهب إلى الزغل كي يقنعه بأن الله قدر ضياع المملكة فما له إلا أن يتخلى عن القتال . وأقسم كولومب لايزابيلا أنه سوف يعود بذهب أوفير وسيبانجو كي يخلص القدس . وقبل نهاية السنة استسلم الزغل .

يا أبا عبدالله ، يا محمد ! لسوف تتهم بكل الموبقات والخسّة . لكنهما أخواك من أبيك ، ابني المسيحية الهجينين ، وقد أغراهما التاج ، لا أنت ، اللذان يحملان في المقبل لقبين اسبانيين ، فيخلّد عرقهما سليل السيد النيّاز والسيد يحيى ، وقد أصبحا دونْ بيدرو دوْن الونزو غرناطة ، ذكرى الردة أبدا . وكيف نزعم مقارنتهما بك ، باسم الأمانة للمملكة ، مع أن السيد النيّاز هو الذي دفع أباه للتخلي عن عرش المدينة لمصلحة الزغل ، مع أن السيد يحيى ، بعد أن سلم خيانة بسطة ، فاوض في التحالف بين المغتصب العجوز والملكين الكاثوليكيين ، وأخذ رشوة مثله أراضي في البشارات ، أو ما يسميه العرب مراعي ، أو ما نقول نحن البوكسارا تبعاً للأبخارا القشتالية ، ثم دفعه إلى تسليم الروم ووادي عش والمرية . وكيف نقارن حيل أبي عبدالله ، ودبلوماسيته بالغدر المسيحي ، ونسيانه عن احتقار للوعود التي انتزعها منه فرديناند لقاء حريته ؟ لقد اشتروا الزغل بأرض أندرش ، أندراكس في لغتنا ، في وادي الحورين ونصف ممالح المالحة . . . وأبقوا له على لقب ملك أنداراكس . كان ذلك في آخر أشهر الخريف القمرية للهجرة ، أي عام ١٤٨٩ في تقويم بيت لحم . من ، سوى وزير المدينة ، يحرك ثورة شعبية في تلك الأيام في غرناطة تحمل أبا عبدالله مسؤولية ضياع غرب المملكة وتنادي بوطنية الزغل ؟

وكان في غرناطة كثير من الجواسيس والرسل القشتاليين مهمتهم شرح انتفاضات الرأي العام المفاجئة ، التي تريد أن يحمل الزغل راية الاسلام مع أنه على نقيض الظواهر حليف ايزابيل وفرديناند . ومن أين تجيء الشعب ضجة الخيانة وقد زرعوها على خطا أبي عبدالله ؟ كانت حجة الملكين الكاثوليكيين ، وسلاح التشهير ضد الأمير ، أن تركوا سرا بينهما وبينه ينسرب للناس ، مفاده ، أن ملك غرناطة لما كان أسيراً وعد بأن يسلم المدينة والرعية للعدو .

وفوق ذلك اتجه فرديناند إلى عاصمة المملكة ، وبدأ تهديداته لأبي عبدالله ، باسم التعهدات التي تكفل بها هذا لما كان أسيراً وجددها بعد سقوط لوكسا . في الأيام الأولى حاول ملك غرناطة البائس أن يراوغ ، حسب نصائح أبي القاسم المهدئة ، ولو أنه فقد إلى حد ما الثقة به . وفي الواقع ، اعتمد فرديناند في الخريف على وعود الأمير بدخول غرناطة دون قتال : بعد أن هدد عبثاً أبا عبد الله ، بتهديم المدينة ، إذا لم ينفذ ، ثم انسحب شمالا لقضاء الشتاء ، وترك لمقدمة مقاطعة الخاين ، أي خيّان ، مركز الكالالاريال . كان جواب ملك غرناطة ، غزوة في المرج ، طردت منه الحاميات المسيحية الصغيرة وحررت كله . وأقيمت الاحتفالات في عاصمة المملكة .

عند عودة الجيش ، انفجر قلب الشعب أمام الملك محمد ومن حوله وزراؤه . وكان بينهم

صانع النصر الرئيسي المحتسب ، موسى بن أبي العازي ، ومعه نعيم رضوان ، ومحمد بن زيّان ، وعبد الكريم الثغري . وانتصر شعور الفقراء على النميمة . وضربت أيدي النساء على شفاههن ، ظنا منهن أنهن يحتفلن بالسلم ، في ايقاع شبيه بغناء الورشان (أوها أوها أوها !) وصعد الموكب إلى الحمراء على هذا الطبل من أفواه ، أجنحة أجفلت ، ترجيع حلق ، سير رجال ، أعلام تمايل ، حمحمة خيل . عندها فهم أبو القاسم أن سعده انقلب ، وتساءل قلقاً ماذا تنتظر منه بعد الآن ارادة الله .

الزغاريد

على شرف دخول محمد بن أبي الحسن بن عبدالله إلى غرناطة (أعانه الله وأيّده) .

القوس التي تشدّها ذراع الملاك
تبدع ربيعا في قلب الشتاء
في ألوان شفاه إلهية
فوق المدينة السماء زرقاء
تمطر فتهمي زهورا
تعطر الهضاب
من أجل عودة الفرسان
ارتدي النصر عقده
والشيخوخة بارحتها التجاعيد
تراكضت المدينة جميعاً
كل المدينة في النهج
تركت كل البيوت فارغة
الطقس جميل منتصر
حتى ليغدو الرجل كطفل
والمرأة كنجمة
والعالم صار قصرا
كل ما فيه يضحك يلمع يعجبني
كفم تحت قناع
أضرب فمي بأصابعي
رَدَّ لي الله ما كان به مدينا
والحمائم تطير على خطاي
الليل والنهار باتا دثاري
عانقت الحياة بذراعي

والموت ليس سوى كلمة
سوف يعود البدء منذ آدم
الشباب وأسنانه الجميلة
من فجر ومن قحّة
الأرض التي تجري فيها المياه
تحدث الطيور عن الحب
في الهواء القادم من فلنسية
المساء حلو كوجنة
ولعبة الشفاه التي نلعبها فيه
يرطبها خمر القمر
يا مملكة أغاني
القبل فيك هي القبل
لما يهب نسيم بامبيلونا
يا مملكتي التي من جواهر
أين كل الرعية الملكية
إذا خفق فيك القلب ماذا يقول
يا مملكتي التي من بساتين
تتفتح فيها زهرة الأفراح فجأة
على مجد أبي عبدالله
يا مملكتي المستعادة
كزهرة في طريق
أو نفلة من أربع في الحقول
يا مملكتي الخافقة
كما في قلب الزمن
يضطرب الهزار
يا مملكتي يا للجمال
نزعت ثيابك
جئت عارية يا لك عجيبة
غرناطة يا سري أنا
لا أقول إلا قريباً
خافتاً اسمك في أذنك

[٣]

١٤٩٠

. . . وقف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم في المسجد وأشار بيده بالسلام إلى جهة الغرب . قيل له آنئذ : إلى م تشير هكذا يا رسول الله ؟ قال : انهم قوم من أمتي يحلون بعد زمن في أقصى الغرب ، على شاطىء اسمه الأندلس ، فيها يتم آخر مدّ ديني . ان حراسة يوم فيها أقرب إلى الله من سنتين في أي ثغر آخر . الحي فيها دائماً حارس ، والميت شهيد . . .

عن ابن عباس
رواه ابن هذيل الأندلسي

يا جبال ، ردّدي أغانيه ،
وأنت يا طيور . . .

وخفقت من جديد أعلام بني الأحمر مع الرياح في مجموعات من سبعة فوق آلاف الرايات من الحرير المخطط ، رايات العشائر والقبائل . كان أمير المسلمين يخرج من قصره أيام الاثنين والخميس ، تحيط به الأعلام والطبول ومعه المشايخ والوزراء ، والقضاة ، والعلماء ، وكل جنده ، أي النخبة العسكرية ، فيذهب إلى خارج المدينة فيما وراء النجد ، إلى جبل السبيكة ، حيث يرقد أجداده في المقابر ، ثم يتقبل في قصره ، وقد أحاط به أقربوه ، شكاوى الرعية في قاعة للعدالة . وكان أهل غرناطة ، أيام الاثنين والخميس ، يلبسون أحسن ثيابهم ، فيجيئون الملك ، يسألونه العون ، في ضريبة أو قتل ، في جريمة أو قانون . وما كانت في العالم مدينة ، يغسل فيها الناس ثيابهم مثل الغرناطيين ، حتى لقد قيل فيهم أنهم يخربون بيوتهم بالصابون الذي يفركون به ثيابهم .

يا لآخر شتاء من الاستهتار .

باتت ليالي غرناطة أغاني خلف الستائر من نساء بيضاوات وسمراوات يشبههن الشعراء بطيور اختفت بين أوراق الأشجار . أما الراقصات فما كن يتحجبن لأن جمال وجوههن كان فيه ملامح الهية . أكثر من هذا كان سكر الأصوات الموزونة أدهى من سكر الخمر ، هيمن عليها فكان مجدها . وما ينسى أحد ولو أن الآلات الوترية استقدمت من بغداد قبل خمسمائة عام ، وقد نما هنا فن اتساق النغم الخفي وحده ، أعني دون أن ترافقه الكلمات . حتى أن ، لهو الأغاني هذا الأخرس اللفظ ، لما قطع البحر ، سمته افريقيا وقد كان مجهولا لديها ، حين لم تجد تعبيراً تطلقه عليه ، باسم غريب هو كلام غرناطة . وانتشر هكذا نوع من فسيفساء النغم أو موسيقى تختلف عن الأغاني القديمة اختلاف زينة الجوامع وقد غدت لوحات فارسية نرى فيها الخيول والجميّز ، والمحاربين وأحياناً راقصات وكلاباً . كأن غرناطة حينما أحست فيها بوادر الموت ، لم يبق لها على ما يبدو من هم غير أن تملأ نفسها بهذه الجمل الخرساء ، التي تقول بالنحيب والضحك ما لا تستطيع الكلمات عما ليس له تعبير في الحياة . هكذا كانت غرناطة كلها رائحة موسيقى ، وحفلت البساتين بالمزامير في تلك الحقبة فكانت أكثر عددا من الأزهار : فهنالك جوقات على الأسوار وفي الأبراج ، والعود ذو الأوتار الخمسة يجاوب قيثارة تصاحبها في الأحياء الواطئة آلات البندور . ارجوان الراقصات صار اكليلا معلقاً على نوبات الآلات . يا رائعة ! لم يعط أحد أي معنى لهذه الأصوات المتناسقة ، مع أنها خشخاش ينام عليه عقلك ويحرر حلمك . أنت وحدك تكتبين اسطورتك على هدير هذا الخطاب الذي لا مثيل له . هذا الحشيش يمنح روحك جناح الأبدية . انها غرناطة التي تبكي كماء نبع ، أوحب بلغ لذة دون حدود . . . غرناطة يا من لا تستطيعين ايماناً إلا بلذتك العميقة . . . غرناطة في ليل رمادي وردي مثل يمائم . . . غرناطة ذات هديل الأوتار فوق مغرب طبلات وطبول العامة . . . ناسية بلابل المدينة وبغداد ، ترجع غناء اندلسياً في حلقها وقد قدمته إلى الحرية . . . غرناطة هوذا اسمها الذي في حمرة الرمان في اللغة ذات الأسنان الجميلة التي تقال فيها كلام :

كلام غرناطة

هذا النشيد لا يتجزأ
كأنه لغة الطيور
قفص بلا قضبان

ولا حواجز تعيق خطاه
نزهة خالدة

هوذا كلام غرناطة

أين تبدأ أين تنتهي الكلمة
تموت فلا تدع ميراثاً
ليست فيها حصة إلا
للتنهدة والنحيب
والظل والسيرينادا[1]

هوذا كلام غرناطة

في هذا المناخ الرقيق
تنام الروح وراء الجدران
والعود لا يتمتم إلا
بحلم بين الضحك والبكاء
فكأنه لا يحدث أحداً

هوذا كلام غرناطة

فيه ينسى الصوت الانساني نفسه
كصورة في مرآة
كما تندهش السباحة في الماء
ويعجب المجنون بجنونه
ويضيع الطيب بين الأصابع

هوذا كلام غرناطة

الفكر كي ينظم على قرص
اصطرلاب ما أجهل كنهه
دورته مقطعاً مقطعاً
يضيع لأنه من دون مسطرة
في عمق سماء كبرى

هوذا كلام غرناطة

صلوات من دون اسم الله
لا يعلم أحد إلى من أتقرب بها

---

(١) عزف أو غناء ليلي يقوم به العاشق تحت نافذة محبوبته .

أأجدف أم أتعبد
إلى أية سموات تتجه عيناي
المستقبل أم الزمن الراحل

هوذا كلام غرناطة

أين تفرين يا غيوم
ما تكتملين حتى تموتي
من ذا يحس في دربه
ما يقول العبير للريح
لغز ألغاز لغز

هوذا كلام غرناطة

قُبل ما تمنح حتى تزول
بروق صيف بلا عاصفة
سفن أسلمت للغرق
أطفال جميلون بيعوا بخمر
كفم يتحدى

هوذا كلام غرناطة

ليس له قافية ولا تعليل
أقدام عارية تعدو على شاطىء
صيحات من يقطرون مركبا
كبذار في غير أوانه
يا موسيقى يا نغماً صاخباً

هوذا كلام غرناطة

المرآة الحبيبة

من يعلم ، ربما يكتفي الغزاة ، بعد أن أخذوا المدن ، بالسيطرة على المرية ، ووادي عش وبسطة (جواديس وبازا في لهجتهم) . . . وهيمن الهدوء على العقول في المدينة وقد امتلأت بضائع ومؤناً ، ما عدا أبو عبدالله . . . ماذا بقي لهذا الملك ، ابن السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من طفولته الخرافية ؟ كان فيه احساس مر وعميق بمرور الزمن ، وهو يعلم أن القشتاليين ، وقد استولوا على شطآن الأندلس يستطيعون أن يفصلوا غرناطة عن الجبال الجنوبية ، البشارات التي ترفد زراعتها المدينة ، وما كان يريد إلا أن يستغل ما بقي له من العظمة الناصرية ، كمحكوم بالاعدام يطلب قبل أن يصعد إلى المحرقة أن يعزفوا له لحناً راقصاً . . .

والحياة في الحمراء تنقضي كما كانت حياة الحلم الاسلامي العظيم ، ليس فيها غير جمال البناء والأرقاء ، وبرودة المياه الزرقاء ، والطيور المتعددة الألوان ، وهذر السعادين ، والأيائل ، والأسود الحجرية . . . ما كان الملوك يطمحون في عدالة الحياة الآخرة . وهل يمنحهم الله ما هو خير من حريم فيه ألف فتاة كاملة ، أو في جنة قاعات الظل والمرمر ، والجداول وعوسجها العطر ، والأشجار والزهور ؟

كانت تسكن في الجهة المقابلة ، عائشة ، الملكة الوالدة ، في جنات العريف ، حيث تتقاطع النوافير أمامها كسيوف من مطر حتى أسفل الهضبة . كان أبو عبدالله عندما تجهده نصائح الحاجب يوسف بن قوميا الذي كان لا يرى شيئاً إلا المال ، وما كان ذلك أسوأ ولا أفضل من الزمن الذي كان يصغي فيه لوزير المدينة السابق ، أبي القاسم عبد الملك ، الذي ما كان ينطق فمه إلا باسم الله ، ولا يقترح شيئاً إلا استقاه من القرآن . . .

ذهب وقد أعيته شكاوي المدينة إلى أمه الشابة التي ورث وجهها ، كمرآة حبيبة . لقد اتهم بأنه أمير مائع لأنه كان هنا يأخذ النصائح الوحيدة التي ينفذها . لكن هل كان يبحث عندها عن النصائح فقط ؟

أبـو عبدالله

أماه قولي من أين أتاني القدر
ماذا في سلوكي اذن ما دام كل شيء مكتوباً
وهبتني الحياة والشقاء
إذا كان الشر من الله هل أدفع الثمن ؟

عـــائشة

يا بني لا يكون الله الله ما لم يكن الشر والخير
على نفس القدر من مخلوقاته
وأنت لا تكون ملكاً ما لم تأخذ منه
سلطتك غير العادلة فهي من طبيعتها مشبهة بها

أبو عبدالله

شككت يا أماه بالسلطة وبالله
هل وجب أن يتحقق الشر حتى نثبت وجود الله
هل وجب عليَّ عقاب من لم يخطىء كالله
هل وجب أن أظلم حتى أثبت وجود الله

وتنظر عائشة إلى هذا الولد الذي من قمر وما كان أجمله لما كان يجهل كل شيء ، فإذا بها ترى الرجل الذي ينهشه الملك لأنه يعرف القدر الذي ينتظره ، هذا الرجل من جسد وفكر وقد بات في شرك العالم لا يعلم كيف يسترد نرده بعد أن رماه ولا يستطيع أن يبدأ اللعبةمرة اخرى آه لو أنها تستطيع أن تكذب عليه كذب الأمهات على صغار الأطفال ، لو أنها تهدهده بين ذراعيها بعد أن نسيا الحنان ، وهي التي تحس بأن حياتها طالت وتمزقت كي تمنح كل عواطفها ونار أيامها وحيلتها لعلها تحفظ على هذا الابن سلطته التي غدت عنده الآن مرارة .

سكتت تصغي إلى النوافير وتضفر أزهاراً وكأنه حزر شيئاً يسكنها وجد فيه سبباً كي يتابع حديثاً انقطع

أبو عبدالله

قولي أماه كم كان عمر النبي
عندما أخذته خديجة وقد احمر رأسها من الحناء
بين ذراعيها كما أنت لا تفعلين
وأنا أموت كي أعود إلى حيث منك ولدت

عـائشة

يا شادني دعك عن لعبة الغش الدنسة
أفهم الرهان الذي يكذبني فيه قلبك
اذهب وراء داعي الشباب في الايل
أنا عجوز لا حيلة لي في العمر

أبو عبد الله

أماه عندما أطفل محمد من زوجته خديجة
ابنين وأربع بنات منهن فاطمة
كان يفصلها عشرون عاما كماء عن مجداف
تجرأي فقولي أنه لم يكن يحبها حقيقة

عائشة

اذهب اذهب أعرفك اذهب اذهب أحزرك
يا ثمر جسدي الفتى يا مسخ الشفقة

أنت لا تستطيع أن تخدعني فقد كنت في صدري
تتحرك كشيطان وتضربني بقدمك

أبو عبدالله

حبي لك يا أماه ليس مثله
منحتني النساء اللذة كأرض خصبة
وأنت أعطيتني السلطة الحياة للمرة الثانية
جسدي من طينتك ولقد رفضت أبي
كفري بالقرآن جعل روحي وروحك زوجين
تلتفت إليك روحي برغبة طويلة ظامئة

عينا روحي وجسدي ليست لهما لغة مختلفة
ان الحوار يبدأ دائماً من عينيك
حوار الرجل والولد بنار حرّمها الله

ما النرجس إذا قيس بك يا ملكة الزنبق
وقد جلست فوق النوافير التي جمعت يديها صلاة
تسيرين بخطا ياسمين بين رغباتي المختنقة

أرتجف إذا رأيتك كأنني حيال جريمة
أجدك في مرآتي كزنى بين القوافي
أخاف النهار أخاف الليل أخاف صمتي وصوتي

لا أدري أين أضيع في نظراتي أم أحلامي
حضورك لا أسوأ منه وغيابك يأكلني
منك أنت كنت منك يأتيني ما يحطمني

عائشة

يا أمير أقلع عن هذا الزيف وهذه الشكوى
العمر ما هدأ جنونك بعد
أنظر يا ابني كيف غير الزمن صورتي
حتى ولو ظننت أن بوسعك أن تحبني

أبو عبدالله

هل وجب علي أن أكلمك حديث الرجال
هذا العنف في في دمي تسميه الكلمات
ويصمت عنه اللسان لكنه يسكن أحشائي

ألا تذكرين كيف تكون عاصفة
زوج قاس يدفع البهيمة فيك للأنين
هل وجب أن أكون لديك ذكرى الدنس

تعرفي على القتل والحريق في عمق بؤ بؤ ي
لا أنت ولا أنا نستطيع شيئاً ضد الربيع الخالد
الذي ليس له قانون سوى قانونه ولا سيد إلاه

ليس اختياري أن أجنبك المسبة أقوى من البرق
أنا الرمح والسيف أنا البرد والعاصفة
آه اقبلي فقط أن آخذك بين ذراعي اللذين من مطر

ما دمت آخر الملوك فلأكن آخر الأعاصير
ولا بد من خطيئة بلا حد كي تفسر سقوط عرش
وأن تحتقر غرناطة من أجل جحيمي

عائشة

غرناطة تنتظرك يا بني أذهب واملك .

اللائي يخطر ن مع الطواويس

في تلك الأثناء ، كانت نساء الأمير يتكاسلن من غرفة إلى غرفة في القصر الذي ينظر إليه هو من عند عائشة . قطيع حلو أدت العادة به لئلا تتميز عنه زريمة ، التي ولد منهـا ذلك الطفـل الأسير ، مع أنها تعد الملكة الحقيقية . كانت تلهو بحليها وتفكر طويلا بهذا الصغير ، كيف باتت هيئته ، وما عمره ؟ عشرة أحد عشر عاما . . . ربما اثنا عشر . . . الزمن يتبدل حسب البشر ، ولولا المقارنة لضاع الانسان في حساب الفصول . هنا في نعيم الحمراء الكامل ، بأية اشـارات تستطيع امرأة ولو كانت ملكة أن تشطب خطوطاً على الأيام الزمن عندها هو الحضور ، فكيف تقرأ التغير فيمن فاتها وجوده ؟ الغائب لا يكبر أبدا ، لا جسدا ولا روحا . . . يا لك أم ! أم ما زالت صبية ما فارق ثديها ابنها إلا منذ قريب . . . ما كانت لتغار من السراري ، اللائي يجر ر ن ، مثلها

الخطا هنا وليس لهن غير لذات غافية أو تطريب لا ينتهي لأجسادهن . ترى ما كن يعلمن عما يجري وراء المرج الذي يرى من المرقب وقد ازرق ؟ بل أي معنى له عند اللائي يخطرن مع الطواويس ! حدّ الحمام توجد غرفة تدعى غرفة النوم فيها أكواخ للراحة كأنها عندهن ما عند الببغاء أغصان شجرة ظليلة . النوافذ والأبواب والأعمدة ، شبه غابة فيها فسحات . . . وفي الشرفات ، في الأعلى ، موسيقيون ، سلبهم الحديد المحمى النظر ، يعزفون بلا انقطاع الحاناً طويلة شبيهة بالزغاريد ، ويرتفع بين الحين والحين صوت بلا رؤية يجود كلمات من فارس أو مصر ، وأغاني من افريقيا أو الأندلس . . .

نشيد الموسيقى الأعمى

دفعت ثمناً غير انساني
لأني جبتُ بستان النساء
أنا الذي لا أحدث غير أرواحهن
كلام الأيدي وحده
وفي غرفة النوم
تجن قيثارتي
ويطوف بأذانهن نحيبي
كدمعة من زمرد
نقطة دم قرمزية

أمامهن تنحني ركبتي
في ضراعة جسدية
إذا كان ذنباً حب
الموسيقى في شريعة محمد
فريسة مَنْ تحلمن نصف غافيات
أن تصبحن إذا غاب الملك
أنتن يا من اسمع هرجكن

ويجهلكن فراغ عيني
دائماً على أهبة أن تتعرين
من الشرفة التي تخفيني

أحزر حركاتكن
بماذا تحلمن نصف نائمات
كما أتخيلكن
أنا العاصي شريعة الله
لأن لا أحلى من المعصية

ما عددكن في القاعة
أكتاف ذهبية نهود عرائس بحر
شعر يولد منه الليل
صدف يتسكع لؤلؤ على رفل
ليس يتألم ابن آدم أعظم
من ألم أعمى في غرناطة
ولو أن موسيقاه تصمي
قلب الملكات الكسول

أنا الفلك جرى
في الظل الرطب فوقهن
الحلم بفحل يداه من ريح
الطيران الخفيض المنقض في العاصفة
كما كنت أرى السمرمر
أنا جوقة دائمة على أهبة
أن تغني غابة
ظلماء كنظري
أنا نحيب الحسرات
من أجل مسرّات أملنا
بها من قبل أن يضلّ
الربيع الباكي في سرّه
عطرا يحير الروابي
هذا أنا القلب الحطيم
السماء المحرمة السعادة الملعونة
البحر الذي يغرق المهالح

الفم الذي ينحني لقبلة
والكلمة المائتة قبل الفوه بها
على شفة المطرب المرة

يا حلاوة البنات فجأة
بين ذراعيّ فخذي بطني
في عقوق الاحتقار
كل ورود البستان
كل القبل الغرناطية
تدخلني من كل النوافذ

الحـــــوض

الآن ، في قاعة الميرت . . . آه دعوني أفضل الاسم الذي نعطيه لهذه العوسجات ، التي جاءنا عطرها من قبرص أو بافوس ، على الأرايين الاسبانية المسروقة من الرياحين الأندلسية . . .

الآن في قاعة الرياحين في الحمراء ، حد فتاة ، لا حاجة بي إذا وصفتها للظبى ولا للفجر - وما يضيركم أن اسمها زهراء ؟ - جلس محمد الحادي عشر على حافة الحوض ، وعيناه ضائعتان إلى الشرق فعلى جدار الحمامات اسم يوسف الناصري مكتوب بحروف كوفية باهرة ، محمد الحادي عشر في رداء من الديباج الأحمر ، محمد وكأنما عادت به الذاكرة عند أمه إلى الزمن الخالي ، فاستسلم إلى قصته هو . . .

يا عالمة[1] حلوة على قدّ تلك الساعة ، لا تفهم شيئاً من الكلمات الملكية ، لأن الأذن التي هو بحاجة لها ، نبيهة وغافلة ، تفتحت للصوت لكن صماء على الحس . . . والأمير يحلم جهارا ، وهو خير من يعلم مصيره . . .

قال أبو عبدالله أذكر ذات يوم من طفولتي

هي
كانت تحب فيه قوته فحسب وتعجب
انه ما يكلمها إلا إذا سألها بين حين وحين
لذة يجمل التعلل فيها كأنه
كان يحدث امرأة سواها
قال الملوك غريبون كنت لا أحب

---

(١) عالمة : راقصة جمعها عوالم (بالعربية في الأصل) .

أبي ولماذا
أحبه ذاك الكائن الثقيل لماذا
أحبه وقد كان يرى إليّ بلا نظر
وهل كان بيننا شيء مشترك
غير رائحة القتل
التي تأتي من وراء هذه الحياة من حيث تشاد السلطة تجيء
من زمن مجهول زمن أول من جلس على هذا العرش وأقام العدل
وأنــا
الذي لا يخلف وراءه هذا الكذب
فأنا آخر السلالة ومن بين يديه يزول كل شيء يغدو الكل مزقا
ما كنت أقــول

ورأى المرأة فجأة فابتسم كما جاء أبوه إلى البستان الخالي دون ضجة في ساعة القيظ ونظر إلى ابنه وقد انحنى على البركة

كنت لا أحب أبي كان يتحدث في الخيل
كانت له حياته وبنون وزوجات
لماذا اجتهد في تعليمي السيف وهل كان يعلم عني أكثر مما عن ببغاء

أماه أحقيقة أخذت هذا الرجل بين ذراعيك
أنت التي رائحتك مساء كبستان من قمر
لم أسألك أن تعطيني أبا ملكا

لا أذكر قبلها أبداً أني رأيت أفكاره كان ينظر إلي دائماً من فوق رأسي وفجأة رأيت الشجرة في الماء مقلوبة بين الأسماك كان هناك في صمت الظهيرة

لأني لم أنسَ الساعة ولا لون ثوبه وكأنه

ارتداه من أجل أن أذكره وما كانت دهشة عينيه للمرة الأولى أثقل من وزنه على المرآة للمرة الأولى انفتح ذلك الباب على سره

كان ثوبه من زردانة مصر وكأنما صور الحيوانات تراقبني من بين خيوط الذهب

لم أكن أحب أبي وأعرف لماذا

ولا وزنه لا خطوه لا حديثه بل ولا نفسه
لا شعره ولا جلده لم أكن أحب أبي وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي قرأت في عينيه كلمات خرساء

والخوف والاحتقار لا يجدان كلمة واحدة تعبر عنهما وتجمعهما

في هذه المرة الوحيدة كان في عين الرجل احساس انساني وقرأت فيها موتي

قام بتلك الحركة ناحية عنقي في الماء الجاري والأسماك المذهبة تبحر صوبي وتيجان الأزهار تدوم على السطح كنا في الشهر الذي ينهمر كثلج فيه الزيزفون

أو هل كان لموتي نفس الوجه الذي عرفت منه أمي أني سوف أولد وهذا الملك كم كان يزعجه أن أكون شادنا بين شدانه .

لقد صاح فيّ الخجل أكثر مما فعل الخوف

وصمت المشؤوم تحت أشجار السرو التي تخفي سرا عميقاً وتبدل شيء فيه كقارب مقلوب وداعبت يده المرأة

ونهض وفيه عبق الذاكرة وجرى الجمهور ناحية الباب ومعه كلاب شقر في قعقعة سلاح على الدرج

قال أيها الملك أيها الملك يا أبي كان يبدو لك سهلا جمع السلطة والحيلة . وما كنت تدري أن القرن تبدل كمسافر ما بات نفسه بعد المرحلة والغبار يا من جئت متأخراً إلى هذا العالم الذي خط به البخت نقطة ضياعنا يا من كنت تجمع الأرض فما تدرك أن ميراثنا يلجأ إليك لكن عبثاً فقد كنت إذا استوليت على مدينة سقطت أخرى .

ويأتي يوم لا يجد فيه الملوك فرصة للنزول عن السرج آنئذ ما الفرق بينهم وبين قاطعي الطرق لأن الملك هو من استطاع إلى الكسل سبيلا ويأتي يوم لا يغدو فيه الملوك غير حلم بين حدود المملكة في ساعة اليقظة ويأتي يوم هو اليوم الذي تفقد فيه الكلمات معناها الليلي وتهدل الحمامة على السطح نبوءات غريبة .

من الذي أراك ذاك الطفل في البلاط وما كنت لتأبه له وقال هوذا آخر ملوك غرناطة .

لقد ضحكوا من كلمة الفقير آه ارموا له بالذهب وليرحل وانسدل الظل على النبوءة فدارت فيك كجدي طردت اليد لفكرة في الظاهر لكنك ما دمت تحمل فيك

هذا القلب الميت من يبعد الذباب عن الجثة .

وكنت تنظر إلى ابنك في ماء حوض الريحان النائمة كما أرى اليوم قدري

هوذا هوذا آخر ملوك غرناطة يا معتوهاً لم يبق له الآن غير نهاية المملكة لا تبحث عن حلف بين الحظ ورماح الجيش فليس أمام عينيك غير شقائك أو ما كان يكفي كي تفسد لعبة الحظ أن تخنق هذا الطفل قبل أن يملك أن تخنق التاريخ في هذا الطفل

لا ضرورة للكلام كي نعرف كل شيء ولقد حمل كلانا يا أبي هذا السر سعيد من لم ير موته في عين نبعه وأسعد منه ذلك الذي لا تدوم سلالته

ألم نكن من قبل فرساناً بلا هدف غير الطراد والمضرب مشرع لجهدنا إذا بلغ أقصاه كنا نذهب من معسكر إلى آخر وقد نسينا وراء ما اجتحنا من أرض

ماذا حدث حتى لأدوّم في ذاتي خلل الرماد ماذا حدث كي أكون الأخير ولا مرد أنظر كيف تضيق تحتي الأرض ولا مرد حتى لأرى حدودي من كل النواحي فلا حاجة بي للصعود إلى الأبراج لا حاجة لأن تصغى أذني للأبواق الغريبة

لو أنه قتلني بيديه الملكيتين ذلك الأب ولقد راودته في ذلك الرغبة أكثر من مرة ولقد كانت تفر أمامه الغزلان حين تفهم هذا الشيء الغامض في نفسه لو أنه قتلني كي تعيش غرناطة وتنظر إلى هاتين اليدين اللتين لي منهما كل ما جاءني منه لأني أميل إلى ناحية أمي

ما عدا هاتين اليدين يدي التفاح

هاتين اليدين اللتين يتبعثر ويضيع فيهما كل شيء هاتين اليدين اللتين لا تطبقان على شيء يحول فيهما كل شيء غبارا وينسرب كظل من بين أصابعهما

زهرة شريفة زائدة يا بنات اللانهاية ألف بينكن الكسل يا أنضر من ماء زرقاء جعدتها الريح

نظرة الأمير تعبرهن وهي تضل فيها بعض الأفكار
التي تحمل يأسه وغرناطة تضيع يا زهرة يا شريفة يا زائدة

زهرة شريفة زائدة الأولى تشكو والأخرى تتزين والثالثة تبدو طفلة وبّخوها

أي رجل يقدر أن يراهن دون أن ينوي امتلاكهن فما أنعم أجسادهن ان القلب لينفطر إذا مضيت في سبيلك دون أن تمد لهن يدا

زهرة شريفة زائدة حقل برسيم بعد غيث سعادة للقدم العارية أن تعدو تعدو فيه حتى إذا وصلت ماتت موت السذاجة

لا أحلم بأن أطلب لذة من زهرة وشريفة وزائدة ولا أن اختار بينهن
يكفي أن أنظر إليهن غزالات غزالات غزالات
زهرة شريفة زائدة

ان شيئاً ما بعد الآن لا تحل عقدته الأغاني لا الكائن الانساني في شبابه ولا

الملك الذي يحمل هماً غير همّ الربيع ولهذا اختار الشعراء دائماً القصور مكاناً للتراجيديات

وقارنوا بين قصة أمير الجَدّ وملك الجِدّ

وها هو هذا الخلاف ينيخ اليوم على كل المملكة أن أكون أنا أو تكون أنت يا أبا عبدالله

لقد اشتد حتى لأعيد الآن شكاته
لا كمرآة ملك
وانما صدى للانسان
في هذا القرن الذي غدا وارث كل آلام التاج
من مات بالطاعون ومن مات جوعاً
والمرأة الراكعة على ركبتيها والعبد الذي فسد حتى الروح
كل شقاء هو مملكة يكون فيها أحدنا ملكاً

شكـــاة ملكيـــة

يا لاختلاف النساء الحلو في رحال قوّتي
كعقد مساءات يعقده الصباح
ترى تعبت من نفسي أم من الحب فحسب
ويذهب العبير سدى في الطلاق العظيم
بين الروح والجسد بين الشجرة والقشرة

نجدنا ذات يوم على حافة الزمن الكسير
وما بقي لنا من القبلة غير شفة حائرة
ولا نفهم نحيب النوافير

دون اضطراب دون ذاكرة وقد صحا القلب
هذا القلب الذي نجهل لم أستشهد

لماذا تركتني في صحراء الرمال.
فما يبدو لي فيها شيء مكتوب إلا بأسود وأبيض
لماذا قررت مني أيتها الشهوات البطيئة الحارقة
كطفل خاب ظنّه لما انتهت الحكاية
وهو أشد جوعاً لما قام عن المائدة

لقد ظللت وحيداً حزيناً حين
صمت فجأة في حياتي
فما أذكر إلا تنفسي
وما أنا من ذاتي غير ظل واحتقار
خرساء هي الطيور عمياء هي البساتين

زمـــرة زهــــراء

محمد حزين لا ندري
كيف نوقظ البروق
يا لبؤسي أنا التي عانقته
ظانّة أني أرضي كالقش
النار الملكية الباحثة عن فريسة
لكنه عاف فمي
فلنرقص نحن الثلاثة
كي ننسى الملك المتوحش

آه فلنرقص أرقصن الزمرة
كي أظنه بين ذراعي

نهداك صغيران وما أوسع عينيك
شريفة هيّا أنت الأولى
يا التي تفوحين عنبراً عطرا
تقدمي إلى نوره البارد

لعله يبتسم لك
لا تخشي أن أغار
إذا سمعت صراخك
سوف أرقص على الحشيش

هيا ولنرقص ارقصن الزمرة
وهو ينتشي بين ذراعيك

ولينتق أجملنا
لعله يفضلك يا زائدة
فيضمك بين ركبتيه
وليدخلك كحديد
سوف تتعلمين منه
ما الذي يبكيني في خفوت
لأن الحب يجيء كالمطر
واللذة كالألم

هيا ولنرقص ارقصن الزمرة
وليخنقك بين ذراعيه

الفــلاسفــة

١

ما أورد هنا هو افتراض محض فما شهدت أبداً هذه الشخصية ولا باحت لي بأسرارها لكني أتخيل آه اني أتخيل ما دامت بي حاجة فظيعة للعظمة ، عظمة لا تتلاءم بالضرورة مع ما عهدنا عنها أو ما يقضيه الغرور في يومنا هذا ، أتخيل أبا عبدالله فريسة ما نعني بالتمزق نحن الذين بحكم الزمن على طريق الزوال ، ولو أننا بالفكر من عالم النجوم . أتخيل اذن محمداً بن أبي الحسن بن عبدالله وقد عرف أنه آخر ملوك غرناطة ، يشغل نفسه بمسائل غير الهدنة مع الحظ . وبين ماضي الأندلس والمستقبل المسيحي ، بين شعبه المهدد بالمذبحة والمنفى ، والأندلس المقبلة ، ليس له أن يختار أو ييأس ، حتى ولو انتسب حقاً إلى هذا المعسكر أو ذاك . وهنا نجد تفسير الحرج الذي يدفعه للقتال ويدفعه عنه ، والتردد الذي حباه وجهاً قُلَّبًا في عيني التاريخ القاسيتين ، أكثر من الوعد الذي أعطاه وكان بوسعه أن يخلفه . ما كان بوسعه أن يؤمن برسالة الاسلام ، وهو الذي يجسد هزيمته ، وكيف وهو الذي تآمر طفلا على سلطة أبيه ، وزعم لنفسه حق الميراث ؟ يعلم أنه على حافة الهوة ، لكنه يجهد منذ عشر سنين في ألا ينقلب من عليها . لقد حاول من كل جهة بتبرير ملكه ووجوده ، حتى إذا يئس اجتهد في أن يجد من يوصى له بملكه الكاذب . آخر ملوك غرناطة . . . يمكن أن نفهم ذلك على شكلين . كان أسهل عليه أن يدع ميراثه بين يدين عربيتين ولو لم تكونا ملكيتين ، من أن يسلمه لأولئك الأمراء المشركين الذين سوف يطمسون الجمال الاسلامي بالصليب وصور العذراء ، ويعسكرون وسط الحمراء وقد أقاموا عنبر شارلكان . لكن أية يد وماذا يعلم عن الذين يأخذون من بين يديه الرائعات؟ لم تنفع فيه قناعته أنه جاء من كذبة ، أو ليس العالم الذي حوله ، وقد قام كي يؤيد سلطته هو ثمرة أوهام هذا العالم نفسه ؟ لم يكن له من يعلمه طرازاً آخر للأمور، حياة أخرى، مفهوماً آخر عن الشر ، والخير . من كان يداني الأمير الفتى فيقول كلمات قد يكون فيها موته ؟ وما كان أبدا لأبي عبدالله أن يدخل إلى سر الآخرين . أو ما كانت اذن تكفيه الأبهة ؟ هكذا كان يقيس بجمال البساتين والأشجار وما يمكن أن تؤول إليه ، كل قيمة أخلاقية . مع ذلك أدت صدفة علائق البوليس . . .

السـّـــر

كان في غرناطة رجل حزين وجميل حتى ليكاد لا يطاق . وتحدثت عنه البيوت في ليلها فأرسل أبو عبدالله حرسه في طلبه ذات خميس فجاءوا به إلى السبيكة وتجمع الناس في مثل الفضيحة

فقال له الملك ما وراءك وصمت الآخر يصغي إلى النوافير حتى أن الملك وقد أيقن أنه لم يفهمه أعاد عليه بصوت أعلى ما وراءك وحين لم يأته الجواب غضب فصاح في هياج حمائم ما وراءك

وعندما رفع الرجل إليه وجهه الكامل استولت الدهشة فجأة على العاهل فجلس وأعاد في رقة هذه المرة ما وراءك وتضمّخ العالم إلى أجل طويل بعبير الصمت آنها غدا السؤال قلقاً ثم راجياً لا يطاق في رابعة النهار كظل غلّل كل شيء في احساس ضعف حتى لقد انحنت الضجة في البرية وتبدت المدينة وكأنها تنطفىء في رائعة الظهيرة في عمق السماء الشاحبة

وواتت الشجاعة أحد الأمراء فذهب في طلب الجلاد لكن أبا عبدالله رفع يده وتمتم ما وراءك وتكلم الرجل أخيراً واطىء الصوت حتى لرجوه أن يرفعه كي يسمعوا مع أن الكلمات كانت بسيطة وواضحة في هذا الثغر الفتي كان يكفي أن يؤمنوا كي يعرفوا السر

قال أنا أرتجف أنا سعيد

أيجوز لأحد الرعية أن يرضى بنصيبه إذا أنكر العاهل حظه ؟ لكن ما كان يعلم أبو عبدالله عن شعبه ؟ في اليوم التالي لاجتماع الخميس العام ، ندّت إليه معلومات أكثر سرية ، ولقد كان الاجتماع في المدينة الجمعة وعلى هذا سمي ذاك اليوم بهذا الاسم .

ولقد طاب له الاصغاء طويلا لما يأتيه عن غرناطة المجهولة فكان يأتيه مرة في الاسبوع صاحب المدينة وهو رجل في قوة العمر فيروي له ما لا يخفاه من جرائم أو اخلال بالنظام . « ما تحمل لي من مخيف الأنباء يا صاحب المدينة هذا الأسبوع ؟ - سيدي ، ابن قتل أباه ، وامرأة وجدنا اربا في السقاطين ، فحسب . . . » وما كان بعد يعيش أبو عبدالله إلا من أجل الجمعة . كان يتعرف إلى أشياء عجيبة عن اللحامين ، والمتسلمين ، وذهابي[1] الدارو وتجار الدواء ، وقلاعي العقيق اليماني الأحمر والأصفر . كان يبدو له أنه كلما تعمق أكثر في المدينة ، اكتشف الفاسقين ، ومزيفي الحليب ، ومحتكري الطحين . وأعمال الفوضى على شاطىء النهر ، والأمكنة التي ظهور امرأة فيها يكاد يكون فضيحة ، وجرائم حداد غجري وجب أن يرمى به في القصبة ولو أن موسى دافع عنه لمهارته في صنع السلاح . وهكذا لم تعد عنده غرناطة مدينة مجردة : كانت يسكنها الأحياء ، الحرف الصغيرة ، الأهواء والمفاسد . وهكذا تداخلت فيه كل أنواع الحركات الداخلية التي كان يخجل منها أو يخفيها عن النور على الأقل ، فغدا انعكاساً لما يجري في واقع الآخرين . ولحسن الحظ لم يكن قاضيا : ولو كان لأطلق كل مجرم مهما بلغت فظاعة جرائمه إحساساً منه أنه مرآة له . أما من كانوا يقضون عنه فيا كانوا يوفرون الدم ، ولقد تعود أبو عبدالله أن يتجاهل الأمر ، لأنه يفضل الشعر على عقوبة الاعدام .

وهكذا علم عن وجود مكان في أطراف المدينة مرذول السمعة : لا لأنهم يزوّرون فيه العملة أو أن أبناء المدينة يرتادونه للزنى ، وإنما لأنهم يتعاطون فيه افساد الروح . كان يعيش فيه على زراعة الأرض أناس يزاولون منذ أجيال حرفة الافكار المجرمة . كان يجتمع فيه ليلا الفلاسفة الفاسقون ، الذين يشككون بتأثير اليونان بمبادىء الملكية الالهية .

---

(١) الذين يشتغلون في الذهب .

وذهب صاحب المدينة ، إلى أن قتلة البنات ومزيفي العملة وسارقي الماء ليسوا شيئاً إذا قورنوا بهؤلاء ، الذين يشذون عن حرفية القرآن والأحاديث ، ويدعون تفسير الكلمات المقدسة ، وربما كان ذلك بقصد تجريد كلام النبي من معناه وهو الذي تخضع به الرعية للأمير ، لأن المعنى المباشر يكفي لتثبيت الناس في ما اعتادوا عليه ، ولا ضرورة للتعمق إلا إذا كانت النية تهديم الاسلام . ان الفلاسفة يتذرعون بحق المناقشة فيما بينهم بالخير والشر ، وقدرة الله التي لا ترد ، وطلب الانسان السعادة . ولقد جاء الزمن ، أمام التهديد المسيحي لوضع حد لهذا التهريج .

ورغب أبو عبدالله في رحلة إلى مشعوذي العقل ، قبل أن ينفذ صاحب المدينة نيته في غزوة إليهم من نوع آخر . كان الأمير لا يعرف إلا قليلاً عن أفلاطون وأرسطا طاليس فلم يسمع عنهما حديثاً إلا في مجال الحكم على حب الفلاسفة في الاطلاع عليهما . ولم يدخل أي فيلسوف عتبة الحمراء . وكان واضحاً ، أنه يجب ألا يتحدث في المشروع لصاحب المدينة . وفكر في الأمر طويلا أبو عبدالله . حتى إذا علم أن الدروب على التلال تنقلب إلى بساط نرجس ، وأن شرطة المدينة سوف يستخدمون العصي والحبال للوصول إلى الفلاسفة ، قرر أن يسبقهم .

لم يصطحب معه أحداً ، على خلاف الخليفة هرون الرشيد ، لا حاجباً ولا أحد الوزراء ، فما كان بينهم من يثق به حق الثقة ، ولا كان له فيهم جعفره .

٢
الطلعـــة

وتزيّا أبو عبدالله بزي عتال وخرج من المدينة وحاذى مجرى الشنيل

ثم ولج في بدء ليل يشبه كثيراً مروا سيء النحت وهو يتخيل الأرض حمراء من اللوم

ومر حراس يحملون أكياساً تند عنها رائحة خروف بللوه يجدفون بلعنات جديدة لها ضجة جلد وبصاق في الظل

كان والظلام بين بين ينزل طريق المهربين المرية إلى حيث يزهر فجأة الياسمين

عمّ تبحث يا ملكاً بلا تاج في عمق الحقول المزروعة حجرا
عمّ تبحث تحت الزيتون وقد التفت أذرعه الضارعة
الوحدة أم الذكرى سراً من الطفولة أم النسيان
وأنت ما زال في يديك كيّ الحبل عندما نزلت وأخاك يوسف
أبراجاً أرجوانية لا تنتهي

ما زال في بؤبؤك نور الثالثة عشر في قادش وادي عش كما تسمونها من أجل جدولها عندما اتخذك شعبها أميراً لا زالت مشاعل غرناطة لما رجعت مساء مع يوسف على حصان أبلق

يوسف يوسف الذي قطع الزغل رأسه في المرية

وحملت الرأس إلى أبيك الأعمى فتعرف بأصابعه إلى ذاك الوجه في عمق الخطوط الدامية .

بماذا تحلم أبا عبدالله لقد مات أبو الحسن على يدي عمك

وما استطاع الزغل أن يملك طويلا لأن الخيانة لم تمكنه من عطف فرديناند ولا الابقاء على جبال أندرش حتى إذا

جاء افريقيا ووخز الضمير فقئت عيناه على ما رووا بأمر
عدالة سلطان المنطقة الساحلية
بماذا تحلم أبا عبدالله وقدماك تدميان على الدروب المظلمة
حدّ مزرعة وما زالت ترى فوق الخضرة الظلماء
بياض برج حمام تتبينه
وأنت تتوقف فتصغي إلى قلبك وقد ضاع مع الزيزان
وفجأة تكلم من لا يرى ولا سمع أنك أتيت

بصوت عجوز قاس وهادىء صوت خلق لرياح من جليد والشمس اللاهبة وتعاقب الفصول

صوت تدوم فيه في بعض اللحظات أوراق ميتة

صعب فهمه بسبب لغته التي لا تدخل القصور لونه أرض وحجر يخلف وراءه احساساً بصوان كسروه دون فائدة

قال الصوت كان ذلك يا بني في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور خليفة ما وراء البحر

ولقد مضى ثلاث مئين من مواسم الحصاد على أيام تلك الحرب الأخرى عبر الأندلس اخترم فيها الموت سبع مرات آباء آبائنا

على تلك الحجر قدام البيت وقد هدم وبنى مرات عديدة
على تلك الحجر البيضاء التي تركع عليها ثم تنهض بثيابك الشاحبة
كان يأتي فيجلس كل يوم اللاجىء المنبوذ
وهو الذي أتت منه التعاليم عبر انبهار العصور إليّ
عنه أخذت الحكمة السرية

وهي لم تغادر أبدا هذه الدار التي تمتلىء عند العشي بعبير التيريبانت

ولقد زاد فيها لأيا لأيا آباء آبائنا

فلتتغمده الرحمة أبدا لأنه أول
من برهن أن المعرفة في عيني العلي الأعلى اللانهائيتين
بالتعليل اليقين هي واجب على البشر
أيها الفيلسوف يا معلم أشياء ما وراء العقل

يا أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد الذي نضج
اسمك حيث لا ينبت النخل أبدا

كثمرة مرة احتفظ بها الفم طويلا
ويسميك الروم بلفظة غريبة على قدهم أفيروويس
يموت فيها نسب أجدادك

قال الولد الذي لا يرى بصوت متغير كالبحر ساعة المد والجزر القلب يا أبي

هنالك من يسير في الظلام لقد قضقض كمحار تحت قدم أو كأغصان
انه طلعة يا ابني يبحث عن صيد في مطارحنا

واني لأوده جاء مثلنا من افريقيا انه شره مثلنا ولقد حل الدم عنده محل المعرفة

لا خطر أن نتحدث أمامه في ابن رشد

انه حتماً من أولئك الذين لا يؤ ولون الكلام فالعالم عنده هو ما جاء في الكتب

كل شيء عنده حرفي والجريمة لديه في التأويل
فهو لا يفهم الكلمات بغير منطقها البدائي
وهو لا يثني عن ذبح الدابة ما دام غذاؤه منها
غير أن معلمنا لقننا في صبر أنه يوجد نوع انساني آخر
يتكلم مع النوع الأول ويفكر على نحو مختلف
غير حرفي ولو أنه يتكلم حرفياً
انهم جماعة فصل الخطاب وما الأوائل عندهم غير أدوات
سلطتهم الغيور قائمة على ما أوحى

هنا صمت العجوز طويلا كما يفعل الزيز أمام خطو الجوال الليلي المهدد

وأحسّ أبو عبدالله في قلبه غضب الملوك
ماذا يزعم هذا الفلاح الذي يدعي أن باع معرفته أعلى من سنابله
وكأنه همّ بالجواب على هذا الحديث البطيء في عمق الليل الوليد

ونحن أصحاب النوع الثالث
الذين نرى أن ما لا نفهم حتى الآن من أعاجيب وأسرار
ليست سوى ما أخطأه الادراك ولو أننا نسير إليها مستأنين معتمدين عصا المعرفة القديمة
الذين نرى في الشيء الموهوب آلة يجب أن نتعلم استخدامها
نحن أبناء المعرفة العميقة لولانا كان الفكر الانساني أنكر النبوءات
ومن له من دوننا أن يوفق بين ما في الكتب وبين ما يناقضها
نحن الذين خلاصنا بأن نثبت للسلطة الأرضية
ما نؤديه لها من خدمة
وابن رشد يعلمنا لخير العلم
أن نتمسك بالحقيقة النامية عند الذين يعرفون كيف يستخدمونها دون أن يعميهم النور بينما
يكتفي أصحاب الفضيلة الأولى
بدلالات الدين المحسوسة
هكـــذا
الايمان بالشكل عندهم فرض الهي
بينما يفرض الله علينا الشك
على أنه حالة ارادية لوظيفة المعرفة
ذلك هو التعليم الذي تلقينا
قال الولد القلق يا أبي ألا يبدو لك
أن الطلعة وجد طريدته بين الأوراق
وأجهل أي تنهد أسمع يشبهني
وكأنما صمّ العجوز عن السؤال كما
عن سؤال القلب الخافق في الأدغال
وكانت نفسه هادئة تحت أوائل النجوم

ما خفي علينا لا يختلف عما ألمس
غير أنّا بحاجة لأجيال كي نصعد السلم
ولقد سرنا منذ موت ابن رشد

خطأً كبرى سوداً في المعجزات
أو تظنّ أن ما اخترعوا من مدافع سوف يخدم الملوك دائما
أو لا تظن أن العلم في النهاية سوف يكون أقوى ممن يستخدمه
وليس الدليل فحسب ما نرى من نقصان هذه المملكة الغامضة
ليس في مرور الزمن وحده وتعاقب البشر بعد البشر
يتعاظم استعمار المجهول
هنالك حركة عكسية لا ترى في البداية
بقعة زيت على بحر الانسان
والنوع الثالث الذي كان عدداً قليلاً
يمتد مع بطء القرون ويغزو حقول الجهل الدنيا
لا أفهمك أبدا يا أبتي أهنالك ليلان ليل المعرفة وليل الانسان

اصغ واحفظ جيداً أننا ما زلنا
في الزمن الذي لا تنتشر فيه المعرفة إلا كماء اناء يضيع على الأرض
وتكرّ الأيام فتشربه الأرض من أجل حصادات رائعة
وما كان طبقة فكر قادرة على كل المعرفة
ما كنا ندعوه بالفلسفة يتبدى آنئذ آلية فكر غوغائية
منذ الآن ودون أن نتنبه لذلك توجد في استعمال الانسان
أنواع شتى من ا لمعجزات الآلية فقد صفة الأعجوبة
وهنالك أناس أقلّ من عاديين يسيطرون دون تفكير
على ما كان البارحة خارقاً للطبيعة
انك تضع في يد الجندي سلاحاً كنت البارحة
تحرق على أنك ساحر من أجله هل تفهم
انما تبدأ هكذا نهاية المعارف الحرفية
وهذا ما كان يقيم بالدقة
السلطة وقد اختلطت بالله ما كان
يبدو بالدقة مصطنعاً كي يملي هيمنتها
هو الذي يحمل للجمهور المظلم قليلا قليلا
النور كوباء

قال الولد يا أبتي علمتني عن المعلم

تغمده الله برحمته
أنواع البشر الثلاثة حسب مواهبهم في التفسير
وتوازن المجتمع كأن الانسان قدمه على الأرض ورأسه في الغيوم
علمتني أن هذا العالم ثابت لا يتحرك
أو ليس من الكفر أن نهز اليوم فيه قانون التمييز وأن نقلب النظام القائم
قال العجوز يا بني كيف يكون الانسان كفرا والقوانين لا وجود لها إلا فيه
والمعرفة ليست سوى مرحلة يقطعها الحاج
وليست مهمة الطريق ما دامت تؤدي إلى مكة
ان الله لا يسمح أبداً بأن نتوقف من خوف
اننا نزحف إليه كجيش غاز
وفي كل خطوة ينقص ما ظل حتى الآن ملكه وحده
انه لخائن ذلك الذي يخشى أن يدوس حقوله
لأن واجب الدين أن تنتزع من الله ما له
ولقد خلقنا نحن مثل النار تحرق القمح الناضج
ونحن أولاء من الشهر في الزمن الذي يتأخر طلوع القمر
الطُّلعةُ الطُّلعةَ صاح الولد وقد انقض بالسكين على الظل فأمسكت به يد من قبضته

٣
الـوليمـــة

لما دعا سيد المزرعة أبا عبدالله لمشاركتهم في الوليمة الجاهزة وأضفى عليه وهو الضيف غير المنتظر لقب كالاندار ونعته بابن ملك ، أحسّ عرقاً سيئاً يبلله ، فقد ظن أمره اكتشف ، ونظر إلى يديه اللتين ما اشتغلتا ، وقد ظهر البون بينهما واللباس الذي انتقى ، لكنه ما لبث أن اطمأن حين ساروا به إلى البيدر ورموا الحصر للمدعوين والمؤاكلين العاديين ، فقد كان السيد يدعو الجميع بهذه التسمية العراقية ، وهي على ما يبدو ليست سوى ذكرى ليالي الرشيد ، واستغرب ، فسأل بلهجة مزاح واحترام بأية معجزة يمكن أن يوجد صدفة فيجتمع ، بثياب التنكر ، كل أبناء الملوك هؤلاء . كانوا رجالا من مختلف الأعمار ، بعضهم راجع من عمله ومعه أدواته ، وبعض وصل من المدينة مع المغيب ، مكنهم الداعي من الوضوء قبل الزاد ، كما لو قبل الصلاة . ووقفت وراءهم نساء البيت ، من أمهات وبنات ، وكنات السيد ، وقد تحجبت الصغيرات منهن ، يقدمن الصحاف ويطهين ، ويتدبرن المشاعل التي تنير المشهد . عندها شرح صاحب البيت الشيخ إلى ضيفه الفتى وقد أحله مكان الصدارة لأنّه آخر من جاء ، تلك العادة الفريدة بكلمات موزونة محسوبة ، لم يفهم أبو عبدالله إلا بعد لأي أنها أبيات قصيدة من وزن لا عهد له به لا تتبدل قوافيها إلا في نهاية المقاطع ، وكأنما هي تصفيق بالأيدي . يا ابن ملك ! قال . . . ووقف ، ينوس بذراعيه الممدودتين ، وعيناه مغلقتان ، يقول بصوت يرتفع قليلاً قليلاً ، وفي الظل قيثارة ، يبدو وكأن من

يعزف عليها ، يتبعه فقط ، ويسنده لئلا يسقط بلحنٍ قديمٍ رتيبٌ موجه الطويل يرتفع فجأة عندما يصل إلى طرف المقطع الذي تتبدل فيه القافية : يا ابن ملك !، قال . . .

يا ابن ملك لا يقلقن بالك ان رأيت حولك أننا نعلن صراحة تمييز أرومتك

اني إذا شاركت بالأرومة عبداً اشتريت من السوق فإنّما ذاك غرور بسيط مني وكأني أرتفع به عليه أما هو فيبدو أنه لا يخدم إلا رفعة أصيلة

آنئذ يتبدل ما يهين الانسان في سره إلى نقيضه فلا يتدنى قدر كل منا وانما يرتدي قناعاً اخترناه بقرار مؤقت

حتى أن المجتمع الذي يطيب لي أن أتصرف به على هواي لا ينتظم كدرجات عرش نور الخلافة على التراب الحقير وانما على العكس

ينهدُ من وضاعة الناس كي يتساووا في القمة في أعلى مستوى للبشر لعلهم يصلون إلى المجد

وهكذا ينقطع الأمير عن أن يكون له مقام الأمير إذا وافق على أن يقوم بالأعمال التي تبنى عليها الامارة أو ليس العمل هو الذي يصنع التاج وعندما أقول أن هذا كالانذار ابن ملك أنظر يديه الرائعتين

فقد كتب على تصلب جلدهما حقه الذي لا يرى في خيرات العالم وامتيازات ميراثه التي لا مرية فيها

وفي شهادة أصابعه نتعرف على النعومة السالفة في الجلد وتضحيته من أجل خير المجتمع وهي التي لا يمكن أن تكون إلا من صفات الملك

انه وحده يرى في سعة وبعد نظر قدر المملكة ويفهم ضرورة المهمات الصعبة وامارات التعب التي يستمر بها دون اهتمام بالعضلات المجهدة المنهكة

وحدهُ يدرك معنى المثل الغريب ومن دونه لا خبز ولا ملح ولا سقف فوق رأس ولا رداء يتحدى الريح والشتاء

لا تعجب يا ابن الملوك إذا رأيت هذا العدد من أبناء الملوك في باحة المزرعة هذه لأنما يكفيك أن ترفع عينيك إلى الفضاء الذي فوقها فلا تسطيع أن تصل إلى عدِّ النجوم

لا تكن مثل الأمير المؤمر علينا في الحمراء الذي يبكي كما قيل منذ طفولته بسبب نبوءة

غافلٌ من يعتقد أن يوماً يجيء تغدو فيه غرناطة بلا ملك لأن كل أطفالها يولدون من أجل تاج مُشع

ويستحيل أن نعدّ ملوك الغد كحصاً في البحر لا تحصى يغسلها حبّا البحر

انهم ملوك مملكة صعب أن نتخيلها اليوم نحن الذين نركع أمام ملوك المقاطعات الصغار القساة

انهم ملوك ما لا يستطيع كل الدم المراق أن يمنح لأقوى أقيال اليوم

ملوك الكنوز التي ينظر الأباطرة بالقياس إليها في شفقة لصولجاناتهم وجيوشهم

ملوك الخيرات التي لا تقدر تشحب لها جنيات القصص التي يفرك فيها قنديل نحاس فيطلب إليها أن تحقق رغبات سخيفة على حساب بسط المستقبل الطائرة

أنظر يا ابن الملوك إلى من يتحلق حولك من امراء
من يبررون دمهم ومرتبتهم بالمعرفة
متساوون بعض بالأرض وبعض بالمعرفة

لعبة مسرح : يتقدم الراوي ويشير إلى الضيوف واحداً بعد آخر وهم ينتهون من العصيدة أو الفول وأنهم عن كياسة لا يلحظون موضوع الحديث بين الداعي وآخر القادمين . . .

أعطِ هذا أرض هضبة ثم أنظر كيف يأخذها بأصابعه

فيحسن تقدير الرمل الذي بحاجة للسماد والتراب الدهني الذي يمكن بذاره كامرأة مرت

بتجربة الأمومة

يعرف كيف يعد الخطوط للحب يعرف كيف يعرضها للشمس وأفضل زمن للبذار

طريقة الاسراع بالانبات ونوع الماء الملائمة

أنعته بابن ملك لأنما من صبر يديه يخرج كتان الصيف اللدن الأزرق كسماء دنيا

لأنه يعرف كيف يعالجه ببراز الطيور

هذا الآخر الذي يرى إليك ويضحك وهو يجرد الأرضي شوكة التي يأكل منذ طفولته

أحييه باحترام واجب لمن اكتنه كل أسرار الأشجار

أنظر حواليك في ضوء القمر الذي ارتفع تلال بعدها تلال على مد النظر

وتحت حليب النور اشارات لا تحصى من خط معقد اسمه الزيتون

كل المال الذي خرج من أيدي البشر هوذا
وإذا

لم تنخ نكبات الحرب أو العاصفة أو الصقيع بمجزرة فانها سوف تعمر قروناً وقرونا

أزمنة تجهلنا وتجهل كم تعذبنا

وهذا العامل القوي الذي رمى الحصا في الحفرة التي وضع فيها الفسائل حتى يدخل الهواء للتربة ومثله المطر

والثمرة لها منذ الخريف لون وجنتك بعد أن مضى يوم على حلاقتها يجب ألا نهز الشجرة أو نضربها بعصا إنما

نقطف الزيتون في لطف تداعبها الأصابع فلا تعرف العنف قبل المكبس الذي كزوج غيور

هل قلت الأشياء كما هي يا
محمداً بن محمد المغربي
يا سيد الشِجارَ

عندها ضحك الافريقي عالياً وانحنى

أنا لا أتبع صاحب الدار في تعداد الملوك من ضيوفه ولا الذي يقيس الماء على قدّ الزرع في أنابيب الفخار ولا الصقلي الذي يعرف فن القطن ولا الذي يسقي النخيل في أطول يوم وأقصر ليلة من السنة

ولا بين من يميز من الفلاسفة في كل أنواع التطعيم والترقيد
ان لفي هذا ضياعاً أكثر مما في الأنواع النباتية
في اختلافات الحكمة التي لا تحصى فما نعلم

أيجين القطاف في تموز أو أيلول لأنهم يستعملون التقويم السرياني لتحديد لون الأفكار وبذرة الاستدلال

فقال المضيف في اشارة شملت عيون واحد وعشرين وجهاً مفتوحة كنجوم كل هؤلاء

إذا أنكرتهم يا ابن الملوك كدرتني فأنا أبوهم
أعد عقولهم لممالك مجهولة في الجغرافيا
لقد منحتهم هاته الزوجات كي يطفلوا
فيكونوا بين المستقبل وبيني درجات لما يجب أن يولد

عندها جاء دور أبي عبدالله بالكلام فقال

باركك الله وأبناءك يا صاحب الدار
لكن ألا تعرف أن غرناطة أصبحت تحت رحمة المسيحيين
وكيف تتحدث عن المستقبل كأنك على عتبته
وتضفي غرورك عبثاً على ابنائك وأبنائهم
مادامت سلالتك تنتظر على ركبتيها سيف الجلاد
لا حاجة بك أبداً لهموم الميراث
ولا أن تحدد من من العبيد يصير مدبراً
ان وصايانا عبث يهز لها الأكتاف الملوك البرابرة
ولسوف يقضي معنا معنى ودم الشريعة
والتينة على أهبة السقوط وهي تنحني بثمارها
وهي تنادي الحطاب مجنونة من تعبها
ترجوه أن يخفف عبئها ويأكل ثمارها
وتقول هذا وأنت مشلول القدمين واليدين
الله أكبر وتبنى للغد مشاريعه

حين انتهوا من الأكل قام الذين يجب أن يستيقظوا قبل نهاية الليل فعليهم فرض الصلاة السابقة للفجر وهي التي لا يمكن قضاؤها في الوقت الممنوع بين الانسان والله لما

ترتفع الشمس فوق الأفق إلى ما لا يقل عن ارتفاع الرمح
وحينما تصفر الأشعة
فلا يكفي اليوم بطوله للفلاحة في الربيع

واعتذروا من الآخرين الذين لا تقويم في عملهم الفكري البعيد عن أعمال الحقل لأنه يندرج في الحلم ولا ينقطع في راحة أو لعب أو حب الذين بقوا

وقد باتت المشاعل غير ذات نفع حينما البس القمر كل شيء رداء من حوارة

وقد انتقوا لمناقشتهم الليلية الموضوع الذي افتتحه آخر كالاندار ككتاب وجده صدفة بين الخرائب

المستقبل مـا هــو

قالها رجل بقي في الظل حتى الآن يقوم على خدمته ولد صغير فسأل أبو عبدالله في صوت خفيض عمن يكون هذا الفيلسوف وأجابه صاحب الدار انه ليس فيلسوفاً وانما مطرب نهج يسمى ابن عامر النجدي وفي عدم معرفة هذا الضيف له دليل على أنه غريب في غرناطة

فكرة جديدة في الأندلس

٤

جــدل في المستقبــل

قال أحدهم لا مستقبل إلا من الله
وقال آخر لا مستقبل إلا من الانسان

كل شيء راجع للأول لأن كل شيء بأمره
كل مسيرة للسلطة الزمن نفسه
لا يحدث شيء إلا من حيث نبع النظام
الملوك ليسوا إلا قرميداً تجري فيه ماء الله
وهو الذي يكسره فإذا استطاعت يد قاتل
مباغت دنيئة أو ثورة شعبية
فمن الله وحده الطريق المفتوح للآتي
أما إذا نطق فم باسمه أو ضربت ذراع
فما هما مخوّلان بالسلطة وبما أن قوة
الانتخاب بواسطة الشعب مجتمعاً لا تعبر إلا
عن إرادة الله
وهي من الله في الامام المنتخب

المستقبل من الله المستقبل هو الله

قال الآخر أيها البدعيّ عن فمك تندّ رائحة خارجية
ليس الله الماضي ولا المستقبل انه هو فحسب
المستقبل من الانسان انه ما اغتصبه الانسان
ديمومته التي ما لها حد ضد الموت

كمال الانسان الذي لا يكتمل أبدا
وإذا سقطت زهرة السنة جاءت زهرة أخرى في الفصل المقبل
ولو أنها لا تكرر الزهرة السالفة
تتعلم منها
تتجاوزها بألوانها وقوتها وعبيرها

كيف تدعو سواك بالطائفي
يا من أذنك تنبو عن معنى الكلمات
أيها المعتزلي الذي لا يرى في الله إلا تجريداً بعيداً
مجرداً من صفاته مقصياً عن مملكة الشر
انك حين ترى في الانسان وحده قدرة الجريمة
حين تنتزع من الله المشيئة فيها
فإنما كي تزعم أن الوحي
لك وتنكر سر الكلمة غير المخلوقة

ويصغي أبو عبدالله في صعوبة وقلبه
يخفق علّه يعرف إذا كان أم لم يكن الشر
من إرادة الله فيدير عينيه من واحد إلى آخر
لكن ثالثاً قفز بين المتحاورين كسكين
فمزق صراخه السدوة
وضرب بيديه فغطى على الحديث بصوت حاد

يصبح مستقبل الانسان الطير مستقبل الانسان الطير

عندها حركوا جميعاً ألسنتهم وأكمامهم
فإذا هي غابة كلمات تتصالب فيها الأغصان
ونقيق حمام فلسفي
يا لها فوضى في بيت الاسلام
وهل للجمر أن يفضل شعلة على أخرى
من منهم الذي سيرمي بنفسه أولا للنار

وهذا يجهر أنه من السنة
باسم شريعة الأمويين
من يخالفها أمامه يراه متهماً بالتشيع
وهذا الذي يزعم إحياء الايمان بالشتم

ويرقص في جامع البيازين
المستقبل لديه في موت يستعجله يبحث عن جلاد
يعلن أن دمه مباح لمن شاء واضطهاده مباح
المستقبل هو شغفه بأن يكون الضحية لمجد الله العظيم
في زمن يتهدد فيه بيت الاسلام الخطر من كل ناحية
وهو يريد أن يهز فتور المسلمين
لعلهم يغضبون مما يقول عن الله
فيقطعون قدميه ويديه
انه قلق قلق الشهادة وهو هنا
في بيدر القمر وبين حكمة الشيوخ
يضرب أرضاً بقدم لأن زمن العذاب تأخر
وهو ينتظره كعروس يدور حول نفسه
في كلمات تبرر فعل قاتله
ويثيره بزندقته
كي تخرج الأبواب من المصاريع
وتطفر السمكة من الحوض
وقسوة الانسان

سباب من أجل الاعـــدام

يجب أن تكون ملكاً حتى تصلب بين خنزير وكلب
انهم يذبحوننا بلا ثمن نحن الذين لا حق لنا بالتفاصيل
في تأنق أو من دون تأنق السيف البربري أو المسيحي
أتظن أن الألم أقل إذا مت ميتة البهيمة
ان الدم يصبغ في الحالين الفم من جرحه
لا تنتظروا مني أن أبكي الأمراء كصفصافة
ولا أيديهم ولا أقدامهم إذا اخترقت ولا قصورهم إذا ضاعت
لأن السوط يمزق كتفي مثل أكتافهم
أما إذا لم يكن موتي بيد الجلاد
إذا لم يأت أجلي على جدار وقد مزقوني اربا
إذا لم أنازع في رابعة النهار كثور
أما إذا حسمت حياتي سكين العجز
أليس الأمر عندي سيان الزبد أليس نفس يأس القلب

أوليس غضب الله هو نفسه وغيظ السباب نفسه
من منحني ذاك الخالق الذي قدر الموت لخلقه
يفصلني عن دمي يزهقني في ما أحب
أما من كلمات يقولها الانسان لله سناً بسن
لعلي أضربه بخنجري فأسمع أنينه
أو يكفيني أن أنتزعه مني وأن أرميه كنجيل
أين يدمي ضعفه أين أستطيع الوصول إلى أحشائه
أانسان ذلك الذي يركع ويخاف الله
أريد أن أطعن اله السماء بضربة لا تندمل
أريد أن أجد لجرحه الزمن والمكان
فيظل ألمه منه مثل وجر لا يشفى
لعله ما دام يزعم بأنه لا يبلى يتألم من وجع خالد
يعانيه الانسان خطأ منه ومن ارادته الفاسدة
عقاباً له في علي قدرته وخلوده عقاب
غيث لحصاد
ومحراث لأرض

وامتلأ الليل فجأة جراداً كفضيحة في رابعة النهار

واستولى الخوف والغضب على مشعوذي الأفكار وضدها كأنهم قذفوا السماء بحبات مسابحهم

أو بأحذيتهم التي حلوا سيورها
وما شأن هذا المسعور في جدل أسمى
ولقد كان ضجيجه يخرج منه كدمدمة دبور
إلى الأذنين الملكيّتين
أفما كان ينبغي أن يذبح للتوّ ويحمل
رأسه المقطوع إلى باب الفيرا حيث
رأى القمر نفسه مرات عديدة في نصال السكاكين
لكن صاحب الدار تقدم في قلب التهديد والشتيمة
فما يدري أدفاعاً عن الله أم عن ذاك الصوفي الذي أفقده اتزانه
أم أنه خشي الخيانة أم ظمأ النزع الذي لا ينطفىء
فصاح سريعاً قبل أن يراق الدم ان الله في الذي ينكره

الله في الــذي ينكــــره

القائل قولا ضد الله هو الذي يضم الهه بين ذراعيه
وما يسوّد فمه وروحه إلا من وجد الحب
والله لا يغضبه الكلام هيا قل قل ما تشاء
أو هل تظن أن من يضرب امرأته لا يحبها أبداً
اني لقادر على انتزاع جلدك كما ينزع غطاء عن سرير
أن أعري داخلك حيث ألمك سجين
عله يتحرك في كل نقطة من جسدك عل جنونك
كمهرة تشب إذا لمس عرفها
أرأيت عضلاتك وقد برزت في دنس جسد مسلوخ
ولون دمك المخيف كشفة تجفّ
وأحلامك في رائعة النهار كما في رائعة النهار معاصيك
واليد التي تغطس فيك فتصطاد قلبك
أستطيع أن أقطعك من أجل لذة فرقعة عظامك
أستطيع أن أغرز أصابعي في فجوات صدرك
وأن أقطع في أناة عذابك بمقص
أن ألف صوف أعصابك على أصابعي كبكرة
لكن الله قال لي دعه كلما ازداد في انكاري وفي تخبطه
كلما ازداد اضطراب خليقتي أو جد فيها
كلما ازداد السباب بشاعة وتدنت كلمات الشتيمة
أخذت منها ماهيتي ومن غيظها طبيعتي
أتود أن أعينك في ايجاد كلمات قذرة ومخيفة
تضعها على قدم المذبح لعل الله ينتشى من القذارة
كلما أوغلت في الدناءة والوقاحة والطين
يصعد منك أعلى ذلك الذي يختارك كنيسة له
لا تستطيع شيئاً أبداً أبداً ضد الله الذي يستمتع بغضبك
هو الشعلة تنفخ عليها فإلى مكانها تعود
انه الجحيم لأنه السماء انه النور العجيب
تكسره بقبضتك فإذا تلك صورتك في المرآة
من يحمل تلك النجمة السوداء بين عينيه في الوسط

أنت الذي تنفخ كثور
أنت الذي تتألم كأرمل
أنت الذي تحس في عمق وجودك بنقص في الله
وكما يخرج الطائر من بيضة يولد من الله الذي أنكره اله جديد
أنت لا تستطيع شيئاً لست سوى انسان مهما كان نكرانك
وظلام ذنبك وجحود فمك وسورة البهيمة
عندما تشتم أنت الذي تتعذب أنت وحدك
يخنقك الله باسمه وحده في حلقك
كحسكـــة
وأنت يا مجنون ما دام الذين عيونهم على الغد
كفاهم هذا الصوفي فأضل خطابهم
أعد إلى سماء المستقبل تلك الثيران الخارجة عن الطريق
غنّ زجلا في المستقبل وأر الانسان أين يعدو الانسان

عندها غنّى ابن عامـر

زجـــل فـي المستقبـــل

الحلم بما أنه من طبع الانسان
فهو يعرف كيف يموت من أجل أن يكتمل
حلمه بأيد أخرى
ونشيده على شفاه أخرى
مسيرته على دروب أخرى
حبه نفسه بين ذراعين آخرين
لعل آخرين يقطفون ما بذر
وحده يعيش من أجل الغد

همه أن ينسى نفسه
الانسان من فضل سواه على نفسه
يشرب آخر خمره
الانسان روح للعطاء
هو الذي يقهر نفسه

ويمنح دم عروقه
ولا يطلب ثمناً عن جهده
ثم يذهب عارياً كما جاء

هو من يبذل نفسه
يتجاوزها كما يقدر
لا يصبر عن الوصول للسماء
يحترق بنار أوجدها
كالليل من أجل الصباح
لا يحس بضياعه
يفرح إذا فتح باب
على هوة قدره

في هيئته في بنيته
لا يحلم الانسان إلا بالمستقبل
كلاعب شطرنج جولته
أن يفقد خيله وأبراجه
فيزول كل أمله
من أجل ملوك أخر على خانات أخرى
من أجل بيادق أخرى على قواعد أخرى
وتستمر الجولة بعد رحيله

بين كل ما ينتفس الانسان وحده
اخترع لنفسه المستقبل
لا أحد حتى الله الذي عنده الزمن
لا يقاس مع الخلود
لا يمكن أن يصير ما دام
هو البقاء الالهي
الانسان هو شجرة تسيطر
على ظلها وترى أمام

المستقبل معركة

ضد الموت وما أربحه
ضد البؤس فهو الأرض
التي يقضمها الفكر الانساني
قدماً قدماً كموجة بحرية
تعود دائماً إلى حيث
زرع زبدها حربه
وقوة آخر حبة

المستقبل هو ما تجاوز نفسه
يداً ممدودة وهو المدى
فيما وراء الطريق المطروق
هو الانسان الغالب بنوعه
محطم تمثاله نفسه
واقف على ما يتخيل
كصياد طير
يعد ما قتل من طيور

استعير منه سكري
هو كوبي وحبيبتي
هو كلداني[1] المعكوسة
السر الذي أتقفى
كشفة بلا صباغ
هو العين المفتوحة في الرأس
أحشائي وغزوي
الركبة على اله الفكرة

أسقطي يا قوانينا صنعوها للفقراء
إليكم بأثمار لأعياد أخرى
أنا فيها ناري نفسها
تلك هي أرقام وفول[2]

---

(١) Chaldée بلاد الكلدان .

(٢) يستخدم لاعبو القمار أحياناً حب الفول محل « الفيش » والأرقام .

اننا نبدل قواعد اللعبة
لغد مجنون ولتمت البارحة
الحساب يتقدم على الصلاة
ويربح الانسان ما يريد

ان مستقبل الرجل المرأة
انها لون روحه
هي همهمته وضجيجه
دونها لا يغدو سوى شتيمة
هو من دونها بذرة بلا ثمرة
فمه ينفخ في الريح المتوحشة
حياته ملك للخسران
يده نفسها تحطمه

أقول لكم خلق الانسان من أجل
المرأة خلق من أجل الحب
العالم القديم سوف يتبدل كله
أولا الحياة وبعدئذ الموت
يجب أن نقتسم كل شيء
الخبز الأبيض والقبل الدامية
ولسوف نرى الزوجان وملكه[١]
يثلج كأشجار برتقال

أخذ الطفل زيد عوده ودار
ابن عامر يوجهه ناحية الليل و
استأنفت الخلية دمدمتها لأن أحداً ما كان يفكر
أن يعطي درساً رعاعي الفكر إلى أهل العلم الذين يقينا
يبحثون في كمال اللغة
بعض ما كان يرمي إلا إلى التوفيق بين أرسطو والقرآن
وبعض يجد في المستقبل قاموساً فيه لكل شيء اسم

---

(١) كلمة زوجان نتعامل مع هذه الكلمة بالمفرد .

وما كان لزجل ينشده مطرب في النهج
أن يستقطب مناقشة رجال الحكمة في الساعة التي يحتدم فيها الحوار والعنف
فعندها تغدو الكلمة كبنت عند نحويّ
يدأب طويلا وراء لذة الوضوح
يقول أننا نتكلم لغة النبي وعلى هذا
لا نُعنى بأن نعطي الفعل صيغة المستقبل كما
يفعل الروم في ضلالهم
وفوق ذلك ما معنى هذا الزمن وهو لا وجود له إلا في الفم
وهو لا يعبر مهما طمح إلا عن الممكن والضروري أو عن تركيب للياقة أو ابداء رغبة أو تمني
ان الكافر نفسه يخشى مستقبل الواقع لأنه انتهاك لمملكة الله
وبعد ما تلك الصيغة الفعلية سوى تصور من نوع آخر للحاضر
أكثر غموضاً ودائماً ناقصة
تعبير عن حلول الأشياء لا أكثر
ونحن بعيدون عن هذه البدعة المستقبل
لأننا نفترضه كلاماً غريباً على القرآن

٥

يا لها آنئذ ضجة بين الذين كل الأشياء عندهم في اللغة
وظن الأمير المختبىء أنه في دهليز ثرثرة
فلقد ضاع بين المرايا كلص انسرب إلى بيت فيزيائي
والتفت فخاف من صورة جسمه الشوهاء
لكنما الأمر أدهى في الفكر حين لا تتعرف على ذاتك فيما تفترض من انعكاسات نفسك والعالم
بين صياح المعتزلة والحنابلة والأشعريين والعلماء الثائرين
وكانت تشغل الأمير الليلي فكرة وحيدة من بين كل ذلك أن يعرف
هل الشر من الله ككل مخلوق
إذا كان الله يريد الشر فماذا أقدر أن أفكر عن المستقبل
وضاع أبو عبدالله في غيابه الاصطلاحات
كطائر مهاجر أخطأ الفصل
وأعوزه الزمن الذي يتعود فيه عادات المناطق التي يمر بها
وبات لا يستطيع متابعة علم الفلاسفة وما ذلك لصعوبة الكلمات فحسب
بل لتعدد ما ذكروا من مصادر

ولم يدرك الملك هذا القاموس وهو الذي قامت سعادته دائماً على الملموس من الطيبات

هو الذي ما عنّ له أبداً أن يحل الكلمات محل الاستمتاع بها
وإذا به يجده أمام علم يرى المعرفة في اللغة وحدها
والتلاعب بالكلمة
لكن هذا الصرح الفكري الذي يشبه عمارة الحمراء المكتوبة
ألم يتعوده كمحراب تحت سلطته
ولقد أتاه في تلك الساعة شعور غامض راجف
بخطأ الكلمة ووجود أشياء خارجة عنه لا اسم لها

وما كان ذلك في البدء غير هالة شبيهة بغلطة على حدود الحقول التي غمرها القمر

ربما لم تكن في البدء غير صدى لأسرار نفسه العميقة
الشرّ الذي فيّ الشر الذي يضطرب فيّ
وكما تشهد عيون سحقتها راحة يد
أو تلك الأصوات من غير الواقع التي تسكن أحياناً الصمت
ما من دليل أن الليل يستعير ألوانه من الحياة قبل الفجر ما من
دليل على الدعس الذي يكبر في نوم البرية اللامحدود
أو هل يأتي ذلك من الأفق هل يأتي من صخب الأفكار
ثم لا يسمع أبو عبدالله غير ما لا يسمي أبداً مثلما
لا نسمي الألم العنيد الذي يملأ صدورنا
لا يسمع غير جنون فيه فلا يدري أنه الأندلس
ضيّع كل حب اطلاع ما عدا ألم لا يقهر
آه اني أتعرف عليك اني أفهمك يا ملكاً يتألم
في تلك اللحظة التي لست فيها غير انسان الخفقان
كيف من لا يحس قلبه كبهيمة شطرت
من لم يسمع أبداً عدو طريدة داخلي لا يرحم تفر من الصيد
تطاردها تطاردها كلاب مبهورة النفس ألسنتها تتدلى في لهاثها
من لم يمتلىء أبداً من الألم الصاعد كجرة
من لم يعرف أبداً خوف الشرايين
كيف يشارك مثلي في قلق هذا الملك الغامض
الغائب عما حوله الغائب عما يقال الغائب عن نفسه
وقد غدا أذنا فحسب على عتبة رعبه
آه تستطيعون أن تتكلموا أن تتكلموا يا فلاسفة
أنتم ما وجدتم بعد اسماً لما لا يبرره غير
صياح الجسد
الصيحة التي تختنق لما ينكر نفسه قبل التكوين

ما لا نفع فيه كمنارة في بلد عميان

بوسعكم أن تقيسوا دمي يا أطباء لولا انّ ما اعاني
يفلت من علمكم كما من كأس دهاق
لن توجد لغة عماً يملأني حتى الكتف
لهذا الطوفان فيّ من موت ينهشني
ولا يمكن أن نطلب منه حتى الشفقة
ماذا فعلت لك حتى صرت هكذا متوحشاً يا غلاف روحي
ماذا فعلت لك حتى غدوت هكذا تمزقاً عندي
الصيحة ترتد إلى الحلق وابهاماها على قلبي
شيء يفيض عن ذراعي المطرقة تضربني ضربات شديدة
لاأعرف ما أنا ولا ما يمتلكني
انه لا يتراجع أبداً لا يمكن أن يتراجع
ذاك الذي يلهث فيّ يصمي وجودي قبل قسوة الصباح

ودعس عظيم على الطرق بل عدو
لا يتقيد بالدروب المعهودة
يجيء عنيداً من عمق المنظر ويندلق في الأدغال
ويتخذ قليلاً خطوات غزو وتتراءى الأشباح في السماء
فيصطكّ الظلّ في كل مكان بشر وعربات
ويسمع سوط على الجلد في رعب القطعان
وتحترق في كل ناحية الشموس المجنونة على وجه الأرض

جاء رعاة فقالوا أن قوافل تجيء من كل جهات الأفق وروى أول الفارين عندما تقف حميرهم

أن المسيحيين ينشرون منذ المساء أشجار البساتين يقصفون النخلة فتهوي ولها رائحة انسانية

يجففون الزيت في الزيتونة والكرزة في زهرها

لم تبق رمانة في سهل غرناطة لم تبق ليمونة مرة ولا برتقالة مرة في وسط حقول بقروا بطونها وما زالت ينثر فيها البذار

الحريق في جهات الأرض الأربع يشعله جنود نصف عراة يحملون المشعل والنهب

القرى تفر من مراع عاشوا فيها وانتظار حصاد لا نفع فيه واهراء ترقلت
انها نهاية العالم اختارت هذه الليلة لقدومها لا ليلة أخرى
وذاك المجنون الذي تنبأ بالزوجين فقدم له مملكة الأرض
في الحين الذي بدأ الانسان موته بموت القمح والذرة وأشجار التفاح

على بعد أية مسافة منا حاملو الرعب
من أية جهة التهديد وكم بينهم وبيننا من زمن
وقد أخذ جَزْر المياه الاسلامية يلطم الرابية

أعمدة الشقاء الشاحبة قرار مفاجىء كحب من أهراء عظيم ثقب من أساسه

لا أدري ما أسوأ الدموع أم الصمت
يقفون ثم لا تلبث الهدأة أن يحيق بها الخوف

ما حيلة غرناطة فيهم وقد غصت بمن فيها ومن أين الغذاء بعد أن نهبوا السهل والجبل

وما يعلم أحد ان كان العدو هناك يتبعهم في أعقابهم
وهم يجرفون في سبيلهم شعباً ترك المزارع والقرى
وتكبر الموجة في يقظة الظلمة
عربات وأكوام وعدو أطفال ونساء
وما يأخذونه هنا يدعونه في مكان أبعد أشياء بائسة جنى حياة
وحيوانات يريدون دفعها أمامهم تنفلت في صراخ أجش
الخيول أولا الخيول من أين جاءتها هذه القفزة فكسر أحدها الميزان

وفجأة صاح الابن بأبيه وقد نهد حين تبين شبه جواد دار به فارس في قوة ملك إلى المدينة .

صاح الابن : الطلعة يا أبي الطلعة
فيما السبوق وقد هيمنت عليه فخذان ويد أمسكت به من عرفه
يصهل مقهوراً ثم يسلس للرجل وعلى الطريق
صيحات جمهور وعربة تعثرت وفلاح فتى
سقط أرضاً يتأوه قليلا ويداه على بطنه

وأظلاف تطير إلى قدر الملك

٦
الفجـــــر

لما مدّت الشمس لسانها القاسي ككلب أصفر
على جبين الفارين الشاحب وعرقهم ونومهم
رأوا أن كل هذا لم يكن حلماً عابراً
بيتهم يحترق حقيقة وقد قطعت الشجرة وجفّ النّسغ

الأرض حامل بقرت والسدر نفسه في المقبرة

لم يسلم من الفراعة ولا بقي دون شق
الأهراء الذي غفا فيه شغل الماضي كطفل في مزود
أيها العلي القدير لم هذا الجرح أي ذنب اقترفنا

الحريق منك وقد أشعل الكافر ذبالته
مهمازك حبسنا على منحدرات جنّات العريف
ملاكك جلس علينا حرثنا بمخلبه
في شقائنا الذي قراص بين نضر الزنابق

الشعب واقف على الأسوار دعونا ندخل أمواتاً أو أحياء
غذينا أطفالكم بالمحراث والمعول
وأحست غرناطة بآلامهم تموت على أقدامها وهي تلحسها
لكنها خافت ان فتحت للغرقى البحر أن تغدو في قاربهم

نفس الفم جمع عند الفجر الخير والشر في وعظ واحد
انه الله الذي شاء لما لا أعلم من سبب غامض
أن يضرب حتى الموت البريئين والفقراء والضعفاء
من منّا يقدر من يقدر أن يمسك بقبضته التي ترمي السهم

حصــار غرنـاطـــة

اندفع إلى غرناطة أربعون ألف راجل وعشرة آلاف فارس ومعهم ليلك الفيجا كما يسمون المرج يقودهم فرديناند ، وقد أقـام معسـكره في ينـابيع القويطـار ، على أقـل من فرسخـين من غرناطة ، ساعتي نزهة . ترك الملكة ايزابيلا والأميرات والأمير دون خوان في قلعة الكالا لاريال ، هكذا عمدوا قلعة يحصب القديمة ، وكانت الحاشية وهي تنتظر النصر تنشد المزامير ، وتلعب النرد والشطرنـج . كانـت تستقبـل عليه الغربـاء ، ومنهـم رسـول مكسيمليان النمســاوي ، دوق بورجونيا ، والمسوّد جان مولينه ، الذي كان يقرض أنيق الشعر . تمت الحملة ، بفضـل ذهـب اليهود ، ضريبة أو مصادرة ، ومحارق دامت أكثر من ستة شهور أضاءت فيها شبه الجزيرة كلها يومياً لمجد العذراء والله ، نبشوا فيها موتى اسرائيل ورموا بقاياها على المزابل كي يمرروا سلـب الأموال . . . ما كانت لتكتفي الحملة بتحدي الخيمة الملكية وقد زرعوهـا على مرأى الأسـوار الغرناطية ، ولا بالدوريات التي جابت الفيجا نهباً ، والجبال القريبة ، فلا يرسل منها شيء يطيل أمد الحصار ، وكان ذلك عند فرديناند انسانية ، لا بربرية أبداً . . .

أما داخل الأسوار ، ولو أنهم رأوا ، في غير وضوح ، حركة الجيش العدو في المرج ، فقد توهموا أنها ما لا أدري من هجمة قصيرة ، أو مظاهرة عابرة قد تسبق مفاوضات صلح . وكانوا يقولون أن هؤلاء المسيحيين لا يصلحون إلا لحرب الأشجار . . . ذلك كان أثر الربيع وحلاوته ، بالرغم من الاعلام المركزة في الأرض ، والصلوات التي تسمع في فجر النهار وفي فجر الليل ، لكن الذين يخسرون استمدوا من ذلك حكمة وبصيرة ، صفر تراودهم النبؤات . وشهد مجلس الملك انقساماً في الرأي . حتى لنظن أنهم في أيام أخرى حين يئس من الدفاع عن بلادنا الأعلون فيها ، أو تظاهروا بذلك فوصموا بالخزي الجندي ، والعامل ، والمعلم . . . أمن الممكن المحافظة على الاتصال بالبشارات والدفاع عن جسر الطبلات ؟ وانحى باللائمة الوزراء ، والشيوخ ، على شعب غرناطة الفوضوي ، رفضوا أن يروا فيه جيشاً . وحسب الأعلون حساب نقص المؤون ، والجبن والثورات ، فطالبوا بالبدء بمفاوضات مع الملكين الكاثوليكيين تحفظ عليهم ثرواتهم ، هذا وبعد ـ لم لا نسلمهم اليهود ! وما دام الملك ، كما زعموا ، قد عقد من قبل اتفاقات مع العدو لماذا لا يصغي إلى سامي الشخصيات فيبدي لهم أنه وافق عن غير رغبة ؟ بدلا عن ذلك ، وهل يخطر ببالنا أن دفاعه عن أبناء اسرائيل نفاق ، حين ذكر بأن السورة السابعة تذهب إلى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يدلون ؟ وجاء الرد سيلا من آيات ضد اليهود ، فقد كان علـم المشـايخ والوزراء وتقاهم عظيمين ، لكن هل نسوا أن بني الأحمر الذين تسلسل منهم محمد الحادي عشر ،

هم آخر أحفاد الأنصار ، أصحاب النبي ، وأن زعيمهم سعد بن عبادة ، هو أحد السبعة الذين توسطوا بعد معركة أحد ، وقد قاتل فيها اليهود القزمان والمخيرق مع المؤمنين ولو أنه يوم سبت ، عند محمد كي يعفو عن هذا الشعب من أهل الكتاب ؟ وأعمى الله غضباً أبا القاسم وهو الحكيم ، فكشف سلوكه أنه رأس الذين عزموا على ارسال مفاوضين في نفس اليوم إلى منابع القويطار فأثار ضده عنف العسكريين . وربما كان السبب أنه وعد سراً مندوزا باضطهاد اليهود . . . وسر ذلك الأمير ، فاتخذها حجة لعزله عن وزارة المدينة ، فلم يدع له إلا منصباً استشارياً في المجلس ووضع على رأس الوزراء يوسف بن قوميا ، فسماه حاجباً . وجعل أبو عبدالله بنفس الوقت وزيراً على الجند موسى بن أبي الغازي ، المحتسب ، وهو من لعب دوراً عظيماً في معارك الشتاء الأخير التي حرر فيها الأمير المرج كله ، فأتاح بذلك عودة الزراعة وتموين المدينة .

أعلن آنئذ موسى أنه سوف يعيد تنظيم صناعة الذخائر والأسلحة ، وأنه سوف يقاوم العدو بالشباب . وأصدر محمد الحادي عشر منذ عودته لغرناطة مرسوماً يؤمره على أبناء الذين يريدون تسليم العاصمة ، وأمر بأن تفتح الأبواب بعد أن تدعم ، بالخوازيق ، والعوارض والسلاسل ، كي يدخل المدينة حشد اللاجئين المسكين وقد نزلت أمه من جنّات العريف فتوسطت لديه من أجلهم . وبينما كان مدهم ينهال على المدينة من كل جهة ـ وسعوا مكاناً ! وسعوا مكاناً ـ كان يتقدم إلى وسطها في نفسير موسيقى الخيالة ، قائد الجيش الجديد ، ومساعدوه ، على خيل القتال ، ومعهم نخبة العسكر ، الجند ، وبعد قليل تلمع من جديد في السهل سيوف الاسلام .

نشيد معارك لا جدوى منها

رأيت يداً تشهر السيف
رأيت الحصان يدوم في الحقل
ويصب في صيحة عظيمة
ويطير الرداء وتدخل المهاميز
بطنه الدامي فيقفز ارجوانياً

رأيت السماء في بيارق الحرب
تخيف النسر والحمام
رأيت الريح تفر بعيداً عن الأرض
والنار تقتعد خانات الشطرنج
وتعدو الكلاب ثم تسقط أول ما تسقط

اقتطعوا قبضات المسيحيين على الأعنة
واجدعوا آذانهم وأنوفهم ووجناتهم
رأيت الدم ينبجس من نوافيره
والانسان ينحني كقمح على منجل

رأيت الجسد يتأوه على كل طعنة

رأيت سيادة المطرقة والرمح
رأيت الفم ينسى القبلة
رأيت الحديد يذبح الصمت
رأيت الحياة مسحوقة محطمة
رأيت الموتى يستشهدون مائة مرة

رأيت مذابح مزدوجة من أجل لا شيء
وأعداء يتصادمون عبثا
يفرون يجرون أحشاءهم المندلقة
والنصر يتردد حتى الليل
وفي المعسكرين نفس الضراوة

رأيت النهار المتوحش ينجو بنفسه
إلى التلة بعد الطعام
وعلى فراش حب داعر
يزيح القمر الظلمات كدثار
فيأخذ الأجساد في بريق ذراعيه

هل أدرك أبو القاسم أخيراً أن ارادة الله قدرت منذ البدء أن تجعل منه أداة ضياع المملكة ، وأن ما ظن أنه يقوم به عن تقى تبعاً لتلك الارادة ما كان في عين العلي (ولتكن مشيئته !) غير مجرم جريمته أن ينتصر ما قدر الله أو أنه فقد الأمل ، إلا بسلاح الاسبان ، لتثبيت سلطته ، التي مارس طويلا على غرناطة ، فعزم في برود عقل أن يكون في خدمة الخيانة ؟ واني لأميل للظن على كل حال أن تقاه زين له أن القضية ارادة الهية : أو ما كان واضحاً أن الملكين الكاثوليكيين ما كانا ليكتسحا أكثر المملكة ويجيئان فيحاصران عاصمته لولا أن العلي القدير أوحى بأمره ؟ لقد آن الأوان الذي تتجسد فيه الكلمة الالهية ، وأن تتحقق واقعاً نبوءات الفقير ، وقد عاد فظهر في المدينة ، بعد أن جاب عبثا افريقيا الشمالية وطلب في مراكش ، والقيروان والقاهرة ، نجدة الملوك المسلمين ، مع أنه كان بوسعهم أن يجدوا في أبي القاسم شريكاً لهم في المملكة الأندلسية إذا أصبحت تحت سيطرتهم .

ومن غير أبي القاسم ، يقدر على اقناع الزغل العجوز في جباله أن أيامه رجعت ، حتى لقد اقترف جنوناً فغادر في مائتين من خيالته قصر اندرش واختلط علمه الأحمر بالبيارق المسيحية ، فلما وصل الخبر غرناطة حتى عم الغضب عليه المدينة كلها وهو الذي كان عليها ملكاً ، وعظم حبها لأبي عبدالله ، الذي بدا الآن وكأنه آخر خلفاء النبي . وحلم الأمير عندها باسترداد المدن

الضائعة ، فأرسل قواده للبشارات يدعون للحرب المقدسة ، كي يجندوا جيشاً في الجبال ، بلْه شواطىء البحر .

وانقضى عام ١٤٩٠ في معارك متصلة ، يخرج العرب من غرناطة ويندفعون حتى المعسكر الكاثوليكي ، أو يعيدون الاتصال بين الجبال والجنوب من أجل التموين ، فيما يتناقص ما ادخرته المدينة ، وأخذ المرضى في الأماكن العامة يشهدون على اللعنة الالهية . ودخل الطاعون فاتهم به اليهود . في تلك الأثناء فتح المحتسب موسى معامل الحديد للسلاح ، وكان ينقصه العمال ، فتذكر حداداً اضطر أن يسلمه لعدالة القاضي ، وجاء بالغجر من مغاورهم في شمال غرناطة وهم المهرة في صناعة المعدن . لكن المعدن نفسه لم يكن موجوداً . ولقد تبادر للناس ، في تلك السنة ، أن عهد الغزوات الصغيرة ولّى ، وامتدت راية الجهاد واستعادة ما ضاع لما سقطت بهجة ومعناها الأبهة(١) التي يكتبها الاسبان برجا ، فيما وراء الشلير والبشارات ، على فراسخ ثلاثة من البحر ، في جنوبي مقاطعة البيرة أو الفيرا ، وهي تبدو باب المرية نفسها . ووقع هكذا في أيدي المجاهدين ، رصاص تلك المنطقة وتوتها ودود قزّها وهددوا أثمد البيرة وقصدير الشلوبانية . . . لكن الغرناطيين ما استطاعوا سبيلا إلى طريق البحر السوري ولا دخلوا المرية ذات المدن الثلاث ، القاعدة بين الثمار ، من موز ، وقصب سكر . . . ولو فعلوا لمدوا يدهم من على البحر إلى امبراطورية المناطق الساحلية ، ولما طرد الاسلام أبداً من أوروبا . . . أيتها الأحلام ، يا أحلام الليل الأخيرة ! تمكن جند أبي عبدالله من الوصول إلى ضواحي الشلوبانية ، وقد بدأ حصارها ، لكنه وجد نفسه يتهدده الاسبان الذين وصلوا من بلج ، فيليز ملقة اليوم ، وبأولئكم الذين أبحروا من جزيرة قريبة . كما أن مرفأ ادرا ، وقد ثار من أجل الأمير ، سقط ثانية تحت سلطة الكاثوليك ، فكان تهديداً لجناح المسلمين . الذي أخذ الموقع غدراً هو أحد أبناء السيد يحيى فاجأ الموقع بأسطول قشتالي بعد أن ألبس بحارته ثياباً مغربية ما أشقى ثائري أدرا ! لم يبق في المدينة رجل ، ولا امرأة ، ولا طفل . . . ورفع أبو عبدالله في يأسه الحصار عن شلوبانية ، ورجع إلى غرناطة ، كي يواصل منها انهاك العدو الذي ضيق الخناق ، نعم ، لقد عاد إلى البدء ، نعم ، وتوقف الأمر على ضربة قوية ، على جيش صغير ، كما في أمس المدينة ، لما غدت دار الاسلام بلدة فحسب ، ووضع الأمل كله في خندق حفروه . . .

يا بيت الله مثلما بدأت
تنتهين ذات يوم
غرناطة والمدينة ندان
مرآتان اصفرّتا مع الزمن
قال الرسول قدتك
إلى أقصى قدرك
الولادة والموت نفس العيد
والمساء صباح آخر

---

(١) هكذا ظنّ أراجون معنى بهجة .

والانسان لا يعيش إلا من الرحيل
ومن صراع الأعداء
هوذا مكان شهادتك
هل وعدتك بشيء آخر
العظمة الأخيرة والأولى
في أن تعطي كل شيء فلا تأخذي شيئاً
من يحترق فانما من نوره
أيان ذهبت فإنما للمكان الذي منه جئتِ
والغد يرى الخسارة
في ما كان البارحة راحتنا
أنظري إلى يمين صورتك
أنظري إلى يسار انعكاسك

على طريق العودة مرّ الأمير ، بالممتلكات التي منح فرديناند إلى عمه وأخيه غير الشقيق ، فسود فيها شريعة الجهاد ، بالنار والنهب ، وعادت قطعاته محملة بما غنم من القرى التي تركها رماداً . أما جليو البشارات وقد رأوا في شقائهم انتقاماً من الله على حملة سيدهم حين ضم سيوفه إلى فرديناند ضد غرناطة ، ثاروا في كل مكان ، مما اضطر الزغل إلى الرجوع سريعاً لأراضيه ، لكنه لم يستطع اعادة النظام بالمائتي فارس الذين معه . وخشي أن يقتلوه فعرض ببساطة على الملكين الكاثوليكيين ، والسيد يحيى أن يبيعهم إياها ، وقطع البحر بالكنز الذي جنى ، ظاناً أنه يجد ملجأ في المغرب . لكن الملك هناك ، عده خائناً لله فأمر بعينيه ففقئتا ، وقضى الزغل أيامه شحاذاً ، يحمل في رقبته لافتة يقرأ عليها : أنا ملك اسبانيا الشقي . . .

وحانت من جهة البحر الثانية ، ساعة كلمة النبي في هذه الحياة الملقبة اندلسية ، ساعة الصراع الأخير من أجل الاسلام أو ما اسمه ، دون تقيد بالحرف ، يعني زوالك في إرادة الله .

مثال
مدرب الرقص

. . . لا يعدّ الرقص لذاته حراماً

أبو حامد محمد الغزالي

في ذلك الزمن الذي أدرك فيه كل امرىء أنه لم يبق له أمامه غير أرض الموت ، ولو أنه أسهل عليك أن تموت عندما لا يفصلك عن الله غير صدور الأعداء ، في ذلك الزمن الذي بلغ فيه الألم شأواً أشد من القتال وهو أن تعيش بلا معركة في انتظار ما لا اسم له ، في ذلك الزمن الذي يقوم فيه الطفل بالحراسة ، وترتجف المرأة من الرجل وهو بين ذراعيها كما لو أن الدم يسيل منه عليها ، في ذلك الزمن الأسوأ من اليأس فما فيه عند أحد بارقة أمل ، حدث أن انساناً في سهرة باريسية ، وكان ذلك من أجل سفر فرقة مسرحية إلى بلد بعيد ، يطير فيه الناس بعد أن يضربوا بكعبيهم فيدوّموا في الفضاء المحرم وقد أخذوه من الملائكة ، انسان ما في سهرة باريسية ، بيت في أعلى المدينة بين أبواب من عاج ، وأبنوس وفضة ، كانت تسمع ضحكات النساء فما يدري أن الرجل الذي يحييهم دنا موته ، قال أحد وهو يعبر بمؤلف هذا الشعر أن مدرب باليه يرغب إليه في نص للرقص في الفصل القادم . وأغرت الفكرة المؤلف الذي لم يكن آنئذ غير رائحة من غرناطة . واندلقت الاشاعة كخمر في اناء ما أحكموا سدّه ، وتعرف الناس إلى نكهة اسبانيا ، لكنهم ما استطاعوا التمييز بين الملقي والكزيريس ، ولا عرفوا تاريخه ، وتخيلوا أن ما سوف يعطى في القصر الجديد الذي بني على هضبة شايو ، هو مشاهد من الحرب التي بدأت بموت شاعر في غرناطة . وجاء مدرب الباليه كي يتفاهم معي .

المشهد في المكان الذي أعيش فيه ، الكلام من مكان آخر .

المـــدرّب

إن من لا يرقص أبداً أو لا يعرف شيئاً عن الرقص إلا ما كان لقاء ساعة متأخرة

لحظة بين رجل وامرأة مع الموسيقى أمام الناس جميعاً وأحدهما بين ذراعي الآخر

لا يستطيع أن يتصور لغة الأقدام والجسم كله
التي لا تطلب جواباً ولا أجراً لها فتلك لذتها بل تتكلم

لغة أذكى من الكلام أو الموسيقى كل ما فيها يضيع بالثانوي وردة تمنح أو لافتة

كتب عليها شكسبير ما جاهل أحبّك كي يشرح فنّ الرقص
هنا لا يقال شيء بل يرقص
وتنفتح أمام الصالة المعتمة مملكة كاملة من التجريد
وعلى هذا لا أنتظر منك ديكوراً بل ذريعة
لا لون التاريخ أو لون الأندلس
البرنس أو الشاشية(١)
وإنما مشكلة تعبر عنها فخذ ممدودة أو ذراع طائرة
اجتماع وتباين انفصال واتصال الخطوات
مشكلة فيّ تذوب ولا تحل على شكل آخر
أشارك فيها هذا الفم الأسود أمامي
من شعب قعد في نسيان نفسه فلا يتتبّع إلا المشهد
كما في لعبة التنس يدير رواح الكرة ومجيئها مرة واحدة
المقاعد كعنق واحدة

المؤلف

الحقّ أني فكرت طويلا بالرقص
بأنه وشْي بسيط للموسيقى ولهذا
كان يبدو لي الباليه صورة عن حكاية لا لغة بنفسه
أما اليوم فلا أدري إذا كان ممكناً زواج ما يسكنني وحدي كعطر
مع لغة التوازن وهذا القفز الذي يكتفي بنفسه
والشاعر على عكس الراقص لا يستنبط من الفكرة حركة
أعني تفسير المعنى ببراعة الجسد
هو من يبحث عن ثوب جديد لروحه
ينبثق من صورة فيه تتخبط كعصفور أمسكوا به
إلى جريان الأشياء الذي لا يضبط
كسفينة غمرتها المياه
ولهذا نرى منه في حدود اليوم الآلية وهو يقطع الطريق
بين المسامير(٢) لغير نعش وبين ما يحلم به

(١) الطربوش في شمال افريقيا .

(٢) المسامير التي تشير إلى مكان عبور المشاة من الطريق .

وهو يحسب حساب النور الأخضر والأحمر على ملتقى الطرق
تولد غرناطة   غرناطة ليست منها تلك
وشياً أو جمبازاً مجرداً
أتخيل مشهداً على قدّ القصيدة
فكيف أحدد فيه ما لا أتوقع
وكيف يثير خطو اثنين تصفيق القاعة
عندها وفي غمرة فرقة لم أحدس بها عليها ريش ديكة أو قبعات من ورق
ينام عالمي أنا على أية فكرة
وما يلبث أن يحلم كشجرة كجرة أو حرب معلنة
فنّي ليس من العقل كفنّك

المـــدرّب

ماذا تعرف عن فنّي   الفنّ كالجسد
يتبدل مع العمر   وهو قبل كل شيء حاجة
عميقة الحاح لا يدع لك راحة
يدفعك إلى نوع من الغناء أو
آخر وأحس الآن في ضرورة عمل واسع قادر
أبعد مما كنت ومما صنعت
عمل يرتبط في بآلاف الأعصاب وعروق دمي
يرتبط بما يعتمل فيّ ويضنيني إلى ما
شئت أم لم أشأ يستولي علي ويدفعني عن النوم
ولست الوحيد الذي انتابته ريح الجنوب هذه
أولسنا مثل خيل أيقظها القمر في قلب المراعي
يرود أحدها كل الاتجاهات وهو ينفض عرفها الشاحب
ويرتمي الآخر على حواجز القلق
ويصهل المهر بكل خيشوميه إلى أمه
هل أستطيع أن أرقص أيضاً هذا الجنون
الذي أثبت فيه المعرفة وحق الارث
فأدع طويلا يتجزأ ما فيّ من مشترك
لا مع الذين كانوا بل مع

بشر هذا الزمان الآخرين الذين تمزقهم مثلي نفس الأشياء
ولا أقول أنه التعذيب لا أقول أنه الجزائر

المؤلـف

يا رسام الخطا يا فتى وصل إلى نضوج ذاته أراك تجيئني في زمن غير مؤات

لأنك تكونت لديك عني فكرة مما صنعت في حياتي ومن احتقاري الذي أبديت للقواعد واللوم

لكن عثرة كانت تنمو بطيئة فيّ بدأت اليوم فحسب تبدو كأنها تزيح أوراق شجري

ولي الحق بعد كل ما أعطيت من ذاتي أن يظهر عليّ اليوم وكأني أخيبك

لي الحق دون أن أشتم في أن أسلك طريق الجبل المعوجة
ومن ذا بوسعه أن يزعم أني أغلقت عيني على أيامنا الحاضرة
أنا الذي جعلت نفسي حاسباً[1] على مفترق الطرق

المـــدرّب

ماذا قلت . . .
أنـــا . . . .
قلت حاسباً لأنه ما من كلمة فرنسية
ليس هو تماماً شاعر مناسبة ولا
معلقاً الحاسب ليس صحفياً
هو قريب من شجرة التفاح في مهب الريح

نظرت طويلاً إلى هذا العصر وجهاً لوجه أو لم يقرأ في دموعي دموعه قل لي

لم أفرّق أبدا بين العمل والحلم غنائي
أمسك بالحدث من شدقه

إذا ذكر بعد لأي كثيرون ممن سقطوا ظلماً فإنما من أجل بيت وضعته بورعٍ

(١) يستعمل الكلمة العربية .

تحت رؤ وسهم المقطوعة
لي الحق في أن ترددوا في لومي إذا سلكـت درباً بين الصخور أو الـزهور الوحشية
وفيما يبدو عودة إلى ما كان من قبل كوباً مقلوبة
لن أعطيكم أبداً نصّا طلبتم يصل بين النظارة والرياضيين الراقصين
في هذه اللحظة ليس فيّ غير موضوع وحيد امتزجت فيه الشمس بالظلال
في هذه اللحظة ما فيّ غير صيحة طاغية على ما عداها
وليغضب من شاء أنها من غرناطة ومن الغزو الاسباني

أعمى من لا يرى فيها جرحه نازفاً منها أعمى وأصمّ من لا يسمع الصدى الذي يجيب في الانسان الانسان في خرائب الزمن المهدّم

كأن الحاضر لا يحتوي مرآة المستقبل والماضي المزدوجة كأن كل الحاضر لم يكن ماضي مستقبل كأن كل ماض لم يكن رمزاً لصيرورة

هكذا أنظروا إلى هذه المرأة هنا في غرناطة سنة ٨٩٧ للهجرة في أيام قمر ذي القعدة الأولى في قناع أو لثام بسيط والجلالة النازلة على السراويل

ليست هي غير درفة في باب التحول والمجنون الذي أتحدث عنه على حق

فهو لا يستطيع أن يراها خارج الصيرورة الملائكية التي ليست منها الحالـة الانسانية غير مرقاة مؤقتة

ان الطريق أمامه ولا شك طويلة وأمله مخيف مما تخيل عن أيامنا هذه فهي لما تصبح مملكة الملائكة

أيها الشاعر الطوباوي الذي لا يصل أبداً إلى حكمة اليوم القاسية فهي قسمتنا

نحن الذين نعرف أن قدر الانسان يتبدل على شاكلة أخرى دون أن يرتدي طبيعة أخرى

وفي جنة يدينا هذه وغرقنا لا يمكن أن يوجد غير بشر تقودهم مصالح الرجال

لا ارادات سماوية لكنني مع ذلك
ألتفت إلى غرناطة إلى هذه الكائنات من لحم ودم التي أرى
واقفة في نور النزع على أقصى مغرب الاسلام
ولتكن هي الصورة الحقيقية للمستقبل الذي ندعوه اليوم

هنا لعبة المسرح ليست أشياء ولا أشخاص : ما يكاد مدرب الباليه يتحرك من جهة لأخرى من المقعد ، حتى اعتمل الرقص أفكاراً ، وكأنما لا علاقة بين ما تقدم وما تلى ، وتمسك بكلمة حقيقية التي فهت بها بلا حذر

هـــو

لكن المجنون الذي يجب أن نعرض عجوز آه
الشيخوخة دميمة على الخشبة مستحيل مستحيل

يقلّد الشيخ منحنياً يعتمد عصا ، يهز رأسه إلى يمين ويسار ، يحرك الفكين يعني أن الفم دون أسنان . . .

أنـــا مُطمْئِناً

أسمع أسمع لكن ما الحاجة في عرض الشيخوخة يكفينا الشيخ
ويمكن تجريداً أن يكون راقصاً جدّ شابّ وعلى جمال عظيم
بل ربما كان أقوى قليلاً وأنمى من رفاقه

لا يعتمد في سيره على عصا بل يمكن أن تكون كل أسنانه باقية في القرن الخامس عشر يبدو

أن أحداً ما كان يتطلع إلى الأسنان الضائعة قبل الثلاثين

من هذا ترى أن الشباب مفهوم نسبيّ بعد خمس مئين من السنين أما العمر

فيكفيك أن تبديه بخصلات كبيرة بيضاء على رأسه في غير نظام فوق وجه دون تجاعيد

هـذا وبعـــد
ضروري لكل فرقة باليه تمثل الرجال
أن تحلق جماجمها وهذا يجنبها في كل الحالات
التعليق والتباين

هـــو مطمئناً

ان قدرنا هذا شيء آخر
شاب جد جميل خصلات بيضاء كبيرة

أغلق عينيه من أجل لعبات المشهد الداخلية ، خسارة ألا نستطيع أن نتابع معه وضع الراقصين في أماكنهم ، ودوران الأجسام ، وطيران الخصل البيضاء . . . لكنه خاف ولا شك ، فجأة ، من الجماجم الحليقة ، من باليه كبيضة مسلوقة ، وقد أوحيت به في لطف شديد ، وما أقول ، وقد أغريت أكثر مما ينبغي ارادته في التجديد . . . أما الصعوبات فتأتي الآن منه :

لكن قل النساء ما تكون هيئة هاته النساء
بخمار على الفم لقد نسيت ما قلت

أنـــا

لثام هـذا اسمه لثـــام

هـــو

والبنطال المنفــوخ مــاذا

أنــا سريعــاً

سروال لا تخشَ هنا غرابة ولا عجمة المودة الغرناطية
فالنساء في العالم الاسلامي هنّ في الحمام أو دار الخراج
ولن أدعك تدخل هنا خشية أن تزاحم
نافورة بهجة سراي أو الحمام التركي
تستطيع في هذا الباليه أن تلغي النساء أو تجعلهن راقصات فحسب
يرتدين زياً يدعى عقبة خيطت كي تنفتح كما تتفتح الزهور
والبشر لم ينتظروا كريستوف كولومب من أجل الستربتيز
الهدف من رقصهن تمثيل اغماء الحب
وهن يتقلبن إلى وراء حتى تلامس الأرض جباههن
وينشق على بياضهن النسيج الأحمر ذو الرسوم الذهبية

هـــو

لكن ألا يجب مع كل هذا أن تمثل
على المسرح التي إليها كل غناء القصيد

أنـــا

أمنعك كما منعت المجنون لأن
كل صورة خيانة لألسا كل صورة للحب
والشعر ليس صورتها بل صورة مديحها
لن ترى على جمالها مهما كانت نجمتك جميلة
بل مختلفة
تتقدم في كذب الأنوار
لن نراها في ممثلة بارعة التجمل
لن نراها يرضيها التمايل المنسجم
وكأنها ليست سوى تلك المرأة وتلك الرغبة
التي لا تتجاوز النظرة
لن نرى أبداً كمال النسب فيها يحرك
دمية روحها
لن نرى أبداً الوجه الذي اخترعوه من وجهها
لن ترقص من أجلنا ما دام من أجلها رقص الأشياء
ما دامت كل ما قيل لها وما هام
قلق داخلي إلا بها كما تشرئب الزهرة للشمس
ولو أن أحداً ما رأى وجه الشمس كما هو
لن ترقصوها لن تخترعوا شبهاً لها لكنها من أجلكم
سوف تكون في القاعة سوف تكون القاعة التي تفتح لها التراجيديا
وما معنى أوديب إذا كانت القاعة فارغة لأسرها عندئذ
يختفي في عمق زمجرته

لأول مرة هنا ، باستثناء ما نجل للمجنون ، نجد استعمال المستقبل في الشعر ، فقد سمعنا أنه من السا في لعبة مسرحية غريبة ، المقبل من السا ، والصيرورة ليست إلا منها .

[٤]

١٤٩١

الزمن مرآة بثلاثة وجوه
في مصاريعه الثلاثة المغلقة
يمحي المستقبل والماضي
وأرى الحاضر الذي يقتلني

« السا »

إذا لاحظنا ديمومة هذا العالم ، وجدناها محدودة بالحاضر الذي ليس سوى نقطة تفصل لا نهايتين من الزمان . الماضي والمستقبل لا وجود لهما أيضاً لو لم يكونا . . .

ابن حزم الأندلسي

الساعـــة

ألا تستطيع إذا فككت الساعة أن تتخيلها على شكل آخر فتنسق الدواليب
لغير تسجيل الزمان الذي حق عليك اندراجه

بل لاقحامه في دروب رفض
حتى الآن ريادتها هذا الحصان الخليع
أفما بوسع الانسان وقد اخترع الابرة كي يتبعه أن يجد آلة تطوعه

هكذا قال ابن عامر على الساحة العامة فاهتزت منه كتف وتكأكأ الناس عليه

يا مجنون قال أحد منهم وهو من يعرف الجمهور

ذو علم باللغة طار نبؤه حتى فارس حاذق حتى ليجد لكل مسألة تثار جواباً في حديث

ولو أنه هذه المرة أهمل الاستشهاد بالكلام غير المخلوق

يـــا مجنـــــون
يا من عن غير دراية تضع الزمن موضع جدل هل فكرت
أنت يا من يقارع صوته الريح والعربات
أنه شيء من ظل طائر اقتضى دراسة طويلة

عندها أنشد قيس ابن عامر

الانسان والزمان عدوان أكيدان
يطوي أحدهما الآخر لعلّ يأتي صباح
نصنع فيه نحن أقدارنا

في استمرار لا انقطاع فيه لعله يظل يقظان

غير مقسم فينا بنوم
أو عنا بمسار الشمس

هذا الزمان الذي ما هو إلا عيش برم
لا يروح ولا يجيء هذا الزمان الذي بلا امتداد
لا صيغة له إلا أن يكون معلقاً

هذا القلب من صخر يخفق فيه ضياعي
هذا الثقل الذي فيّ هذه المادة بلا حراك
هذا الطائر الميت وهو مشرع الجناح

انه زمان الآفاق المغلقة الثقيل
الزمن الذي يمر مع أنه واقف
الزمن المسدود الذي ندعوه الديمومة

من قبل ومن بعد بلا باب ولا نافذة
ما عنده أبداً غير نفسه يتعرف عليها
وما هو بعد غير موت ما يولد

الذي يلتقط اللحظة من خيشومها
قولوا لي كيف أقلبه
كيف أقدر على تبديل نظامه وحركته

فأغلب الزمان في قانونه نفسه
وأعطيه اتجاهاً في نظام معكوس
تلك هي معضلتي الوحيدة

أما من نوع آخر للزمان
نجعله مكاناً على مزاجنا نضعه
في علبة مثل دبّور أو نعرة

هو عند الانسان ما الحبل عند الراقص

العودة مضيعة
كل خطوة أخطر من خطوة سابقة

ظننت طويلاً أني أتبع هذا الطريق
الذي يقطعني بين البارحة والغد
حلمت طويلاً بهذا الزمن الانساني

وتفرق الجمهور كبرادة حديد وقد اجتذبته الرغبة في أغان من نوع آخر ، وسأل زيد أستاذه ، وقد كان يتبعه صامتاً ، إذا كان يجب أن يستنتج من هذه الأبيات وجود نوعين من الزمان أحدهما مسار ، دائماً وكيف تخيلته في الظهيرة ، والآخر كنه شبيه بالفكر والأشياء التي لا تتحرك .

عندئذ ابتسم الشيخ أن الطفل فهم كلامه أفضل من رجال المعرفة . قال ان الزمان ـ المكاني هو ما لاءم كلام الروم وأراءهم اللاهوتية ، أما الديمومة التي لا تكتمل عند جماعة الاسلام فهي أفضل ملاءمة لأنها هي نفسها اسلام ، أي اخلاص مطلق لا رجعة عنه في المستقبل ، ولا عودة فيه للماضي ، والمسألة تنحصر كلها في معرفة من يكتمل فيه الناقص ، في الله ، أم في امرأة حقيقية ، ما هو أعلى التفاني ، في الله ، أم في كمال خلقه .

وخاف زيد أن رأى أستاذه يوازن بين زمان الاسلام وزمان الجاهلية وأضاف النجدي أن المستقبل يمكن أن يكون اتفاقاً بين اثنين مما أبدع الانسان ، وحدة الزمان ـ الكنه والزمان المكاني ، في امرأة الزمان المقبل .

ومنها أتت فكرة لزيد أن شأن الساعة كشأن المرآة ، لا ترى الزمان بل تسجله . وعليه سأل معلمه ، أليست الساعة ما كان أمامهما ذات يوم وقد دعيا إلى ختان . وأجاب النجدي ضجراً أنه يجب التمييز بين الاستعارات أو اختلط كل شيء .

الشـــتاء

١

ما كان في البدء تحدّياً ما كان نزالا
وهراء رسل حرب من السهل إلى الأسوار
وعرضاً لطراد خيل
وثمة من يقارن بين جمال الثياب والسيوف
ويرى من الأعالي إلى غبار المحاربين
هناك وكأنهم جواهر في ذراع خنجر
وتدور الأيام

ونما التعب عند الفرسان في عودة الصباح من غزوة ليل
وعجفت الخيل هزالا وساد
الجـــوع

اعتم الشلير بغمائم ثلج وردية
شتاء بارد قاتم ما فيه غير بزاة الطير
والمدينة شاحبة تدعس حد مخازن الحبوب
وتهدر صلاة صماء
وقبع أناس تحت السماء عليهم أغطية مبللة
والنار نادرة في معسكرات الشتاء
الوجنة خاوية والأذن ثقبها الجليد
وأهملت الأفران الكبرى فصفرت فيها الريح

أفواهها مرة على مفارق الطرق
لا فحم حتى ولا ربعاً[1] منه

---

(١) وزن اندلسي بين ١٢ ـ ١٥ كيلوجراماً .

والفحام وقد ذهب صباغ وجهه ومذراته بين ركبتيه
يشتم المتقبل[1]
آه ان كنت تفضل الفحام الشاحب
احرق جابياً لكن لا
المتقبل يجس في حنان راحة يد
نفاية الفحم
لأنه لا يستطيع اليوم أن يفرض ضريبة على التاجر
والآن لا بد من طرد باعة الحطب من البازار لما الجوع

الجوع يحكم هذا الشعب بصولجان من جليد
بين الكوانين السوداء
وهو يغمز بعينه للطاعون الآتي
فما يكف الناس عن قبر الألى انتفخت بطونهم
والأحياء السفلى تفوح فيها رائحة جيفة بشرية وبول تجلد
ارجموا الأطباء في النهج

الجوع حاكم في فم الأطفال على أكتاف امهاتهم
والجار يكره جاره من أجل رائحة جيفة على سفود
يقتتلون من أجل حذاء عتيق وهناك
شيع جديدة تظهر عند التخوم
تتكلم لغة الثورات
وغرناطة قاعدة في زخارف أعراسها
تخبىء قدر المستطاع نهديها الهزيلين

الجوع يحكم المارستان الخالي
الملجأ الذي يجيئه الفقراء إذا اقتربت نهايتهم
ومشوهو الحرب عند النزع
يحكم عند المعتوه الذي انقطعوا عن اطعامه
فهو يجعر وراء القضبان
يحكم الذين ينبشون عن قشة يمضعون
في مجار امتلأت قاذورات

الخزّاف انقطع عن إدارة المحور

---

(١) جابي الضرائب .

والحذّاء عن غمس خيط القنّب في الشمع
وماذا يفعلون ما يفعلون طوال النهار
الغجر لا يجددون سنابك الخيل
والحدادون ما عندهم فولاذ ولا حديد خام
وغدا فقدان سلاح ما شقاء
يفوق الخبز الذي يطلب في معسكر الأعداء
حيلة أو عراكاً بيد

هل تذكر طعم الكزبرة
وهل تجد أصبعك على شفتك عبير الكباد
على م تهيل الآن القرفة
على م تهيل الكمون
الاسفنج والهريسة من يعرف ما هما
لقد أكلت آخر طيور الشرفات والسطوح
قتلت الكلاب التي كانت ترعبك
فما لك مؤونة إلا الحقد
ما عندك بهار إلا الغيظ

عبثاً تبحث في السماء الباردة الفارغة
عن أسراب قاسية من طير أبابيل
التي من قبل بحجارة من سجّيل
كمطر شمسي بحروف لسانية دال وضاد
جعل الله العدو كعصف مأكول

عبثاً تبحث في الكلام المنزل
عن معجزة لمؤمن بلا زيغ
عبثاً تنقب في القرآن والحديث
لن تجد فيهما حجراً تسند إليه رأسك
لن تجد حجراً تخدع به مدة أطول جوعك
ولا حجر النهاية تخفيك عن الغربان

٢

لماذا هذا القلب كعاصفة
لم هذه الدموع في حلقك

لا فائدة في الكلمات
دع المجداف يجري عبثاً

سوف يأتي يوم يثقل فيه الزمن
فاخش فمك والكلمة

التي تنتزع من الألم
أخش تصريحاً لا رجعة عنه

احذر افتراق شفتيك
عما لا يمكن استرداده

المخيف ألا تساهم أبدا
هذا اسمه الشيخوخة

هي خفر راعب
يميل عنه الأفّاك

الذي لا حق له في أن يتحدث عنه البشر
هذا الحداد الأبيض يرتديه المرء عن نفسه

احساسك أنك مزعج
أو أنك لا تتسق مع شيء

آه أعرف أن سيقال لي
هذا ليس مهماً

أن تلك قسمة الناس جميعاً
وفي هذا الرزء في هذا الرزء

تعليق زيد : هكذا تكلم أستاذي والناس لا يعيرون أذناً لغير البرد قائلين ما دام شيخاً فليمت وما كانوا ليدركوا أن المدينة المحاصرة تشبه الانسان في أيامه الأخيرة وأذكر كلمة عن النجدي عندما كان المرء يستطيع الايمان بالغد قالها كسر للطفل الذي كنت : سوف يأتي اليوم الذي تعترف هذه المدينة فيه بعمرها . وفي مرة أخرى قال : قدر كل كائن هو بؤس غرناطة .

وقد قال أيضاً :

٣

الدم لا ينقطع عن النزيف على مدار العام

نفس الألم يصدر عن الروح والجسد
سماؤ نا بلا حس يبدو غفرانها عبثا
في بعض شمس في بعض لون
يا غرناطة الزمان يا قلباً من المتوسط
كسفينة ضائعة في رمال الساعة
بعضها يرحل رملة اثر رملة وحياتنا
أقول حياتنا أنت الأخرى في مرقب السفينة
ما يفعل المراقب من أجلنا معاً

قريباً تنتهي هذه الرحلة العجيبة
شهر يمضي شهر يمضي ويستشهد البشر
بطيء هو الموت حتى ولو آن أوانه
ولا رحمة إلا في السماء
مقدّر علينا نفس المصير
نفس الجلاد سوف يقطعنا

لكن هذه القصيدة التي أكتب للريح تبذرها
كقبلات تراوغ الموت أصبح بها أقل قوة
للقرن الأسود أحبك كثيراً

الزمن الحاضر كلفني زماناً به حلمت
الحب فيه طبيعي المكانة بلا تبكيت
يا رفيقي أتبعك إلى نفس المزاد الداسر
ان قلت السا فما أحيا إلا بها
ويأتي يوم اليوم الذي يثبت فيه لعيونكم
أني ما تنكرت أبداً لمواقعكم

أفتح نافذتي إلى عالم يولد فيه يسير
الرجل والمرأة روحاً بروح يعرفان معاً
مقبل الوجود وعيشاً مجنحاً

ان ما أصغي إليه هو سعادة الآخرين

وانه لكثير أن أدفع الثمن
يا أخي في الألم ماذا تخاف
أعف المستقبل من أجر الصفع
أكلمك وقد سقطت على حافة الطريق
وقوس القزح من دموع أنا حكتها

لقد غنيت على الأقل في زنزانة الشتاء
واني لأشفق على الذين يعيشون الصيف
لعل الريح تحمل لهم أبياتي

كل ما في العالم يجري وكأن
لا شيء فيه ما هو الكل هو ما يولد منه
دائماً العين تظلم لأنها رأت
ومن صنع النار ليس الحرباء
والانسان يمضي بالألم هكذا دائماً
كل شعلة توقد تتطلب ثمناً من رماد

من يأتلف مع الألم يجب أن يؤمن بالزمن الجميل
أو من به ولو أني أعرف أن الوجع إذا شفي يتبدل
يتكرر بشكل عجيب

الذين سمعوه لم يفهموه أبداً وقالوا أنه غامض وآخرون عم يتكلم ان لم يكن قوله عن الهواء . ذلك لم يمنع أنهم وجدوا كلامه أسود وأخذوا عليه تشاؤم أغانيه : لم يضع شيء ، من الممكن ربء كل شيء لو أظهرنا ذلك . كان فقهاء غرناطة يتجنبون من في النزع إذا مروا في الطريق ويتحدثون فيما بينهم عن الفرح وكأنه الفضيلة السامية .

الـربيـــع

١

حكاية المرآة ـ الزمـــان

المرآة قال النجدي ذلك اليوم الذي حاول فيه البساتنة أن يربحوا الربيع بالاسراع بازهار البصل قبل أوانه بحماية البلور المرآة يا زيد هي آلة ثابتة يطحن فيها حب قمح غير موعود

قال النجدي المرآة ولتكن فلسفة عندها ينبغي على الجنود أن يحطموها في فناء المساجد

قال أيضاً لو كانت المرآة رجلا آه هنا ببساطة صورة الرعب
انه بين كل الطيور ولا شك أكثرها قتلا

في العالم المرآة ما إلى اليمين هو إلى اليسـار وتبتعـد أنـت عن المرآة كقبلـة انهصرت

في العالم المرآة كل شيء زوج وليس فيه إلا وحيد
في العالم المرآة لا حب إلا لواحد وكل تبادل هو مظهر خادع
كل شيء يدخل في العالم المرآة ما عدا المرآة

إذا كنت مرآة امرأة لا تراك
إذا كنت مرآة نفسك فلا باب إلا منك على العالم
إذا كنت مرآة فعمّ تتحدثان

أما إذا كانت المرآة من الزمان بدل المكان
فماذا يجري في محراقها

قال النجدي أيضاً في ذلك اليوم للطفل زيد
تخيل فحسب مرآة يعكس فيها الزمان الزمان
تخيل الصورة التي تحمل لك فيها
تلك المرآة التي لا ترى فيها نفسك بل هي
تخيل مرآة ـ الزمان التي تسكنها الصورة ـ الحب

أظنك تستطيع هكذا أن تدرك تمزق من يرى المستقبل

٢

تعليق زيد بين نشيدين

أحياناً كان يتكلم النجدي أمامي كلمات لم أكن أجزم في تفكيري أنها لي وحدي ولو أنها لم تتخذ شكل الشعر أو موسيقى الغناء حتى ولو

في وقفة ما من الصوت بما لا يشبه اللحن الموجه للآخرين أو بوحا للطفل الذريعة الذي كنت
يُملي دون أن يملي بالبدء
أول السطر حينها كان يقوم باشارة واسعة من كمّه للسماء كان يحدث

أحياناً أن أحس بضرورة قطع الكلمات من فمه بالماء من مثل **قال النجدي** أو تفصيل عن اليوم في الظاهر

غريباً غريباً كان على ما يتفوه به من أشياء

هكذا في اليوم الذي حدثني عن المرآة ـ الزمان لأول مرة أذكر أنه كان واقفاً أمام جنات العريف وربما كان ذلك سنة ٨٩٦ في أوائل قمر جمادى الأولى

كان يهرج التلة في ليلة لطفت كزهرة عكس زمن الحصار حتى لينبجس من العينين الندى ـ القلق وأني استطعت أن أقول في أوج صمت أستاذي

يــا مولانــا
أمّا بم أجاب فقد ضيعت السياق فما أذكر إلا أنه تحدث مرآة

بأية ألفاظ لا أقدر أن أجد لها أثراً مع أنه يبدو لي أنه قال عن أهل جنات العريف عن الملكة حفظ الله عليها شبابها وعن ألف من البساتنة كمعزى لكن لا ترعى

أن هؤلاء الناس لا يرون الحاضر أكثر مما أرى المقبل لأنهم
بلا مرآة تُري بعضهم ذاك وصاحب النبوءة هذا
من هنا جاءت الحكاية التي قالها وحفظتها

٣

الخيـــل الـــدمـى

تنتقل الشمس مائلة
في الباحة الأقواسها أشجار
أسير على مرمر هو عشبي
لا أعلم لماذا ولا كيف

يطاردون في الدوائر المميزة
كما معركة فيلة
ما هم غير أطفال صغار
يتصنعون الضرب والغضب

يقفون في خيلهم الدمى
كما كان الدَّارُّو في خضرة ـ النيل
يدوّمون حول ركائز أخذها الشتاء والجسور

يقلدون الرجل والرعد
هذه الحرب القائمة هنا
لا تلهب غير الوجنة
في المذبحة الخيالية

لهم لون الصباح
ولدوا للجهاد والفخار
يكفيهم أن يعزموا عليهما
حتى يقتسموا الغنيمة

في المعارك الحياة مرجة
جميل الأطفال حتماً إلى الجنة

أتاحها الله لأشجع
الجنود في الساحة الأندلسية

بر يئون حتى السخف
على جهشة النوافير الأخيرة
يا أمراء أرض قلب
آه قلّدوا الموت والدم

كم من الزمن في هذه المساكن
التي تحسونها تضيق بكم
بقي لكم يا أطفال الملوك
قبل أن تموت غرناطة

في ساحات أخرى لم يكن الأطفال هم الذين يلهون بلعبة الخرّاج (الحصان بالفارسية) وقد علقوا في نطقهم أحصنة من خشب لها خراريط ، ثم يتنازلون في معارك خلّبية يظهرون فيها قوتهم كالرجال ، بل كان مقاتلون صاروا بلا عمل ينظرون إلى الراقصات اللائي زيّن أثوابهن بخيالة شطرنج اثارة للرجال ، ذكرى لغزواتهم ، بينما لم يبق في السهل حول غرناطة مكان لعرض الفرسان ، ولا على التلال لصيد الحجل . لم يبق إلا ذكريات في البيازين ، لصاحب البيزة ، وهو يلعب مع بيازته بما يسمونه هنا النرد وحولهم البزاة وعقالها في أرجلها تقفز من مجاثمها وتضرب البلاط بأجنحتها ، وهي لا تفهم شيئاً عن كسل الرجال ، تشكو الظلم ، أن ليس لها من فريسة . غير ما يرميه لها الخدم من خدعة . كل هذا في الوقت الذي تحضن فيه أناثها في جزائر النهر ، والسمّن يصيح في الأسل فاراً من افريقيا .

٤

كان يحكم المدينة ذئبة قلقة
لا ترى هائمة لكنها تسمع وهي تئن
والمجنون وحده يتبعها كي يقول لها من
أنت يا أنثى الجوع من لم يكفها أبناء البؤس
هؤلاء الأمراء ما خلقوا لأسنانك ولا ابن الشيخ أو ابن الأمير
هل هي عاصفة هل هي وباء
لا شيء فيها يمكن من ايقافها لا الوشاح
الذي يختفي فيه وجهها ولا نواحها الشبح
كبد علقت بين أوتار قيثارة

أمسى كل شيء مظلماً في غرناطة

جناح أسود يجر نفسه على أكعب التلال
فلا يرى المستقبل يلتهب والحاضر
يخبىء كل أشعة الروح وتنطفىء المرايا
الكل ليل حتى الصباح نفسه

يا جناسات تعني الأضداد
لا يقال شيء إلا وينكر للتو
عندما يرين الشقاء على المدينة بأية معرفة تقوم بالصيد
الموت يلقي نوره فيضيء
الأشياء خارج اللغة

المجنون يضيع ما يقول قلبه تخنقه الريح أين
تذهب الذئبة آه
أرى أسنانها الطبشورية السفلية تتهاوى
شاحبة وشفتها القذرة رمادا
كأنني أسمعها وأدرك سرّها

أحدّق إليك وجهاً لوجه يا نهاية شعبي
فلا أراك ـ كفتى جميل يمضي للقاء
أسوأ من موتي أسوأ من موت الحبيب
وليس شيئاً ما يسبقها من مخاوف
إذا قورن بما يأتي بعد

بعثريني فلا أحضر رعب أهلي وقد ذهبوا اربا
بعثري وجهي وعظامي بعثري نفسي وأحشائي
فلا أسمع صياحهم ولا أعاني تمزقهم
التهميني يا وحشا نجسا أقتليني آه أقتليني
أنـــا

قال زيد لمن تتكلم يا أستاذي ولا أرى أحداً بحثت عنك في كل مكان كنت . . . وغضب المجنون آه أنت تلك هي تفرّ أولا ألم أمنعك يا ابن اللعنة عن أن تدعوني بهذا الاسم الأبله أولا ترى أنها نتيجة لخطئك عاودت ما هي فيه حين قاطعتها

أجاب زيد من لا أرى شيئاً لا أحد أجاب زيد أولا يا أستاذ أردت أم لم ترد هذا الإسم يأخذ معناه ممن ندعوه به والمسألة ليست هنا كنت وحيداً فما من أحد أقاطعه أولا تلاحظ أني خرجت عن الطفولة

قال ابن عامر منذ متى يا خبيث فضحك زيد منذ أصبحت رجلا قال ابن عامر منذ متى تنبهت لذلك أيها الحشرة أجاب زيد منذ يوم منذ أن أحببت وأنه ليوم طويل

ونظر وهو يتوكأ على عصا زيتون تقوّم خطاه إلى طفل البارحة وهو يتكلم اليوم في الحب كيف يقدر على ذلك والمستقبل لا يرى واستتر الوجود البعيد كيف يمكن له أن يتكلم اليوم في الحب هذا وبعد أما ينبغي أن يكونا اثنين في الحب ما عمرك أيها العاق في الساعة التي تموت فيها غرناطة أي عمر لك حتى تسمع فيك هذه الموسيقى ولمن اللحن

قال زيد غداً يكون لي أربعة عشر عاماً وسمحا التي يعني اسمها بالعبرية الفرح هي ابنة ربي ناحوم بن صموئيل الذي أخذت عنه القراءة والكتابة والغناء وما كفاني هذا فأخذت عنه الفرح وأعرف منذ يوم أن كل شيء تغير لأني عشقت يا أستاذي أستاذي كل شيء غدا ذا لونٍ

عندها مزّقت الكلمات فجأة عند قيس زاوية من ظلمة الأشياء فاستعاد صدى فيه عميقاً يعطي صفاء المياه معناه عندها قيس كما تنفرج السماء فجأة عن نور في قلب العاصفة مما وراء الغرق عندها قيس أحس فجأة بعينيه تنفتحان ورأى قليلا رأى قليلا من المستقبل

قال هكذا أيها الطفل يعدون من أجلك الآتي يا الله كيف أغفر لك ما وعدت به هذا الطفل ماذا صنع حتى تفعل به ذاك الذي ينتظر ذاك الذي يدوم فوق رأسه

وفهم زيد بعينيه الفتيتين عيني الرجل فهم أن النجدي المجنون إذا بكى فإنما يبكي مما يعرف

ولما أصبح وحيداً من دون الطفل الذي صار رجلاً غنى المجنون ما يلي في حرية الوحيد بين البشر كي يمنح ما يسكنه مكاناً على قدّ الروح

٥

في بيت صمتي تحين صلاتي دون ساعة
إذا انغلق الباب وحق لروحي أن تتعرى
كيف اتجه إلى قبلتي إلى أي محراب مجهول
الليل كله تفوح من فمي رائحتك يا امرأة

في بيت صمتي لا صورة إلا لك
كل شمس ترى إليك من النافذة تغدو فقيرة وشاحبة
أذكري أن أي ذكر لم يعش من أبناء محمد
حان ملكوتك ها هو مثل ملاك جالس على السطح

منحتك مني قلباً حياً قسّمته أصابعك كخبز

واللب في قلب قلبي هو شقاء البشر العظيم
لكم يلح علينا بالألم كم يلح على أكثر من أي انسان آخر والضمان الوحيد جرح الحب وحده وحده جرح الحب

سيري في قلبي لعلهم يقرؤ ون مع قدمك الدرب الوحيدة
ضعي بقدمك في جسدي خاتم الأشياء العجيبة
كلما أثرت في دمي أحس أنك أحب
فاجعليني من شمع وبخور لأنفك ويدك

أحبك حبا لا اسم له كي لا يكون له قياس
يأخذ عليه العالم حين يتحول مثاله ودرسه
موسيقاه هي المستقبل تبدل الكلمات أغنيتها
أحبك حباً بلا حدود كاللازورد لا حد له

أحبك حباً ليس له على الله روح ولا عين
من هذه الجريمة المشرقة سوف يولد النور الأبدي
أعمى قبل أن تتفتح انسانية بؤ بؤه
من هذا الدوار منك سوف يتعلم الانسان كيف يكون الها

وان قلت لي أن هذا الحب ليس حباً في الله أروي لك ما قال الشاعر القرطبي عن امرأة أحبت لا كما نحب في الله القادر على كل شيء :

أعرف أن هذا الحب أنقى من الماء وأشف من الهواء أمنع من الجبال أقوى من الحديد الصق اتصالا من اللون بالأشياء الملونة أشد وثوقاً من الحدثان في الأجسام أبهر ضياء من الشمس أكثر حقيقة مما ترى العين أبهى من لمعان النجوم أصدق من القطا أدهش من الحظ أجمل من الفضيلة أنعم من وجه أبي عامر أمتع من الصحة أحلى من الأماني أدنى من الروح أقرب من وشائج البنوّة أبقى من نقش على حجر

وما أهمية ما يتلو فلا يمحو مزاد الحب هذا ماذا لو أن هذا الحب وضع له هدفاً غير الله إذا أرسى في النهاية أبعاد أعلى صورة لحب الله حتى عندما أمنحه حسنة حبه فيك

في بيت صمتي غيابك يهز عوارض السقف

٦

في باب البنود حيث ارتفع علم بني الأحمر الأحمر كلما نودي بالأب ، أو العم أو ابن الأخ أميراً على المسلمين ، تعاظم الحشد الذي يتبع النجدي ، وهو من به كما زعموا مسّاً من الجنّ ، لكن ما باله اليوم وهو أول قمر رجب لا ينشد إلا الحب ويروى أنه لن يدع تلك المرأة التي صعب اسمها تخرج من عنده فلها وحدها الآن يحتفظ بأغاني الغزل . وكان يمشي أمامه زيد الطفـل ، الذي عاد عن تبكيت ، إلا إذا كانت لم تشأ سمحا أن تراه اليوم ، وكان زيد يباعد بيده وصوته الذين يقفون كقطيع في سبيل أستاذه . ومنهم من يتمتم أنه ارتكب فسقاً حين سمى هذا الولد بزيد تشبّهاً بالنبي وقد كان أول من تتلمذ عليه المعتق زيد بن حارثـة . ومنهـم من لّمح إلى أن النجدي تقليداً لما جاء في السورة الخامسة عشرة عن محمد إذ قالوا له انك لمجنون اتخذ لنفسه هذه المسبّة . . . وكان العجوز كأسد جريح ، كحمامة فقدت نظرها واستعادته لما حطت على سقف الكعبة ، وهو الذي ما كانت له عينان إلا لحبّه ، ومن جعل نفسه أنين غرناطة .

منهم من قال أنها في الحق حيلة ، فقد سرت شائعة أن السا لا وجود لها ، أو كيف يلفظ هذا اللفظ الغريب ؟ رأوه يكتبه بسين ، ولو أنه يلفظ في فم العجوز فيغدو زيناً . . . وذهبوا إلى أن الاملاء الهادف يخفي سراً وثنياً ، لأن المجنون أراد أن يستر وراء حجاب فارسي ليلاه التي يفترض أنها من آلهة الجاهلية ، وهي التي ، يبدو ، أن محمداً ضحى لها في فتوته خروفاً أبيض ، ولو أن العجوز كتب كما يلفظ لتعرفوا إلى العزّى التي كانت لها ثلاث أشجار دردار عند غطفان والتـي حطّمت صورها في مكة عندما خضعت قريش . . . منهم من قال . . .

حتى لو كانت الجن هي التي تنشد في هذا الرجل عند باب البنود ، فالناس يصغـون له كثيراً ، وهو لا يكتفي بالتراتيل إلى زوجته ، بل ينهد لاثارة الشعب ، لعله تلتفت عيونه السوداء إلى أبراج القصر الأرجواني !

زجـل باب البنــود

ما السماء سوى قبة
موقعها فوق جباهنا
تسقط قتيلة منها الطيور
وتنزل الصاعقة فتسحق
على الدروب الشجرة والطفل

الأرض سيل
من دم ودموع وعرق
بلا هوادة أو وقفة أو نور
نصر قتلة
أحدهم ضد الآخر في كل لحظة

أن نكره في أواخر العمر
على أن ندلي بالشهادة
لمن لا يدري سوى الشيطان أين لا يعرف غير الله
لأننا عشنا بين الذئاب
لأننا وضعنا في وجر

لماذا هكذا مصير
كل جسد إلى جحيم ما
كل أمل إلى التلاشي
تألمنا طويلا من أجل لا شيء
والزمان يقرصنا وينشرنا

أعترض أني أعترض
من أجل الحب الشهيد
من أجل أفواه بلا قبل
من أجل أجساد باتت دمياً
ضد المقصلة ضد الطاعون

من أجل حياة عشناها
وما يدعى موت طبيعي
احتملنا وزر النزاعات
التي تلفح بالتعذيب
وجهنا الساذج

من أجل العظام التي انكسرت
وصياح المرأة في المخاض
وجفاف الحقول
وذبح الأغنية
من أجل الجوع من أجل الشقاء

من أجل ما صنعوا بنا
لقد خلنا كل شيء ماء قراحا
نحن الذين ما بحثنا عن مغامرة
إلا في طية المقبل
وأركعونا على ركبنا

نحن باسم ما هو أفضل
على أهبة أن نفعل كل شيء
على أهبة أية تضحية
نحن الفقراء النير في رقابنا
يسخرون منا يجروننا حيث شاءوا

أعطينا أفضل ما فينا أعطونا الأسوأ
ضاع جهدنا
سرنا على درب غير انسانية
وبذرنا الحب مقلوباً
تحت سماء الوهم

خدعونا وعلينا احتالوا
منحونا الشر عوضاً عن الخير
أما من لا يعلم شيئاً
ويأخذ الشر في محمل الخير
أفليس يموت من أجل الخير

لو أن هذا العالم ما كان
غير ما هو أو ما يبدو كأنه هو
وأن شكل الحرف لا يعدو معناه
أكان بوسعي أن أرضى
أما وجب علي الرفض

هذه الروح التي في أناي تقضم نفسها
هل حق عليها القبول
بأن تكون محدودة
بألا تكون في النهاية
غير حلم بين ليلتين

هل الانسان هو التحدي الحاسم
وتلك الرعشة في الآلة
التي ما تني تتصور
غرابة أن يكتفي
هذا القلب بصدره

مع أنه يتسع في ذاته لأكثر منه
لو أننا نفتحه ونبحث فيه
كم كان خاسراً في اللعبة
كي يعين الأمس في الما بعد
أولئك الآتين وهم أعقل

أقل بؤساً والأهم أنهم
أقدر مما كنا نحن
أولئك الذين غدا يوقدون
رمادي فما زال فيه دخان
وناري يعيدون إليها اللهب

وإلا فنحن الانتقام
ولسوف يجيء الحريق
سوف يجيء أقول لكم
الاثنين الثلثاء الأربعاء
الخميس السبت الأحد

المحـــاكمـــة

قالوا : « هوذا ابن عامر النجدي ، الذي يدعى بالمجنون . . . » جلبه شرطيان إلى أمام الحاكم ، وهو القاضي الأدنى ـ كان الله في عونه ! ـ فنظر إليهما وقد بدا الملل عليه لأنه كان رجلا طيباً يعرف انهما سكيران زنديقان . لقد ربطا يدي العجوز ، وكان ثوبه ملطخاً بالـدم ، وعلى وجهه ندوب تشهد على ضربه بالسوط . قال الحاكم مغضباً : « من ألقـى إليكما بالأمـر بجلـد هذا ؟ » . ثم تنهد وكان بوسعه أن يأمر بضربهما ووضعهما معاً في السجن ، لكن من يحل محلهما يفعل نفس ما فعلا . . . كان لا بد من شرطة على مستوى المدينة ، لكن أي مواطن يحترم نفسه يرضى بهذه الحرفة ؟ كان أمراً مقضياً قبول هؤلاء الشذّاذ بلا وازع . : « قلت لكما مائة مرة أنه ممنوع الجلد إلا بأمر الوزير ، أو صاحب المدينة ، أو القاضي ، أو المحتسب ، وفوق هذا هو رجل شيخ بات لا يستطيع الوقوف لطول ما عذّبتماه ، يا كلبان . . . ثم لماذا تتهمانه ؟ » كانا يتدافعان بالكوعين ، وتميل عيناهما بالنظر إلى امرأة يحيط بها اثنان من زملائهما وهي تنتظر دورها بالمثول . بنت هوى ، كانت تبدو رائعة تغمز بعينها لكل الناس . . .

قال الحاكم ، محتدماً : « اني أكلمكما ، ماذا تنتظران للجواب . . . » عندها قالا وقد اتخذا هيئة كاذبة الوقار ، انه بلغهم من مبلغين محترمين ما أثار انتباههما لسلوك هذا الشخص اليومي . قال الحاكم : « أين هم ؟ وهل أخذ العدول شهادتهم » بهذا الاسم كان يدعى الشهود المأذون

لهم ، الذين لا تجوز لسواهم الشهادة أمام المحكمة ، لأن الشاهد الذي يتقدم كيفما اتفق يمكن أن يكون بلا ذمة ، فهو يبني قوله على العين أو الأذن أو اللمس ، وهي من أسباب الخطأ ، بينما لا يقدم العدول ، وهم من أهل العقل والدين ، إلا بعد أن يرجعوا للكتب ، وهم يسكنون عند باب الشريعة ، حيث يقضي القاضي ، في براكات بنيت لهم كي يكونوا تحت الطلب . ومن هنا منشأ الشائعة ، التي ذهبت ، بعد قرون من اسلام الأندلس أن باب الحمراء هذا الذي سماه العلماء باب الشريعة ألتبس فيه معنى العدل بالأخذ والعطاء في التجارة فكأنما اسمه حقل البازار ، وما كان هذا الالتباس ممكناً لولا تقدير خفي من الله تعالى في ما شاء !

غير أن الشرطيين لم يفكرا هذه المرة بجلب المبلغين لأن الجريمة موصوفة لم يستطيعا لعظمتها أن يمسكا نفسيهما عن الضرب . قال القاضي : « أرياني سوطيكما . . . » فقدّما هما له . وغضب من السيور التي جدلت للقتل ، وأراهن أن الجلد لم يتم على الشكل الشرعي ، وإنما بكل قوة الذراع وقد ارتفعت ، والمجلود أرضاً ، يجلدانه واقفين على أصابع أقدامهما كي يكون الجرح أقسى .

لقد وجدا المتهم أمام الدكاكين ، أي على جوانب الجامع الكبير الخارجية ، في الوقت الذي طردوا فيه الحمير والبقر من الساحة ، فلا ينجس برازها المصلين ، في صلاة الظهر ، وكان هذا الرجل قائماً في صلاة قبلتها غير مكة ، وإنما إلى الشمال الشرقي كما يبدو ، كأنما قبلته ، خلافاً لاسمها[1] هي في ناحية ما من نواحي ثلوج الجاهلية . وعندما نبها الفاسق ، أجابهما أنه لا يصلي متجهاً إلى حجر ، وانما إلى كائن من لحم ودم ، وهذا وثنية واضحة ، جاء فيما أفصح عنه المدعو بالمجنون ، عن امرأة صعب لفظ اسمها يبدو من مصر أو سورية ، وأمام رفضه في التوجه الصحيح ، رفعا سوطيهما أملا في اقناع الضال بالعودة إلى الشرع ، لكن عبثاً ، فضربا . آنئذ قال الحاكم محنقاً : « ما دامت الجريمة ضد الدين ، لماذا جئتما بهذا المجنون إلي ؟ أتجهلان أن القضية ليست من اختصاصي ؟ » .

عندها أخذا الفاعل إلى المحتسب ، وهو مساعد القاضي ، يحكم في باب الشريعة عادة ، وكان جمع عظيم من الناس ينتظره ، لكن المحتسب في ذلك اليوم ، واسمه موسى بن حبيب الغازي ، كان خارج المدينة في حملة تأتي بالغذاء من البشارات ، يدور كنسر على حصانه ، يصيح بالأوامر ، ويدل برمحه على طريق الجبل . وانتظر السجناء حتى المساء ولم يأت المحتسب ، حتى أن غيمة العدول خرجت من براكاتها ، وهاجمت الحراس ، والمتهمين ، والشهود الأصليين ، ولما اكتشفوا ألا شاهد بين هؤلاء للمجنون ، زعقوا كقيقان ، وطالبوا بأن يسلم لهم سريعاً ، حتى يستطيعوا هم أنفسهم في الغد ترجمة الشهادات للمحتسب حين عودتهم . ووعد الشرطيان بذلك قبل أن يضعا الموقوف في السجن مع الآخرين على أمل الفجر ، وبقيا وزملاؤهما ، مع فرائسهم ، بعض من أجل أن يسلبوهم ، وبعض من أجل أن يستمتعوا بضربهم ، وبعض لأنهم كانوا سكارى يخشون العودة إلى بيوتهم . وغنى أحدهم :

---

(١) قبلة حرفياً ما هو أمام وتجاوزاً ما يجب أن يكون أمام (من أجل الصلاة) ، وتعني في اسبانيا ، الجنوب ، والاتجاه لمكة (الملاحظة لأراجون) .

لحن للرقص

لا نستطيع الصلاة دائماً
أو شرب ماء الصهريج
الليالي طويلة دون مصابيح
بؤساً للرجل المتزوج
لا نستطيع الصلاة دائماً

السباحة والصيد أو الرهان
الرقص والضرب على الطمبور
والخمر الأسود بعد الحب
وعراك من أجل كلمة
السباحة والصيد أو الرهان

تنوع الملذات قليل
وتتعبنا الفوضى
بين حمار أو ولد أو بنت أو ناقة
وحزين مساء الفارس
فاللذات تنوعها قليل

ولماذا نزعق
من أجل قوّاد مسحناه
أو دنيء جرحناه
أو يهودي جرجرناه
ألهذا نزعق

الحياة يوم عيد
نصرفه بالتكشير
ما نفعل ان أمطرت السماء
فالشمس تعود تشع
الحياة يوم عيد

أخذ موسى يصغي في ملل ، وقد رجع متعباً من غزوه في الجبل ، إلى صياح زبائنه المعتادين من العامة الذين يوكل أمرهم القاضي إليه ، من ضالين لم يتبعوا القواعد في استعمال القرميد على قياس النموذج المعلق في الجامع ، ومن ضاربي رمل استغلوا بساطة احدى الزبائن ، أو زبّالين لم

ينظفوا كما يجب قاعة الوضوء في الجامع الكبير ، ومن فتيان ارتكبوا في المقبرة المعاصي عنوة مع أرامل وجدوهن عند قبور أزواجهن . . . وبكلمة مختصرة الروتين العادي ، وكان لا خيار له في ذلك ، ولو أنه تفترض فيه القسوة ، لأن الخطر المحيق بغرناطة يجعل الانتقاص بقواعد الدين والسنة الاسلامية أكبر جرماً وأوخم عاقبة . كان عقله مع فرسانه الفتيان ، يحلم بضربة إذا سمح الأمير . . . يا لها مغامرة غريبة في هذا الثغر الأندلسي أن يجد نفسه في عين المجازفة التي انطلق بها الرسول (عظّم الله مجده) من المدينة بحثاً عن غذاء للمهاجرين ! هكذا تنتهي غرناطة كما بدأ الاسلام ، وموسى يقود مغازي الأمير ، مثل المعتق زيد بن حارثة عند رسول الله العلي القدير . وعندما جاء دور المجنون ، لم يعر الشرطة المحتسب غير أذن ذاهلة ، وكذلك شهادات المبلغين التي أخذها منهم العدول . أما الشهادة الأولى فقد أدلى بها شاعر انحى على المتهم أنه لا ينظم أبياته على منحى الأوائل وانه يبدل القافية في نهاية المقاطع على غير قواعد الزجل وجرائم أخرى من نفس الشاكلة . وأدلى العدل الثاني أقوال شاهد يعرفه جيداً موسى ، وهو أمين الكلاسين ، رجل محتال ، يشتبه فيه بالتهريب ، ولو أنه ينجو دائماً من الملاحقة ، وكان يروى عنه أنه يجتذب النساء مساء إلى مكلسته . كان هذا ينعي على المجنون عاداته ، ولمح إلى ألف قذارة عن امرأة ذاك ، ولو أنه اعترف مكرهاً أنه لا يعرفها أبداً ، بل انه يجهل عنها غير ما سمعه من أناشيد المتهم ولو أنه أقسم أن تلك أكاذيب . كما عن تسميته بالنجدي مع أنه من نسل راع مجهول وقحبة . . . والأمر ما كان كل ذلك ، بل الكفر . ولقد استحال ، من الشهادات التي تفحصها العدول بدقة ، الاستنتاج الدقيق عن ايمان ذلك المعتوه بامرأته ، كما زعموا ، أو شيء عنها نفسها : ما عدا الاسم الغريب الذي يدعوها به ، وما كان بوسعهم أن يعرفوا عنه ؟ بيت المجنون لم يكن إلى شمال الجامع الشرقي ، فلم اذن كان يقتبل تلك الجهة في صلاته ؟

أمّا إذا كانت هذه الأل ـ زا ، كما أكد بعض ، قناعاً لآلهة بني غطفان القديمة في نخلة ، العزى ، فما كان بوسعهم أن يقيموا الدليل ، خاصة لأنها كان يعبدها في الكعبة ، عدا عن المؤمنين الأصليين بها ، القرشيون والثقفيون في الطائف . وكيف يميزون إلى من يتجه المتهم في صلاته ، إلى الصنم أو الاله الحقيقي ؟ وذهبت احدى الشهادات التي درسها العدول ، إلى أن اسم الرجل هو قيس عبد العزى ، لكنها ولا شك شهادة خسّة ، لأن الأحاديث لم تذكر عن أحد باسم عبد العزى ، غير أبي جهل بن هاشم ، الذي شتم النبي ذات يوم عند صخرة الصفا ، ولاحظ المجنون أنه يشرفه أن يلقب بعبد السا ، لكنما في أرض حبيبته لم تجر العادة بنسب الخادم إلى ربّه ، أو سيده أو سيدته ولو أنهم يسمون الابن باسم أبيه ، كما في البلدان الاسلامية . وكانت أجوبة العجوز عما بقي مختلطة لا تفهم . كان في كلامه الصوفي ، أن السا تسكن قرناً آخر في المستقبل ، حتى إذا طلبوا منه أن يأتي بها ، قال أنه ليس في مقدور الانسان أن يستدعي كائناً على مسافة أربعمائة وخمسين عاماً . . . عندها غضب موسى غضباً شديداً ، وأمر بجلب تلك المرأة . ووضح من الاستجواب ، أن شيئاً لم يكن كما قدروا في البدء ، ولو أن جرم العجوز كبير لعبادته امرأة حقيقية ، هي امرأته ، التي يمكن أن ترى وتلمس ، وهذا من البهيمة ، حتى إذا وضح أن أحداً لم يلمسها أو يرها ، وقد اعترف المتهم أنها لا توجد في أي بيت من غرناطة أو في ذلك العام من الهجرة تبدل الأمر كله . جرم فظيع أن تمنح أسماء الله نفسه ، وطقوس عبادته ، لامرأة

ملموسة ، وأفدح منه ألا تكون المرأة موجودة . ولأن تعبد شيئاً من هذا العالم ، بدلا عن الله ، يستحق الصلب ، وأنواع التعذيب علناً . أما أن تذهب بالزندقة إلى حد الركوع أمام ما لا وجود له فهو كفر من عمل الشيطان . ووقف المحتسب ، فعلق جلسة المحكمة . كان لا يستطيع الحكم في قضية على هذه الفظاعة ، وما كان بوسعه أن يخرج الجن من المجنون ، وعليه أحيلت القضية إلى قاضي الجمعة ، الذي يحق له وحده الحكم في جريمة على هذا القدّ .

*

ولم ترفع القضية إلى القاضي ، إلا بعد عدة أيام . فقد قام اضطراب نجم عن خلاف بين الحاجب الجديد والأمير حول السلوك تجاه الملكين الكاثوليكيين . كان يقدّر الحاجب مثل مجلس الوزراء بتأثير أبي القاسم عبد الملك الخفي ، ضرورة التفاهم مع جيش الحصار ، لكن أبا عبدالله ، رفض متأثراً باحساس أمه ، أن يستجيب لرأيهم ، ودعمه المحتسب ، سراً ، فدفع الشعب لابداء ارادته في القتال والموت عند الحاجة ، فلا تسقط غرناطة بين أيدي الكفرة .وزعم القاضي أنه مريض ، كي لا يدلي برأيه ، مخافة أن يؤدي به سوء الحظ إلى أن يجد نفسه في الجانب الخاسر . ولقد جرت العادة أن يزعج الحاجب نفسه ، فيذهب إلى بيت القاضي ، مما يزيد في سلطته أمام العلية ، وسرى الخبر في المدينة : زار الحاجب القاضي ، كي يعطي هذا قراره فيما اختلف عليه الأمير والحاجب . . . وخرج الناس إلى بيت القاضي يصيحون به أن يعلن الحرب المقدسة ضد المشركين بالله . ولاح أن دعوى المجنون في عسر . ما كان ليفهم أهل غرناطة ، أن يعدم في بساطة ، كان لا بد من تعذيبه أولا عذاباً طويلاً ، على قد كفره ، والكفر كيف كان ، ولا غرو ، جريمة ضد الاسلام ، لكنه الآن يتجاوز كل تصور وما جرى عليه الناس من أحكام ، خاصة والسيادة الاسلامية في الأندلس هي في عشية انطفائها بالدم والنار .

كان قاضي الجمعة يحكم في الجامع الكبير وقد ارتدى الأحمر وأحاط به الفقهاء في ثياب بيضاء . واتخذت الجريمة ضد الدين في هذا الديكور العظيم ملامح الحطّة . وجاء هذه المرة من الناس من أراد الشهادة ضد الكافر عدد فاض عن العدول ، حتى لقد اضطروا لطردهم بالعصا . كانت الشكليات طويلة وأولج منذ البدء ، رغم رفض المتهم ، محام للدفاع عنه ، تكلم ساعات ، معتمداً على الشك بوجود السا أو عزة ، حتى يأخذ من القاضي نفسه اعترافاً بعدم أهلية محكمته . كان الشعب في الخارج ينادي بالموت ، ويأكل فطائر بالجبن ، ويصرخ بأن التجار يغشون الناس بما لا يعلم غير الله من خليطة يقدمونها على أنها جبنة شريش ، أو ما نسميها خيريس ، وقد مزجوها بالطحين ، وقد سموها هم بجبنة الحرب ، مما لا يمكن فهمه ، ما دام النقص في الطحين أكثر منه في الجبن ، ولربما كان فيها بعض الحوارة . . . على كل حال كانت طريق شريش مقطوعة منذ زمن بعيد على الجبن مثلما هي على الخمور الحلوة .

وتابع المكلّف دفاعه عن المجنون . بناه على التسليم بأن المتهم ، مثله مثل كل الشعراء ، تسكنه جنية ، ورافع أن أل ـ زا اسمها ، مما استنتج أنها جنية أنثى ، غولة ، كي يتجنب حكماً ينجم عنه طردها ، لأن الغولة إذا أكرهتها على الخروج من المسكون الذكر ، فضّلت موته فقتلته . وعلى هذا كان من حق القاضي (حفظه الله) أن يأمر باعدام المجرم ، ولو كان جلاداً ، أما أن يسمح هو باغتيال هذا الرجل فيكون شريكاًبقتله ، مسؤ ولا أمام الأمير (أطال العلي القدير عمره) . وهكذا . . .

عندها قرر القاضي ، وقد جاءته رسالة من الحاجب ، أن يستمع للمتهم ، فطرد المكلف ، وأعطى الكلمة لصاحب العلاقة .

وقف هذا بالقدر الذي يستطيع الوقوف ، لأن حراسه أوسعوه ضرباً من جديد تمضية للوقت . ولقد دام التوقيف الاحترازي زمناً طال فيه شعره فترامت خصل بيضاء على وجهه المعذب المشجوج . شفته كانت تنزف دماً أسود ، لم يتخثر . ولقد فقد بعض أسنانه . من هذا الفم الفظيع خرج نشيد كأنه نشيد هدهد ، لما جاء رسولا من سليمان بالتحية إلى ملكة سبأ :

عن السا مسجد جنوني

كل لوحة جدارية أو شمسية مزركشة أو توشيح باب وتلك الشبكة التي يصفر معها الفضاء

فتجعل الأثر قده قد النفس الانساني
كل ازدهار الحجر والنرجس منها غيران
مثلما يغار الفم من تكرار القبل
القوس الكامل فوق عين امرأة غيران
كل فسيفساء في عجيب تناسق موضوعها كأني
ازرقَّ من شفتي جسد تدمى فيه هنا وهناك آثار قسوتي
كل مجموعة خزف تجد فيها العين لذة أكبر من تأمل العري
والقاعات هي أبواب وأقواس خلّب كجلد عظاية
سقوفها مرسومة من ظل تكتب في الأعلى بلغة مجهولة
أسرار الزنى المخبوءة عميقاً في قلب العلية
ويبدو كل شيء وقد غسله بعد قتل أسرع به عبيد
وللأصفر والأخضر لمعان أخفض له نظري
يا جمال مرمر وخزف لا يذكر بالفجور
كم يطيب لي أن أعقده بهندسة خادعة
تشابكها ينعقد وينحل على هواي أقدر
أن أنظر إليه أمام الناس فلا أخجل وما من أحد
يذهب إلى الشك بقوتي ولا يرى
ضمي وعرقي
كما يخبىء جلد الانسان الكامل حركات الروح والدم في العالم الداخلي
أو كما يخفي رسم اللحاء الشجرة
الشجرة نفسها هنا هي نقل خفي

أستطيع أن أصفها عالي الصوت الشجرة باتت غير شجرة في تناسق الأوراق

لم تكن أبداً طيراً ولا زهرة عطرة

أستطيع أن أصف مسيرة المذاعبة إلى السماء
كما تصعد يدان على طهارة فخذين
عنق مقلوبة إلى النجوم
كتفان من غيوم كل ما هو
مباح للنظر في تسامق البناء
أستطيع أن أصفك يا مسجداً كثوب لم يرتده أحد
حجاب أهملوه
نسيان ما يتنفس
أستطيع أن أصفك على هواي فلا يظن أحد بكلامي الخطيئة

لكن كيف أمسّ فحسب لون جبينك
كيف أتكلم عن أنفاسك أو خطوك يا حبيبتي
كل ما أقول توّا يغدو دنسا توّا كفراً أو مذبحة
قدح قدح بالنور
كيف أزعم إلى لحظة رسم شبهك بالكلمات
يا من لا شبيه لها يا هاربة يا دائمة التغير والتحول

أنت يا من لا تستطيع قدرة أن تثبتك في عيني لا الوجد ولا السنون
دائماً جديدة ومذهلة يا حباً يا حباً تفر صورته
من خط الكلمة والريشة
لا يحيط بك شيء كصورة الضحكة لا يحيط بك شيء كأنك جهشة
ثائرة على الزمن ثائرة على الذراعين وقد قدرا ضمك في حدودها العضلية
كل تشبيه موسوم بالفقر إذا ود أن يصف قرارك
يا ماء غير رطبة لا تدع أثراً ولا لمعة
يا ذكرى بلا ذاكرة يا جرحاً بلا خنجر

إذا كان حراماً وصف الجمال الحي
أين نجد تناسق الأنغام الذي ندرك عبره النوم
مرآة مرآة من أجل النسيان
من أجل جمال النسيان الفارغ النقي
أما لمن خشي احتراقه لا يبقى غير حديث عن لهب مجرد
لا يبقى للرسام غير أن يخلي مكانه للخط
من يمين إلى يسار على واجهة النوافذ
على ايراق العمود

يؤلف الكلام على بياضه حرفاً من سبج
كغزوة في صحراء تتبدى تقفز سيوفاً مشرعة

كل حرف قدم على رمل نهدة فهد
أو نشر جناح أسود فجأة فوق الغبار
عندها أرى أني منحتك مكاناً خصصته لله
لأنما منذ الأبد سادت هنا الصلاة ومجده
امحوه من اسمك الذي صنع فما يوصف من رمل وجناح
كراية ثورة في الشمس
كرقصة عروسين دنسين
كنبضة لا نهاية

أعطيتك مكاناً خصص لله والقصيد
يعلو أبدا على التراتيل
جعلت مكانك في وضح النهار على حجر النذر
منذ الساعة كل التقى منك
كل تمتمة حاج كل ركوع الايمان
كل صيحة منازع

أعطيتك مكان الفضيحة التي لا حد لها

يبدو أنهم استمعوا للقضية ، وما يهم الجنون إذا كان قناعاً للكفر ؟ لم يكن مقبولا تبرير الشطط في الكلام ، والجحود أمام الله بالمرض وحده . ومن يستطيع أن يقول أن المرض نفسه ليس عقاباً من السماء ؟ من يكره المجرم على التصريح بجرمه غير الله ؟ يمكن أن توجد في قلب العاقل كل بذور الشر ، والأفكار الزنيمة ، يمكن أن تكون نياته بجرمة مائة مرة ، أن يكون شريراً ، قاتل أبيه ، هذا لا يهم . . . ما دام يظل بقوة الفضيلة ، مخبوءاً ، مجهولا من الناس . . . أما إذا رشح عن النفس السم العميق ، إذا بلبل الله المجرم المجهول فسلبه قدرته على ضبط جنونه ، قيل أنه مجنون ، مع أن الأصبع الالهية خطت على جبينه الخسّة . . .

أرسل القاضي جوابه إلى الحاجب ، يوسف بن قوميا . وأخذ ينتظر منه ايضاحاً ولا شك . وفيما هو على ذلك بدأ يستجوب المجنون ، كأنما يريد منه كشفاً عن العالم ، والحضور يتذمرون من تأخير القرار . عند بعض الأجوبة كان انفجار الأصوات يرتطم بالجدران ، « جيفة ! جيفة ! » . وخرج بعض الناس فما كان بوسعهم أن يتنفسوا هواء هذه العدالة البطيئة .

القاضي : ـ تقول أن هذه المرأة لا وجود لها وانها موجودة . وضح ، أيها الضال ، كيف يكون ذلك ممكناً عندك على الأقل . . .

المجنون : ـ ليست موجودة في مفهومكم عن الأشياء ، فأنت لا تستطيع ارسال شرطيك للبحث عنها في البيت الفلاني أو الفلاني لجلبها إلى المحكمة . لكن قل أيها القاضي السامي ، الجزيل الاحترام هل العلي القدير ، في تفكيرك ، موجود أم غير موجود . لأنك لا تستطيع ارسال بوليسك إلى الجامع ، أو الأماكن التي اشتهرت بأن الله يزورها ، ان أوغادك (أحاطها الله بحمايته) لا حظ لها أبداً في أن تجد الله ولا أن تجلبه لمحكمتك . هل تستخلص من ذلك أنه غير موجود ؟

القاضي : ـ أمنعك ، حتى بهذا اللف ، أن تشبه تلك المرأة بالرحيم . هي موجودة أو غير موجودة .

المجنون : ـ أيها القاضي ، يا من عنده الكشف عن الأشياء ، كيف تستطيع القول عن امرأة لم ترها ولم تعثر عليها أنها غير موجودة ؟ فتهدأ إذا كان التشبيه هو الذي يزعجك لأني لا أريد التشبيه بما لا مثل له . الله ، ما رآه ، ولا يراه ، ولا يمكن أن يراه أحد في العالم أو انقطع عن كونه الهاً . اني أقول عن السا ما لا أستطيع القول عنه : انها موجودة ، لأنها سوف تكون . أما الله ، حسب ما أعلم عن الكتاب ، لا يتغير مع الزمن ، فهو لا ماضي له ، ولا مستقبل ، ولهذا كان شك في وجوده أو في حاضره . . . ولو أني هنا لا أريد المناقشة في الالهيات . لكن كم تكون الضجة ، لو أن أحداً ، وهذا لا يمكن أن يفوه به فمي ، قال أن الله سوف يوجد . ضجة حقة ، ولو اختلفت أسباب الغضب ، حسب اختلاف الناس ، وما يعيرونه للمناقشة . . . فإذا قلت أن السا سوف توجد أليس هذا تأكيداً لوجودها الذي ليس له بدء ؟ انها موجودة عند من يرى في المستقبل الحقيقة المنتصرة ، وهل المستقبل غير ذلك أيها القاضي ؟

القاضي : ـ لكن أليس قولك سوف توجد انتحالا للنبوة ؟ وفيه ما يكفي لأن أطلب لك الصلب أو الرجم ؟

المجنون : ـ حكمك أيها القاضي العاقل التقي ، لا يتعلق ، حسب ما أفترض على الأقل ، إلا بك ، ولا تسلبني صفة النبي ، لو كنته ، فتمنحني صفة الشهيد . لكن هل يوصف المرء بالنبوّة إذا استعمل الصيغة التي تصف المستقبل ؟ ولأعط مثلا ، قانون المدينة ، وهو من قول الملك (حقّ ركوع الشعب قدّامه !) لا يستطيع امرؤ الزعم أن ترتيبات تنظيف الأقذار وبيع الحطب هي من كلام الله ، إلا واتهم بالكفر ، مع أن قولها يجيء كلاماً عن المقبل ، فهي تأمر وتنهي ، وتطلب ألا يباع . . . هل تعني أن المشرع يدعي النبوة ؟ أقول هذه المرأة موجودة لأنها سوف تكون ، وهذا رجاحة رأي لا نبوءة .

القاضي : ـ لا أفهمك أبداً ، يا ابن عامر ، ألا تنتحل النبوة ، عندما تزعم أنك تبشر بشيء يكون بعد قرون أربعة ؟

المجنون : ـ إذا قلت سوف ينزل المطر يوم الأربعاء (وهو ما لا يكون إلا بمشيئة العلي القدير ، تقدّس في ذلك اليوم وفي الأيام الأخر !) أأكون انتحلت لي صفة ؟ هنا يتم أحد أمرين ، قبل محاكمتي : تنتظر الأربعاء ، فان لم تسحّ الغيوم ماء ، قلت ببساطة أني تكلمت عن خفّة ، أما إذا أمطرت ، هل تقطع عنقي لأني قلت الحقيقة ؟

القاضي : ـ أنت في جنونك أوسع حيلة من هذا الوكيل الذي تكلم ، فما يعرف كيف يطيل حياة موكليه إلا مشاكسة أو تمسكاً بأصول المحاكمات . . . ولو أني أصخت لك ، لأجلت النطق بالحكم أربعة قرون حتى نرى أكانت السا نبوءة أم لا . . .

المجنون : ـ أأنا الأشد حيلة ، أيها القاضي ، وأنا الذي تقررون هنا بآلامه وحياته ؟ أو أنت الذي تتهمني بأني أريد منك أن تفكر أربعة قرون أو نالني الاتهام بادعاء النبوة مع أنك تعلم أنك سوف تمسي تراباً في مدة أقصر بما لا يقاس . . .

القاضي : ـ أيها الرجل ، إننا لا نتناقش هنا في موتي ، بل في موتك .

المجنون : ـ يبدو لك ، يا نور الأمير ، وقد أعطيت سلطة الفصل في الشك ! يبدو لك حسب الظاهر أن الأمر يتعلق بموتي . . . مع أن كل دقيقة في العالم هي بداية حياة وموت الناس جميعاً ، لا رجل واحد ، أكان شاعراً معتوهاً في مدينة ، أم قاضياً ، مهما كان الصمت منه قريباً ، أما إذا شئت أن تصلبني لأني قلت أنك سوف تموت ، وأني أتنبأ بتفسخ جسدك ، فقد حق عليك أنت اذن الموت صلباً أو بالفأس لفسادك في سلطتك

القاضي : ـ يكفيك تهريجاً . فلننطق بالحكم . . .

كان يبدو أن تسليم هذا المطرب للغوغاء تدبير حسن . فقد جرت العادة أن يهرق دم الفكر ما دامت اراقته لا تكلف الملوك إلا قليلا ، وقد خيل للقاضي أن المجنون خير كبش فداء ، فرائحة الزندقة تبيح اعدامه لا لطابع الفتنة التي تنم عنها بعض قصائده بل دفاعاً عن الدين . لكن رسالة من القصر أفهمته ، أن ارضاء الغوغاء ، بتضحية صاحب البدعة ، هو ضد مصالح المملكة ، فهي ما دام مجلس الأمير لم يحسم في قراراته ، مظهر ضعف ، أمام الحماس الشعبي من أجل الجهاد ، الذي اختلط فيه احترام الدين بالشعور ضد المشركين . وفوق ذلك جاء رسول من وزير المدينة السابق (الذي حافظ على علاقته مع القاضي) فنقل له عن سيده أنه يتمنى عليه ألا يتخذ أي قرار ، فالقصبة يكفي عمقها وسماكة جدرانها للابقاء على المجرمين فيها ، حتى إذا دخل المدينة غالب ما فصل في أمرهم ، لأن مصيرهم لا تبت فيه شروط التسليم . ولقد رافقت هذه الرغبة هدية على قدر عظيم من الجمال : فتاة في الثانية عشرة بؤ بؤ اها أوسع من بؤ بؤ خيل نجد ، كأنها قطعة من كافور تلثمت خشية أن يغار منها القمر .

وأخذ الحرس المجنون إلى كهوف القلعة الملاصقة للحمراء ، فوق الدارو الصاخب ، فنزل أدراجاً ضيقة ، من قاعة إلى قاعة ، صوب الليل الذي يدلج إليه المعذبون ، حيث لا تنفع أبداً صور الكلام المستقبلية . . .

مسجونــو القصبــة

١

المسجونون كزيزان وضعها طفل في جرة
من فوقهم حجر كبرى وهم لا يواجهون سوى الظمأ والجوع
أهو صوت حشفات يندّ عنهم أم أنفاسهم في قعر اردبّة

منسيون ولا شك منسيون مصفدون طاوون على جوع خالد
لأنما الحراس من فوقهم عندهم اليوم ولا شك ما يقض مضجعهم
عندهم بؤسهم في أوجه والمدينة من حولهم نهب للريح
ولكل تلك الحياة التي يجهلها المعتقلون وهي تبدو لهم حلماً
لتلك المأساة بلا هدنة لذلك التمزق المتصل
لماذا يولد الانسان وينمو ويموت ويظن أنه يفسر الأمر باسم التاريخ
هذا الدولاب الذي لا يوفر شيئاً لا الجسد ولا الروح
هذا البحر الذي ما يفتأ يتدفق ثم ينسحب أبيض أسود
هذه الاسفنجة التي تمحو كلمات الانسان وما كادت تكتب
السجناء لا يعلمون شيئاً عما يجري خارج أصفادهم
السجناء يتكلمون فيما بينهم لغة عفت منذ زمن طويل
يمسكون في راحة يدهم بماضيهم كسمكة لزجة تتخبط
عيونهم تبحث عن شموس حالت دخاناً منذ بعيد
يا أبناء المرأة المستذلين في عرقكم وفي روحكم
تلك هي اللحظة المنكرة التي يغدو فيها الضياع العظيم
واحة لكم وكيد تحمي اللهب
في قعر زنزانة ما تهتز حتى تعود إلى حالها
اسمع خفقك يا قلوباً تقيس الزمان بساعاتها
يا أنفاساً في الأرض يا أنظارا لا ترى غير الليل
أنتم يا من لستم سوى ذكرى كل حياة فيها مقلوبة
يا سيولا تحت أرضية يا من ليس لكم غير مرآة أصواتكم

٢

الصــوت الأول

بعيد هنا عنها أنا
أمرّ بتجربة الموت
الزمان دونك خؤون
وأنا فيه قلعة نفسي
بوصلة بلا شمال

كل شيء عندي ذكرى
كل حلم قنينة على بحر

في لون الغياب هذا
لا شيء له نسغ ولا معنى
ما أفعل بقلبي المر

يا نشيد المجنون صوت الاحشاء الصاعد من بين الحبساء أية درب سلك أي خصاص انفتح لخطوه ، نشيد ما بدل شمسه في غي الظلمات أحق على هذا الحب الفظيع أن يثير سماعه في مهبّ الريح وهو ما ينفك دؤوباً على كلمات العبادة أحق عليه

أن يحيل الجلد شاحباً وأن تتبدل ألوان الحياة عند العبد أو الوزير وهو يمنح النساء بعداً من لازورد جديد حتى ليموت الفيروز إذا قورن بعيونهن

ليعدّوني مجرماً
أحبّ حباً بلا حدود
كائناً بشرياً
يجعله حبي خالداً
يا سليمان انها عندي شولاميت

أعبدها منذ عشقت
اغرائي الأبدي
امرأتي أنا هي نفسها أبدا
أحرق لها قصائدي
السا غرامي الوحيد

ألا نستطيع أن نحتمل خيراً من يهود الماضي مديحاً لغريبة . وملكهم كفضيحة كبرى يطوي على خطاها بساطاً من زهور انه هو سليمان يسميها ويسميها بلقيسه باسم لا ينتسب لمعروف اللغات

حتى ولو كانت خرافة شيئاً من خيال كائناً من جنون يتبختر على كلمة لكن لا هي ذي المصرية

هي ذي نستطيع لمسها تروح وتغدو تأخذ من ماء النافورة ليست شبحاً ولا جنية أو كناية ولا نصاً أو لحناً من جهشات آلات وترية

غائبة تبدو غائبة في هذا الموسم مثلما وضعونا في سجن لكن مع أنفسنا كما القلب المجنون في عين المحب أو ما قيل لا جناح ما دامت الطريق توصل إلى بغداد

فليحتقرونا وليسخروا منا
لا شيء ولا أحد يستطيع أمرا
لا شيء سوى الحب يعدل الحياة
يحترق فيه القلب كقش
يجعل الجحيم جنة

اضحكوا من الرجل ومن المرأة
اشتموا الزنديق
أنا هو من كل روحي
موسيقاي الوحيدة ومأساتي
آلهتي حياتي ومرحي

انه يجدف يبوح يعلن يكرس عبادة فاجرة للتي تُرى يفضلها على الله ويحور كل لغة لمدائحها يجعل كلام شعبنا عقوداً تلهو بها لحظة لا تضعها أبداً على حنان الأذن

ألحاناً تغنيها فننساها وتعاودنا إذا نمنا حين لا نجد أمامنا غير الليل كصحراء سوداء

السا يا قوتي وضعفي
أنا لست إلا تمتمتك
خطوة تتركينها في العشب
كم يخفق القلب حتى ليجرحه كل شيء
أنت منك أعيش وفيك أموت

ملكتي البعيدة شعلتي المنطفئة
منك تستيقظ المرايا
كل باب على اسمك انتحاب
كل شيء ظلك المرسوم
كل نور ذكراك

آه فليسكت فليسكت وهل يمكن أن نحتمل هذه المدائح في حفرة حتى ولو تعلق الأمر بجنية أو ملاك

أو تعلق بشيء فينا لا نذكره لكنه يتعلق بامرأة بامرأة

أنت التي أوقظ لا نفسي
في ماء الكأس الذي فيه أتراءى
عن معجزة أو حيلة
بت لست سوى من أحب
بت لا أنظر بل أعجب

يا عجوزاً لا يطاق

٣

في العيون المخنوقة
يهيمن ألق الظلمات
أية شعائر خسيسة تقام فيها
أية صفقة نساوم عليها

لا حلم لا حس لا رؤية
الانسان يسأم كونه انساناً
لأنه يفعل ما تفعل الكلاب
فلا يسود منه الليل كما ينبغي أن يسود

يستطيع السقوط في ذاته إلى درك لا بد فيه من شاهد على عاره
يروي عاره على الأقل
للاذن التي لا ترى

عار القلب عار الجسد
هل تسمع أنين الروح
إقبل تحدي النذالة
فالأدنأ فيها هو الأقوى

هذه الهوة فيك هل ترى كيف
تتفتح في كل مخلوق
إذا كان شبيهك نتنا
فلسوف تنتن مثله،

٤
الـــزانـــي

قال الزاني أنا هنا أنتظر الرجم
أجهل لم يبطئون بانتزاعي من هذا الجسد
اننا لا ندرك عامة سلوكهم

كان يتكلم كليلة ربيع
كان يحزرون صورته من حركات الظل في لحظات ألق نظراته
كانت قدماه تتحركان أحياناً في ألم الأصفاد

قال أحقاً لا تستطيع رؤيتي أنا جميل
جمالا فظيعاً لا ترفض أية مرآة أن تنحني له
ولا الرعب في قلب عين المرأة
من جمال يمزق ثيابها جمال
حضوره بين الجمهور يخلق الخوف
أما من تبقى معي وحدي فما يعنيني ان ظلت حية أو ميتة
تتأوه من قربي قبل أن أدانيها
آسف أنك لا تستطيع أن تراني أسمع صوتي على الأقل
هل فكرت ذات يوم بما يعني
جرم الزنا لماذا
ما يفعلونه جميعاً بالنساء جواريهم
يغدو جريمة لما أفعله أنا الذي لا أخشى أن أبدو عارياً
لأني قوي بفتوتي وأني جميل أقول لك
أنا الذي لم تستطعْ امرأة أن تشيح بعينها عني
وأكثر منه إذا بين دراعي أخذتها وفي لغب جسدها
أجريمة تكون إذا رنا إلى فمها
القرمزي وإلى انتظارها
أو فاجأها قبول عينيها المغلقتين
أجريمة الدوار أجريمة اللذة

كان يحرك وهو يتكلم أصفاده على البلاط

وفي الحبس العميق يمل قليل النور من النزول
إلى الأسرى على عكس ماء جبّ

قال مرة ولا أذكر أين
أين ربما في المرية أو شبرب
في تدمر أو قرطبة حي البساتين الذي يفوح برتقالا عند العشي
في أوليلا ولا شك
كنت بلا أفكار أحسني على أحسن حال والهواء كان أصهب حلواً
كان بوسعي أن أتخذ درباً أخرى
فجأة أمامي انها قصة تافهة
هي رأتني أولا يجب أن أقول لكم
انها ما كان بيدها الخيار إلا وأن تستند على الحاجز
كانت زنقة[1] يبدو لا أدري شيئاً عن ذلك
وماذا يهم إذا كانت زنقة
كنا منذ أبد أنا وهي على موعد
دون أن نعرف أنه هنا

كان الفتى وحق الله كأنه يبكي
يجب أن أقول لكم

ألم تعشق أبداً في نومك
لا لا تضحك ليس هذا مكاناً للضحك
يحدث لنا في النوم أن نزار
في الزنقة كان الأمر في الحق كذاك
تلك الفتاة ما كان وزنها إلا وزن حلم
واستفقت أنا كبهيمة
ولم أدرك ذاك إلا بعد زمن
شعرها شعرها كالمسك
على الجدار كقناع
وبين يدي كرعشة

(١) الطريق المسدودة .

صمت طويلا على انتظار الآخرين
الكلمة ولا أعلم لماذا كانت نصيبه
كما السماء نصيب النجوم في الليل

رجعت صباحاً بدوت
مثل الذي يبحث عن ظلّه
ركضت في كل ذاك الحي
دون أن أجد خطاي في البارحة
العطر كان غيره
الحواجز كانت أخرى
ما كان شيء يشبه شيئاً
في أية ناحية ما كانت زنقة
في أية ناحية لم ينتظرني أحد
لم يكن أحد حيث مررت
والحلم لا يعود أبدا

أعتقد أنه أخذ
يضحك فجأة ضحكاً غريباً
يضحك يضحك على دفعات صغيرة كما تتجرع شراباً حاداً

منذئذ سحت
وسرقت من البساتين
ثماراً نضجت لأفواه أخرى
رأيت مدنا ومرافىء
في المساء يجب أن ننام
نمت كثيراً بين الموتى
وكثيراً على الطرقات
مددت للأحياء يدي
وأسوأ من فيهم النساء

كأن هذه الكلمة تعلق
روحـــه

في العالم من النساء
ما يكفي للسعادة
أتحدث للعشاق
الذين ذاكرتهم ديديان
في العالم ما يكفي من نساء
كي نستطيع الملل منهن
أما أنا ففي كل مرة أعجب
أكان ربيعاً أم كان خريفاً
صدّقوني لا تصدّقوني
أضع خطوي في خطوهن
كل امرأة نافذة
يبدو لي أني أتعرف منها
على ما كان للأبد ذات مساء

وفجأة حنق وشتم
أحدا ما في الظل فما نسمع
كلماته ولا نميز
كلمات القسوة بين أسنانه ولا نفهم
ما يقول لنا في غضبه

نعم أنا من الذين يجب أن تخشوا
فلا تفتحوا في غفلة باباً لشحاذ أو عتال
أو أناس بلا مروءة تاريخهم يوم
أية فتاة تطيب لهم وأية زاوية في نهج
دمويون لا وازع لهم إلا قضاء لذة
لا يعرفون قوانينكم لا زواجكم ولا حيلكم
بشر العناق العابرون الذين يشبهون النسيان
يخلطون بين الأماسي والقبل والفرص والمدن
يمشون عبر الأقدار عيونهم تتطلع إلى البعيد
لا قاعدة لهم غير نار فيهم يريدون منحها
إذا ليلة من غير حب جنوا شدهوا
كجيش ما عنى أحد بأن يريه عدوه

كنا لا نطيق أن يصمت
فنسمع في السجن دوران الذباب

يريدون رجمي لأنهم قبضوا علي مع تلك المرأة
وهي لم تكن غير امرأة ذلك اليوم وكفى
ولو أنها سقطت تحتي كبطيخة على الأرض
آه كم انتقمت من حياتي معها طاوياً ركبتيها ويدها
على الحائط وأنشبت أظافري في الجبس
زعموا فيما بعد أنها استنجدت لأنها صاحت
لو لم أكن مخبول لذة ما قبضوا علي
مع أنهم أربعة وماذا بعد
لن أنكر الزنى كما تسمونه في لغتكم
أنا غليظ عندما أتكلم عن هذه الأشياء
كلماتي كرسم الأعضاء
وبما أن الزنى له ثمن عندكم
من حجارة فليكن
اجمعوا ما يعدل وزنه موتي
هيا حطموا هذا الجسد الذي عاش في قمحكم
انظروا إلي في وضح النهار هوذا عاشق نسائكم
وليمنح هذا أذرعكم قوة وأنتم في بساتين كرزكم الساقطة الزهر
احسبوا جيداً مكان القذيفة وكيف تقذفها
فأنا الذي لن يعفى عنه لأني أعطيت كل تلك اللذة
أنا الجسد المنتصر حتى على الضربات التي اخترمته
أنا ا لامتلاك الذي لا يجرد مما أمتلك
أنا العنف الفوق عنفكم المسكين
وسماء العيون التي لم تضطرب منكم
والحريق الذي لا يجاريه غير مجنون
أنتم يا من لا تستطيعون فيّ غير قتلي
كما تقتلون بنفس الضربات السر النائم فيكم
وهو ينزف مني طويلا بعد أن قد انهيتموني
وتستمتعون بطاعة زوجاتكم
وتذكرون المرجوم الأسود الأزرق على حافة حقل

وانقطع عن الكلام تاركاً المكان للأفكار
هل هو حقاً على ما يزعم من جمال هذا الأفاق من مدينة لمدينة
وقد امتلكته خطيئة الجسد فلا يرى سواها
خارج الزمن الذي يسكن وما يمر به من حروب
يلم بالرحيل وزلازل الأرض
ينسرب إلى المعركة فلا يدرك معناها
ولا يهتم بمن يعطيه الصدقة
مسلما كان أم لم يكن

أهنالك هكذا أناس لا يعرفون شيئاً
إلا عن الجاذبية والنوم والظمأ والفصول
أهنالك هكذا أناس كذئاب في شوفان
ربما كانوا هم لا نحن البشر

غرناطة ستموت ما يعرف هذا عن موتها بل ما يعنيه
هل رأى غرناطة عمره أو أنه من أجلها سوف يموت
كيف انزلق إلى موقع محاصر
كيف فسر لنفسه الذين يحشرجون على مفترقات الطرق
ألم يلحظ المعذبين على الدروب
أو الصوفي في دهشته
الأوابد عنده لا معنى لها ولا موسيقى فيها
لا تجرب أن تروي له تاريخ المعتمد أو ابن عمار
أما إذا تكلمت عن الحب فاخش الصور في رأسه
لا تلفظ أمامه اسم حبيبتك
الاسلام لا مكان له في حديثه
كلمات عجيبة تمتزج أحياناً في جمله
كالنار تنجدل في القش فتلهبه
أغرناطة أم غيرها ما يسمي ميليجرانا

عندما يسأله في عمق الظلمة صوت
manuch th hal busno [1] أعتقد أنه يجيب
فجأة كما تغني الماء عبر الجسور
me hum calo pralo [2] أعرف لغة

---

(١) ، (٢) باللغة الغجرية
(١) أغريب أنت أيها الرجل ؟
(٢) أنا رفيق (غجري) .

سارقي الخيل واللاعبين بالحظ
يا زانياً نذرته القوانين للموت
ليس لك إلا السلسلة والكرة والخشبة في العنق لك
النسيان هو ما تستحق أيها الغجري
أنت لست دون خوان تينوريو مع هذا
تشبهه كما يشبه الرماد اللهب

٥
الفيلســوف

كما يذهب آخرون ذات يوم كي يقطفوا البنفسج
على نجمة أنا
أدلجت حياً في بشاعة الانسان

في أمكنة الجذام والعزلة
حيث فقد الكل صوت الروح ولون الفكرة
لم يبق مني هنا غير ما نفيت عني بسوط حزامي
انحل كل شيء كلحم جسد قضى
أسكن مع الجريمة والدعارة في بقعة العفن الكبرى
لا ألاحظ حتى رائحة ما فسد
لا شيء هنا له ثمن إلا ما كان عملة كلامنا
تعود فمي هنا على القمامة
هنا الهواء يكره أنفي والحلم ابن سرير آخر في بيت خالة
الحيلة هنا جالسة تحدق فلا تتكلم إلى نقطة سوداء أمامنا في الليل
كل عنف انكفأ إلى قضم أظافره
العين والأذن تغشان في قمار مجهول
تزحم فيه الدناءة الديمومة
حضور آخر هو تفاقم في الظلمة صفعة للكائن
يا وحدة عديدين لأنت مسبة منحطة للهوى الذي كنت
قليلا قليلا أغدو شبيهاً بهذا العالم السافل
لا أقدر أن أمسك نفسي عن أن أنتزع مني ذلك الزخرف
أسحج في فسادي القلب والجرح

كلما أوغلت في مزبلة هذا العالم
عانيت من نصيبي في رائحة التعفن
أعرف أي دوار حجر منوم
في الهوة

كل شيء بني على هذا العدم المتقيح
أنـــا نفسي

ماذا قلت بماذا اعترفت شريطة
ألا يكون التقط أحد هذا السر على فجر شفتي الشاحب
لست على يقين أني أنا نفسي سمعت نفسي
في هذا الدرك السفلي الذي وصلت إليه لا تستطيع أن تقارن شيئاً إلا بالبرد
ثم ماذا يهم يبدو
أني ما زلت أتمتم بلغة من غير هنا
عادة قديمة كمظلة
سخيفة مثل مظلة في الجحيم
كترس في غرق
كل الكلمات التي ما زلت أكونها فيّ ليست غير علائق
بين أشياء بالية
كل هذه الكلمات التي مزامير دين بلا مؤمنين
كل تلك الكلمات أشباح حياة منسية
كل هذه الكلمات تفقد صورتها كخطو في وحل
كل هذه الكلمات تموت وتكذب
كل تلك الكلمات مشلح وهأنتذا عار كبهيمة
كل تلك الكلمات صيغت من ربيع لئيم
كل هذه الكلمات من قبل الطوفان من بعد الطوفان بلا هدف
كل هذه المشارب المقلوبة حول من لم يشربوا
كل هذا الخراب لأفكار بساتينها سفحها البرد
لكن ما معنى بستان ما هو الربيع
عند القطيع الذي نحن وقد زربنا في صحراء الأشياء

الآن أذكر أولئك الذين أعطوا دمهم من أجل المجد

أولئك الذين كانوا طواعية يهلكون أنفسهم من أجل جمال قطعة نسيج
أولئك الذين كانوا يصلون على السطوح كيما يراهم الناس
أولئك الذين كانوا يحلون اللذة فوق كل شيء
لن أتحدث عن فرسان طرادهم حتى انبهار النفس
ولا عن مقامرين يراهنون على مملكة برمية نرد
تذكر قوارباً أزينت ازهاراً على ليل الأنهار
تذكر أحاديثاً لا تنتهي عن السعادة والفلسفة

وليلة المرج وقد قضيتها تناقش في المستقبل وهو يشحب في أبهة أنوار الحريق

كان لك في الأيام الغاربة جنة هي حماك
كان لك ذراعان انعقدا على عنقك فلا يحلان
كان لك في الصباح الرائق كلام يهدل به اليمام

هنا بين اللصوص والحانثين والقوادين
هنا في خسة العواطف واللغة
حيث البهيمة مرآتك الوحيدة صداك الوحيد ونديمك
تحس نفسها وجلدها حضورها وخزيها
بين الرجال والجرذان القروح والدود
هنا أخذت السماء زرقة ذاكرتك العميقة

هنا أولد بطيئاً حتى الموت

٦

سواد في سواد حضور لا تندّ عنه غير الأنفاس لولا صوت بعد آخر ينفصل عن الجوقة ـ الصمت

الأفواه ليست على نفس الدرك لا تدري ان انحنيت ممن تقترب عمّن تبتعد

وسكتت الآلة التي يبحثون عنها بلا يد
يا أنيناً بلا وجه
لا يستطيعون أن يسألوا غير إذا سمحت أو كيف حالك
ولا أن يصيحوا أية ريح

كلنا قاعد   إلى ماضيه
يعده على أصابعه خشية نسيان
فإذا قال أحد أنا سأله الآخر ما تعني

لا نتحدث أبداً عن نفس الشيء ما عدا ماء الجرّة
أو جناح الوطواط

هذا الفيلسوف الذي هو ى نحز ر
انه اتخذ مكاناً له في عشاء الكلاندر يين
لكن كيف نر بط معه ما كانا بيننا
مشتر كاً كل شيء يبدو سبباً وكيف
في هذا المكان نستعيد نشيد المستقبل
ذات يوم هل كان ذاك يوماً لا أدر ي أية درب جاءت به
هوذا فجأة يدرك ما أصغى إليه

تر ى هل عاد إلى حيث التقينا
كان الحرس يأتون بطعام لا ير ى
و و راءهم عواء الكلاب
لكن ما كان مصير صاحب الدار هكذا
أمر بقطع رأسه الملك الذي كان معنا
وهي ذي تتدحرج بيننا
والتفاصيل أجهلها
ما كنت بحاجة لمعرفتها أر يد أن أنام

رمضـــــان

١

ماذا تعرف عما خارج السجن أنت يا من لا علم لك عن الساعة أو اليوم

وكيف تمر الشهور إذا لم تعرف شيئاً عن الزهور
مع ذلك عندما أخذ حرس الليل يقصفون في أكل وشراب
فهم السجناء من الصياح والرائحة والشتائم والأغاني أن الله يديننا
أن رمضانا بدأ

الصيام شيء غريب غريب

في عمق الزنزانات في بلد محاصر
لكن العسكر يأكلون من خمر الأمير
أوليس من التقى أن تشرب خمراً اغتصبته من العدو

ما تعرف عن خارج السجن يا مصفدا بين الأقذار
أية مؤامرات تحاك أية أعلام على الأبراج
أنت لا ترى حتى عودة الشمس
ولا نحول الناس الذين يخرجون كدود على الجدران

هل قالوا لك أنهم انقطعوا عن توقيف من يأكل الخيل الميتة
ماذا تعرف عن خارج السجن وأنت هنا في الصمت
لو وقفت على أكتاف مارد ما استطعت أن ترى شعر العالم
لا فائدة من طلب شيء من السجان الأسود الذي يتكلم لغة الطرشان

ما تعلم عن خارج السجن غير أن الأبواق باتت لا تسمع
كسماء فقدت طيورها كمدينة بلا دخان
أما زالت هنالك ليال خضراء للذين يعتزمون ألا يناموا
آه يا لتنهدة باب عند الظهيرة على حافة الظل في الساحة
وأغنية تصمت على اقترابك من بستان

ماذا تعرف عن خارج السجن وقد باتت عيناك الآن بلا جدوى
بلا جدوى فمك ذاكرتك بلا جدوى

٢

ذات مساء ندت عن الأبراج صيحة
حالت سيلا في الأزقة
حتى ليخيل أن الشفق بعث في الغرب
وهبت ريح في البشر دفعتهم كأوراق إلى الأسوار
الشحاذون أنفسهم حركوا في الظل أعضاءهم الجرباء
واشتملت كل الأفواه معاً بالنبأ

أيتها النار يا ديكي يذعره دائماً الفجر

يا نار يا لساني وتجديفي
يا نار يا رأسي الأشهب يا نار يا ضحكتي في البعيد
يا حصاني جمح فما يصغي لشيء

كانت ترى هناك مناديل الله في غضبه
تعدو في نسيج ومعسكر المسيحيين
كخيل صغيرة حمراء تقفز من على سياج الليل

يا ناراً ليست سوى حساب من العناية
يا ناراً تأخذ الملوك في اسطبلاتهم
يا ناراً ظمأها لا يروى في الساعة الأولى
يا نار قلبي جنّ نشيدي أصفر

الزحام العظيم على شرفات الأسوار ينحطم متراجعاً
لا تدفعوني عيناي خلقتا كي تريا هذه الدقيقة
دعني ولو كنت الخليفة ولو كنت محمدا

يا نار الجحيم يا نار الجنة
أيتها النار اشوي الكستنة الملعونة
يا نار التهمي أعلام المسيح
يا نار طاردي الانسان في جلده وعلى حصانه

يستحيل أن نقارن هذا الفرح إلا بفرح الختان
إذ يجيء الأصحاب من أقاصي البرية
وقد حملوا للمحتفى به خياراً وخمراً حلواً

صاحت البنات يا نار شكراً
آخذك في فمي يا فتى جميلا
يا نار أعلقك على أذني أضعك في اصبعي
يا ذهبي الصغير الحارق يا عاشقي على بيدر

ولقد نسي الناس في غرناطة حتى مساء الغد أنهم جائعون

٣

لما وصلت الملكة ايزابيلا إلى ينابيع القويطار في كل أبهة موكبها ، وفيه ولي العهد دون خوان ، وأخواته الأميرات ، تبدّى أن كل جميل أقل مما يليق بها ، ولقد قدم مركيز قادش لملكته خيمته التي بنيت في الوسط على هيئة برج من مخمل ، ارتفع فوق المعسكر على أعمدة من رماح ضمّت إلى بعضها ، من مخمل دمشقي من أغلى ما صنعته طليلطة ، جدرانه كلها من حرير فضفاض ، تحيط به غرف من نسيج مرسوم موشى بالبروكار . ولقد اتسع لكل البيت الملكي فاستقروا فيه كي يناموا ، وبما أن جلالتها خشيت بعد طول الطريق أن يزعجها نور شمعة حدّ سريرها عنّت لوصيفتها فكرة مشؤومة فوضعت الصحن بعيداً عنها في مكان تكفي فيه هبّة ريح لاشعال الجدار القماشي .

وضرى اللهب ، فبلبل الجند وفاجأ الأمراء في أوائل نومهم ، فدق النفير ، وشبت البهائم وصهلت ، أما ذهب الشمعدانات ، ورصاص الصناديق ، وقصدير الصحاف والصحون فقد ذاب فحال إلى سبائك في رماد الحرير والسجف .

وجرى احصاء الموتى وتضميد الجرحى ومنهم صاحب السيادة جان مولينه ، الذي كان يقفز على قدم الألم ، وقد أصابته في عينه شرارة ظل يرى بريقها فإذا أغمض جفنه الآخر أمحى العالم .

وفي غرناطة وقد بدت في رابعة النهار على نور الحريق ، أخذ العرب بعد أمائر النصر التي سيطرت عليهم ، يخشون خدعة قشتالية تجذبهم إلى السهل ، فقد استطاعت الحيلة الاسبانية أن تجرهم إلى مصيدة أكثر من مرة . كان أبو عبدالله قد خرج من الحمراء إلى بيته الصيفي في ظاهر المدينة ، ورأى من هناك خلية النمل المشتعلة واضحة وعجيج الرجال والخيل ، ولقد رده مستشاروه عن محاولة المفاجأة التي كان يفكر بها موسى . وهكذا ضاعت الفرصة وطلع النهار وهم يترددون وانقضى كله بين اجتماع وخطاب ، حتى وضح عند العشي أن العدو استعاد قوته ، وأن جيش فرديناند رغم فداحة الخراب ، بات مستعداً لمجابهة هجمة من المدينة .

غير أن روح الهجوم انتصرت مساء وخرجت زوبعة خيل وسلاح ، فألقت بنفسها على المرج كفضيات تقدم إلى ملوك أجانب في وليمة كبرى ، كان في نفوس المقاتلين كل ميراث بطولة النزال والتقاليد ، حماس الثغور ، جنون الموت ، وعزماً على ألا يتراجعوا وفيهم دمهم ، ورؤ يا الله وراء كتف العدو ، ما تركوا احتياطياً في المدينة ، كل السيوف كانت تشق الهواء كأهلة ، ومرقت روح الاسلام مرة أخرى في الحقول المدمرة ، الله أكبر ! فاضت عن الشنيل وغمرت التلال ، واخترقت صفوف القشتاليين مرة أخرى ، فتفرقوا ، وارتبكوا وتراجعوا إلى المعسكر الملكي ، وهو في رماد الحريق ، وقد كانت تتجمع فيه عربات الرحيل . . .

لكن مشيئة الله كانت غير ذلك ، قلبت النصر كخمر التمر ، واندلق الدم غزيراً على البساط وانتصر الرعب على العرب ، فانكفأوا إلى غرناطة ، قبل أن يتبدى وجه الصباح . وكان النصر حليف حامل شارة الصليب وإرادة الله .

أما الذين نهوا عن المغامرة فقد كان معهم الحق الآن أمام الأمير والشعب ، حين أحصوا

الموتى والسلاح المفقود . أما كان ينبغي انتظار هجوم العدو الأخير ؟ هل يستطاع في الفوضى ، والحداد ، والخلافات مقاومة جنود ايزابيلا وفرديناند ؟ وذرّ الشقاق فدام أيام عديدة . لكنهم لما علموا من الجواسيس أن الملكين الكاثوليكيين ، وقد أفادا من درس احتراق معسكر النسيج ، اتخذوا قراراً ببناء مدينة في المعسكر القديم البعيد ، اطمأنوا ، لأنهما هل يكونان بحاجة للبناء لو ينتويان أخذ غرناطة عنوة ؟

وهكذا بدأت هذه الفترة الجديدة من الحصار ، كان يهزأ فيها الغرناطيون من العدو ، وقد تركوه إلى لعبة البناء . وكيف يأخذون جداً ضجة الخشابين والمعمارين ، وحملة الرماح في هذا المناخ الجميل ، ولاح أن القشتاليين يكرسون جهدهم للشغل ومجيء قوافل لا تحصى ، من عربات وبغال ، تحمل ما لا يدرى من غنائم من كل شبه الجزيرة ، إلى الورشات حتى أن طرق البشارات باتت من جديد سالكة . ولقد ورد ما فيه الكفاية منها لملء المخازن ، والقشتاليون مشغولون بأشياء أخرى ، وصفق مليون من الغرناطيين لمواكب القمح والذرة واللحوم التي أهملوا من أجلها القتال . فقد كان يحرسها كلها وصلت مرة ثلاثة آلاف فارس .

شوّال وذو القعـــدة

١

لكن حدث أن التحسن النسبي أعاد للغضب قوته ، وبعد أن أكل الغرناطيون في شهـر الصيام الفضيل ، كمية أقل مما ينبغي ولو أنها كافية لليل ، واتهم الشجاعـة بعضـاً ضد بعض واستيقظت الأحزاب . واعتقد الأمراء والعلية ، أن أسوأ الأمر أن العامة وضحت مطامحها حين نهبت بيت أحد الجباة وتنازعوا فيما بينهم حول الوسيلة التي تخضعهـم . وظهـر المحرضـون في الساحات ، بعضهم يحض المستمعين على التسلح ضد الغاصب القشتالي ، وبعض يجأر بأنما يجب القضاء على الخيانة في المدينة نفسها ، ومنهم من اتهم الأمير نفسه ومنهم الحزب العسكري أو اليهود . وزاد في الطين بلة ، أن الوصول إلى غرناطة بات ممكناً من جديد ، فدخلتها أرتال من الفلاحين المغمورين الذين يستجيبون لكل شعـوذات السحـر ، كما جاءهـا الفـارون من مدن مقاطعة تدمر وعاصمتها المرسية ، ومن شاطىء الشمس ، حيث يكثر اليهود وقد أتوا يدفعـون حميرهم وقد حملت الأطفال ، وعلى رؤ وسهم دثر مخططة ، تلاحقهـم الصيحـة المسيحية بأنهـم مسممو آبار : وتفشت في المدينة التي تعبرها أغاني حمالي الماء ، حمّيات لم ينفع فيها علم الأطباء ، والخوف من أن يقترب اليهود من الصهاريج وعلى هذا وضعوا في الأحياء البعيدة عن احتياطي المطر . وهنا تركوا ، وقد تكدسوا بعض فوق بعض ، يموتون عطشا . لكن أهل المعرفة الذين تصغي لهم الحمراء فضحوا هذه الأساليب ، على أنها غبية وضارة ، وقالوا أن الحكمة تقضي بذبح اليهود أو معاملتهم معاملة انسانية . لأنهم أصبحوا في غرناطة كجراح متعفنة ، تنتشر منهم أوباء الأمراض التي لا تنظر إلى عرق ، فقضى مسلمون مؤ منون من معاملة اسرائيل . وتكشفت عن أشياء أكثر من تلك التقاليد الغرناطية ، لكن من يناضل ضد خيالات شعب جائع ، يحاصره العدو من كل الجهات ، وقد جاءه ولا غرو الجواسيس من قشتالة يزينون له الأساطير المسمومة !

كان الناظر في الأعالي ، يرى مدينة من حجر تشيدها الانشاءات القشتالية على مد النظر ، ولقد كانت في البدء مصدر سخر وأغان ، أما بعد فقد غدا بناؤ ها السريع مثيراً للتساؤ ل . ونقل الرسل الذين أنفذوا كي يجوبوا حولها أن الملكة رفضت تواضعاً وتقى أن تعمد باسمها ايزابيلا ، واتخذ القرار بألا تدعى كما أراد فرديناند عن تهذيب ، اعتقاداً منها أن تستدر عطف الهها المصلوب وجمهور القديسين المشركين وقد رسموا في صور تعددت ألوانها ،وتماثيل جيء بهـا من المملـكة فكلفت نفقات كبيرة ، وهكذا قامت مكان فونتيس دو جويتار ، في ظل الايمان الباطل سانتا ـ في ،

فكان لها دوقها ، وسجلها الخرائطيون على خرائط الممتلكات الكاثوليكية . وارتفعت أولا في قلب الاسقالة كنيسة ينشدون فيها تراتيل للعذراء ، ويرى الناظر المواكب تطوف بين جدرانها وما اكتملت بعد ، أثواب الرهبان والصلبان .

في تلك الأثناء ، من على الأعمدة النازلة من القصبة إلى وادي حدرة ، من فرجة فخارية للتهوية ولا شك ، وبين الضجة والسباب البذيء ، وصل إلى شابين ، جلسا لا يفكران إلا بنفسيهما ، نشيد من صوت كهواء مسبل ، من صوت معروف مجهول ، كأثر بيت أليف .

آه ضيّعت قلبي فيك
فما ألقاه أينما ذهبت
رحلت عني بغنيمتك
فما أنا غير انسان على صليب
تعانق ذراعاه الغياب

انتزعت قلبي يا قلبي
أحس مكانه غريباً
أحس الجرح في جنبي
فارقني من أجلك
وما استطعت أن أمنعه

بعيداً بعيداً عن مكاني
يلحق بك قلبي كصياد
كغيمة ومطر
قلبي أنا بحاجة له قلبي يفر
كنشيد ابتعد فامحى

أخذت قلبي أخذته
من دونه أعيش بصوت خفيض
كما تفعل أبواب اصطكت
من دونك كل شيء سرقة
النهار عندي ليل والنار جليد

وإلى سمحا قال زيد ، دون أن يدع يدها في دهشة النشيد الآتي من الأرض ، في تلك الفترة من العام المترعة بأفكار شبيهة بلدغ : « ما زال استاذي حياً ، يا لؤلؤة حياتي ، لم ينقطع عن الحب ! » .

٢

استمرت في تلك الأثناء حرب المناوشات ، وغـزوات ليلـة واحـدة ، والتحـدي يطلقـه الفرسان ، والمبارزة في أمكنة يتفقون عليها فوق الهضاب ، ومعارك الجبال في الجنوب . وحمـل الأبطال على محفات ، موتى أو في النزاع ، وتعاظم القلق مع الزمن ، وزمجرت غرناطـة خوفـاً وغيظاً ، وجبناً وعزماً ، وتحدث الناس في البساتين البعيدة بلغة التسليم ، فما يند عنها شيء على الوجوه علناً أو في أحاديث الأمكنة العامة ، لأن الشعب كان يمتلكه حب مجنون لأرضه ، وكان أكثره مسلحاً ، خاصة الجنود الذين انكفأوا إلى العاصمة من مدن المملكة التي سقطت ، فكانوا الأشد غضبا ، أقل كلمة تهدد بالثورة ، وأبشع العنف ، ولا ننس أن هؤلاء الناس ، تعودوا منذ عشر سنوات على قلب العروش ، وطرد الأمراء فتنصيب أول دعي مكانهم ، على أنه ممثل لله . . . أما هذه المرة ، فكان يتأكد نصر الغوغاء ، وبما حفلت من محرضين ، لم يسجن منهم ، غير أهوج ، أو من لا سند له في الرأي العام .

وكان قليلا على هذا تكديس المجرمين ، وأنبياء الكفـر ، والفاسقـين في كهـوف القصبـة العميقة ، وأيضاً المعذبين الذين تزهر رؤوسهم على جدران القلعة ، بعد أن تستنفذ فيهم وسائل الاقناع ، كالتعذيب لانتزاع اعتراف من حلوقهم ، بالتآمر ، أو بالتخريب أو الاتصال بالعدو ، وتنديد بأفكارهم نفسها . يروى أن أبا عبدالله لم يكن يحب هذه الأساليب ، فلقد كان مرهفاً ولا غرو لا تطيب له رؤيتها ، ولو أن صاحب المدينة كان يرويها له أيام الجمعة . وما كان الأمير ليهتم بهذه الرواية ،على أنها صِلات حقيقية ، وانما كانت تطيب له على أنها لون من الأدب . ولقد ينحي عليه باللائمة من لا تلذ له حكايات العالم السفلي والبوليس ، والتقاليد التحت الأرضية ، أما أبو عبدالله فقد كان ينسى ، إذا أصغى إليها ، جمال القصور القاهر ، التي يطوف بها الموت على نحو آخر .

هذا وبعد أي دور كان له في هذه الاعتقالات المفاجئة لمواطنـين عرفـوا بالشرف حتّى ئذٍ ، والعسف الذي انتهى الناس إلى اعتباره طبيعياً في ثغر محاصر ، لا تدري فيه متى يكشف القناع عن الدهليز . . . حتى العائلات التي كان ينتزع أحد أفرادها كانت تشك بأمره ، فلا تصيح ألما . كل اختفاء كان يتميز ، بشيء من الراحة ، مصحوبة بالخوف ، كأنما يجدون تفسيراً لوضـع المدينـة المأساوي . كانت المؤامرات مفيدة للأمل ، فضح منها العديد لرد الثقة بالشعور ، انهم يخونونك وانك في مأمن . كما أن هذه الطريقة كانت تفسد الخطط الحقيقية التي تداعب العلية ، ويحول الروح الشعبية . . .

ومضت الأيام بعد الأيام
كانت النوافير تبكي في الليل
وجاء رسل أجانب
على خيل أظلافها ضجة
يدخلون في قعقعة عظيمة
كالحظ الذي تلعبه نردا

يتجلببو ن بالسواد مد جحجو ن بالسلاح
حداداً على الهم من أرض يهوذا
يلمحو ن بأسمائهم السامية
وأراضيهم وأجدادهم
على أهبة اهراق دمهم على العشب
من أجل ابتسامة في العيو ن
على أهبة القتال واحد ضد عشرة
وهم منتصبو ن على الركاب الفضي
حتى يستسلم العرب
جاؤوا يذكر و ن الملك بوعده

أقسمت يا أمير على التوراة
والصليب والقرآن
أنك إذا انتصر سيدي
تفتح غرناطة وتقو ل خذ
الحمراء وجنات العريف
واحتفظنا ألا تذكر
بابنك بين مخالبنا
إذا خنتنا قتلته
هل أعد لك المدن
وقد تهاوت واحدة واحدة عن الشجرة
المرية وكذاك اشبيلية
وانحنت ملقة تحت نيري
ماذا بقي لك يا أمير
أخذت لوخا في طريقي
وعسكرت على ضفة الشنيل
وفي يدي قادش وبازا
وقد حالتا خراباً ورمادا
أريد الحمراء
ألا تصيخ للعقل
أو أمطرها بنارنا
ويرين النسيان
على سقوفك الملونة وسماواتك الجبسية
لأني أملك سلاح القيامة
لم استخدمه عن احسان

وأنت تعرف أني أستطيع
أن أمسح غرناطة كاسم
آتيها بالموت والحديد
في نشيد المدفع المسيحي

عندها اهتزت الأسوار
الذين يحملون الشمس على جباههم
وقلوبهم دامية مثل حرش مقطوع
يغنى فيه البلبل للحطابين
وهم يبحثون عن نسائهم وكلابهم بعين تائهة
يتخيلون فظاعة الينابيع الجريحة
تدور مآقيهم الراعبة في كل جهة
على موت عجيب يتهدد كل شيء

لا التوراة ولا الانجيل
عندي كتابان مقدسان
قال أبو عبدالله أما القرآن
فلا يجوز أن نقسم عليه
ما هو ضد طبيعته
أمّا إذا مسست ابني
ودنست كتبك
وصنعت ما ينهى عنه كل اله
فلسوف يسقط عليك رجم من السماء
فإذا كنا تحت دثار واحد
وجمعنا نفس القبر
بين ذراعي الحمراء
كعاشقين اختلطا بالموت
فإن روح الملك وأقولها لك
لتجد في اللهب الذي يقضمها
لك الجحيم ولي الجنة
لا بد من زمن نقضي فيه
ممالك وبشراً
وينهدم فوقي بيتي
فلا ولي بعدي أمره أحد
هل أشحذ أيامي

كفتات وليمة
لقد شبعت من الحب
وبوسعي أن أرى أمامي قدري
يا ملك قشتالة بفضل ملكته
يا قواداً يعد فلوسه
ادخل إلى غرناطة لعلي أجرك
إلى حيث تنام نوماً يرويك
يا غريباً عن هذه الأرض
هل تعرف كيف تتذوق العبير
الغبطة والسر
الزهور والقبل الراحلة
حتى لو ملك عرقك ذات يوم
يظل مغلقاً عليه أبدا في البساتين
المدنسة لماذا تدمى السماء
حتى المتوسط
ومم يتهالك الليل
عم يتحدث السيل
لماذا ريح الجزائر
تهب نسماً من زعفران

عندها سمع شكوى العلية
من أين جاءك الحق بالتصرف بنا
يا ابن نصر وأنت جالس في البؤس كما إلى طاولة
تخفي عن العالم خزيك وركبتيك
أنت تتحرق لاحراق خيراتنا وأشخاصنا
يا ولداً ما أمسكت يده إلا بصولجان حطيم
أنت موكل لهذا القدر وقد دقت ساعته
وأفضل لك أن تهادن ملوك المسيح

القصبة في الخريف

١

سقط رجل في البئر
يدان من دم وعينان من ليل
كالحجر والضفادع
لا شيء يتحرك حوله
ليس ما يزكي ناراً ولا ما يلمع
هنا تصدأ الذاكرة
سقط رجل في البئر

أي أي يوم نحن أي يوم من ذي القعدة

لكن ما هذا الصوت
قد يكون جرذاً فر
شيء أسود يعج
خطوة خفيفة تتبعها أخرى
كما ينزل في الفرن الشحار
الظل يتسخ مذعوراً
ويكتشف الرجل رجلا في الصوت

الخامس أو السادس عشر أو أي يوم نحن على كل حال في ذي القعدة

آخر آخر آخر ثم
واحد آخر الكل ستة سبعة ثمانية
الظلمة تسعل وتنقب في نفسها
أي يوم نحن اليوم

وما يعنيك يا غبي
أن يكون الأحد أو غيره

قال القادم الجديد نحن في السابع عشر من ذي القعدة

عندها تحمس بدوره أحد الذين لا يقولون شيئاً
وأخذ في الظاهر يعترف بجرائمه

٢

(المظّفر)

هنالك كائنات من لحم ودم يقودها الطمع وأخرى تبحث عن السعادة
عرفت أمراء وخزّافين كأرض ظمأى لجمال النساء
ومن أهل المعرفة السامية من يضيعون الليالي والألوان في الجبر
وفلاحين دمهم من خمر كرومهم
وفرسان بحر وجوههم من ملح ونفوسهم من قار
رأيت من خدام الله من يهلك في طلاق صوفي
رأيت زنادقة يضحكون على الدولاب
رأيت من يفضل الموت على الحياة
وأهل مدن لا يدركون البدو
هذا العالم المأهول بخلاء يعدو وراء كنوز مختلفة
ولا لغة مشتركة بين الذين يظنون أنهم يتكلمون نفس اللسان
أصغي إليهم وهم على خيلهم أو بين البساتين
أصغي إليهم يتقصّون السماء أو يبنون السدود
في السوق أو على فلك
أصغي للصوت الأزرق مساء في المآذن
وهذا الذي يقسم الممالك بين أبنائه
وذاك الذي أخذه دوار السلطة له وحده

وهذا الذي يجري وراء نبتة عزّ مطلبها أو يحمل في ساعات اليقظة شوفانة جددها على عتبة القوافي

يتبادلون فيما بينهم أحاديث طرشان
ويتخذ كل ما لا أعلم من لون لجنونه
يمرون بالقرن وطفل ميت بين ذراعيهم

كيف يستطيعون ألا يعلموا
أن الكل عبث ما عدا المجد

أنا الواقف في ريح الشهرة العاصف
أنا الذي تلف جسمه وروحه أنا
من تأكلني ناري فلا أتجدد
وليس لي من عزاء غير اسمي كحصاة
تفر تحت قدمي من الهوة فأمحو باسمي اسم أبي
أنا الذي أحب المجد إلى ما لا نهاية
كل شيء عندي هو ما يضخم وقع نفسي
كل شيء عندي هو رعدي الذي يجلجل في البعيد
هناك في بلد الرعود
حيث يحتكم المستقبل والماضي
أرض أفخم فيها صوتي كي يبقى ضجيجي
وقليلا قليلا أزول فلا يبقى في غير تمثالي
عظماً متحجراً
أصبح حصاناً ناشباً إلى الأبد على قاعدة اشارة من عملاق فوق أرخبيل
أبا هول مدينة ما ولدت بعد
شراعاً عظماً من صدأ يخفق على صاري سفينة
سراً انتزع من زجاج فلسفي
طبلا لا يهدأ في قلب أشن المستنقعات
جملة تسطر أبدا على مورد السماء والأرض

في المورد الذي يرى فيه
أن كل شيء عبث ما خلا المجد

تسألون أي مجد في فمي
مجد الانسان الذي يعدو أسرع أو مجد آلة أحلى نغماً
وتميلون للظن أنها كلمة وقف على قادة الحرب
والحق أولا
لا يصل إليه أكيداً إلا من يسقي البرية بدمه
يغدو وقد اخترمته السيوف إلى مدن الخوف
لكن من يقيم على ذكراك يا ابتسامة الأجلاف
يا غزاة غزاهم النسيان غير حروق وندوب
ويتمزق رداؤكم كما الامبراطوريات
تجهل طويلا كيف تبدّدُ الطائشين

لكني أحسدك يا طارق ومجدك حامل السعادين
فيه تتحدى شبه جزيرة الثمار بحراً حاراً
ومجد بناة الخرائب كعظام على رؤوس
أجسدك يا قاتلاً قطع البحر والجمال
مثلما أحسد من يسلم الروح وقد مزقوه من أجل كلماته
أحسدك أقل من الذي يتخذ له مكاناً بين الأصنام
أو يختلط أمره للأبد مع نجمة
لأن ما يهم المجد لا سبب المجد
هذا الرداء على كتفك تمسه يد شحاذ إذا مررت
المجد الذي يدفعنا للحلم به ويحطم ما يضمه
كقصر أجمل ما يكون عشية حريقه

لا شيء يعدل الجلوس فيه
غير خمر المجد الأسود

بوسعك أن تعب من هذا الشراب على عرش أو على مزبلة
وتمر من هذا الباب بعد أن ظننت أنك أمام جدار أعمى
أنظر إلى السماء على أهبة أن تكون ملكك
وأضحك من الذين يحدون طموحهم ببحار أو جبال
تعلم مني أنه يكفي أن تحبه فيكون لك
هذا المجد الذي يشرع نفسه أمامك على السماء في افتراق فخذيها
حتى ولو كان ذاك في قلب السجن
تحت أقدام الأحياء يدوسونك كعشبة في حقل بازار
أقدام نصرهم الغامض القاسي
وتعض قرفاً ومتعة على سلامياتهم التي من غبار
وهي في خبطها الغافل تدعو
من يولد منها كصباح من قذر الليالي
تدعو تمتمة الطهارة وامراع البذور
وقوس قزح بعدك بعد المطر يا حياتي
تدعو عدالة ما لا أعلم من محكمة عند الفجر
والزهرة الخارجة من الهلاك
وظاهرة المقبل
تدعو بشاعة رغبتي لما يدينها

وشمس الذاكـــرة
تدعو زنابق المجـــد

٣
اللـــــص

يزعمون الآن أني لصّ
فتشت عبثاً عن بداية كل شيء العمياء
لا أجد باب ذاكرتي ولا يوم الحساب
من أي تشابك في الصدفة يولد قدر الانسان
بدر منا هذا أولاً كلعبة
أذكر أمسيات الصيد الماضية في حي البيازين
كيف كنا نعدو حفاة عند عودة الخيل
وراء فرسان عالين يتحدثون فيما بينهم عن أيام الخلافة
والطائر على قبضاتهم ينفض جناحي غضب
لطريدة أخطأها
طائر مخدوع تحت قلنسوة جلد وحلقة ذهب في عنقه
والصيد تدلى على عرق الأكفال في جعب المطهمات الخضراء
والسوط يفرق جمعنا المغمور
وهو يصيح بالبازي ساخراً بشعار الأنصار

لا غالب إلا الله   لا غالب إلا الله

كم مرة كم مرة ونار الفرسان في السهل
والانذار على الأسوار وبراز الفرسان في البعيد
كل طفولتنا انقضت في مخاوف تتبدّد
بين الهزيمة والنصر ومن فوقنا تلك الفلسفة
مهما كان **لا غالب إلا الله**

مرّ زمن كان في غرناطة ملكان
وتمزقنا نحن الأطفال كما في منافسة بين طيور
نقذف الحجارة في النهج
وفيما يليه معركة من نوع آخر
ونار من السماء كما زعموا تسقط على مدن المملكة
من آلات اخترعها العدو يدفعها أمامه

ذهب أحد الملكين وبات الآخر سيداً لنا
ونحن لا نفهم شيئاً مما يجري

لكن الربيع فتح النوافذ على الأزهار
يا عبيراً مسائياً لا نعرف فيه
أن نفرق أحياناً بيننا وياسمين على الجدران
وجاءت سنة بدأ فيها خوف الأحشاء
أذكر يوماً ذهبوا فيه جميعاً إلى الأمير
صائحين بعصي وفؤوس ومطارق
ونداء عظيم بالموت بدلا من
أن يدعوا المسيحيين يدخلون غرناطة وأصنامهم

وكان طراد تحت الأسوار وضجة سيوف جماعية
وفي كل يوم يصل بشر على أقدامهم يحملون أولادهم وثرواتهم
مدينة أخرى سقطت في البعيد والدم
يصعد إلى قلوبنا لأننا لا نعرف أين
نضع هؤلاء الناس وفي النهج سوق
عائلات نائمة وأنا أسير ضاحكاً

أقول لكم كل هذا بدأ أولا كلعبة

ثم لمع السلاح في الشمس قريباً فرأينا الأبراج
ومعسكر زرازير على الحقول الغربية
ما أسخفها كلمة كلمة الحصار
وكان مفاوضون يتدّرعون بالفولاذ
واهتزت المدينة لوجودهم فصاحت
بحب أبي عبدالله أن يطردهم منها
فكانت عرضات[1] بأردية بيضاء تتطاير
وأعاصير غبار في البعيد تنقلب إلى مشاعل
لكن ألم ينشروا الأشجار المزهرة منذ نهاية جمادى الثانية
بقروا بطن الزرع فذرت الريح الحب
لم نفهم أولا تلك الحرب ما دامت
مخازننا ملأى قمحاً وخضرا مجففة وقطعان الخراف في النهج السفلي

قبل الصيف أصبحت الجرايات ضئيلة فأخذ في العشيات التي ما بين قمرين
ولدان عظمنا جرأتهم

(١) Fantasia ترجمناها عرضة .

يعتدون بقوتهم الفتية على سرج
يروون كيف يفاجئون المعسكر المسيحي ويطوقون
الدواب وهي غافية ثم يسوقونها
عن فرار الرعاة وذبح الحارس
يا له طعم اللحم انتزعناه من العدو
فاقتسمناه صباحاً في الساحات
وشيوخ يشرحون أصول الغنيمة وشرعها
كما تناقلوها فم عن فم منذ عهد عمر
الخمس لله جل جلاله
لقد أخذ النبي يوم بدر سيف العاص غنيمته
ولو أنه لم يوضع حد للضريبة قبل الأمير
فهو يأخذ أولا واحداً بالمائة من الباقي ثم حصة الفارس
واثنان بالمائة لحصانه
وأذكر الآية الثانية والأربعين من السورة الثامنة
وخمس الأمير قبل كل شيء

وهكذا ظلت موائد الحمراء عامرة باللحم
ولو أن الذين يعودون والدم في جراحهم
يتعزون بقولهم **لا غالب إلا الله**

أذكر المغربي الذي أردفني على كفل حصانه
وأندفع يمزق الليل إلى معسكر الروم
كنت من الجماعة التي تحرس الخيل لما تتم الضربة في مخازن الرز والتوابل
عند العودة طالبنا عبثاً بحصتنا
مع أن أحد الملثمين بكل أسنانه الافريقية
كان يسمينا بزاته الصغيرة

لعبة بلى درجنا عليها كلعبة

آه كم انتظرت الليل خافق القلب انتظرت
الطراد عبر الحقول السوداء ، والكمين والحيلة
ورائحة القطيع الخائف وقد همت يدنا
بكل ما يؤكل ويشرب تلك غنيمة الحرب المقدسة
وخمر المسيحي ليس ذنباً إذا كان ثمنه حياة كافر
ثم جاء زمن أعطوني فيه حصاناً

وازرقت الرابعة عشر على شفتي ورنوت طويلا
إلى من أرى من نساء عند العشي حد النوافير
انها لعبة أقول لكم كثيرون قبل أن يستمتعوا بها
سقطوا حمر النفوس في الحفرة

في الأحياء المكتظة التي تند عنها رائحة وحش لأيا لأيا
أقام الجوع وأطفاله منتفخ البطن
الأمهات كن ينادينا إذا سمعن فجرا عند بابهن حافرا
وضجة سلاح عائد ماذا حملتم ماذا حملتم لنا بزاتنا الصغار
ما كان يجدي بهن أن نردد شريعة النبي
لا الخمس ولا سيف العاص ولا السنة
ما كانت تريد تلك النساء أن يفهمننا
وجاء غرناطة في الخريف فارون من نوع آخر
يجيئون آلافاً على نور المحارق
انهم يهود قرطبة يسيرون إلى الباب
إلى ملجأ محمّد
يا لها أفواه زائدة يسكنها كما زعموا الطاعون
وما كان بوسعنا أن ندعهم جميعاً للموت

وجاء الشتاء فتناقص قليلا قليلاً قليلاً عدد النبلاء في عصبتنا
إذا اجتمعت ليلا في السلاح على شاطىء الشنيل
بعض أخذه الكفار وبعض قتل على سرج وآخرون
أجهدهم ولا شك طول هذه الرياضة الليلية
أما نحن الذين ما وجدنا عظمة في غير هذه اللعبة ولا خمراً
بل ولا حماساً يغير هذه اللعبة
فقد بتنا لا ننتظر الظلمة بين قمرين
صار طرادنا سناناً أبيض عبر الضباب القاتل
فدوت رابعة نهار نصف الليل بصياحنا
لا غالب إلا الله   لا غالب إلا الله
كان هذا ما يعنينا فحسب وماذا لو جرّدونا إذا عدنا من الغنيمة ونحن نرتجف كبزاة

لكنما كان النهار أحياناً طويلا ونحن ننتظر الليل
هنا وهناك كان يموت أطفال ونساء
ما أبشع رؤية الجوع
وأحسب ما يذهب للقصر من غنيمة وخمس

وحصة النبي من الأربعة الأخماس وقد قسمت على مائة
وقامت مناقشات لا تنتهي حول ما إذا كان عدلا
تقسيم الغذاء على غرار الأرض والجمال
وأن تتمشى الأندلس على عادات خراسان والحجاز
وجأر الشيوخ بالشكوى من زندقتنا
لأنك لا تستطيع في غير سنة البلدان الأولى
أن تنهل من ماء الشريعة القراح
ولا يفرق بين السارق وجندالله
غير حديث النبي
وما من رامة وحل تحت الشمس إلا وتوجب عليها العشر الذهبي
ولا حفنة فاصوليا ولا جراية لوز
المرأة التي بين ذراعيك ألست مسؤ ولا عنها أمام الله
وعلى م تبني حساب ما يخصك إذا لم تقيّم
الفرق بين الغني والفقير وإذا
لم تعرف اسم مقاييس السلف

كنا نصغي طويلا لمن يتحدثون في العلم
لأن كلامهم كجوز قطفوه من أعلى شجرة
ثم تفاجئك الشهوة بالضحك والعدو والقتال
وتمسك بك عن محاضرة حول جباية الضريبة عن آبار النواعير
عندما يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة فيتبارون فقهاً
حول معرفة أي مفصل في القدم يحدد به عقاب المذنب
وينسجمون في تعداد جزاء من يؤخذ بجرم الزنا
لأن حكمة القصاص يطيب لها أن تصف اليد المثقوبة
والكاوي الذي يدخن منه الجسد وجزاء العين في محجرها

لكن هذا كله هذا لم يكن من قواعد اللعبة
آه أعدُ ولا تصغ أعدُ أعد حتى ينبهر منك النفس

لكن لما فقد البصل والعسل
ووجدنا في الصباحات مهارى ميتة عمرها عام
انتزع منها القلب
من كان بوسعه أن يصغي لتلك المحاضرات بأذن مسلمة
من عاش مرارة هذه الأشياء من كان خبزه تمتمة
لا غالب إلا الله

وإذا بهم يزعمون أني سارق
لأنهم لم يستطيعوا أن يمسكوا بعصابة الجلد على عيني
لأنهم لم يستطيعوا ضبط الطريدة وفي عنقي حلقة
لأنني لم أبق على قبضة البياز
لأني ضربت الهواء ضرباً خفيفاً بجناحي
لأني انقضضت في الليل لا آبه لدورة القمر
لأني أعطيت ما لله دون حساب لأبناء أمي
يقولون أني سارق

كل هذا لم يكن في البدء سوى لعبة أما إذا قطعتم يدي اليمنى
من يمسك بعنان الحصان
من يجري كي يدفع عنكم عند الأسوار إذا جزرتم كعبي
أنا لست سوى طفل ولن يكون نصركم عظيماً أو في سبيل الله
إذا غلبتم طفلا ما زال يلعب

لماذا قبضتم علي لماذا وضعتموني في هذه الحفرة
كنت أطعم الجائعين أبدد من أجلكم قوتي
قوتي الفتية المجهولة وقد شدهتني أنا نفسي
كانبجاس ينبوع من جبل
ما كنت أدرك خطر الموت
إلا أنه لعبة أخرى مع أن الأمر يتعلق بحياتي
في اللعب قبضتم علي ضربتموني وأنا على الأرض أهنتم فيّ الرجل الوليد
وهأنذا بين المجرمين وهم يصيحون جميعاً ببراءتهم
قبضتم علي كطير براحات أيديكم العنيفة
وأنزلتم عصابة الجلد والصمت
تقولون أني بلغت السن الذي أسأل فيه عن جسدي أمام الله
عمر القصاص وحديده في قدمي والليل في عيني
أخذتموني قبل بدء حياتي عند بزوغ فجر نفسي
قبل أن تلتفت شهوة شفتي إلى حلو البنات
كل خفقة من قلبي بين أصابعكم كل جهشة من عذابي تواجه
ذراعكم المتوحشة
لا أسمع إلا صخب الغضب وقد حل أصفاده
تزعمون أني اقتربت من الخامسة عشر وانه عمر الحقد
وانكار نفسي ما دام عمر البؤس

ما كانت ذراعاي اذن إلا للصليب
وحلاوة يدي إلا للمسامير
ومن قلبي تصعد **لا غالب إلا الله**
الذي لم يمنحني من أجل السقوط أمام
الجلاد غير هاتين الركبتين الساذجتين
ويقولون الآن أني سارق

٤

البشـــع

تسألون عن خطأي يا رفاق
ان كنت قتلت أو سرقت أو خنتُ عشيرتي
وما أفعل في أعماق زنزانات غرناطة
تشتبهون بي لأني بلا سلسلة ولا غل
منذ متى أنا هنا وحتى م أبقى هنا

ألم تقرأن السورة الثانية عشرة
لما ظهر يوسف عليكن يا نساء
عبدتنه قبل أن يتكلم
وتدحرجت البرتقالة من جلابيبكن على أقدامكن
دمت ايديكن تحت السكين دون ألم

نستطيع أن نروي فلا ننتهي من هذه القصص
هنا يكمن كل شيء في الحكاية من مصر إلى الدم
والزينة والذراع والنهود الناهدة
والأصبغة العميقة الثقيلة والعطور القوية
وهيئة هذا اليهودي البريء المستقة

أكنت قادراً على أن أعيش دون أن تلتفت
الكائنات كما تلتفت إلى الشمس شجرة نادرة
بجذوعها إليّ تحت تأثير الطبيعة
التي تجعل إلى لحظة الانسان عندها شبيهاً بالله
في نشوة عيونها العظيمة

لو أني أستطيع انتزاع لحمي مني
شعري ورائحتي وحركاتي المعروفة
فأكون من الذين يعشقون لأول نظرة
إذا فتح الباب وجاءوا
لا يعجب أحد لحظة أنهم عراة

اني لأعرف أكثر مما ينبغي دواري وهوتي
آه لو كنت مسخاً كنت على الأقل
أعرف أني بشع فأحس وأتألم
مثلما يكون آخرون جميلين أغبياء ومغرين
بشع تلك البشاعة البشعة بشعاً في بشاعة

أردت كثيراً أن أحطم هذا العلج
الذي يلحقني ظلّه عمداً وراء قدمي
وهذا الكتف الضعيف وذلك الفم
مثل أثر ملّ على زجاج الليل
صعب أن أحتمل ما أنا

لا شيء سوى ذلك مما أعرف حدّه
هذا القرف الطويل المتجدّد
كماء يشبه الصباح ويقلّده
خان يقعد فيه الماضي
قدماه متعبتان من خطوهما الذي امحى

خجلي مني على مدى عمري
كان يكبر كل مرة أراني
من يستطيع انتزاع وجهي من روحي
وقد وقف بيني وبين العالم كذئب ملعون
مثل كاريكاتور لأقوالي

كل شيء يذكرني حطة الوجود
وهذا النفس الذي يكمد له العرق على الجلد
أنا بشع كغسيل على النافذة
كدعس قطيع في مكانه
كرعب ضفدع عارم

جريمتي أنني بشع جريمتي هي شبهي
مذنب أمام نفسي بهذا الجسد بلا جمال
تطاردني المرايا أخاف اهانتها
ترعبني أحياناً نظرة الآخرين
أعيش منذ الأبد كشيء مرمي

جريمتي أنني بشع حياتي كفارة
المقصلة كانت تكون عفواً عني
أسوأ ما في قدري وجودي
أسوأ من عذاب المجرمين في نار الآخرة
أي عذاب يليق بجريمة الميلاد

لم يصدقوا قولي عبثاً جهدت
في أن أكشف عن روحي السوداء كبومة
قادوني من دائرة لدائرة في الجحيم
أبرزوا قدمي الشوهاء وأذني أذن الذئب
فتحوا يدي يدي خانق لو أنهم سمروهما

رعبي مني ناب تنهشني
أصغى حاسداً في عمق السجن
إلى صوت الحديد في أقدام المحكومين بالاعدام
هيه لم تنفعني كل اعترافاتي
تركتموني حياً يا قضاة بلا رحمة

٥

آخـــر القـــادمين

أصغي إليك قال صوت ذاك الرجل الذي غطّاه الذباب
وعلى زاوية فمه التراجيّ جرح رهيب
رموه دون أن يغسلوه في رائحة دمه
لا يعرفون عنه غير أنه لم يَرُقْ للأقوياء
يتكلم ثم يتوقف أحياناً على عتبة ذاكرته
أصغي إليك قال الصوت في أحلك ظلمة سوداء

ربمّا ما كان لك الحق بأن تكون بشعاً أو تنبغ

لكني لست لصاً لست قاتلاً

مع هذا أنت هنا ولا بد من سبب
كنا من قبلك في السجن أكداساً
ان لموك فضربوك فما هذا بلا سبب
انه تزوير عملة أو انه حدث أمر آخر

لم أفعل شيئاً ضد شرائعهم لم أنظر لنسائهم
عشت على الذماء من عملي كنت أقول للعابر **سلاماً**
كنت ما دام النهار أطوي قصب السلال
لقد اكتفى أبي وأبوه من قبل بصنعة القفاف
لم أحلم بأن أتبدل ولا هما حلما
حياتي كانت بين أصابعي يخفف عبئها الغناء
ما كنت أطلب شيئاً طلعت الشمس أم نزل المطر
فعشب الأطفال ينمو في غبار الشارع

آه قال الفيلسوف و ربما كان سواه ظننته هو
ترددون نفس الأغنية الفضيلة فيمن لا يملك إلا قليلا
لكن جسدك يمكن أن تنتابه الغنغرينة مهما أوغلت في الفقر
فكيف لا تتقرح نفس من لا يملك شيئاً

أنا لا أفهمك أليست الحياة العمل ولا شيء غيره
لا تستطيع أن تنام دوماً فيما يشحذ آخرون على هواهم
ان جهدي وزمني لا أجني منهما غير الخبز والثوم
من هو اذن الذي ينكل بعهده أرجوك من اللص
كان علي أن أقضي وأهلي جوعاً فلا أقول شيئاً
لكنما هي ذي الضجة قائمة في كل مكان لتسليم غرناطة للرومي
وانه لأفضل أن انتزع قلبي بيدي من صدري
وليفعل بي ذاك الملك ما ليس مشروعاً إذا شاء
افقأوا عيني حطموا عظامي أحرقوا لحم وجهي
بيعوا أبنائي في السوق أتخلى عما أحب
أشرب البول إذا وجب علي ارموا جنسي إلى القطط المتوحشة
أرفض الحياة وجنة محمد
أشفقوا على غرناطة فحسب أشفقوا على الأبراج القرمزية
أشفقوا على الحقول وعلى سواقي الكرمة على التلة

إذا خان السادة فالشعب يسهر على الأسوار
تسلح بالغضب وعصي ومدى
كل النساء معه يزغردن
وتلك المرارة المفاجئة كمد عارم
يهيل بين البيوت عنب الرؤوس المتوحشة
كنا على استعداد للموت كي نطرد ظل الصليب
كي ندفعهم نرصهم نرميهم حتى قصرهم قصر الينابيع
حتى عتبة المرمر والظل حيث بني ما بني للأقدام العارية
حيث تفر الغزلان أمام جمعنا الحائر
عندها جـاء الجنــود

الشطـرنــج

١

ذو الحجة ذو الحجة شهر الذهب وقد جعلت فيه أواخر التين في عام ثمانمائة
وست وتسعين بساطاً كانصباب دموي

لم يرد فيه شيء من البرية لا حب ولا زيتون لا حصاد تلك السنة
وخوف من الشتاء أمام من يتبع ظله في أصيل نستشف منه الليل
وغيث من أنبياء أنبياء أكثر عدداً مما يسقط من أوراق على الساحات
لا يكفي كل جنود الأمير تكنيسها
وهناك تقوم أبراج سانتا في

تحمل على مئزرها صليباً من شارعين يفتح كل فرع منهما على طرفه باباً للرياح
الأربع تنفذ منه كما ينفذ نفس الله

وفي مركز الأربعة الفروع أقيم حقل مارس يتسع لخفقان قلب الجيش كله
وكانت تتزاحم الجمال والبغال قدام غرناطة الجائعة

فتحمـل لقيادة المسيح العامـة الفـواكه واللحـوم النسيج والسـلاح الخمـر
والطحين المقاتلين والتجار والرهبان

وعلى الأسوار ترى مواكب الصلوات والأناشيد وكأنها باقات رماح في النور
وفي كل يوم تؤخذ قطع جديدة من رقعة الشطرنج ويحكم
الحصار حول المدينة من أجل ضربة قاضية ماهرة
وتقترب منها كل يوم ما يسميه صاحب السيادة
جان مولينه في كلامه ابراجه المتحركة

وهو يعني آلات التغطية التي يحتمي بها الجندي المسيحي في قفزه نحو الأسوار

من خانة إلى خانة وعينه توجعه وجعاً شديداً ولو أنها معصوبة منذ شهور ثلاثة

وغنّى رسول مكسيميليان فقرّظ المشهد بأبيات من عشر تفعيلات

لأنما يبدو أن موسيقيّ الكلمات الشماليين يعدون المقاطع على أصابعهم
فلكل منها نوتة على الناي أما الأخيرة ففيها صيحة
القافية وكأنها أنف ينتصب أما اسمهم فالبلاغيون تهذيبا

مَنْ ملكٌ أيُّ دوقٍ فرنسياً كان أم يونانياً أو لاتينياً(١)
خاض الهيتان ضد ماران افريقيا
غير ملك اسبانيا والأفان
وهم أفضل من السارازان(٢)
يحتكون بجيرانهم بالحرب والتجارة
لمصلحة الدين الكاثوليكي العامة
لا أحد منهم يهتم بالتثاؤب حين النجدة
كل يسمعها بنفسه

هذا الكلام للفرنجي الغريب الذي يدعو عرب الأندلس ماران
ويسمي المعارك هيتان وذوي القربى الأفان وكفى
فنجد الفهم عسيرا

٢

أبو عبدالله يتحدث إلى العلية في قصره على الهضبة

من لم يعرف الأسر
كيف يدرك تحولات روحي
أنتم تأخذون علي أني رميت
بتاجي إلى فرديناند بدرهم
لعلي أعري ملككم
فأغطيكم برداء الله كأوراق شجر
دون أن أرى أن الطيور لم تدع
من وجهه وقفاه غير ما يكفي لقفص

---

(١) المقطع مكتوب في الأصل بفرنسية كلاسيكية .
(٢) العـــرب .

كفوا عن صممي بسماء محمد
جنتي أنت يا مملكة الزنبق
وحقول زمرد وفضة عشقت
من يعدلك يا نوري ونحيبي
حتماً ليست الجنة التي أحتقر
وذلك السكر الأبدي والعذراوات الكاملات
ألم أكن هنا سيد الجنان
ما كان شيء كلذاتي وأعيادي
لا شيء انتظر غير التراب والنار
إذا تجاوزت العتبة والحد
كيف يريدون مني أن أنكرك
فمي يرفض ومثله لساني
أنا عاشق هذه المدينة وهي بين ذراعي
تريدون انتزاعي حياً من حبيبتي
ارتجفوا إذا رأيتموني بلا عذار ولا دثار
وحانت ساعة جسدها وشقائنا
اللعنة على الكلمة ومن وفى بها
مجنون من كانت كلمة قالها جدارا عنده
ما يهم أني كذبت في غرناطة على الملكين المسيحيين
الحنث الحقيقي ألا أحنث
ليس شراً عظيماً أن تخون إذا وعدت
وانما أن تبقى وفياً لما به كذبت
افتحوا لي القرآن فتشوا لي عن السورة
التي تأمر بآلام هذه الشهادة
أنظروا إلي واقفاً بين الشرفات
وأصيل الاسلام على وجهي
انه آخر بلد تركه الله بين
أيدينا السلطة السالفة تتآكل فيه وتمحي
أتريدون أن أعيش في دمي المراق
ناكراً قلبي خائناً شعبي البائس
أتريدون أن أموت وقد بعت روحي

وتعثر ظلي في باحة الغالبين
ما فات الزمن الذي نظهر فيه ما نسوى
هل وجب أن نؤمن بالنجاح فنصيح بالنصر
ما فات الزمن فنمسك بالخيل
ونرفع أعلامنا ضد التاريخ

٣

عندها ندّت عن الشيوخ ضجة جراد في بساتين بعيدة
حتى لتسمع صيحة روحهم تحت أثوابهم أو تحت نطق الجلد
لقد حسبوا الأمر كله لتكون مسؤولية الخطأ كله على الملك الصغير
كانت القيثارات تستعد وتصفر الحناجر والأصداء
لا أظن أنكم تزعجون بالوساوس الفارغة الأسطورة
باتت رواية كل شيء جاهزة حتى التفاصيل كما يفهمها الشعراء
وعلى جبل « بدول » وُجِدَ مكان الراحة والآهة(١)
ومن يستطيع الاعتماد على أبي عبدالله فهو حسب أهوائه
يقول اليوم شيئاً وآخر غداً ومن يعتقد أن الأمير يجزيه على حماسه يطيع الأمير سريعاً فما يفتأ يسمعه يروي له غزلا آخر
ما رأيكم لو تركناه يقذف بنفسه على الرماح القشتالية
انه لجميل نادر أن ترى ملكاً وهو يقاتل
ان السلام ينزل على ملك ميت كشعاع عبر زجاج ذي ألوان
والغالب يتكلم بلهجة أخرى بعد الجنازة

غير أن أبا عبدالله أتى إليه بالموسيقيين
وهنا ينتهي في هذا المساء مجلس الشيوخ الذي دعا

٤

عجيبة الموسيقى انها ليست سوى حركة
كأنها ماء تنظر إليه كل ما فيه غامض النأمة
روح تلاعبت بها الريح فتناثرت الغيوم
كل ما فيها يظل نهدة حلم ثم سراب آخر

(١) Padul : اسم لمدينة وجبل ، يروى أن أبا عبدالله توقف فيها عند خروجه من غرناطة .

الجملة من كلمات أخر وما تفتأ أن تتبدل التمتمة
أن تزهر أو تذبل فما تلبث أن تختفي
تفر كالزمان كزمان لا يعود
يهدهد يغري يلد يموت هو سهم وهو هدف
الليل والنهار معاً اللماذا تجلت عن كيف
عجيبة الموسيقى أنها ليست سوى حركة
عبّ من لذة الملك عبّ من لذة اللا ألم
أنت يا من تعرف أن قليلا يكفيك كي تصمت
أنت يا من تدري أن العبير سعادة سرقت
أن الأمنية تمزق أن كل سماء باب بلا مفتاح
أن النغم صدقة تمنح لمغرفة الأذن
يا مرآة سيان أن تنام فيها الروح أو تستيقظ
يا دما نبضه عقل وجنون
يا زمناً رملاً مقلوباً لا يقيس غير النسيان
أصغ إلى وتر يصدح والريح تتكلم بغير كلمات
إلى لغة الطيور تطير لها الطيور
جوقة كحقل قمح تحنيه كتف السنابل
أيَدُ الانسان تبدع هذا الصوت الذهبي أم الله ينتشي ثم يغفو
أنت يا من تعرف أن الحب ألم وأن الموت عنف
عبّ من لذة الملك عبّ من لذة اللا ألم

٥

من تخشى أكثر أيها الملك الأمراء أم الشعب
وأمامك نهاية غرناطة وليس لك غير أن تختارها
أخافوك ممن غنّى ومن رقص أخافوك من الفلاسفة واليهود ومن ظلك
حركوا أمامك قدرك كقماش أحمر أمام ثور
فظللت موزع القلب بين المياه الحية

يا من عشت بعد موتك دون أن تخشاه وما يكون نهر الزنجبيل إذا منحته في الفردوس

فذقت رحيقه وعطر زنجبيله
لو قيس بينابيع حياتك

عليك أن تحزم في بطانتك
فتقرر أمرك وفي ذاكرتك مَثَلٌ من افريقيا

إذا قضي عليك بفتات المائدة
ارم إلى البحر بروحك وملكك

انهم يلحفون عليك من كل ناحية
فلا تستطيع أن تنسل من تهديد الصلاة
وغرناطة تزجر فما تنزل إليها أبدا على حصانك
كي لا ترى عيون الشقاء
وفي قاعة السفراء تحت سقف الصنوبر والأرز في الحمراء
في قلب الهندسة الزرقاء الحمراء الخضراء الذهبية

اجتمع شيوخ الثغور وفقهاء غرناطة والقضاة وأهل الرباط مع الأمير وقد جلست حدّه أمه ملثمة بين العلماء والوزراء

كيما يقرروا هذه المرة حياة أو موت
آخر خطوة في القضية
يا محمد أيها الملك انهم أشعة مملكتك
أصغ إليهم يردون على أقوالك بكلمة واحدة
التسليم يبدو انهم نسوا كلام الاسلام وحنثوا بأنفسهم
فلا أذن لهم إلا لهذا
الوزير العجوز الذي طردت أبي القاسم
عبد الملك وقد أعطوه فرصة الخطاب كأنه
صوتهم أفواههم
خفقان جفونهم
وأنت لا تصغي له فما أنت غير حلم مما وراء بحر فرسان مصر
سودان سود أو من يدري
قد تنتظر ملك المغرب لأنك تفهم اليوم
كيف أتى امراء قبلك بقوة بربرية
كأنك تربح الوقت حتى
وصول خيالة الصحراء
كأنك تربح الوقت في عدوه لعل
ريح السموم تصل إلى أرض الأندلس
فتكنس رقعة الشطرنج في لفحة من أنفاسها

لكنهم جميعاً
يقولون لك أن عليك أن تستسلم كما أقسمت
كما أعطيت عهداً بتسليم غرناطة للروم
يدعونك إلى ما لست
يكرهونك على نفسك أمام العدو

أين ينزلون الآن لا مكان ولا مرفأ
يفتح نفسه لجسد افريقيا
من قادش إلى بلنسية لا مرسية ولا ملقة ولا
المرية المدن الثلاث
أين ينزلون من البحر السوري إلى البحر الغربي
والماكر العجوز يريدون أن يذهب إلى سانتافي
لا يقسمون إلا به وقد ثاروا كريح في رمال
لا يؤثر فيهم قول الملكة الأم
موسى يقترح عبثاً خيله ورجله
يذكر بشرعة الجهاد موسى يستشهد
بكتاب الحماسة والشجعان
بكتاب النائمين يستشهد بابن حديد والحماسة
لكنما فسد الخطاب فقدت الكلمات معانيها
يريدون أن يذهب الماكر العجوز إلى سانتافي

أن تربح الوقت كأرنب على دروب ضيقة
أن تربح الوقت كزانية في حليها
أن تربح الوقت غشاً على غشاشين
أما إذا شاء المحتسب أن يحمر التراب مرة أخرى من الدم
فاذكر أنه قيل أن أسداً يقود ألف ثعلب
خير من ثعلب على رأس ألف أسد
لقد حضّ الله على الشجاعة وبارك في الحيلة

أن نسلّح الشعب قال موسى انها عنده
الاكسير لا يفكر إلا بمنح الشعب السيوف
وأول ما يهدد ذلك رأسي
أن نسلّح الشعب ثم نرى
أن نربح الوقت حتى الشتاء
وابتسم أبو عبدالله كما في لعبة الشطرنج

عندما تتردد يده عن القلعة ثم فجأة
يحمل إلى قدم الشاه بغتة فِيَلهُ

لماذا ننتقي التفاحة بدل البرتقالة

ابتسم أبو عبدالله و وافق على ارسال
أبي القاسم عبد الملك ناطقاً باسمه
إلى سانتافي محملا بالهدايا والمدائح
وأن يرافقه الحاجب والقاضي
لأن خائناً وحده لا يكفي لتسليم الاسلام

ويبدأ عام ٨٩٧ للهجرة

١

محـــــرّم

قالوا من هو الذي يدعى بالمجنون
كان ذاك يوم ريح عاصفة كأنه محكوم بالاعدام
تجر الطبيعة فيه أغلالها
سمعوا قعقعة سلاح وخطا
انكشارية
وفاح في الحفر نتن البشر
وطارت شتائم في الليل حين توقد
مشعل

زأرت البهائم المتوحشة في أقفاصها حقداً على الجلادين الأحرار في غدوهم ورواحهم

حتى إذا جروا تلك البومة إلى النور الخارجي
أحس في داخله صمتاً صاخباً ظنّ أنه سوف يقضي به
لما اكتشف أنه جللته القذارة والجراح
حتى إذا مر بيده على وجهه ارتعش
قال لا ليس اسمي قيساً العامري
فما أنا في عمره ولا من دمه ولا لي فنّه
ولا الجمال
وحوله عمالقة من جلد وعضل
أجلاف كما يحب الملوك أن يكون حرسهم
سخف من ملك هوى
قال أحدهم أيها العجوز يبدو أنك تعرف أغاني

تتحدث عن فارس وحداة العبس على الدروب
غنّينا لأننا نمل حتى الموت في موقع محاصر

أما هو فكان لا يفهم ما يريدون منه

وفي البعيد كان يسمع صوت وادي حدرة وقد نفخته أمطار الخريف
كانت السماء على زرقة ليس مثلها إلا بياض الصوف
وتأوّه أحدهم في بيت مجاور
ورأى فجأة السجين العالم الذي يعيش فيه البشر
كعربة محطّمة

قالوا له غنّ لأننا أجهدنا القتال
وشرب النار المحرمة والقتل عن فراغ كما ترمي حجراً على رامة
تعبنا من كل شيء الشتيمة نفسها لا تستطيع أن تجلو حنجرتي الآن
دم اليهودي لا تسرّ له عيناي
لا ألتذ بالتعذيب
قالوا له غنّنا حتى تنهمل دموع رأسنا
يريحنا أن نبكي إذا كانت الموسيقى جميلة وتحدثت عن الأبطال
غنّ يا مجنون للذين باتوا لا يعدون الموتى
نشيداً جميلاً عن الاسلام نتعرف فيه إلى خيلنا والمجد
وشعور النساء السود وقد حلت على أقدامنا
غنّ يا مجنون حتى نحس بالشهامة
غنّ أو أرفع سوطي عليك حتى الموت غنّ

النشيد لا يأتلف مع الكذب
قال النشيد ليس أمراً
قالوا غنّ نقول لك غنّ
وضربوه حتى غنّى

أخجل أن أقول شيئاً عن هذا النشيد الذي انتزعوه منه
هذا النشيد الذي ليس فيه شيء من الانسانية

لأن الحياة تبدو فيه حلوة
والانسان كريم كريم
السلاطين يعدلون
بين الغني والفقير سواسية
والأيام تلبس تيجاناً
لا أقول شيئاً لأنني أخجل
لكل ما غنّى من أكاذيب
من أجل الألف أمل وأمل
من أجل قلبي الذي رموه بين المسامير
والسماء التي نزلت إلى الأرض
ومعجزات المجدفين
آه الكلمات يا للكلمات
تتصيد كشبكة
لو أن العالم يندرج كذلك
فلا نراه كما هو
نصنعه على صورتنا
اللا شيء أجمل من المرايا
غنّ قال الجلادون غنّ
فغنّى ليلاً ونهاراً
وهم يصغون يهزون برؤوسهم
وتتلبسهم هيئة الرعاع على لفظة الحب

لو تعلمون من أين أتجلى
والظل الذي يتبعني أيان كنت
لو تعلمون ما ينهشني
لو تعلمون ما يسرني
وهذا الخل وتلك الاسفنجة
أيها المساكين أيها الجلادون المساكين
آه أغلقوا أغلقوا فمي
قبل أن تعرفوا عني ما لا ينبغي

أما هم فما كانوا يسمعون غير القوافي

فيقولون غننا غن أيضاً
كان ذاك شهر محرم
ومن الباب يُرى
على عالم مأساته الأسود
مطر مطر مطر مطر

٢
الحمّـــــام

قال المحتسب موسى ايتوني بذاك المغني الذي سمعت عنه الأقاويل
في قاعة المرمر الأبيض كان يدمى من كوي السقف نهار قرمزي
ايتوني به قال موسى وهو يدور بجثته العظيمة بين يدي العبيد المدلّكين
وفي البخار الخانق يبرد الماء على جلده كفتاة استولى عليها الخوف
ويمس الهواء المخنق الثقيل حيث شاحذ السكين يحلق الجماجم كبيض
لكن هذا الشعب وقد تعرى واختلط أجساداً وأعماراً ماذا نسي على البلاط
ان أحداً لا يحتفظ هنا باسمه ولا ثروته أو فقره منذ ما يخلع ثيابه

انك تشم هنا رائحة الانسان الملكية وقد اغتسل طويلاً وأصبح قادراً على الحب أو الصلاة

انك تشم ياسمين الدم والشنان الذي يدلك به المستحمون أكتافهم بلا هوادة

بينهم الثور والسلوقي والسنور كثّ الشعر أو منتوفه ، أسوده أو أشهبه من في أوج القوة ومن بارحها

كلهم بلا عمل يلتفتون ناحية الحوض وقد برزت منه جميلة وثنية من حجر

فينوس أناديومينا قديمة جاء بها القرصان من صقلية

ترى ما يدفع هذه الكائنات الكاسرة الشهوانية إلى الرغبة في كمال المرأة

غير أن كل جسد امرأة إذا قورن بها أحس أنه أهين من أعماقه
والجسد الخافق أقل جمالا من الكائن المصنوع النقي الأبيض
يا جسداً ينتابه العرق أنت ضبابة ونور
وضرب الجار اللطيف جاره بالأغصان

ذهبوا يأتون بالمجنون العجوز فلّوا قمله وجردوه من ردائه

رداء السجين كي يكون بين الآخرين رجلا عارياً مثله مثلهم
حتى لقد ظنّ أنه حر ورفض الغناء لأنه ليس مهرج خمارة ولا غجرياً
واستبد بالمحتسب غضب اضطروا معه في حرارة المكان
أن يأخذوا من ظهره المعقد دماً كثيفاً كهلام الكشمش
قال له وقّاد أتون غنّ كي تهدّئه فلا أتهم بخنقه
وغنّى فكان قصيده كالتمثال في قلب المياه جماله لا يطاق
جمال وثني يخرج من فمه البالي لهيباً مجنوناً ثائراً
على صورة الحب وليبق له من ذلك اليوم فمه وقد احترق باسمك
اسمك المجنح ما يكاد يجرأ فيجأر باسمك السا حتى يلم بشفته المالحة
اسمك رداء بهي سرقه فأمسك به شحاذ بذراعي بؤسه
اسمك سمور أبيض عبر نار كقبلة لفحتها الرمال
اسمك على كتفي طير خُرافي قفزة روح فوق مقبرة الموتى الأحياء
اسمك الخفيف أشد شقرة من الهواء اسمك جرح وقمح يمرع على لساني
أصيح به في نقي الريح بكلمتي أحبك أكتبه على بخار الزجاج الأزرق الشاحب
حلم يقظة خوف مبهور النفس لاعج سر ما أفتأ به أبوح
قلق يا جميلتي اسمك يسكنني كنحلة في جمجمتي يلسعني
اسمك يأخذني من يدي ينتزعني من سبيلي يقودني إلى الجبل
الا فانظري العالم تحت قدمينا طفل وديع يرسم على تحديه اياي بوديانه

بمنعرجاته ومنحنياته حروف اسمك عَقَدَهَا في كل مكان في كل أمكنة الجغرافيا
فلا خطوة نخطو إلا في التغني بك أو في مدائحك
ولا لغة إلا منك يا نبعي ولا هينمة عصفور إلا ترتيل لك
لا عبير إلا إذا أقبلت يا كمال المرأة يا موسيقى الكائن العجيبة
أتسكع في العالم ومعي جمر اسمك كذكرى قبلة
ما كنت عندك حتى أذنت فبت ظل ظلك في نَقَلِهِ
وتمتمة اسمك تظل في أعمق ذاتي حتى أموت فيه

وسقط فجأة على الأرض كشمس من نافذة
دفعه الحرس بأقدامهم وما يفعلون به الآن

وتردد موسى لحظة في لجّة البخار

أطلقـــوه

قـــال

ولينشد في رحب الطبيعة

٣

ردت المدينة فرأيت فجأة تبدل الأشياء
من أين لي أن أدرك ما يتمخض به الناس
أمة تبدو في زوال الوهم كمائدة تركوها بعد عيد
وامحت البسمة من الوجه فما عليه غير تعب وغبار
أشفق أكثر من شفقتي على الشيوخ والنساء في هول دمار جماهن
على الأطفال أبناء البارحة وقد وسموا بلا رحمة في ربيعهم
ما الذي انسل منكم فحلتم إلى لون المرارة
أم أنا الذي بت لا أعرف كيف أرى إلا بعين شوهها الزمن
أأنا الذي طارت منه ذات صباح جميل الموسيقى الداخلية
عندما التقي بالفرح أتساءل كيف صار اهانة وشفته ساخرة
كيف بات الشباب شاحباً يفر كماء دنس
وفرقعة الزجاج والصوت تودّ أن تعوض عن هذا فتدخلني
أتـــوجـــع
يوجعني رخاء ضاع وكتف انهدت
وجفاف الوجنة وهذا اللون الذابل وتلك الندوب المبكرة
آثار الحياة قبل أن يعيشوها وهذا الزهد في النظرة
وأبشع منه أيضاً انطواء مبكر نستشفه في الروح
ربما من أجل هذا حرم رسم المرأة والرجل
إلا في اشارة داعرة تدل على بيت الزانيات
أتوجع حيث يدمى الفجر على بدء ذاتي في الآخرين
خبأت وجهي عنكم عبثاً بيدي رغماً عني تنفرج أصابعي
أشهد صيرورتكم ولا قدرة لي على ألا أرى ما أرى

أهو عقابي على جريمتي أني حلمت أبعد من قبري
على جريمة أني طوال حياتي حملت فيّ الوهم الخفي

٤

يا مجنـــــون

تجرّ قدميك النهار كلّه في ربض الفخارين أو ربض باعة الماء

فتصعد مساء من جسر إلى جسر وادي حدرة إلى قنطرة ابن رشيق الجسر الوحيد الـذي تصل منه للبيازين

والطواحين تدور على حافة النهر والأسواق تحني الجسور والشرطة تنظف حوافي الجوامع من المائتين فلا تتلوث أمكنة العبادة

والماء يجري من كل مكان تحت البلاط كأسرار بحنا بها

يا مجنـــــون

لماذا تأخرت في صعود منحنى البساتين إلى حي البزاة ألا تحس بتعب أعضائك و بالغبار في عينيك

حتى تتعرف عليك في حركة لا يقدر مداها إلا من عاش في زمن الجوع

امرأة شوهاء بالولادة تحفظ عن ظهر قلب كلمات شفتك
وتتلوها مع أنك ظننت أنك نسيتها أبداً
يا مجنـــــون

إليك تنتسب تلك الكلمات المقفاة أم لآخر بعيد بعيد من زمن آخر

حبي المظلم برتقال مر
أغنيتي سد وريح
حارتي ظل يجيء إليه
ويموت البحر

أليست لك هذه الأبيات التي يغنون وترددها هذه المرأة .
ثم تقدم لك

شيئاً غنياً انتزعته من لحم أولادها شيئاً أشقر لامعاً يتقشر لم تر منذ شهور لونه لون البصل

يا مجنــون

ملت عنها أنت الذي لم تذق طعاماً في يومك ولا تعرف متى تذوق قائلا

يجب ألا آكل من هذا لأن الملاك قد يأتي

يا مجنــون

هكذا قال النبي وهو ينتظر اسرافيل أو جبريل حامل الوحي أو لا ترى أن ما يمر في عمق عينيك نور انتظرت طرف نجمة

ألست من الذين تعنيهم سورة النجم إذ قال
ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملئكة تسمية الأنثى
وأرى أنك لا تؤمن بالملئكة الذكور إلا قدر ايمانك بالأخرى

يا مجنون

أنت لا يشغلك غير هذه المرأة تحفظ نفسك نقياً من أجل
قدومها المستحيل
وهكذا بقيت البصلة في اليد الممدودة والعجوز إلى الجدار
استندت ترى إليك وقد مضيت

وأنت كأن حد حياتك وهدفها ذاك البيت على التلة فيه يختلط المقبل بالماضي تقف على عتبته وكأنها قصدير على الزمن وأنت تعبر مرآته

أنشد أولا زجل الغياب

٥

زجــل الغيــــاب

لو قلت بصوت عال
ما يحضرني منك من كلمات
لو قلت بصوت خفيض
الشيء مما وراء الكلمة

لو قلت دوار
سر يتبدد
الزمن الذي يفر في الفم
وقطرة قطرة الحياة

لا شيء له وزن أو قياس
أكبر وأصعب من أن نحيط به
أو نلخصه في جمل
شئنا أم أبينا لا تكتمل

الليل في الكلمات
وصمت أن نكون معاً
هذا حب لا ينتسب للغة
يحرق قبل أن يحترق

هذا الحب الذي يشبه نفسه
كالظل من الشعلة
والظمأ من ماء بارد
كما يشبه الجناح الريح

لا يشبعه أبداً وُجُودُه
يتوجع دائماً من حدُوده
يدور في ألمه
الذي دون مساء دون صباح

لا يرقد   لا يتوقف
كمسافر قبل الفجر
في نزل مجهول
نجمة تنطفىء بعد أخرى

وما هو غير غياب
باب يصطفق على البحر
لا شيء له لون أو معنى
لا شيء له لم أو كيف

أنت وحدك تسكنينه
كالروح في بيتها
أنت وحدك تطوفين
في ممالكه المحرمة

*

ذلك اليوم تذكر ابن عامر زيداً عندما أحسّ بالرحيل والغياب فإذا هو في فم المجنون أشد مرارة من نبات الندّ فقال

ما هذه السنة التي يبدأ فيها فناؤ نا
لا شيء نرجو منها غير حب ولد يحس الرجل يمور فيه
لا شيء من ديمومتها الطويلة القاسية
لا شيء آخر يولد منها
لا ملائكة ولا طير ولا رجوم
ترد الصاعقة عن غرناطة لن يكون لنا
غير مصير تنبأ به الاسلام عن الشاطىء الأندلسي

أيها الرب القاسي أياً كان اسمك حتى ولو لم تكن
شعبك يموت ظاناً أنه يؤ ول إلى مجدك
دمه عنده أقل ثمناً من فردوس موعود
لكن هذا الشعب جسدي أدفعك عبثاً عنه
لكن هذا الشعب قلبي ينتزع بطيئاً مني

الثورة في فمي وفي روحي
من أجل هذا الشعب وقد ضحوا به عبثا

قل لي يا اله المائة اسم الحسنى ما يعني كل هذا
أو هل يجرف نصر المسيحيين الانسان إلى حيث لم يستطع الملوك العرب جرّه إليه

إذا كان النصر نصر ما أمرتنا أن نمقت ونلعن
إذا كان هذا النصر على شعب كلمتك
فأنر لي اليوم الآتي لعلي أسقط على ركبتيك
لكنك لم تقنعني من هو خير فرديناند أو أبو عبدالله
ولم تجعل في تلك الصيحة أمام الأرض المقبلة
التي يموت فيها البحّار وقد رأى الضفة التي اكتشف
وانه لاختيار غبي بين الاسلام والجاهلية
واني لأرى تمزق أهلي فلا أرغب في نصرهم أو هزيمتهم
وأنا لا أقاسمهم خبز ما أوحيت إليهم
ولتمت حقيقتك لعلهم يعيشون
وا أسفي وا أسفي لهم أنهم لن يبدلوا غير جحيم بجحيم

ولأن الطفل زيداً غدا الآن رجلا لم يسجل أحدٌ نشيد المجنون هذا ولم يصحبه ذاك المساء أحد إلى منزله وما كان فيه ماء وضوء ولا زاد ينتظره ولا أمل لا يد تفتح له الباب أو تزيح الستارة السوداء البيضاء كاللؤلؤ لا ذبابة تطن في ذاك الفصل ولا أغنية تصعد معه درج البيت

هذا المساء نزل على المجنون كما قيل في عرق الآخرين إذْ تحين ساعة القيامة

لكنه كان وحيداً يرتجف لأنه لا يجد اتساقاً في الكلمات وهو يتمتم لها وحيداً يبحث للكلمات عن هدف صلاته كان يجهده نشيد يتغنى بما لا يوجد

أين أنت يا حقيقة الحياة أين أنت بالنسبة للرجل يا امرأة قدر لها قدري لكنه كان وحيداً والكلمات تحول خفقان صلاة

وكفراشة ليل عظيمة يضيع على الجدران غبار جناحيها
وجّه فرار روحه في طيران لاهث
كان يبحث عن الباب المؤدي إلى تلال العبادة
كان يبحث عن درب معبد الحب
يتجه في شكواه إلى حيث هي
كان طاحون كلمات جريحة كلمات محترقة كلمات معذبة

ولما انفتح فوه علم فجأة من كل مجامع جسده وقد ثار ألا صلاة إلا منها ولم يجرؤ طويلا على قول اسمها فيبدأ به الصلاة لم يجرؤ طويلا على قول السا مع أنه يعرف ألا صلاة إلا وهي صلاة السا

٦

صـــلاة الســـــا

يا أنت التي لا تلخصها أية كلمة
ولا يحيط بها عناق ولا ضم
أنت التي عيناها تتوقدان
كلما انطفأت نجمة
أكان صباح أم مساء
على قدمك العارية أنا الزبد
تبعثرين قدره
كضبابـــة

أنا البهيمة على خطوك
أنا البحر ألحق بأثرك
أنا الليل أصطفق في بابك
أنا الصوت يموت حيث مررت
الشبح يهدهدك يعانقك
الأسطورةالتي وجدتك
لا تنضبين أبداً ودائماً متعبة
بين ذراعي

أنت التي تولدين من كلمي
أنت التي أضم يدي فأعبد
أنت دواري أنت دماري
أنت تخففين وعثاء طريقي

كقرمز لدى شفة
اسمحي أن أري وجهك
حتى يغدو الألم أكثر انسانية
والموت أكثر حلماً

غرناطة تموت وقلبي غلغل فيها
يا نخلا شاحباً يا تدمر الجديدة
تتراءين في المستنقع العربي
بفعل السحر الرقيق
عند آخر شموس الأمراء
تنبثقين كحب عاد من جديد
هل أستطيع أن أنومك حتى الغد
فقد احمر الفجر

أطلبك من المستقبل
عودي إلينا منه يا حبيبتي
في آخر ساعات الاسلام
عودي إلي من أي مكان كان
عل أحلامي تنحل عقدتها
تبارك الحديد والنار
لعلي على ركبتيك السا
أسلم الروح

٧

جاء من أقصى غرب اسبانيا من (بالوش اينف) الواقعة على الأطلس والتي يدعوها القشتاليون بالوس دوموخير، على مصب الريوتنتو ، عن طريق اشبيلية ، انتيكويرا ، لوخا ، غرناطة . . . جاء يحمل أحلام وحدته الوسيعة ، على بغلة ، يرتدي ثياباً تصدقت عليه بها الملكة ايزابيلا ، فقطع مملكة العرب الضائعة ، تحت مطر الخريف الشديد . . . جاء ، أبيض الرأس ، تراود قلبه الآفاق ، يخفي سر نشأته الأولى ، سكران من دمه الطموح ، كما يسكر كأس امتلأ خمراً

أحمر . . . جاء وقد مرّ بالمواكب ، التي تجر اليهود بقميص ، على حمار إلى المحرقة ، وقد كتبت جريمتهم على لافتة ، يد مشدودة ، وقبعة مستدقة الرأس . . . جاء على الدروب فقير القيافة ، عاف الغجر صيده في ساعة الشفق . . . جاء ظامىء النفس للأمجاد ، ومن يلم بأسبابه ، من يدرك دوار العظمة في عمق جوهره ، آه جاء فمرً بملتقى الطرق والصليب منذ أمد قريب يكره العابر على أن يصلّب، جاء عبر وابل المطر والرياح ،كأنه قائد سفينة في عاصف البحار ، في الساعة التي ينشر فيها الشراع الأكبر،كي يوصلها إلى مرفأ سموهما جاءكريستوبال كولون، يحلم بعالم لا تكون فيه « توليه » آخر الأرض ، حسب نبوءة سنيكا القرطاجني ، بل أن يفتح تيفيس جديد قارة عظيمة ، جاء ، يرى نفسه شبيهاً بقبطان الآرجو إلى كولشيدا جديدة الذهب فيها قطيع معز ، جاء المدينة الجديدة وقد جرى فيها احتفال كبير ضد النحس ، وعجب المسافر ، فسأل أول عابر ، وضع رباطاً أسود غريباً على عينه ، عما يجري في سانتافي .

وأدرك كريستوف كولومب لما وجده لا يحسن اللغة القشتالية فيمزجها بكلمات غريبة أنه ربما كان من السادة الفرنسيين ، وعليه أعاد سؤاله بفرنسية امتزجت بها الايطالية ، كما تعود أن يتكلم لما كان من قبل قرصاناً في خدمة رونه دانخو . وسرّ هذا صاحب السيادة جان مولينه سروراً عظيماً ، فقد أجهده فتل حنكه بلفظ الخوتا ، وأفاض في الشرح لصاحب البغلة ، ذي الوجه المدهش بشبابه ، ولو أنه لوحه ركوب البحر ، وشعره السادج ينزل حتى الكتفين أو يكاد ، أن اتفاقاً جرى مع سفارة ، تقيم منذ حوالي شهر في سانتافي ، وانها عائدة تحمل الشروط للملك العربي في عاصمته المحاصرة ، التي كان يستطيع سموهما أن يشعلا فيها الموت والنار ، لكنهما فضلا الأبنية على دم المدافعين عنها فأبقيا عليها ، ولم ينتزعا المدينة عنوة . . . وما بقي للانتهاء من الحرب إلا موافقة غرناطة على الاستسلام بتوقيع الملك العربي وتخليه لفرديناند دون اسبانيا عن المدينة والبوساريز[1] كل القلاع ، والقصور ، والأبواب ، والأبراج ، والأبنية التي فيها ، يضاف لها خمسة آلاف من الرعية ، بين مدني ومزارع ، ويغدو الاشراف تحت سيطرة جلالته الملكية ومن تبعه . . . وعليه أن يقلع أبداً عن لقب ملك غرناطة فلا يتخذ اسم الملك أو اعتبر مغتصباً . . . أن يخرج من المدينة الجند والمحاربين ، أن يسكنها ويؤهلها بالمسالمين ، تجاراً ، وتقنيين ، وزراعاً ، فيبرهن أنه قام بعهده ، فتمسك به ، بقوة ، لا رجعة عنها . . . وعليه أن يرسل للخدمة في عسكر ملك اسبانيا ، ستمائة من صفوة علية المدينة ، ومعهم أولادهم وعائلاتهم . . . غير أن الذي كان يعني كولومب هو أن يعرف أين مفتش عام بيت المال القشتالي ، ألونزدو كونيتانيا ، الذي استضافه في قرطبة سنة ١٤٨٦ . وما كان يهمه من غرناطة إلا أن تستسلم ، وتنتهي سيرتها ، لعل سموهما الكاثوليكيين ، يرتاحان فيصغيان إلى مشاريعه وخطابه .

---

(١) Alpusaraire هذا النعت جاء من الاسبانية نكتبه نحن Alpuxarras ، وهو لا يعني في الحقيقة الجبال التي تحمل هذا الاسم ، بل يجب أن يفهم على أنه يترجم الكلمة العربية الأصلية البشارات ، ولو أنها تطلق أيضاً على تلك الجبال ، وإنما يعني حقولا أو مروجاً . وعلى هذا يجب أن نفهم من المدينة والبوساريز المروج التي تحيط بها . (الملاحظة لأراجون) .

٨
هل أعلم من يتكلم هنا
المؤلف أم المجنون

خرجت من ليلي خرجت من عذابي
كانت الشمس عظيمة على عتبة الباب
كل ما يسكنني فاض عني كماء جرة
قلت كلمات جسدي وروحي قلت جمل الأرق
ومر الناس لم يفهموا بعض منهم قطب جبينه ورفع حاجبيه

صحيح أني لم أحدثهم حديث الشارع أو النافورة هكذا كان دائماً مصير النبوءات

ومن أتهم غير نفسي مع هذا
لماذا تظنون أني أمزق ثيابي ووجهي
أية لعبة أتعاطى هنا
أنت يا قريباً من الصف الأول هل ترى
شفتي كيف تجرحها الكلمة إذا عبرت منها
شاحبة وسوداء من الدم

أنتم لا تسمعونني وتعتقدون أني أنا الأصم
نوع من الريح لا تحس بشيء ولا أحد
أدق الباب وظاهر يدي يؤلمني يؤلمني يؤلمني
ولا كائن بشري في الداخل لا كائن بشري واحد يجيبني
أدق على قلبكم وأنا الذي أتأوه

تظنون كل هذا خيالا
ألا تسمعونني

لا تسمعون مع أنها مأساتكم
وقد رأيتها فجأة فجأة فانجرحت
يا من لا تتعرفون على صيحتكم في صيحتي
ألا تسمعونني

أنا الذي يحدق إلى جرحكم
كأنه مرآة فيها صُوَرتُهُ
أنا الذي أقضم جذامكم وأوقد ناركم
أنا الذي أتكلم عويل غدكم
أنا الذي يأخذ رأسكم الضائعة بين يديه
أنا الذي يستنجد لكم في الصحراء حتى يبحّ حلقه
تنحني ركبتاه تحترق عيناه على السراب
الذي يبحث حواليه عن ماء قراح ويرجع عاثراً وليس في راحته غير ثلاث قطرات
الذي يمنحكم ريقه ساعة الظمأ
أنا الشفقة التي تقطع قبضتها من أجلكم
أنظروا انظروا أنا لست آخر بل أنتم
أنا ما يتوجع فيكم وجوده لا يستطيع بقاء

أنا أنتم أقول لكم أنا أنتم ومنه أموت

صمت قاتل وصمت طويل أو أنتظر عبثا
ألا تسمعونني

قدماي تتجرحان على قاطع الحجارة
أسير إلى حيث منحتم العذاب
استنفدت أنفاسي وآخر قوتي
أقترب منكم فتصدون
أنا آت آت إليكم

كل شيء على صورة أرض الجبل تلك
تعتقد فيها أنك واصل إلى القمة
وتصعد تصعد فترتفع القمة
معـــك
ولا ترقى لا ترقى إلا

إلى أعلى المنحدر آه أتموا من دوني ما أحس جيداً
لقد دنتْ دَنَتْ ألا تسمعونني

أنا آت آت إليكم مما وراء الضنى
تباً لصدغي ان أنفجر أ كنت
السنديانة صعقتها الصاعقة فآن حطابها
ألا تسمعونني ألا تسمعون خطوي

لئن لم تؤمنوا بي لئن كان كلامي
لا يعدو عندكم حفيف أوراق
فقد تعيى فيما بعد تلك التي إليها أمد
ذراعـــــيّ

يا مستقبلا أمتنع فلا أرقى إليه
مستقبل تاه فيه ظنّي
ليس عندي منه غير تعويض بالحزن
مما يرن في هذه الغرفة
وولوجه فيها ليس نصيبي النشيج
ينطفىء فيها أيها المستقبل أنت أيضاً لا تسمعني

لكنّي قادم إليك

كمار على صراط فوق الجحيم
إليك على صراط أدق من الشعرة
إليك على أحد من السيف يحول التوازن
على قد الذنوب فأغدو ثقيلاً أو خفيفاً
وايماني بتلك المرأة قدامي
يحملني كنور أو سلوقي نهد إلى عدو

إليك يا جنتي   إليك يا سقف عالمي

وأنظر تحت السراط اخوتي الهالكين

وا أسفي أراهم أتوقف والحد
يشق راحة قدمي والشعلة
تُراجع دربها إلى السنين
من دونك

*

وجعل أبو القاسم ايزابيلا وفرديناند يقبلان بنسيء تسليم غرناطة تسعين يوماً بحجة ترك مجال مشكوك بأمره لوصول نجدة افريقية . وافق فرديناند على نصح السفير العربي أن يلعب ورقة الآمال التي يحلم بها الأمير ما دامت كل المرافىء في قبضته . كان على محمد الحادي عشر وقد غدا منذئذ أبا عبدالله المسيحيين فحسب ، أن يعد بالولاء للزوجين المسيحيين هو ، وشيوخه ووزراؤه ، وأن تحول رعيته جميعاً طاعتها للسيدين الجديدين . ويحظى الملك المعزول على أرض البشارات ، وامارة اندرش ، وهي التي دفعا ثمنها للزغل حين أكره على التسليم . ومنح المسلمون الحق بالاحتفاظ بممتلكاتهم ، وسلاحهم وخيلهم ، ومزاولة دينهم ، في مساجدهم ، وأن تقضي بالشريعة الاسلامية بينهم ، قضاتهم وفقهاؤهم ، وتبقى لهم مدارسهم ، وجزارهم ، وأن يعفوا من الضرائب ثلاث سنوات ، وألا يدفعوا أتاوة إلا ما كانوا يدفعون لأمرائهم ، وأن يعفوا من ايواء الجند المسيحيين في بيوتهم وأن يمنحوا حرية المرور في أراضي قشتالة وأراجون . وجرى القسم على أن تطبق هذه الشروط على اليهود الذميين الخاضعين للجزية .

وهكذا جاء السفير ، يدعمه الحاجب يوسف بن قوميا ، ومعه الجواب على كل اعتراض ملكي وضمان التسليم بعهد من البابا : هل كانت النقطة الأخيرة من بنات أفكار الكاردينال دومندوزا ، يغري بها خيال الملك المغلوب ، أو رأي أسر به أبو القاسم لفرديناند ، فكانت حيلة لا نعلم لها شبهاً . وبعد أن عقد الوزير العجوز الصفقة في حمى العاهلين الكاثوليكيين في الثاني والعشرين من محرم ، جاء فقدمها لمجلس العلية في الحمراء . وما يجدي أن نذكر هنا تفاصيل ذلك اليوم ، وغرور عائشة وموسى وقد نهضا يدعوان إلى الجهاد ، واجماع العلية ، من علماء وشيوخ حرف ووزراء ، والقاضي ، بل الحاجب نفسه . . . كان الملك وحيداً بين الشيوخ الذين كان يطمح في عونهم ، فإذا بهم على استعداد لخلعه ، بل على ألا يدعوه يخرج حياً إذا قاوم من قاعة الأبهة تلك التي يسمع منها بكاء النوافير . لا أريد أن آخذ بالأسطورة ، وأن موسى فر من كلمات من نار . . . ماذا يهم ما حدث له ، لأن أحداً لم يره بعد حياً أم ميتاً ! قيل انه أم ضفة الشنيل دفعا للبراز ليلا بعضاً من خيالة قشتالة ، فهم بهم حتى قتل على حصانه ، رمح مكسور ، وفي نطاقه سيف حطيم ، وهوى في دمه ، مقطوع القبضة . . . تلك أغنية غنوها ، لكن من أين جاءت التفاصيل ؟ هنالك مكان للظن أن يوسف بن قوميا وشريكه أبا القاسم ، ما كانا لتستبد بهما الغفلة فيتركا القائد اليائس يخرج من الحمراء ، وهو القادر على أن يتسبب في وقف الهدنة والاتفاق الذي وقعاه . كان في كواليس الحمراء ما يكفي من انكشارية ، ومرتزقة وعبيد ، للقضاء باشارة من السيدين على هذا الثور الدموي ، دون أن يعرف بذلك أحد .

مع ذلك رفض ملك غرناطة أحد شروط سانتافي : رفض ، على إلحاح أمه ، تسليم مفاتيح المدينة بنفسه للغالبين ، وتقبيل يدهما ، كانت تلك ، على كل حال ، نافلة ، وافق عليها فرديناند

وايزابيلا ، فهما يعلمان ، أن مؤرخيهما ، سوف يرو ون الأشياء على ما يحلو لهما ، فيهينو ن عظم ظهر الأمير المغلوب أمام المستقبل . وحزما على الاستعجال في هذه الصفقة فانفذا رسلا معهم الأوامر لأبي القاسم والحاجب لعلهما يخلقان سر يعاً وضعاً لا ينتظر معه أبو عبدالله تسعين يوماً لتسليم عاصمته .

كان الاستسلام يقضي بأن يعلن عنه للناس قبل التسليم . وأمر الحاجب فقرئت شر وطه في كل الجوامع أمام المسلمين جميعاً . كان من هذا الأمر أن غر ناطة كلها ، وجدت نفسها منذ شهر صفر وجهاً لوجه أمام قدرها .

صـــفر

١

يـا سيلـي

أزف فجر الخطر الأكبر
فغدا الشعار يا سيلي

قالوا لك آقتُلْ وآقْتَلْ يا شعباً رائعاً
وآمنت بما علموك
فما رفضت الطريق الرهيبة

قالوا لك أنت مالَكَ شيء لا ذراعك ولا روحك
بعتهما لله بثمن هو الجنة
سددت حياتك عن بدل عظيم

قالوا لك أن الحق ينتصر بموتك
وأسعدك أن يومك كتبه
الله فانتصب أمامك كجدار

قالوا لك أن قدرك معقود على سيفك
أنت الذي اخترت في الرهان النور
تحمله حتى الدماء إلى المملكة المظلمة

قالوا لك أن الهدنة لا تجوز
مع الأمم التي تختلف في صلاتها عنك
أن الله حرمك الراحة من القتال

قالوا لك أن حربك تجهل الهزيمة
وأن العذاب الأبدي لمن لا يقضي
فآمنت وقطعت وراءك الطريق

آمنت بهم حتى كبلت نفسك
آمنت بهم حتى احتقار نفسك
آمنت بهم حتى انكرت نفسك في حلمك

آمنت بهم حتى ثمالة قوتك
آمنت بهم حتى جف الدم في قلبك
آمنت بهم يا سيلي حتى نبعك

آمنت بهم حتى السكين التي تبقرك
آمنت بهم حتى ليل سورتك
آمنت بهم حتى صمت فمك

آمنت بهم حتى أرض لقياك
آمنت بهم حتى جرح عقلك
آمنت بهم حتى رعب الأحشاء

آمنت بهم حتى الكفر بدموعك
آمنت بهم حتى الكفر بعويلك
آمنت بهم حتى تنغلق عيناك

آمنت بهم حتى آخر لمعة في الجمر
آمنت بهم حتى تقصيب أوصالك
آمنت بهم حتى لينهصر الايمان

٢

وجاء الناس ابن عامر وهم في جهل عما به يؤمنون وماذا يفكرون عما كان ينشده عن المستقبل فلقد انتشر الايمان أنه يمتلك مرآة يقرأ فيها

جاء الناس ابن عامر يسألون ما يرى عنهم وعن الأزمنة البعيدة والأزمنة القريبة جاء من

الناس ابن عامر من لم يستطع أن يتخيل نهاية غرناطة

بعض لعله يوقظهم من حلم شرّ وبعض لأنهم ما كانوا يصدقون وبعض لعل كذبة تمنحهم أملا من يدري

فقد يكونون راجعتهم ولو خطأ الثقة من يدري فقد تعيد كلمة إليك القوة والايمان بالمستحيل يا مجنون قل لنا أن شيئاً من هذا ليس حقاً

وهو الذي أحاط الناس به في الشارع
رأى إلى المستقبل ثم نظر إلى الناس
تمتم لا أقدر وهو على التمزق القديم
وأكره نفسه فقال لهم

هنالك أشياء لا أقولها لأحد لأنها
لا تؤذي أحداً لكن
الشقاء هو
أنني
الشقاء الشقاء هو
أنني أعرف هذه الأشياء

هنالك أشياء تقضمني ليلاً
مثلا أشياء مثل
كيف أقول كيف الأشياء التي تقضمني
ليلا في الليل أشياء كأحلام
والشقاء أنها ليست أبدا أحلاماً

هنالك أمور هي عندي أبدا لا
أبدا أبدا لا تطاق حتى
لو لم أقل عنها شيئاً حتى ولو لم
أقل عنها شيئاً افهموني افهموني جيداً

انها أحياناً انها تخنقكم
أنظروا أنظروني جيداً
انظروا فمي

ينفتح وينغلق ولا يقول شيئاً

أفكر بشيء آخر فحسب
أحلم بصوت عال ومني
كلمات تخرج مما يدهشني
لا تسيء لأحد أبدا
ولو أني أخاف مني
من ذاك الشيء الذي في يتكلم
أعرف أنه لا ينبغي لي
لكن ما تريدون أن أفعل
ينفتح فمي وروحي هنا
تخفق عصفوراً على شفتي

يا كل ما لا أقول
ما لا أقول لأحد
الشقاء أنه يجلجل
ويضطرب عنيداً في
الشقاء أنه فيّ
ولو لم أقل شيئاً عنه إلى أحد
لا دعوني لا دعوني
أحياناً أقول لي أحياناً
الكلام أفضل من الصمت

ثم أحس انما تجف
كلمات ذاتي هذه في ريقي
هنا الشقاء لا شقائي
بل الشقاء الذي يجمعنا
في رعبنا من البشر الآخرين
من يمدّ يد عون
ما دمنا نحن ما نحن

ما كدت ما كدت تقوله

هذا الذي لا يقوى على أن يتخذ صورة
هذا الذي يسكنك فيتخذ صورة وهو على الأقل على أهبة
على أهبة أن تسحقه قبضتك
والناس ما تريد أن تقول
تحس بك على ما تحس بك
بهيمة أمام الناس ما كنت
ما كنت أقول آه نعم ربما
أن النهار جميل   انها ستمطر   انما يجب أن نذهب
أو أن ذلك نفسه كثير
فاحفظها بين أسناني
تلك الكلمات خشية أن تعني

لا تنظروا إلى داخلي
قولتي النهار جميل تكفي
أستطيع أن أقول النهار جميل
حتى ولو أمطرت على وجهي
أن نؤمن بالشمس عندما يسح الماء
ان أمطرت أهزأ أهزأ بالعاصفة
الكلمات فيّ ما أشرس موتها
شرسة تدميني
الكلمات التي لا أكمل أبداً
هل موتها فيّ هوما ينهشني

الشقاء أن أعرف عم
لا أتكلم وفي نفس الوقت
مع ذلك عما أتكلم

إنما يجب أن نصمت فينا

٣

قالوا جئنا كي نرى المستقبل في فمك

جئنا من أجل نار الكلمة   من أجل نار
الموت نفسه   كلمة منك كانت تكفينا عن سعة
كي نموت   ما جئنا إلا من أجل هذه الكلمة من فمك
وعمّ تتكلم   ما هو هذا الضلال
الأمر أن الأمير قرر فينا مع العدو
وارتكبا الآن معاً هذا الكفر
هل ندعه يسلم غرناطة وكل الأرض الاسلامية
ما عندنا غير هذا السؤال وأنت كقوقعة فارغة
لا تصغي كبحر لأي صوت إلا لصداك في البعيد
جئنا كي نعرف هل يجب أن نمضي إلى السهل
أو نحمل أولا غضبنا إلى قصر الخيانة
كان بوسعك أيها المطرب المجنون أن تقودنا حتى نهاية ذاتنا
كنا نريد أن نضع في خطوك قدر آخر خطانا
وها شفتاك لا تند عنهما غير تمتمة قصيدة سوداء
في الساعة التي يستيقظ الشعب يريد كلمات على أهبة النزيف
كلمات كي يقفز فيسقط كلمات صدرها ينفجر
كلمات أقوى من الذراع أنفذ من سكين
كلمات تنسينا أن ليس لنا غير هذه الحياة
كلمات كأنها النهار تحرق ما تضيء من عيون
يريد كلمات فظيعة تسكر حتى الضياع
يريد كلمات تجعله يجري حتى ليفقد الاحساس بقدم وأرض
أليس لك في حلقك نشيد يكون على قدّه
هل وجب أن تموت غرناطة وأنت ترفض لها صيحتك

عندها قيس الذي ولد ذات يوم على هضبة النجد
فعاش طويلا كفقير في حي البيازين
قيس الذي كان عمره كما في المنتزه
تلك الحورة الكبيرةالتي يوقع عليها العشاق أول حروف اسمائهم
قيس الذي كان يتجه دائماً إلى تلك المرأة في المستقبل
يقرأ في الزمن المقبل كما في سفر مفتوح
أحس فجأة أن ما هية الروح تتمزق فيه
وبات الكل أمامه ليس سوى نور من الجحيم

عندها جاءت مفرزة من الحرس الزناتيين فقبضت على المجنون باسم الملك والجمع

لم تند عنه حركة للدفاع عنه حتى إذا حاول فرارا
انغلق أمامه جدار غريب من رجال
لم يغن لهم ولم يكذب عليهم

ورماه المرتزقة في الحمراء كرزمة قراص

٤

« لماذا ، ـ قال أبو عبدالله ، بعد أن غسل بيديه الملكيتين العجوز الدامي وكأنه أبوه ، لا الأب الذي كان له ، ـ لماذا فررت من الذين ذهبوا باسمي كي يأتوا بك إلي ؟ » لأنه ، كان يزعجه أكثر من جرح الوجه وتلك الكدمات في الذراع من سيوف بَرْبَرِهِ ، أن يفرّ خوفاً أي كان من رعيته لمجرد ذكر اسمه . تذكر في الساعة التي احترقت فيها خيمة ايزابيلا ، المطرب الذي قام ، في قلب الجدل الفلسفي ، في دار مزارع في المرج ، فدوزن عوده ، والبشر مع شمس المستقبل . فهم الملك فجأة أن موسى المحتسب حدثه عن نفس الرجل ، وعن سماعه إياه في الحمام يقول كلمات جميلة حتى لا تحفظ منها شيئاً ، ولقد كان قلبه مرّاً لغياب موسى ، فقد كان الوحيد الذي دافع عن المدينة والمملكة ، ولقد عن له في ليلة لم ينم فيها ، أن ينفذ من المجنون كي يحدثه ، على عتبة القدر تلك ، عن المستقبل ، عن نشيد في ظل الصيف لم يحفظ منه غير بيت غريب ، أغرب اليوم مما كان أمس قال فيه مستقبل الرجل هو المرأة . . . أغرب اليوم وغرناطة على سرير قلقها تتلفت في نزعها وما من أحد يدرك السر الذي دفع بنفس الحركة ونفس الدقيقة الشعب وملكه للبحث لدى هذا الملتبس عن جواب للأسئلة التي تستبدّ بهم .

قال أبو عبد الله «لماذا لم ترد أن تأتي لرؤيتي وقد طلبت ذاك؟» .

المجنـــون

أيها الملك (حفظك الله ، وما شاء الله) . ألا تعلم أنه كتب على المسلم ما يوجب عليه أن يمتنع عن معاشرة الأمراء والسلاطين ، بله دعم مقابلتهم ؟ لأنه يعسر على من يقابلهم أن يجتنب صورة الرياء التي تدعى عامة أدباً ، أولم يؤمر من أكره على ذلك قسراً ، أن يتعفف عن مسايرتهم لأن الله يغضب إذا امتدحنا مستبداً أو مجرماً . . . أيها الملك لا تقطب بحاجبك المخيف ، فقد لا تعرف أن هذه الكلمات ليست مني ، وإنما هي للغزالي ، امام بغداد ، وقد قال أيضاً أن الدعاء لطول حياة الملك هو رغبة في أن يعصى الله على الأرض . . .

أبـو عبـدالله

أيها العجوز ، لقد فات أوان غضبي ، ومما لا شك فيه أن شططلسانك راجع إلى أن الحرس

ضربوك ، وعداً لك أن يعانوا ألف ميتة لقاء كل جرح في جسدك . أو أنتم الذين ترون الأمير من بعيد ، لا تفقهون ، قدر ما يُرتكب باسمه ، لأنكم على صورة غامضة عن الحكم ، تجهلون ما يجترح في غفلة من الحاكم ، وباسم هذا الحاكم . . . الحكم ليس من الأمير ، يا مجنون ، انه من الله . هذا ما علمونا ، على الأقل ، نحن الموكلين به الخائفين . أو ظننت انني أمرت بضربك والحال انني طلبت منهم أن يحضروك فحسب ، أن يخاطبوك مخاطبتهم قديساً ، فيحيون في خفض ويقولون ، أن ملك هذه المدينة المائتة ، يرغب في أن يحدثك ، أن يحدثك أنت وحدك ، في ساعة شهادته . لكن آلة الحكم صنعت كذلك ، لذلك لا يستطيعون أن يدركوا غير العنف والأمر . ان صورة الأمر الذي يكلفون بتنفيذه لا تعني في آذان الحمير آذانهم ، غير مواربة تفرضها كياسة الملك ، في تكليفهم بالمهمة . لم يفهموا إلا رغبة الملك والصلابة في ارضائها .

المجنــــون

أنت تعرف ، ولا شك ، أفضل مني ، أيها الأمير ، ما دمت منحت وحدك تفسير معنى الكلمات الالهية للأمة ، قوة ذراعك الحقيقية ، لكن ما السبب في أنك لا تعرف قدر أثرها ؟ انك تلقي على خدمك مسؤولية السيف والدم ، وإلا فمن أين لهم الحق والقدرة على الضرب ، إلا منك ، أي من الله ، عبر ارادتك ؟ كيف تطلب مني أن أميز بين الحكم وبينك ؟ أأمر ، ما دام الوقت متسعاً ، بالعفو عن هؤلاء التاعسين ، فهم ما ضربوني إلا لأنهم يرون أن الطبيعي أن تأمر بذلك .

لا ، لا تختبىء وراءهم ، ولا تبرر الأشياء بقسوة جهلهم . انما تقع عليك مسؤولية ما هم عليه !

(وأمر أبو عبدالله للتو بأن يصار إلى ذلك ، فجاء الحرس الزناتيون وانحنوا أمام مطرب النهج وكان ما أتيح الوقت إلا لكسر كتف أحدهم ، وفك الآخر . . .)

ابو عبدالله وقد استدار عن هذا المشهد الذي تغشى منه النفس

ألم تعرفني من قبل ، لا على أني سيد غرناطة في أبهته ، بل قلندريا[1] لا يختلف عن سواه تحت النجوم ، وقد زعموا في تلك الليلة ، عزاء عن سعة نفوسهم أنهم جميعاً أبناء ملك . ألا تذكر الذي كان يعرف سر الأشجار ، وذاك الذي تعرف يداه الأرض ، والانبات ؟ أتذكر الذي جحد بالله كي يموت فيه ؟ والنحوي الذي تكلم عن المضارع ، أما أنت فغنيت المستقبل . . .

---

(١) نوع من الدراويش الذين انقطعوا لله .

المجنـــون

يا مجنوناً يستحق اسمه ، غنيت المستقبل . . . لكن ألست الذي دفعني إلى ذلك ؟ ما جئت تفعل متنكراً بين هؤلاء الناس ؟ وهل ظننت أنك واجد بينهم الحقيقة في كذبة ؟ أذكرك الآن ، عتالا ، فرغ من عمله ، كما بدا ، جاء يأخذ علماً يعطى بالسر . رجلاً في ثوب خشن ، ليس له غير سؤال وحيد . . .

أبـو عبدالله

نعم ، لم أكن غير سؤال مطروح ، لم تفهموه أبدا ، وقد مزقتكم نزاعات ، لا دخل لي فيها . سؤال ، ولا شيء سواه . من أجله تعريت عن أبهتي ، فجعلتني أكثركم تواضعاً . نعم من أجله فحسب.. سؤال ألقيته منذ طفولتي . ذات يوم إذ رأيت في ضياء المياه المظلم عيني أبي . سؤال رافقني في المنفى والضعة . سؤال بحثت عن جوابه بين ذراعي النساء . سؤال ظننت أني واجد جوابه في الكمال الذي تصنعه يد الانسان ، ولقد قادني الجمال طويلا إلى الطرق التي ظننت أنها طرق الخير . لقد أردت أن أصبح ملكاً فلم انتظر ، من أجل معرفة الجواب . قدت جيشي إلى العدو من أجل معرفته . حتى إذا وقعت في أسر المسيحيين ، لم يمسك بي الليل ساهراً سواه : هل الشرّ من ارادة الله ، نعم أم لا ؟ واعلم يا مجنون ، انها هنا مأساة الملوك . مأساة الحكم الذي لا يثبت إلا بالظلم . فإذا كان الحكم ولاية من الله ، فما لملك يفعل اذن بأمره الشرّ كي يثبت وجود الله ، هذا ما كنت أردّد في داخلي . . . ذلك هو السؤال الذي كنت ليلة الحريق أطلب عليه ايضاحاً إلى الاجتماع الغريب في قلب المرج ، لعلي أقوم بمهمتي الملكية ، دون أن أراني يمزقني الشك في الله . . .

المجنـــون

اذن جئت تسأل الذين قطعت فيما بعد رؤوسهم ، أو رماهم قضاتك أحياء في العفن . . . جئت تطلب ذريعة كي تتم لعبتك الدنسة ، عذراً لحكمك ، وتبريراً لجرائمك . . . كما فعلت الساعة ، إذ زينت لي براءتك باتهام حرسك . . . أما عن الحكم فأنت بحاجة إلى ترس أمنع ، وظل أكثف ، وعليه اختبأت وراء الله . . .

أبـو عبدالله

لماذا تهينني ، أيها العجوز ، في الساعة التي لعبنا الرهان فخسرناه ؟ أيذهب بك الظن إلى لحظة ، أني لو لم أؤمن بأن سلطتي جاءت من الله ، كنت أستطيع القيام بها ، أو أوافق على اراقة الدم ؟ لكنما يصعب على رأس انسان مسكين ، أن يلائم بين العتمة وطيب الله مع الشر الذي يطلب مني أن أفعل . . . كل حياتي انصرفت في كابوس الله هذا ، نبع الخير والشر : عندما كنت

أريد لو أبرىء الله من دنس الهام خليقته بالشر ، وهو الذي يعاقبها عليه ، كعميل مزدوج ، كان يراجعني الرعب من التفكير بأن الشر إذا كان موجوداً خارج الله ، ان لم يكن من صنعه ، فالله ليس الله ، الواحد ، والشر نقيض الخير ، كما الشعب بالنسبة للملك . . .

المجنـــون

وهكذا منحت نفسك هذا الريب . . . وخبأت نفسك فيه ، أولم تكن ترى ؟ أإذا ذهبت إلى أن الشر والخير لا يجتمعان في الله ، أما كنت ترى الخير ، أما كنت ترى الشر . انهما موجودان . أو لم تستطع أن ترى حلبة صراعهما ؟ هل رأيت أبداً ذاك الاله الذي هو نبعهما التوأم ؟ أجزم أن الملوك ليسوا على شيء من الذكاء . ألم تواتك أبداً الفكرة بأن هذه المشكلة سهل حلها شريطة أن تنسى اسنادها لله ؟

وصمتت الطيور والنوافير صمتاً عظيماً . كان يعلم جيداً هذا الملك أين آل به مطرب الزجل فقد ضلّ هناك أبداً دون أن تأخذ يد بيده . لقد راد أطراف الزندقة تلك ، ووصل إلى تلك العتبة الرهيبة ، لكنه لم يجاوزها . شفتاه لم تجرؤا على ما دار في رأسه . مرة أخرى يرفض طريقاً يفتح أمامه كبئر يتلقف من يسقط . يبدو ، وكأنه في هذه المرة ، لم يفهم أيضاً ، ما كاد يفكر فيه من قبل . مرة أخرى لا يستجيب لهذه الدعوى ، يجانب أن يجري فكره ، في مسارب لا رجعة فيها . . . لكن هل دعا ابن عامر ، حتى يظل على ما كان عليه ، وكأن المجنون ما جاءه ، ولا نطق بالحكمة أما كان في السؤال الخالد الذي طرحه اليوم صورة غرناطة الضائعة ؟ وهل يريد الله ذاك ؟

أبـو عبدالله

هل أتاك حديث الملوك الفاطميين الذين ملكوا منذ خمسة قرون على افريقيا ؟ لقد وصلنا عن سلافيّ في خدمة أحدهم نص رسالة أملاها عليه . أعرفها عن ظهر قلب ، خيراً من عرفاني أية سورة من القرآن . . . أسمع ما يقوله المعتز وقد عنّ له أن يترك مملكته فيحمل معه ، من يعلم ماذا ؟ إلى صقلية أو مصر . . . ربما جيشه وثروته ، ربما أتباعه ودولته يقول : إذا كانت نفس تحترق بنارها ونار الجسد الذي تقيم فيه ، فهي نفسي وقد تقاذفتها الأحزان ولا من ينجدني ، فلا أحظى بغير اليأس . أحاول فراراً من تلك الآلام ، فأجدني ضالا في باطل شؤون يومي ، وهي لا نفع منها في هذه الحياة ، ولا في الحياة الآخرة . وهكذا أراني مجنوناً بين عقلاء ، أو عاقلاً بين مجانين . . . ما بالك تهز برأسك يا مجنون ، كأنما تلك مجازفة عادية عندك . لكن المعز يروي أيضاً كلمة يأس قالها جدّ جدّه الذي ادعى أنه المهدي : انهم أمامك ينظرون إليك فلا يريدون أن يروك . . . يا يأس الملوك ! أليس هذا هو ما أردّد بعد المهدي ، الذي قضى منذ خمسمائة وستين سنة هجرية ، أنتم جميعاً ، يا أهل غرناطة ، تنظرون إلي ، وأنت أيضاً ، تنظرون إلي فلا ترونني . أنا الغياب في عيونكم ، مع أني ملككم ، آتاني الله القدرة على فعل الشر ، وأن أظلمكم ، لكن عبثاً : تنظرون إلي فلا ترونني . . .

والحقّ ، أن ابن عامر كان يستطيع ، أن يمسك بعينيه ، أبداً ، على الملك محمد من دون اهتمام . لكنه كان لا يراه ، وإنما ما وراءه المستقبل ، يأس المستقبل . كل جسده كان يصيح ألماً ، واضطرمت حمّاه ، وأزهر الجنون . . .

٥

في كل يوم يمضي في كل يوم آت
يستيقظ هذا الشعب وسط حلم
يقيس الزمن الذي بقي له
النوم والنظر عنده ألمان توأمان
يقيس موته في كل يوم آت

هذا الشعب هو أنا والألم الذي يقضمه
هو ما يسكنني أبدا
يتنازعني رعب الحياة والأحلام
الجحيم الموعود والواقع
الألم الذي يقضمه هو الألم الذي يقضمني

غرناطة في عذابها لا تأمل بصباح
تعلم بلا مرآة ما يمرع في جسدها
وأنا مثلها أعرف حدي وقدري
ولا جدوى مزاد أخير
غرناطة وأنا لا نأمل في صباح

غرناطة لا تنتظر إلا أن تمزق اربا
تاريخها الطويل لا يتصل بغير الموت
كقلبك أنت أصغ إلى الشيخوخة
كبحر يضطرب فيها ويبتلعك
أيها الرجل خلق قلبك كيما يحول اربا

كل ما كنت أغانيك وأحزانك
وهي ما كانت غير أنت كلها للزوال

هذه الغرناطة المشرعة للريح بذورها
تهمي كما انتزعت منك القصائد
وهي تغني أغاني أخرى تبكي أحزاناً أخرى

٦

وغدا شعب غرناطة نهباً لليأس ، فما ترى في أحياء المدينة غير الناس وقد تجمهروا ، يلوحون بالعصي والفؤوس ، يهددون القصور . وسيطر الرعب ، على العلية ، والوزراء ، فتشاوروا في كيفية تحويل العاصفة . كيف يقودون أفقر الناس ، وأتفههم ، فيستخدمونهم في اقناع الملك ، بالعودة عن هدنة التسعين يوماً ، التي يغدو بعدها التسليم قانونياً ، في اقناعه بدعوة الجيش الوحيد القادر بعد الآن ، أن يحمي بيوتهم ومالهم ، خاصة وأن الجند ، بعد موت موسى ، لا يمكن أن يوثق بهم ، كما أنه لا توجد أية قوة اسلامية تستجيب لطاعة أولئك الذين سلموا غرناطة للروم .

لم يشهد التاريخ فوضى مثل تلك ، أو هل وعى أمة كهذه على وشك أن تفقد أرضها ومجدها ودينها ؟ كل ما بقي هنا من ايمان عميق لجأ إلى الفقراء ، أولئك الذين لا يملكون شيئاً سواه ، الذين يهون عليهم الموت ، تجاه تجريدهم المطلق جسداً وروحاً . كيف حصل أن آمنوا بهذه الحكاية ، كيف استولى عليهم الجنون كنار؟كانوا يموتون جزافا ، بعد أن طرق الطاعون أبواب المدينة . بعض قال أنه من عمل اليهود ، لكنه قول لم يكن له أي معنى في البدء ، أي وزن أمام الألم الشعبي . من الذي نشر هذه الأقاويل لكن الشعب لا تهيمن عليه الأفكار العامة ، وانما الأحداث الفردية التي توضحها . ولقد وجد من زعم فطارت منه الكلمات ، أنه رأى على الجدران آثار قذارات فيها الطاعون ، لعل بعضاً يحتك بها في مروره . ولم يكن هذا القول ، واضحاً ، ولا مقنعاً ، وما لبث أن جاء شهود ، ازداد عددهم شيئاً فشيئاً ، يعلمون بأمر هذه المادة ، هذا الدهان الذي وضع على بيوت الأزقة الضيقة ، وزعم بعض أنه قيء وبعض أنه براز ، يعمم به أبناء اسرائيل الوباء ، كي يضعفوا غرناطة إلى الحد الذي ، لو قطع معه البربر البحر قبل موعد التسليم ، لما وجدوا أحداً ينقذونه في المدينة الميتة . ووجد من الناس من ضرب عينه بقبضته ، شاهداً على أن عينيه رأتا داهني الجدران ، وتدوولت أسماء حاخامين وخياطين ، لكن النجاح الأكبر كان من حظ الذين وشوا بالأطباء اليهود . حتى أن الحاجب نفسه استشاط فأوقف منهم حوالي نصف دزينة ، اعترفوا بكل ما أرادوا منهم ، تحت التعذيب .

وسرت نبوءة في الشوارع ، وظهر الفقير حامد بن سراج فخلط في كلامه اليهود بالأمير ، حتى لقد أخذ أناس من البسطاء يتمنون دخول القشتاليين ، لعلهم يخلصونهم مرة واحدة من الملك الماكر وشركائه ، وتحدثوا عن محارق المسيحيين وكأنها منقذ لهم . وغدت الجماعات الصغيرة في الزوايا ، والزنقات ، حشوداً عديدة تفيض بها الساحات . وعلت الهتافات وتسلح الناس بكل ما يمكن أن يضربوا به ، أو يقصموا ، أو يزهقوا ، أو يدمروا . . . وحملت الجماهير وهي تعدو على الكنس . وانهال التهديد والحجارة ولو أنها لم تكن غير نذير بالعاصفة . وانضمت النساء للرجال ، لأن طفلاً مات ، وما يعلم أحد ، بالطاعون قضي أم قضت عليه الطقوس ، مع أن الفترة

لم تكن المرافع . وصحبن الرجال الثائرين بعويلهن ونحيبهن .

وفي مساء الخامس والعشرين من صفر ، وقد هبت ريح من جحيم ، وخيم قبل أوانه ليل مظلم السماء كنفوسهم ، وامتلأ وادي حدرة في الدرب القائم بين الحمراء والبيازين ، ووصل الغرناطيون إلى أوج الألم والعار ، فوحد بين جماعاتهم ما يمزقهم من عواطف مختلفة ، بعض عن ايمان ووطنية ، وبعض عن خوف لا يطاق ، فاتجهت ضرباتهم الأولى إلى بيوت العلية ، يؤلف بينهم حقد مشترك على الأغنياء ، وعلى اليهود الذين تتجسد فيهم كل هذه الأمور ، ولقد دفعهم إليهم محرضون عنيفون ، فرموهم على بيوت بائسة ، وبيوت مقلة ، لأن شعب الكتب تبدى لهم في ساعة العمى والغضب تلك أنه ممول التاج ، الفقر نفسه ، خالوه كوميدية سافلة ، ودخلوا إلى حيث يسود الجوع ، يبحثون عن الذهب ، رمز اسرائيل .

وافتتح الغيظ والنهب بيوت اليهود عبر ليلة طويلة ، فرموا للريح البسط ، والأواني ، والكتب ، والصحاف ، والزجاج . وجرى الدم ، وشوّهت أدنأ الأهواء اليأس نفسه ، كل هذا جاء في البدء من الاهانة أمام الظلم ، من الغضب المقدس لوطن مخدوع ، مما حفل به هؤلاء الناس ، من اخلاص ونقاء ، من ايمانهم الأعمى بإله ، يدفعون هنا عن آخر معاقله ، وكأنه « توله » الضائعة على آخر حد للاسلام ، ولقد كانوا على حق ضد الكبار الذين يسلمونهم إلى الملكين الكاثوليكيين لقاء الحفاظ على ثرواتهم ، كانوا يجهلون أن أبا عبدالله جرب حتى الدقيقة الأخيرة أن ينكل باتفاقات سانتافي ، وأنه تحدث عن الموت بدل التسليم كانوا يجهلون أن أميرهم هو في الواقع أسير أبي القاسم والوزراء ، لقد فقدوا معنى كل ما لم يكن غضباً ، كان يكفي أن يرفع إليهم طفل يديه طالباً الرحمة ، حتى يظنوه عدواً ، فيدوسونه بأقدامهم .

ليلة طويلة كأنها خزانة مقلوبة . . .

وفي بيت أبيها ، ربي ناحوم بن صموئيل ، فضحوا سمحا ، التي يعني اسمها بالعبرية الفرح ، وقتلوها وعمرها ثلاثة عشر عاماً ، ولا أستطيع بالكلمات أصوغها جملا أن أتصور ما كانت عليه غرناطة في أصيل الواحد والعشرين إلى فجر الثاني والعشرين من صفر ، لا أستطيع أن أتصور سمحا إلا في ملامح طفلة أخرى ، من القرن الذي عشت فيه ، وكنا ندعو في بلد الفرنجة الذي هو بلدي قرية أهلنا ، سان ـ دونا ـ سير ـ ليرباس ، وقد ظلت تسأل أمها ، ما دامت على قيد الحياة : قولي لي ، أسوف أطفل اذن المانيا صغيراً ؟ كانت كاثوليكية الدين ، وما كان الشعر النازل على وجه أبيها أجعد . لم تحدث الحادثة في الشتاء ، بل في أوج حرارة آب . ما ينتابني هنا ليس اختلاف الملامح ، بل التشابه ، وأني لأفهم ما تخيلت مما رأيت : القلب الانساني أيّان كان يتوقف أبداً على نفس الطريقة .

وكان ابن عامر في الصباح يجر في المدينة جسده المحطم ، وجراحه . . . والدم يضطرب في صدغه ، والدوار يسكن دمه . . .

٧

يا البيازين يا جيفة يهوم فيها الذباب

مملكة الارهاب وأشياء تناثرت في رابعة النهار
تروي الخراب أمواتاً اصطفوا ككلمات مَثَلٍ في الشوارع
وانتهاك الحياة والكأس الحطيم
وبيتاً ما زال تدوي فيه خطا النهب
وتحاشى النجدي حماراً كريهاً وأحشاؤه بلغت قوائمه المقلوبة يا للجرح
فاوانيا[1] ناعم على الأنف
نزل النجدي في الأشعة الغاربة
عارياً حتى عظم الروح
حتى توحش الدم
حتى قاع البطن حتى ليل الصدر
نسي في مكان ما قافية الذهب والآلة
لم يبق منه غير غياب الجسد
غير انجذاب للفراغ وكوكب عواطفه المنطفىء
لم يبق شيء فيه من الموسيقى الداخلية
لا شيء مما كان غروره ونشيده
لا شيء من ذاك الحب الذي أحب به الفقراء
لم يبق إلا مكان الظلمة والجرح

مررتَ بالمدينة حيث الذين رغم الحدثان أعطوا لكل شيء معناه علموا
كيف يثبتون لك في ليلة أن منهم يا غبي أن منهم
يا للسكين فيك في أرق مكان فيك
حتى منهم لا تستطيع منهم أن تنتظر شيئاً

أنت هنا أمام الهوة والأسى بين يديك

ها هم وقد عربد فيهم المد المر
كان من قبل جزر نهر إلى مجرور
جَزْر غرق على زبد البحار
جزر الجحيم همّ فجأة في الانسان

---

(١) نوع من الزهر .

ماذا فعلتم بصبركم الطويل البطيء
العسير من أب إلى أين
ماذا فعلتم بنا أنتم يا من كنتم حتى الآن
أشباهـــي
ماذا فعلتم كنار في سكرها

لقد ظهرت عليكم من جديد دلالة البهيمة التي تعذر الظلم وتبين أسبابه
والملكة العنف فلا أستطيع أن أرتمي على ركبتي اله لعله يفهمني
أو أن أجعل الشمس شاهداً معي لعلها تنكر
ما أرى

يمضي الزمن وأفكر لا شيء له وزن

كان الشقاء عظيماً والخيانة فيكم والتهديد بالاحتلال
وأنتم تسمعون صرير مفتاحه في القفل
ما كنتم تمسكون به بأصابعكم سرقوه
كنتم ترون السكين في ابنكم وأذنكم
تسمع استمتاع الوحوش
لا حجر يستند إليه رأسكم لا ظل يختبىء فيه النوم
في خيالكم وقف جدار
لماذا بدل ما فعلتم لم تحملوا على العدوّ
لماذا لم ترموا بأنفسكم على العدوّ حتى الموت
بقرميد وعصي من خشب بالغضب والقبضات
لقد فضلتم أن تنحوا بغضبكم على أهلكم
تقولون إن الشقاء كان عظيماً إن الألم من بعيد
من سحيق كان يصيح
ولقد كنتم كأب شاب يخنق صغيره لأنه نهم للنوم
من باع الفجر بلحظة سوداء
العقرب التي يحيط بها الجمر فتلسع ظلّها

تلك هي الأشياء المنزلية الصحاف والثياب

ديست سلبت على هوى الاحتقار من أجل لا شيء حتى ولا النهب
هجم الجار على جاره من أجل كلمة غامضة ووضع أصابعه بعينيه
أنت يا من تقول كان يهودياً ألا تخجل من لسانك

انصرم يوم على خطوي الضال في خجلي
وصم المساء على ما يسمع النهار
والقى على الكل رداء ثقيلاً بطيئاً من صمت
وأزهرت وردة في سماء السطوح
وردة لم تخش أن تبدو كدم مسفوح
أنظر أين تمشي يا شاعراً وهذا
الطفل تحت قدمك كحليب مراق

إلى م سوف يؤ ول البشر وأشدهم املاقا
لا يخشى أن يفتح كبرتقالة
الحبلى أو كرغيف برسيم
يحطم الشحاذ الأعمى
لأنه لم يجلس أبدا على طاولة القسمة
فوقف هو والقتل وجهه كمحصّل الضرائب
فدخل إلى عائلة جلست إلى حساء البؤ س
فيما خادم الاسطبل والكسول ينتزعان أسمالها

آه لكم انتظرت شر السلطة
فما كانت الجريمة غير بطانة رداء الملك الأبيض
وكانت تجري دموعي فلا أعرف
سعادة العذاب من جوع ومن برد
فإذا جلاّد يسمّرك على صليب

يا شعباً ضالا ما فعلت بأخيك
وما أغدو أنا ما دمت أنت الذي كنت تنام على الأرض القاسية
إذا أنت الذي كنت تضع أصابعك المبتورة تحت الخيل التي ازينت بالذهب
إذا أنت ما اهتممت بكاسب خبزه مثلك مثلك

بيد كأنها أداة من حديد إذا أنت الذيَ مثلنا يضطهدون ويحطمون
إذا أنت الذي قدمه كجمر انطفأ
إذا أنت الذي كحبة تسحقها حجر
إذا أنت الذي كجسد تشد عليه ذراع

كيف أنهي حياتي وجملتي

*

كذلك كان يفكر المجنون يعصر فمه ما لا يقول من زقاق إلى زقاق من رعب إلى رعب أذناه تضطربان وقلبه بين مخالب تنين

وجد نفسه فجأة على ذاك السطح بين بيتين توأمين فوق المسيل الذي كان ينظر منه وعمره خمسة عشر عاماً أو تقل إلى التي كانت تتسلق على نفس الدرج من ظل التي ضيعت ملامحها صوتها واسمها وذكراها فأجدى ألا نتكلم عنها

مضت الحياة كلها لن يصعد بعد أحد الدرجات فيجلس هناك يسترد نفسه الفتى وانظر إلى يديك العجوزين بت ولا حاجة لك بمرآة

أنت تعود هنا على نفسك كنابض أيام كانت الكلمة في فمك ناراً حنوناً

هنا تعود فتقيس النسيج وقد مدّ زمناً طويلا

يا بشراً من لحم وتعب يا أنتم الذين تمزجون نحيبكم بالنوم
هل توجد لغة بعد الآن بين يأسي ووحشيتكم
أي معنى بقي عندكم للمغامرة الانسانية

وفيما هو يتأوه تحرك شيء في زاوية الزقاق لم يتبينه أولا
حد الجدار فخاف العجوز
مسكين قيس لو أنه الموت أما كنت ترحب به
فما بقي لديك اليوم ما تكتشفه من قسوة الآخرين
لكن الرعب هو أخ الرعب
رأى فجأة خوفه ينعكس فيما يحرضه كماء بئر تخشى من يتراءى فيها

زوجـــان

فتى أحاط بذراعيه امرأة ـ طفلة جعل جسده درعاً من الأنظار الغريبة لهذا الشيء الحلو الخافق وقد أمسك به غزله

فأحكم فما تحزر أنها الحبيبة
كان كل شيء جامداً خانقاً خالداً
وأحس العجوز فيه بجرح غصن شوك قبض فجأة عليه

ربما كان الفتى جميلاً ولو أنه يبدو قوياً من كتفه وذراعه قوة صعب تقديرها فهي ليست قوته وانما

ما ليس له إلا في زمن محدود تلك القدرة التي تشبه كوباً ما يلبث أن ينتقل إلى آخر

ولقد ظن أنه فوجىء دون أن يعلم من خطر ففكر بأن يحمي ما يضم مما لا نعلم أي سلاح أو أي مسّ به

كان يدور حول نفسه يفضل أن يعرض للقاتل موته
ورأى المجنون ففتح فمه وعينيه
وارتجف
لا من أجله ما من أجله انقبض قلبه
أبداً ليس من أجله

لقد فهم شيئاً قالته هنا امرأة شبابه تلك منذ عهد بعيد

شيئاً حمله معه خمسين عاماً خمسون عاماً مضت لم يكن لها معنى دقيق عنده تمتمة بقيت في عوسج الذاكرة لثاماً علقه العليق ولا غير من حبيبة فرت

كان هو الآخر يمسك بها هنا بين ذراعيه
هو أيضاً على صدره قريباً فما يستطيع أن يراها
وقالت المرأة قولا غريباً خفيضاً

ما يعجبني فيك أيها الفتى هو نورك

وزحف الليل إلى النهر فابتعد ومرّ بيده على وجهه وقال بصوت واطىء لنفسه وحدها هو نورك

يا ليل اسرقني من الشباب
آه أنا الذي يجب أن تحميني بذراعين سوداوين
أحقاً كان يشع مني في الماضي
هكذا النور

لقد كفته ومضة من تلك العيون العاثرة في حبها حتى يبدل أساه طبيعته فيلقي به في هوة

أخرى يصطخب فيها سيل السنين

لا أعرف كيف عاد إلى فراشه ففقد الوعي بين تلك الجدران الأربعة بكل شيء إلا حلمه ، وارتمى فوقه رداء عظيم من حمّى . . . حلمه في أن الرجل والمرأة معاً هما معاً الجواب على كل سؤال ، هما اللذان لا يستطيع شيء أن يفرق بينهما ، منهما يولد خير العالم وجمال النهار .

[٥]

عشية أخذت غرناطة

وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين

القرآن ـ سورة النمل

١

الشقـاء يقـــو ل

مع هذا لا بد من أن أغني
لا أستطيع أن أكون صرخة فحسب
شيء في عنيف
يبحث عن شق عن فجوة
يمر منه العصيان

إنه يعضني حتى الروح
ويلقيني النحيب أرضا
انه يحرقني بلا لهب
أنا بحاجة له عند كل اغماءة
هذا الألم لا يجد الكلمات

ما يكاد يبكي القلب
ما تكاد تند عن الدم نأمة
يأتيني كاختناق من خوف
كرماد لما ينطفىء
حطب ينسّ ليلاً

كيف تريدون أن أحيا
وأنا تمرق مني عبثاً الرياح
الجداول تتكلم مع ضفافها
الأسيرات مسموح لها
بأن يبكين على الأقل سماء الماضي

أحس أرجوان حريق
يصعد إلى وجهي
وتحاصرني الصور
التي تبحث عن موسيقى ولغة
وتقول أبهة الشقاء

أعطوني فم الأغصان
جنس القصب المظلم
والنرجسة وزهرة العناق
ورعد السيل
وحلق المياه الظليل

أعطوني غناء النوافير
مرسية وأماسيها الحلوة
« ميورقة » والجزر البعيدة
وزوارقها القلقة
والسدود وراء قرطبة

وحقل الفضة حد اشبيلية
اليانسون حول المرية
والجبال كلعبة أوتاد
وهضاب النرجس
وقد ركعت عليها غرناطة

تلك بلاد الألف تاج
حيث المرمر يلونه القرآن
وتستسلم الأرض للانسان
وتطلع شقائق النعمان
على خطوات الفاتحين الزرقاء

عالم يحزم أمره على الموت

الطواويس في باحة الأسود
تعدو كأنما لانتحار صارخة
بنهاية المملكة الناصرية
وثورتها الكاذبة

أسمع بكاء في قلب القاعات
في ناحية دابة ترفس
صندل على بلاط
والزيزان في الجبال
والصمت في الشارع

أي معنى دقيق لهذا
لماذا أنا في هذا القصر
المشرع لرياح المنفى الباردة
في الساعة التي الملك أبو عبدالله
يطلب حصاناً إلى خدمه

هكذا يركب الملوك البحر
وليختر من شاء معهم الرهان
في أعلام جديدة وأوهام جديدة
وما من مشهد أمرّ
من أن ترى موت وطنك

القصة التي أروي هنا
هي قصتي على شكل آخر
مع هذا وبعد كل حساب
ان نفس الحب ونفس الخجل
هو سر هذه الرواية

أنا دائماً نفس تلك الوخذة
الديكور نفسه أو يتبدل

لا شيء أكيد غير ألمه
لئن تقززتم من جرحي
مهما كان أنه جرحي

أتكلم صدى كمرآة
كلماتي مقنعة
ومن ظن جزافاً أنه يراه فيها
يضيع في قلب بستان أسود
ليس فيه غير قبور محطمة

مع ذلك ما من أغنية
إلا وتكون ظهرا نصف الليل
وما يبدو جنوناً
من تدمر لغرناطة ونومانس
له عقله الذي يقودني

أصغوا إلى ما يبكي فيكم
من قصص الزمن الماضي
والحبة المخيفة التي تبذر
فتنضج من قصيدة إلى قصيدة
ثورات تتجدد

٢

في الساعة التي الملك أبو عبدالله . . . منذ الساعة تسقط الأسماء العربية من فمي كدموع ، منذ الساعة غدت المرسية ميرسي ، والارث أصبح في أيد أخرى . . . يا الهي بت لا أملك شيا ، حتى والحلم ، ولسوف تزهر من جديد بساتين شعب ، فيقطف شعب آخر البرتقالة والكرزة . . .

ما أصعب أن يتجاوز عدل الانسان حدود جسده عبثاً تطلبون من العربي ، وقد جرد من ملكية أرضه ، أن يشارك في آلام المستقبل ، أن يجد نفسه في اللذين طردوه ، أن يستمع إلى خفقان قلبه الاسباني ، هذه الأرض سوف تظل مع كل هذا مسرح تراجيديا ، ولن يبدل ربيعها أنها تبدلت آلهتها . في الساعة التي يئس فيها أبو عبدالله ، من أن يتعرف على نفسه ، بين الخير والشر ، فوحد

بين هزيمته وهزيمة الأخلاق الاسلامية ، ومن من أولئك الذين كفوا عن التسلح بإيمانهم يستطيع أن يتصور القرون المقبلة ، والآلام الآتية ، وجحيم غالب اليوم ؟ ولئن أراد الله ، أن يكون بعد الآن حد الاسلام هنا ، فلسوف يشاء الآلام لمن أقاموا هذا الحد . شعب في اثر آخر ، يجد بعده المكان الذي تسيل فيه الدموع من جديد . . . كما حل المسلمون على هذه الأرض محل العجمية الذين كانوا يسمون غرناطة بالرّمانا[1] .

في الساعة التي روع فيها أبو عبدالله من تلك الليلة طرقت جدران بيته ، ومن الدم المراق ، ومن الموت الذي لم يكتف باليهود ، بل حاق برجال بلاطه ، وأعيان ملكه . . . في الساعة التي لا يؤمن فيها أبو عبدالله بشيء ، لا يؤمن فيها بشعبه ، أو لا يرى فيه على الأقل غير لوم قاتل يدنو من سريره . . . في الساعة التي يأخذ فيها دوار الهزيمة أبا عبدالله ، فلا يسأل إلا عن سبيل أمينة لفراره ، ومن معه ، ما بقي وأمكن حمله من أبهة حطيم . . . في غرناطة لا شيء إلا ذهول يتلو العنف ، والذين حوّلهم اليأس إلى وحوش كاسرة وجدوا أنفسهم وقد جلا النهار عيونهم ، في حيرة من أنفسهم . بحثت عيونهم عن القادة المجهولين ، الذين نفروا على نور المشاعل ، فتبعوهم إلى المذبحة ، ما حلّ بهم ؟ أين اختفوا ؟

لا شيء الآن يوحد بين الألم والألم ، لا الله الذي خان ، ولا الملك الذي يتكلم باسمه . لا مبدأ ، لا ايمان ولا مجتمعاً اتفقت مصالحه . . . في الساعة التي يود فيها أبو عبدالله أن يقول لملكي قشتالة وأراجون أنه يتنازل عمّا تركوا له من أجل ، من مهلة لحكمه غرناطة ، عما يقارب الستين يوماً من تسعين وافقوا عليها . لا أحد يعرف كيف يكلم الجمهور ، ولا أي هدف يعطيه ، ولا ما يقول له عن الغد . . . ويلتقي الناس هنا في يومي أحقادهم ، في قصصهم المبتذلة الصغيرة ، تعميهم الدموع ، حتى ليستبيحهم السم المر ، وتطهر المنافسات وصغارها ، ويتحول الغضب لدى كل خطوة ، ويصطدم الغرناطي بالغرناطي ، إذا خرج لشأنه ، في كل خطوة ، فينحي عليه باللائمة دون سبب ، فما يتسع الوقت لحسم نزاعات غير ما تحفل به زاوية الشارع . . . لا أحد يصغي لهذا النشيد وقد تأخر حتى برز ، لا أحد يغنيه هنا أبدا . . .

٣

حقّ على الذين كان اسمهم عربياً على الكتب ألا ينظروا إلى دمائهم

لأنهم زُرعوا في هذا البستان وقد عَبَرَهُ من الشعوب ما لا يستطيع أن يقول معه أحد تحت أية خيمة نامت أمه

إنهم كحَبٍّ في راحة الأندلس وقد

امتزجوا وكم عربي شعره أصفر وأخوه جلده كالليل من يقدر أن يقول أين يبدأ

---

(١) الرمّانة : اسم غرناطة القديم وقد تحوّل إلى جرناد ومعناها الرمّانة .

اليهودي أو الاسباني فلا تتعرف عليه حتى من الهه
كم منا من هو بغلٍ دينَينْ
الذي ورث صليباً عن أمه هو كريح افريقيا

أما المستعرب ذو النطاق الجميل الذي يرقص في معبد كنيسته مع العذراء
والمسيح عند أهل قشتالة فماذا ينتظرون اليوم

غير أن تبعثر مذابحه(١)
البربري الذي عبر البحر نجدة قدمه في الميراث حتى أن
أهل أرض الأندلس يخضعون لحكمه
بعد أن تمزقوا عشائر وممالك
كأن محمداً ما جاء بغير الشيع والفوضى
من ينقذك هو من يمزقك بأسنان جوع جديد
يا شعب ألا تسمع طبول غرناطة
هوذا آخر يوم تسترد فيه قوتك ونارك
آخر يوم تحمل فيه علم الأمويين الأبيض العظيم

آخر يوم لعلك تتوقف فيه عن الشتيمة فلا تريق خمرك على مائدة أخيك

آخر يوم تنسى فيه النزاع من أجل سرقة حبة كستناء
ولعنة امرأة وجدت لذتها عند جار

آخر يوم عند أبناء الزوجة الثانية فلا يشاكسون في أرض بذرة الزوجة الأولى

آخر يوم يكره فيه الصائغ سائق العربة

آخر يوم تبصق فيه أمام ابن السفاح أو تدعو فيه غريباً من لم تكن لهجته لهجة المدينة

آخر يوم على احتقار الريب أو الشقاق
وأخشى ألا يمتد الزمن بك فتفتح بابك للجائع
أو تمنح المجذوم قبلة قبل سواه
ألا يمتد الزمن بك فلا تخيط غير كفنك
وتحفر حفرة عامة

---

(١) جمع مذبح .

دع عنك تصفية النزاعات ولا تذكر العار
يجب أن تبدل صياح فمك والكلمات في عروقك
لا تذكر عدوك في الصباح ما الذي شغل ليله
آه لو أني اقتل عامداً من لا ينسى هذه المرة أنه كان على حق
ألق بأوراقك أقول لك لن تربح إلا في الخسارة
ألا تسمع صهيل خيل قشتالة تذكر فحسب
أخذ الهامة وسقوط القلاع
انه آخر يوم كحقل قمح
آخر يوم كحزمة شوك مشدودة
آخر يوم من غير خطأ
آخر يوم تعدو فيه كصيحة إلى كوة السور
آخر يوم تنقذ فيه غرناطة

٤

نام المجنون ان كان هذا نوماً
في غرفته ذات الأسماء المكتوبة
تنتابه الحمى والآه
منذ أن ذهب للأمير
من جراح جرحتموه

المجنون يحلم ان كان هذا حلماً
انه كبريت الألم
محروم من كل شيء
ولون الخردل
في عينه الفارغة من الرؤى

المجنون يرى ان كانت تلك رؤيا
عار عن النظر ورؤية الغياب
البارحة لا ذاكرة له
اليوم ليس إلا ألم
وغدا لا معنى له

سعيد من يموت أولا

قبل شعبه قبل مدينته
فلا يبقى منه شيء
ينطفىء للأبد بلا ضجة
دون أن يقول لتكن مشيئتك

كان ينتظر ينتظر
معجزة آخر ساعة
لكنما في روحه الحبيس
تأخر الموت عبثا
والعيون التي ملكت لبّه

عبثا أؤمن أكثر بك يا حب
من هذه الصحراء تلمسها يداي
وصمت الذباب هذا الأسود
بالخاتم سقط من اصبعك
بالقبلات الضائعة من فمك

عبثا أؤمن يا حب بالحب
بقدومك بحضورك
أو التفت إليك لعله يسبقك
هذا القلب الذي جعله الحب ثقيلا
وعلى جبيني الليل كثيف

غلالة على نظري ينطفىء
الكل يمحّي ينصل
وتذبل الروح في الجسد
فيك أنت يكتمل قدري
يا من أدعو مرة أخيرة

كوني مرة أخيرة خمراً
ترتوي منه أخيراً شفتي
يا امرأة يا شعلة دائماً جديدة

أنا جائع إليك حتى الدماء
أجد فيك دليلي النهائي

إذا كان العالم ما له أفق
إلا لابداع أو بكاء أو لعن
فيا للشقاء من السمت للنظير
ويبقى أني عشت لسبب
كان حتى النفس الأخير قول اسمك
الســـا

٥

أين الذين تفخر بهم رماح سمهار

انتصب قائماً في ثوبه انه رجل دين ـ محارب[١] يتكلم
وغلالة غضب قاتمة على وجهه يضطرب لها نفسه في فمه

لقد اكتفى طارق بألف وسبعمائة رجل كي يضع قدم الله على اسبانيا

ولم يستطع لذريق بتسعين ألف خيال أن يرميهم إلى البحر
فأرسل البربري رأسه إلى طنجة كي يستمتع بها ملكه[٢]

أتذكر يوم بدر وقد حق للابن أن يقتل أباه لأنه لم يركع أمام الله العلي

يوم حرم على المجاهدين الفرار أمام ضعفهم من المقاتلين وخيلهم بلق وضعوا
لها شارات تعرف منها كما تفعل الملائكة

ذاك الصباح ظنوا كل شيء ضاع لكن كلمة الأزدلاف كانت أيها المنتصرون

أتذكر الذي بصق التمر من فمه وهو يحمل على العدو لعلّه يأتي الله بلا زاد

أو تنسى أنه قيل في تراب الأندلس أن ذرة منه أفضل من ثواب الصيام والصلاة

وأن الجهاد في سبيل الله هو أعلى الايمان

---

(١) (٢) يقع أراجون في عدة أخطاء تاريخية .

يا لون الاسلام في هذه البلاد أهنالك أروع أو أجمل من دمي
إذا أريق على أرض الأندلس

إذا لم يروّها القرمزي تسحبه من الكافر كخمر قبل أن يقتلك أحد أهله

فلأسقط عن سرجي وقد قطعت قبضتي ولأقاتل راجلا بالأخرى
غنّ حتّى ثمالة روحك
واحفظ على شفتك ضحكتها إذا طار رأسك
ولسوف ترى عيناك جنة أعرض من النظر
يا ملكاً آخر سلالة الذين الجأوا النبي
هنا ثغر الحدود وأنت واقف على طرف الاسلام
وليس أمامك غير أرض الموت
علم مطيتك بشدّ ركبتيك أنها جواد الله

كان القائل رجل دين محارب في صوته بحة الصحراء
صنهاجي خلق من رمل ورفض
ألقى على الحمراء من حنجرته النذير
عملاق ملثم بالسواد على عتبة قاعة الأسود
جماله عبث عبث رنين مهمازه القوي على الهضبة القرمزية
وكأن أحداً لم يسمع قوله
لا الملكات ذوات الأقدام البيضاء يحمر لها المرمر
لا الولدان في العتبة في ضجة سناجب وبندق
لا فرسان زناته وقد أبطأوا في اعتلاء خيلهم إذ لمعت بعد تمشيط
ولا الظبي خطر بين سادة وعبيد
ولو أن يداً لا تداعبه الا ويقفز على قوائمه الزجاجية
رجل دين ـ محارب في آخر أيام غرناطة
في قلب الأبهة وبكاء فسقياتها الأزرق
يرفع عينيه فيرى الصلوات المنقوشة
في كمال الحجر والمينا
يزينها محراب الجبال المكللة بالثلج
فإذا خفضهما لحظة على غدو الخدم ورواحهم والمتاع
وفوضى قصر يخلونه للرحيل
فجأة بالرغم من عنقه الجبارة
وذراعيه وقد حملا الموت كطفل خفيف بين المرتدين والمسيحيين
والفخذين الطويلتين اللتين أكلتا مرات كثيرة الأفق

يتأوه الطارقي كبهيمة حاصرتها الكلاب
يبحث بعينيه عن الملك لعل الملك يأمر
فتطير السيوف والأعلام

يا لعيني لو أنهما لم تتأملا آخر زمان الأنصار
عيناي اللتان لن تغلقهما يد النساء
يـــا للطـــراد

لكن أبا عبدالله لم يهتم بهذا الجلف العظيم اليائس
ألا يعلم منذ أجل بعيد أن ما من مملكة الا وتمضي
لقد ضيّع الأموي قصره منذ أمد
لا المرابطون ظلّوا يملكون هنا ولا الموحدون
أين ملوك الطوائف وقد تمزقوا كرداء
لم تستطع كل عظمة بني ناصر أن تنقذهم
وقد جاء دور آخرهم جميعاً
أولم يقل النبي أن الحرب خدعة
والقول هذا ينطبق على كيفية الانتهاء منها
ولا بد من أن يكون حساب ما يأخذون من مجوهرات وسجاد صحيحا
فلا يلهيهم صخب الفرسان الافريقيين الغبي
المرج فقد للأبد اسمه
انه الفيجا يصطخب سلاحاً وآلات ونسيجا
ولسوف تدق ساعة الملكين الكاثوليكيين على الأبراج القرمزية
لقد فر شبح عبد الرحمن عبر الريحان
ولا نجلس بعد وأبناءنا ونساءنا بين الكروم
وهل تثق بالتسليم
وبعد فليمت اليهود ومن لا يبيعهم بثلاثين ألف دينار ذهبي
وقصر اندرش الصغير في قلب مقاطعته ما أحسنه للصيد
نستطيع فيه أن ننسى على صوت الموسيقى

هذا وبعد غرناطة مدينة ملأها الذباب
كان امراؤها على خلاف دائم والأحزاب
المؤامرات والسلب وشقاق الفلاسفة
يكفي الانسان كأس يشرب فيه
وسرير للزنى

يا رفيقاً من وراء الريف[1] يا من تحمل الليل على وجهك
لماذا تظل واقفاً كملامة ما تنتظر
أصمت من تاء مربوطة في نهاية كلمة
أيها المرابطي يا سليل شعب غريب يحتقره أهلي
لن تدخل الجنة
فأنت مرتزق عنيف الجسد والعواطف
نهّاب مدن احترقت عبر رعب البنات
يا قاطع النخل ما تنتظر من المستقبل والمشركين
انزع سوادك وارفض إلهاً تخلىّ عنك
أو تباع في البازار كبهيمة
لفلاح قد كفت ناعورته عن الدوران
ألم تتعبك زعزعة السماء بسيف من ملح
ألم يتعبك القتل باسم الهك
فلم توفر صبياً صغيراً تأكدت بيدك تحت الرداء أنه في عمر المتعة
يا رجل الدين من يكلمك هو ملكك تعلم منه
ألا اله في روما ولا في الاسلام
التضحية جنون عند كائن من لحم
لأن ما يعطي في آخر الحساب الحياة معناها
ومعنى كل الذي كنّاه
يكمن يا جنديا بلا أمير وناسكاً بما لا يوجد
يا هجّاناً بلا جمل يا قوّاد امرأتك
في زنا روحك وعهر جسدك

٦

ما تهم تفاصيل تلك الأيام التي قدم فيها الملكان فأخذا مكان الأمير ؟ ولعلها لم تكن غير روايات كاذبة ، لبناء الأسطورة التي تزعم أن أبا عبدالله اتضع أمام الزوجين الملكيين ، وتؤكد الحكاية التي تذهب إلى أن ذلك العربي جاء فبكى في مكان دعوه من يومها التنهدة ، وما قالت له أم خجلى ، فما نعرف من سمعها ، فأعاد قولها على المؤرخين : وأنا لنشك في أن الملكة عائشة وجدت

(١) شمالي المغرب .

المناسبة تتسع لكلمات رجيمة . لقد اعتمدت ولا شك فيما بعد مقدمة « يوميات كريستوف كولومب » التي يخاطب فيها الملكين الكاثوليكيين ، بعد شهور ستة ، عندما أقلعت السنتا ماريا ، التي سماها بحارتها « ماري الرقيقة »، فقد قال في الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ ، أنه رأى أعلام اسبانيا على ابراج الحمراء ، فيما خرج ملك العرب ، بعد أن قبّل يدي سموكما والأمير ، سيدي . . . لكن المقدمة هذه حفلت باختلاط صارخ في مواضيع أخرى عديدة ، وفي التواريخ (متعمّدة ولا شك) ، ونلاحظ جيداً أن كولومب قال أنه رأى الاعلام تخفق على الأبراج ، لا حادثة تقبيل اليد . . . وأتتنا شهادة أدق من جان مولينه ، وما كانت غير عين من عينيه جريحة ، إذ وصف وصفاً دقيقاً تعاقب تلك الأيام ، فلم يتحدث في أي مكان عن تقديم أبي عبدالله فروض الطاعة لغالبيه ، ولو أنه حدث لدعي إليه ، فروى ما شهد : ويظهر من مقارنة روايته بالمخطوطات العربية أن المونسينيور جوستاريوس دوكاردين ، قابل في الثاني من ربيع الأول أي في ٣٠ كانون الأول سنة ١٤٩١ ومعه ستمائة خيال وأربعة آلاف راجل ، في ظاهر المدينة ، جواباً على دعوة محمد الحادي عشر ، في قصر لوس أوكزوراس ، علية الغرناطيين الذين رافقوه إلى الجامع الكبير فوضع اليد والملكية عليه باسم ملك اسبانيا ، دون أن يكون الأمير هناك ، وبعدها عمد قائد القطعات الاسبانية ، إلى رفع اشارة الصليب على أعلى برج في المدينة ، وإلى انشاد « تي ديوم » . لكن أبا عبدالله لم يشارك في هذه الاحتفالات لا هو . . . ولا فرديناند وازابيلا اللذان ركعا في معسكرهما عندما ارتفعت الرايات . . . ثم اهتما بعد ذلك باستقبال وكسوة سبعمائة ، بين رجل وامرأة ، حرروا من سجون المدينة ، قاموا معهما بموكب في كنيسة سانتافي . وفي يوم الخميس الرابع من كانون الثاني أي الثالث من ربيع قدّم المونسينيور دوكاردين مفاتيح القلاع ، والأبراج ، والقصور ، وأبواب المدينة إلى المونسينيور ايفيروس دومندوسا سيد البيت الملكي ، ويرى من هذا أن أبا عبدالله ليس هو الذي حملها إلى الملكين الكاثوليكيين . . . كانت غرناطة منذ زمن بلا أمير ، فقد اتخذ ، وأهله ، وحاشيته ، وما ملكوا ، طريق الجبل ، وفي السبت التالي أي السادس من كانون الثاني ، أو الثامن حسب رواة آخرين ، دخل ملكا قشتالة وأراجون ، وابنهما دون خوان ، والكرادلة والأساقفة ، وقواد الجيش الكاثوليكي ، وممثلو الدول الأجنبية ، في عشرة آلاف خيّال وخمسين ألف راجل ، إلى آخر ثغور الاسلام . ولم يذكر جان مولينه الملك العربي ، فيما كتب ، عن تلك الأيام . . . وما حاجته في تقديم مفاتيح الحمراء إلى غالبية المتوجين ، وفيها منذ حوالي اسبوع حامية اسبانية ، يحفظ جنودها أمن المدينة ، وينظفون الشوارع من الأثاث الممزق ، والصحاف والبلور المكسر ، ويدفنون الجثث المتروكة ، ويريقون الكلس على المجذومين الأحياء منهم والأموات . . .

هنا أدع الملوك ، المسيحيين والعربي ، أدع هذا في قصر أندرش أو أندراكس ، إلى قدره الأليم ، إلى خيانة الحاجب الذي وضعه بعد سنتين من ذلك أمام أمر واقع صفقة عقدها ، اشترى بها فرديناند القصر والأرض بالذهب ، فأسقط بين يدي الأمير الذي لم يبق له إلا أن يعبر للمغرب فيموت هناك بعد أربعين سنة في معركة ضد حملة اسبانية . . . أدع أبا عبدالله وقد غدا أغنية مغنين لمجد المسيح ، وعار المسلمين ، وأرجع إلى اليوم الذي فيه رفع المونسينيور دوكاردين ، استاذ منظمة سان جاك الأكبر في ليون ، علم هذه المنظمة مرات ثلاثا على أعلى برج ، صاح فيه مناد عسكري :

سانتياجو سانتياجو ! كاستيلا ، كاستيلا ، كاستيلا ! غرناطة ، غرناطة ، غرناطة ! من أجل السيدين الأرفع والأقوى دون فرناندو ودونيا إيزابيلا ، ملك وملكة اسبانيا ، اللذان ربحا مدينة غرناطة هذه وكل مملكتها بقوة السلاح ، من الكفرة العرب ، بمعونة الله ، وأمه العذراء المجيدة ، والقدّيس المبارك سانتياجو وبعون ابينا السامي القداسة اينوسانتيو أو كتافو ، منجد ومعين السامبي الرفعة ، سادة وفرسان ونبلاء ملكهما .

وفيما اتجهت عيون الشعب وغالبيه إلى هذا المشهد ، وقد أصمّها النداء ردّده أربعة آلاف وستمائة جندي اسباني ، سانتياجو ! سانتياجو ! . . . كان ثلاثة فرسان ، يركبون أحصنة عارية غير اللجام ، يسوقونها بأفخاذهم ، وقد انحنوا عليها للطراد ، يمرون في حذاء الدارو ، على مستوى باب الطبول ، في ربض غرناطة الغربي ، ثم يصعدون على منحنى البيازين ، تند عن أفواههم الشاحبة في وجوههم المسمرة نقرات لسان غريبة ، لا تفهمها غير مطاياهم . . .

وأوقف أولهم ، وأقلهم سمرة ، حصانه بدفعة من أصابع قدمه في ابطه ، وقفز فدل رفاقه على بيت المجنون قائلا : isna piskaro ker [1] ، إذا كنت فعلا حفظت هذه المقاطع الغريبة التي أجهل معناها ، وهو فتى في الخامسة عشر . دخل وحده أولا إلى بيت استاذه ، فوجده على فراشه ، مزرق الذراعين ، منتفخ الوجه ، مغمض العينين ، غطّاه الذباب ، وهو يقول في سكره :

الــوزّال

ما أسعد الوزال
أزهارها تولد دائما
دون فصل غير الشباب
ولا قدر لها سوى أن تكون عاشقة

حياً أم ميتاً آه لا فرق عندي
ان لحق خطوي بخطوك
إذا أضلني إلى حيث لست
تخون العين أو الأذن

يا مأساة الديمومة
الغد شبيه بما مضى

(١) يا غجري هذا بيته .

هذه الحياة حرب
نحن عنها افترقنا

فيّ أنا ماذا يبدأ
ما هذا التمزق
براح الحبيب هذا الطويل
يحس انما به يمرع الغياب

يمرع فيه الظلّ والخوف
من ليلة ما لها آخر
من شتاء ما له صيف
لا يجوع به أحد ولا يبرد

أجهل بماذا أؤمن
هل بارحتني الروح
أم اشتعل الوزّال
وغادرني أسود الوجه

ميتاً أم حياً الدم
الخافق فيّ يفر
ما أمر شهادة
ذلك الذي به أحس

أسقط في عمق ذاتي
من قلق لا ينتهي
لأني لا ألمس يدك
لا أقول أبدا أحبك

منذ كم من السنين
أعيش هذا الخوف
وأقيس موتي

بلياليّ وأيامي

بقلبك بأنفاسك
وكأعمى أغدو
قليلا قليلا أعرف جيداً
أني يفر مني نوري الانساني

لست إلا كلباً جريحاً
نحيبه ضئيل
مساء وراء الباب
تركوه دون أن يفطنوا له

عندما عني تبتعدين
ياحباً لا يأبه لي
ميتاً أم حياً يأخذني خوف
خوف ينتابني من أن ترحلي

الحلم بذلك يقتلني
عاليا وحيدة سريعاً
صغيرة صغيرة
نجمتي أين تلمعين

يا نجمتي الشاردة
يا نجمتي وعذابي
يا نجمتي عبثا
أبحث عنك في آخر الدنيا

كقطرة مطر
نجمتي تضيع
نجمتي في السماء فريدة
دمعة تلمع بعيداً

يا نجمتي يا بؤ بؤ عيني
يا سعادتي البائسة البعيدة
يا نواسة قبل الصباح
على هذا الفراغ العظيم الأبدي

يا نجمتي يا صيفي
يا دهشتي بالورد
يا أنت التي في كل شيء
بريق بقي لي

يا نجمتي الزرقاء والبيضاء
يا ألمي يا جنوني
يا ذاكرتي ويا نسياني
يا نجمتي بألف غصن

يا امرأتي ويا ابنتي
يا صيحة قلبي يا كلمتي
يا الكل يخفيها ويسرقها
يا التي تنشق لها أحشائي

هكذا الزمان والمكان
سوف منا يتمزقان
كركب على حجارة
ككأس يتحطم

يا نجمتي وليس لي طاقة الوصول إليك بعد
بقي لي أن أنطفىء
مع نار الوزّال

شكوى زيد

لما علمت أن أستاذي قيساً بن عامر النجدي الذي يدعونه حسب رغبته لا سخراً بالمجنون غدا عشية أخذت غرناطة مجنوناً من انتزاع ملكية شعبه وملكيته هو

لم أشعر وأنا في بيته أني دخلت كلص
جلست على الأرض والجدران مغطاة من كل ناحية بِرُقْيا لا أمل فيها
حروف من كل اللغات تنطق باسم الحبيبة

أخذني فجأة البكاء على كل الذين رسموا على الجدران سر قلوبهم البوح والنداء والاعتراض ضد الغياب

أنا وقد تمزق جسدي منذ تلك الليلة فكرت في دهشتي فكرت أن أكتب كلمة سمحا التي تعني لدى آخرين الفرح يا كلمة

باتت عندي ولا معنى فليست هي الاسم أتمتمه رقيقا فيجيب صوت
يا كلمة لم تعد اسما

الحياة كلها أمامنا هي صحراء بعدها
أَبِنْ لي أستاذي كيف يمكن للمخلوق أن يفترق عن دمه

لما دخلت بيت أبيها وكان غابة هوت كل أشجارها وما زال فيها دخان الصاعقة

لم أَرَ سواها يا للفظاعة لم أر غير لماذا كونني مجهولان في عناقهما

غير لماذا خلق العالم منذ آماد كي أراه ذات يوم
والشعوب ولدت في جبال بعيدة
حفرت مجرى يذهب إلى البحر

جعلت المياه تلتقي على طريقة السيوف
ركضت في الأرض وتعذبت من أجل هذا

حياتي كلها أمامي كشيء سرق
آه لمست الجسد الذي بقره رجل
أخذته بين ذراعي ولا وزن له بعد أن طارت منه الروح
خفيفة خفيفة حتى لتمشي وأنت تحملها في الليل إلى قسوة الفجر
وجهلت قدماي الحجارة
أين تذهب يا أنا والقمر والريح
يا نائماً على طرق لا تؤدي إلى غاية
قطعت العالم المسكون أحمل مشهد الشقاء كله وصيحات النزع
كطقس جنائزي أحرس حبيبتي
لم أتساءل أبدا أي عسكر كان حولها ولا عن ذاك الدعس
لا أحس بغير ذاك العشب المحصود
هكذا تركت غرناطة ومعي حمل قلبي
سرنا في الوادي   سرنا في الجبل
بأي نسيان بأية ذاكرة عرفت دروبي

ما يقول الذين ألّفوا موكباً باتجاه يوم الظلمات الانسانية
من أين جاءني أني أعرف لغة هؤلاء الناس
ربما أتخيّلها   وأني أنا الذي أتكلم هكذا
كلمات كي أخبىء نفسي على عادة الطفولة

كل هذا اخترعته   ما هو غير دخان عذابي
لغة قديمة كانت لعبة ما قبل حياتي
لعبة كي لا تكون بين الرمل وبيني
لغة أخفي وراءها فكري وما أنا
أستخدمها حتى الساعة في حلمي

النهار ما جاء النهار حتى تحطّم في السماء
زجاج القمر الشاحب

لم أفهم إلا بعدُ أشياء قلناها في الليل
هناك في الجبال حدّ المغائر
الأرض طاهرة حيث ترقد سمحا

*

وهكذا وجد الطفل زيد نفسه وقد أصبح رجلا عند الغجر الذين جاء منهم في صدفة رحيل ، فما يعلم أحد أهو من عرقهم أو أنهم سرقوه وهو صغير : شحوب وجهه نفسه لا يفسر شيئاً . وسع له الكاليسيون مكاناً في مغائر الشلير كي ينام . وهم يعرفون كيف يختبئون من المنتصرين الجدد في غرناطة . وجاء اثنان منهم على الخيل المسروقة مع زيد إلى البيازين بحثاً عن المطرب الذي تحدث عنه ، وقد لاموا أنفسهم انهم تركوه للعسكر المسيحي ، ولقد سمعوه أحياناً في الأرباض ، يقول السا ، التي أثارت كثيراً حب اطلاعهم . لأنهم لا يعلمون أمن مصر هذه المرأة ، أم من تُولِه . . . على خيل مسروقة ، حمل زيد والغجريان ما بقي من المجنون في جنونه ، فيما هواء غرناطة تتردد فيه صيحات الغرور القشتالي - سانتياجو ! سانتياجو ! - وينشد تي ديوم الراجلون والخيالة في أعماق ريح النصر .

وحمل النجدي على ذراعيه أقوى هؤلاء الشباب ، ملفوفاً بغطاء سريره وآلامه وحماه ، شاب يمسك مطيته الصاهلة المرنة بفخذيه ، وكأن هذه تفهم كل ما يعني هذا فتتحاشى الحصا وتقفز الموانع ، والنجدي يحلم ، ان ملائكة على خيل ، كما في سماء المعارك ، تنتزعه من الحياة . . . وتدهشه ، عبر الغمامة التي فيه ، الكلمات التي ينادي بعضهم بعضا بها ، فما كان يتخيل أن تلك الكائنات السماوية تتكلم غير العربية ، ولا يتعرف على غرناطة في شفاههم يدعونها ميلي جرانا . . .

كان زيد ، على جواده ، قلقاً ، حدّ رفيقيه ، وهو أقل منهما اعتياداً على صهوة عارية ، والحوافر تضرب الأرض فتتخيل أذنه أنها تردد نداء الحزن فيه (سمحا ! سمحا !) ، ومطهّمه الأسود الصغير ، في بياض احتذته قوائمه ، هل يفهم أنه يحمل ولداً بائساً ، يتأنق وهو يرقل ، يصهل صهيلا يراه الاسلام صلاة إلى الله ؟ ربما يذكر فحسب أنه خُلِقَ من قبضة ريح جنوبية . . .

المغارة
[١٤٩٢]

جحيم ايفان دينيسُّوفيتش ،
هو أن المستقبل لا وجود له . . .
بيير ديكس
مقدمة لسولجينيتسين

لو أنهم رفعوا مضربي بين النجوم !
أبو العلاء المعري

لو أني أستطيع الرحيل والحياة ، واللاشيء
إلاّك أنت . آه دعيني أموت معك فحسب !
أو هذه أمنية صعبة ؟
جون درايدن ، كل شيء للحب .

١

الغـــاطس

يا غاطساً كل شيء عنده بحر
يا غاطساً كل شيء عنده مُرّ

ما يروح حتى يغدو
أنا الذي مجهول ذاتي
نوري لونه معتم
كصمت نحيبي

أين أنت يا أنا   أين أنت
مرآة انطفأت   موسيقى سكتت

هنالك أمواه عميقة حتى
ليختلط فيها الانسان بالأشن

هنالك لحظات سوداء حتى
ليسقط فيها الكائن عمهاً

هنالك آلام حتى
لتخشى معها الروح أن تكون خالدة

وحدة مطلقة
فيها القلب نفسه لا يخفق أبدا

لا شيء ينتهي   لا شيء يبدأ
لا يجد العقل ولا الجنون

أهو قلبي   أم يدي
أهو سقوطي   أم طريقي

كوْني من أين أكون يمحوني
يحمل غيابي حيث أمرّ

حيث أذهب لا أكون أبدا
وقليلا ما آتي وكثيراً ما أفر

يا نفس أنا في كل مكان متشابه
بلا عينين ولا فم ولا أذنين

كشيء انصرم
ككلمة لا نجدها أبدا

يا غاطساً يا غاطساً يحرّك السقوط
مسلوبا من كل ملك

يا حثالة انصهارك نفسه
يا خاتماً ضاع وطريقاً مطروقة

يا باباً يصطفق يا شفة مفتوحة
كل شيء عندي صورة ضياعي

اسمع جيداً نزيف الزمن
حتى أن كل لحظة عندي هي الأخيرة

الزمان على أصابعي الزجاجية
وعلى ركبتي ينقلب عذابا

الزمان بات ليس ما هو
كنار وضعت على انعكاسها

كأعمى يطفىء قنديله

اسمع الزمان يدق على صدغي

أسمع الزمان   أنتظر الزمان
الذي تموت فيه الحياة إذ نحياها

أغطس فيه أبعد
فيغدو الزمان صياح حلم

معناه أن أنساه
بعد أن انفكّ عني

٢

مذكّـــرات زيـــد

من يتكلم هكذا ؟ بت لا أعرف ، مما سهرت على نوم أستاذي في تمتمته ، تلك الليلة الأرضية ، وقد جاءت لنافيهاالنساء بالغذاء ، ومسحن جبين المريض (وقلن وهنّ يرين دموعي coin ne orobiéla ne oropiéla [1] من لا يبكي لا يرضع) ، بت لا أعرف ، أولدت مني الكلمات أم منه . ربما امتزج ألمي بألمه ، فهل أنا مثله لعبة ما يسكنني . . . هل هو حلم شفتي يموت على شفته، من يدري ؟

كثيراً ما تأتينا رومية[2] تجلس قربنا وتدعوني تشابو ، أي ولد كما كانوا يقولون لي في طفولتي ، وهي لا تفهم لماذا أعنى بهذا الذي ليس من عرقنا ،وما يعنيني أن يعيش بوزنو[3] أو يموت ؟ لكن الغجر حين تبنوني منحوني ضعفهم للغريب ، ومن أين لهم الحليب الذي يقدمون له ، وهم يقولون لي ، مادجارا ـ تشيبل ، أي انه الظهر وانهم ينتظرونني حد النار للأكل . ولقد غسلت المرأة المريض أثناء غيابي القصير ، وبدلت غطاء فراشه ، وهي تغني بصوت خفيض لحناً جدّ قديم ، لم أفهم جيداً كلماته ، يتردد فيه شفيقا الرثاء تشورورو تشورورو ، مسكين مسكين ، لأن الجنون يمحو لعنة الدم ، والمجنون بعد أن فقد حيلة أهله ، العقل ، غدا عندها مثيراً للشفقة كرومي . . . وكان النجدي يلتفت برأسه أحياناً ناحيتها ، وعيناه مفتوحتان لا تريانها ، كأنه ينظر إلى كلامها ، ويتأوّه لأنه لا يدرك معناه ، وتعيد له المغنية في بطء جاتشابلا ، مقطعاً مرتلاً ، بطيئاً ، بطيئاً ، كأن مشكلة الفهم عنده أن يكون لديه الوقت الكافي . . . جاتشابلا تتكلم عن القمر والدموع ، تتكلم عن حصان في الليل ، ورجل لا يعود .

---

(١) مثل غجري .

(٢) الروم يعني بها هنا الغجر .

(٣) البوزنو : الغريب بلغة الغجر .

ورحل الزمان على حصانه القاسي الذي لا يعدو إلى وراء ، ولو أنه ليس له شيء أمامه . ما أستطيع أن أنتظر ، أي فجر ، أنا لا غد لي . . . تشورورو تشورورو . . . كيف كان من قبل هذا اللحن الذي يعذبني ، وما بقي لي منه غير كلمات فحسب : مستقبل الرجل المرأة . . . آه الشفقة ، آه الشفقة بمن ليس له مستقبل ! آه الهول لمن ، تشورورو تشورورو ليس له مستقبل . . .

. . . .

أنباء جاءت من ماليجرانا : حملها تشيبادو ، حَدَّادٌ فرّ فيما تدوي أعياد الأبهة . الذين توقعوا المذبحة ، والجوع والنهب ، دهشوا لما رأوا الأسواق وقد امتلأت اشاعة : يبدو أن ايزابيلا وفرديناند من الاشاعات التي انطلقت في كل مكان كانا يريدان تطبيق التسليم حرفياً . حتى أن عسكر المسيحيين كانوا يتململون إذ يرون كيف يعامل عدو البارحة ، واكتشف الشعب ، أن الذين وصفوا القشتاليين بأنهم بهائم متوحشة ، قد كذبوه ، وكانت العلية تأتي فتجالس السادة الجدد في باب الرملة ، فيتناظرون ويمتدحون شجاعة المقاتلين ، ومهارة الفرسان ، وقوة أذرعتهم . فإذا اضطرب أمر قمع بشدة حتى لقد آمن العرب بحماية القضاة الجدد ، وفضّلوهم على قضاتهم . العائلات التي خططت للذهاب إلى افريقيا ، بسفن راسية في كل مرافىء الشاطىء وقد استأجرها الملكان الكاثوليكيان لمن شاء الهجرة دون أن يطلبوا منه أجر العبور ، عدلت عن قرارها، وأنزلت عن البغال أحمالها في اللحظة الأخيرة ، وأعادت إلى المائدة صحاف الذهب والفضة . وازداد عدد الذين هادوا ، رغم ضمانة حرية المعتقد والدين للجميع ، ففي كل يوم ردّات ، في كل يوم ينتسب إلى دين المسيح مارقون جدد .

كم استغربت ذلك . . . كنت ظامئاً لتفصيل الخبر ، وجربت أن أتخيّل ، دون أن أتوصل ، تغير الحياة في ماليجرانا . ألا يخجل الناس ؟ وهل يستطيعون أن يتعودوا تقبيل اليد التي قتلت المملكة ؟ أيها التشيبالو ، قل لي ، ما حل بالذي كان ، وكيف يحتملون رؤية الفاتح وحاشيته في الحمراء ؟ وضحك مني الحداد ، لأن أسئلتي كانت عنده غبية . ولأني لم أفهم ، مثلا ، أنه طبيعي أن يدخل المرء في دين الغالب . . .

والحق ، هكذا يفعل الذين من عرقه دائماً . لا دين لهم إلا دين الغالب . منذ عهد مصر ، بل قبل ذلك ، في ذاك الماضي الذي لا يعرفون ، ألم يفعلوا ذلك ، فقد خلعوا دائماً بين عشية وضحاها كثوب قديم المودة ، معتقد المغلوب ؟ لقد كانوا حتى الأيام الأخيرة . يجهرون بشفاههم بدين المسلمين ، وماذا يغني عنهم بعد الآن ؟ وحتى لو اعترف بهذا الدين الملكان الكاثوليكيان بمعاهدة ، ما كانت غريزتهم لتخدعهم . عاجلا أم آجلا ، يتقدم من يصلي للعذراء ، والحياة قصيرة فلم لا يستعجلون . . .

« ماذا ، يا تشيبالو ؟ أتستطيع الانشاد باللاتينية فيما سوف يحترق اليهود والأندلسيون ؟ وتتشنج أيضاً في مواكبهم ؟ كيف تؤمن ، قل لي ، أن امرأة لم يمسسها بشر تضع ابن الله نفسه ؟ » ويضحك هو بأسنان بيض ، قائلا كل دين يقضي بأن تؤمن فيما لا يصدق ، وإلا فمن أين يجيئه الفضل ، هذا وبعد ، القول بايمان لا يعني أبداً التسليم العميق ، وعند الغجر محمد والمسيح ليسا

غير عرف .

أعرف . غير أني يصعب علي الفهم . أنا نفسي عشت في عالم ، وأستاذي أيضاً ، نستخذم في افك مقسور ، لغة دين انقطعت عن الايمان به ، لكني لم يدر في خلدي أن أقارن أدب اللغة هذا ، ممن لا يؤمن بشريعة أهله ، بالنفاق الغجري ، والسخر الذي يجأر به الحدّاد . قال لي مرة : « يا تشابو ، أنت لا تعرف العالم . . . نحن لا قانون لنا إلا خدعة من يود أن يضع علينا نيره . أنا من جهتي تعلمت كيف أعمل اشارة الصليب ، التي يتعرف المسيحيون بها بعض إلى بعض . انه ثمن بخس تحظى به بثقة الناس . أرومـالي ، والحـق ، ما يفـرق أبـداً الـروم عن البوسنو ، هو أن يقدس المال على أنه اشارة للعمل ، ويتظاهر باحترام الاشارة ، فيما يسرق كل شيء ببساطة ، استقامته تضحكنا ، فالسرقة عنده تقى ليس من خصائصنا ، شرفنا أن نعيش من السرقة ، مثلما شرفهم أن يعيشوا من عمل الآخرين . . . الأخذ هو طبع الانسان . . . » .

. . . .

واستعاد النجدي قليلا قليلا الشعور . شعور حيواني . شعور يتأوّه من العودة إلى الحياة . وانه ليؤلـم المرء أن يسترد جسده ، أعضـاءه المتعبـة ، وليل عينيه ، العمـر ، واجهـاد أنـك موجود . . . شعور غابة تستيقـظ . كل ما تخبـىء الأوراق ، سر الـطيور الهاربـة . . . شعـور عاصفة ، بأنوارها المفاجئة ، وريحها العارمة ، وصرير أغصانها . . .

كانت النساء تأتي فتجلس حواليه بثيابهن الملونة . يرقبن عودة العجوز إلى النور ، لا أملاً بنشيد يولد ، بل في نوع من الشفقة القاسية . وعندما سبقت عيناه فمه ، أعلن أنه يرى العالم ، بعقل المجانين ، الذين لا تختلف الأشياء عندهم عما هي عند البشر ، ولـو أنهـا تخضـع لتعليل الجنون . . . عندها عمدت النساء إلى رنين أساورهن ، وركزن حلقات شعرهن على آذانهن ، ورقصن حوله ، متناوبات ، ومضى الزمن ، وهن يقدرن أنه الأولبياراتشي ، كما يدعـى نصف الليل هنا ، مع أن أوائل أشعة الشمس ، انسربت إلى مداخل المغائر ، سناجـب شهبـاء تكسر بندقاً .

ذات يوم أشار لي أستاذي بجفنيه ورأيت انه يريد أن يكلمني دون أن تكون لديه القوة . اقتربت منه فقرفصت، أرقب الكلمات . كان لا يفوه إلا باسم، مثل من نسي كل شيء، اللغة والنشيد ، فما يذكر إلاها ، ويدعو باسم الحبيبة الأشياء ، والنور ، وما يرفض من غذاء . . .

مع ذلك ، تكلم في الغد . بصعوبة . لكنه ألّف جملا سخيفة ، لأنه راجعه ، كما يبدو ، احساس الآخرين . وفي اليوم الثالث ابتسم لي فقال : « زيـد ! » . . .

. . . .

كلمني هذه الليلة أستاذي . ترى هل سمـع الحـداد ، أشـك ، لكن من أين أتتـه هذه الكلمات ؟

قال : « زيد » ، أهذا أنت . . . صعب في الحقيقة أن نموت من دون أن نفهم كيف أمكن

لكل شيء أن يتغير ، ولو أننا عدونا إليه دائماً ، دون أن ندري كحجر إلى هوة . . . هل تسمعني ؟ قضيت حياتي أتخيل أن قانون العالم هو الأفضل . . . أي . . . أن في الانسان قوة عميقة ، تدفعه لأن يكتمل ، ولو على قدر صغير ، كأن مهمته أن يسير أبعد قليلا بالحياة . . . آه ، يا زيد ، كم كنت مخطئاً ! كم كنت . . . » ثم عاد إلى الصمت الذي أخشى دوماً ألا يستطيع الخروج منه

. . . .

أقدر أنه كان مضى علينا حوالي شهر عند الغجر ، لما طلب مني أستاذي أن أعزف له بعض الموسيقى . لم تكن عندي آلة . أعارتني فتاة قيثارتها فردّدت طويلا لحناً كان النجدي يحبه من قبل . بدأ يرتجل الكلام ، وهو لا يستطيع مواكبة فكره مع اللحن القديم ، فأسكتني واكتفى بنشيده وحده .

ولقد ضيعت ، لدهشتي ، البدء ، فما أذكر إلا ما يلي ، وربما كنت أخطىء فيه ، فقد اختلط عليّ ما سمعت بما به فكرت :

من يقدر أن يقول كيف أظلمت في الانسان الرؤيا المقبلة هل هو العمر أم العين أم القدرة على الحب أم ألم ما كان يرى ألم المسافة أو ما لا يرقى أو ماذا ربما كانت عدم قدرته على التدخل في الزمان المقبل فيظل شاهداً مكبلاً على الظلم آه كم كنت أفهمه لو صحّ ذلك ولربما كذبتنا أحلامنا

الزمن يرسم إذا طال خطوطاً في الشبكية فتضيق شبكتها وتغدو بقعة تؤلم الذي لا حد عنده في الزمان ـ المرئي فكيف بنا نحن الذين نرى في المكان النجوم من دون جهد ربما كان هذا الذي يجعل المستقبل كثيفاً هذا الذي لا يطاق

يا العشرون من عمري كان المرج أمامنا على مدّ النظر غاب عنه الحاجز الذي يقف بعيداً عنا كجفاف الشرايين اليوم

لقد افترقت عنك لقد افترقت عن ذاتي

أية كلمة في اللغة تعبر عن العطل مثل كلمة لا مسكون

انها عكس تلك السورة الرائعة التي يقال أنها من الجحيم وما شأن الشيطان أليس المسكون هو الذي يسكنه حب على قد داخله وجود يزدوج به الروح والجسد

المسكون عنده الحياة تعبر عن ذاتها بصراع لأنه اتحاد الآخر به

أما اللا مسكون فهو القائل إن بيته فارغ والريح التي تمر به فارغة

هو القائل ليل العطل لا آخر له لا عمق ولا منفذ فيه

لا أستطيع أن أكلمك إلا صلاة أجهل أين تذهب مني الكلمة وتضيع مني كل جملة أؤلفها لك

كل جملة كذلك ما هيتي تبحث عنك
وكل صلاة مقدمة للموت فلتتجه إليك لتتجه إلي
الألوهية لا نصل إليها إلا بالموت

ر بما كان في ذلك الشيخوخة والأكيد أن الموت ليس هو الا أر ى المستقبل فحسب و إنما أن أفقد ذكر اه

عندما أخطىء ما لا يكتمل ولا أجد بين يدي إلا ما لا يشفى
عندما لا يمتد مني شيء في اختلاف الأشياء
في انزلاق حاضر مبهم في غده وينقطع فمي عن أن يعطي للفظة شكلا
عن ايجاد نبرة للكلمة تجعلني أعيش بعد ما أقو ل
شأن موسيقي يردد لحناً فلا يستطيع اتمامه
فيدرك متأخراً في الدقيقة التي يغلق عينه أنه لم يكن صيرو رة إلا بالقدر الذي كان فيه نغماً
يتوقف والجملة وقد حبسه الزمان حبسة اكتمال الكلمة
لأنه ما من صورة في اللغة تسمح أن تتم خار جها لعبة الكمال وما لا يكتمل

....

فاجأت عجوزاً تمسك بقبضة أستاذي وتتبع باصبعها خطوط يده ، وهي تصيح صيحات صغيرة ، في كلام فزع . وأردت طردها ، فاعترضت بأنها تريد ، بينار بادجي ، أن تقرأ بخت الغريب فحسب ، من دو ن أجر . قلت لها : « ألا تخجلين ؟ تعرفين جيداً أن بينار بادجي ، هي خدعة تخدعون بها البوسنو من أجل الدرهم . أما هذا الذي هو ضيفنا ، فأنت تنتهزين أنه بلا حو ل كي تكذبيه . . . وهو الذي كان يأخذ بيد السماء ، فيقرأ المستقبل على خطوط النجوم ! » .

....

(هنا يكرس زيد مذكراته في عدة صفحات لحملة قام بها مع الغجر في أطراف غرناطة ، للحصول على غذاء لسكان النورية) .

٣
الخلفـــاء

ما صرت بعدي ما صرت يا غرناطة
بت لا أفهمك يا قلبي مني انتزع
تعيشين بعدي يا حياتي تحرقين محرقتي
لغة أخرى تصرع فيها مختبئة بين الأشجار

حبّ آخر يقوم بنزهة

هيا يا موتي إلى مكان آخر نتكلم جنوناً
لأنا بتنا ولا مكان لنا في الدورة
من دوننا أزهرت السماء من دوننا اصطخب السيل
ها نحن أولا غرباء أبدا عن هذا العالم
لأن غرناطــة نسيتنــا

أي وجه تخبىء يا مستقبل تحت قناعك
والناس الذين يجلسون مساء هنا
هل يستعيدون شموسنا المكفهرة
وذاك الجمال المر الذي خفنا عليه
والأبيات كتبناها على الفسقية

انه يتكلم عناؤه له   انه يرقص أفراحه له
ولسوف يؤمن بآلهة من وهم
يعطي دمه بلا ثمن يسكر من خمر أسود
ثم يرسم قلبه على جدران بلا ذاكرة
تموت عليها الأسماء جميعاً مصلوبة

أيها المستقبل يا مستقبل يا قمحاً لا يحمل إلا رزماً
حبّه يضيع قبل الطحن
ما أصبحت بعدي يا غرناطة ذات النجوم
مدينتي البعيدة تبدو قارباً في الرمل
يا نصف ليلي يضيق أنفاسه العشب

أسمع بعيداً أناس ما وراء زمننا يتحدثون
أسوف يجنون منا ما لا يعلم إلا الله أي ربح
انهم الخلفاء الذين يرثون الميراث
هل يعرفون ما يفعلون عندما يقتسمونه
اسمعهم انتظرهم

٤

ميليبــه
أو المهتــدون

قفز اللهب العالي سريعاً في المدخنة الضخمة ذات السفافيد السوداء . وقضقض الحطب الأخضر ودخن ، ككلام المفاصل ، وغصّت القاعة الكبرى في أشعة بعد الظهر بالمدعوين ، وظلال ترميها النار على الجدران ، وانشغال الخدم ، وصب الشراب ، والتحيات ، وخليط نساء وكهنة . . .

ما معنى ذلك كله ، ماذا يعدّون ؟ أحقاً التفت بمرآة نفسي ناحية المستقبل ؟ هل وجب أن نفهم كلام هؤلاء الناس ، لكن أية لغة يتكلمون ، كأنهم طيور ليست منا ، يقولون هذه السنة في (فبراير و)بدل ربيع الثاني ؟ وأي شباط يعنون ، من أي قرن ؟

هنالك خطأ في الزاوية . فالعام ما زال ٨٩٧ للهجرة ، الذي هو عند هذه الدّمى ١٤٩٢ ، الذين يعدون حسب تلك الشمس الضئيلة في الخارج . المشهد في سانتافي عند المهتدي الكونفرسوموسين لويس سانتانجيل ، كاتب الدولة في مالية قشتالة وأراجون ، وهنالك أيضاً خوان كابريرو ، مدير غرفة الملك فرديناند ، وجبرييل سانتشيز خازنه الأكبر والأخ ديبجودي ديزا ، استاذ اللاهوت ، وكلهم يهود هادوا وموسين خوان دوكولومبا كاتب دولة أراجون ، من أب مسيحي وأم يهودية . وأندره كابرايرا ماركيز دومويا ، كاتب دولة قشتالة هبة من ايزابيلا وامرأته ، المركيزة بياتريس فرنانديز دوبوباديلا ، صديقة الملكة الكبرى ، دخلوا جميعاً في حاشية من الفتيان . سيدات وشعراء . دعاهم سانتانجيل كي يستمعوا للفصل الأول من مسرحية لكاتب مجهول ، جاء بها من سلمنكة شاب في السابعة عشرة ، فرناندو دوروخاس ، مهتد مثله ، مثل أكثرية الحاضرين في هذا اليوم ، ولقد نسبت إلى كاتب من طليطلة ، لكنها نسبة مشكوك فيها . . . ولقد قيلت في أمرها العجائب .

ودخل مع الأخ هرناندو دوتا لافيرا ، رئيس البرادو ، معرف الملكة ، صاحب السيادة جان مولينه ويبدو أن عينه اليمنى ضاعت نهائياً . وفي ضجة تبادل اللباقات ، حول طاولة طويلة من خشب غامق ، وكأنها دعمت بسيوف متصالبة ، المقاعد مساندها قائمة ، أكمام الحلل واسعة ، القبات محلولة عند أعلى الذراع ، وعلى الكراسي قربها في صخب مجلس فتيان يختالون بذقينات جديدة مروسة ، كل هذا يضفي على الاجتماع صفة مفاوضين اجتمعوا لتوقيع معاهدة غريبة ، لا صفة غواة شعر ، اجتماع للنساء فيه حصة ، وبعضهن لا يمسكن بين أقدامهن بكلابهن إلا في جهد ، وقد عن لها أن تتعرف على الجيران . مسيح كبير على الحائط ، رداؤه من أسمال حقيقية يجعل هزاله مخيفاً ، وجرح الخاصرة ينزف توت علّيق .

صعب أن تميز في تشابك الحديث . لكن الظاهر أن مركيزة دومويا ، وقد قابلت من قبل

المرشح[1] روخاس ، تشك في أصل هذه المسرحية التي سماها كوميديا كاليكست ومِليبه ، ولو أن الشاب يتحدث عنها في حماس غير طبيعي ، أما خوان دوكولوما ، فقد لمح من جهته ، إلى أن المرشح ، ربما كان مؤلف ما يمتدح من دون تحفظ ، وبياتريس ، تداعب سلوقيها ، وتلاحظ أن الافراط يضعف هذا الاحتمال ، فهذا الفتى يعلن أن جمال المسرحية التي سوف يقرأ لا يضارعه شيء في اللاتينية نفسها ، وأنه ما من عمل قشتالي أو توسكاني ، بله اليوناني، يمكن أن يقارن بها أو يدانيها . . إلخ . . . لكن زوجها يرى على عكسها في هذا الأطناب سبباً يخفي فيه المؤلف دوره الحقيقي ، وهو لا يمدحها بهذا الافراط ، إلا رغبة في التستر على أنه المؤلف ، فلا يفكر أحد بذلك . . . مثلما يخفي حماسه إذا تكلم عن الحب مغامرة ما ، وهذا ما يحدث لصغار الفتيان ، بينما لا يشغل الرجل نفسه في مثل هذا الهراء . لكن الأخ دونافاليرا ، الذي كان أول من قرأ المسرحية فقد أعلن ، بعد أن ترك صاحبه الفتى الذي يحدو جماله الغريب بالسيدات للاحاطة به ، إنهم سوف يرون أن من المستحيل على ولد في السابعة عشرة من عمره ، تجربته لا تزيد عن طرّ شاربه ، أن يبدع عملاً كهذا ، من نقطة البداية ، في الفصل الأول ، اللغة على درجة ، تغرينا بأن نفترض أن المؤلف عرف حياة المساكن الحقيرة وعاشر السفهاء كي يدرك روحهم . . . فكيف بالحديث عن الفن نفسه ، وعن اختراع ما ليس له صلة بالأسرار التي يمثلها الرهبان . وهي تنتسب إلى الشعر وإلى الرواية ، كما تنتسب إلى المسرح ، معدة للقراءة بصوت عال ، في نثر ممزوج بالأغاني ، فيها بعض هجين من غير صنعة ، دون أن يكون لها أي حظ في أن يكسب منها الذي ظن أنه وجب عليه ألا يوقعها من غنم غير هزء العارفين ، وسخط المحترمين ، وحمرة على خدود الفتيان . لكن رجل الله ، يصرح مع ذلك ، أن في هذا النثر ما لا يعلم من هيمنة ، كسيل أفكار ، لا يرى من أين يجري ، ولو أننا صدقنا السنيور روخاس ، بالرغم من أن الحركة في البدء غير دقيقة في رسمها ، مما نعرفه من الكتاب ، في وصف الخطيئة ، يبدو أن المؤلف لم يكن كافر القصد . . . إذا صدّقناه ، انما فكر في أن يقدم ميليبه على أنها فتاة عظيمة التقى ، تدفع عنف رغبات كاليكست الجميل ، فهي من عائلة عواطفها الدينية شديدة العمق ، من نبع جديد ، ما دان بدين المسيح أبوها ، بليبيريو إلا في فترة ولادتها . وهكذا . . .

وفي النهاية اتخذ كل من الصحب مكانه ، وقرروا أن يخرجوا الكلاب إلى الساحة ، خشية أن تعوي في مقاطع الهوى ، وأعدّ القلوب عازف كمان لبداية القراءة . كانت غريبة هذه الكوميديا بعد خطاب المؤلف الذي طلب فيه العذر عن العمل ، وبعد أن أدلى بالحجج ضد نفسه ، فما كانت تحظى العيون منها بشيء ، يتغير الديكور في سهولة بكلمة من القارىء ، والأشخاص لا يحدهم عدد ، صوت واحد يحركها ، في تبدّل لهجته ، التي هي أفضل من كل ممثلي العالم ، ويتكلم المرشح من بين أسنانه ، فيتعاقب الفرح ، والهوى ، وحماس الأمل ، ثم الغضب فاليأس ، ويقوم بدور الخادم والسيد ، الغبي والمرهق ، القحبة العجوز والمحترفة الفتية . . . يضحك ، يبكي ، يتكلم تارة بصوت واطىء وأخرى مرتفع . . . ثم ها نحن أولاء في البستان الذي يطارد فيه كاليكست أحد عقبانه ويجد فيه لسعادته أو بؤسه ميليبه . . . ومن أجل الدخول إلى بيت هذا السيد الشاب بين خدمه . . . يتبدل الحي في المدينة ثم ، إلى ربض المدابغ ، بالدخول إلى بيت القوادة ، من أجل العودة بها . . . ويدوم هذا الفصل وحده ساعتين كاملتين ، بين وقفة ، ولعبة مسرح ، وصمت

(١) مرشح لأن يكون فارساً .

القارىء الماهر . حتى ليعسر تخيل تمثيل المسرحية ، لأنها برأي تلميذ سلمنكة يقتضي تفصيلها خمسة عشر أو ستة عشر فصلاً . . .

وما يعني كل هذا ؟ كان غنى الأغطية ، والأثاث ، والثياب ، ولغة المجتمع ، في احتفال لا يفهم ، حول هذه التلاوة يبدو كأنه تحدٍ . . . أين نحن ؟ كانت الدنيا العربية تسود حتى البارحة هنا ، وما بقي منها غير نخلة من النافذة . لا نفهم شيئاً أبداً لا العمارة الحزينة العالية ، ولا تبادل نظرة قلقة بين هؤلاء الرجال ، ولا المحادثة في أنصاف كلمات . أهو المستقبل ما أرى ؟ أم انزلقت المرآة التي كانت تزهو بأنها تعكسه ، فأعطت صورة من زاوية لم نكن ننتظر في شباط ١٤٩٢ ، لحاضر لا يكتمل ، كل ما فيه مفاجأة ، وخوف ، وتتمة تاريخ مجهول ، لا أدري كيف أعد نفسي معاصراً له . . .

اذن هذا ما كان من أمر كوميدية كاليكست وميليبه ، فما كادت الجميلة تقول في البستان كلمات ثلاثا عن حبها ، رفضت فيها الفتى النبيل ، حتى أشعلت بها روحه ، وأيأست قلبه ، والحوار بينه وبين خادمه ، سمرونيو ، يبدي في كاليكست جنوناً شبيهاً بالذي انتاب مجنون غرناطة ، فهو يقول عن ميليبه : أؤمن بأنها الله ، أعترف بأنها الله ، ولا أؤمن أن في السماوات الهاً غيرها ، ولو أنها ما زالت تعيش بيننا . . . وما نقول في ذلك ؟ هذا الافراط عند أهل دينين عدوّين ، يشغل الشيخ والولد ، أهو حقاً توارد خواطر بينهما ، يشهد على دوام الانسان ، في شعوب مختلفة ؟ لكن القلق العظيم ، استولى على دييجو دو ديزا ، وهو اليهودي أباً وأماً ، ولا هوتي جيد ، عندما اتهم سمبرونيو سيده ، بمخالفة الدين المسيحي ، فما كان من السيد الفتى إلا أن هز بكتفيه ، فسأله الخادم : لكن ألست مسيحياً ؟ وأجاب كاليكست : أنا ؟ أنا ميلبيّ ، ميليبه أعبد ، أؤمن بميليبه ، وأحبها فحسب . . . أوه ، ان هذا تفوح منه رائحة النار ، ومن يدري ؟ ربما مثل كل هذا الجمع الجميل أمام قضاة المحكمة المقدسة لأنهم استمعوا لهذه الكلمات . . . كيف قال ذلك ، هذا الولد الطائش . . . ميليبه أنا . . . وصلّب الراهب ، ورفع نظره إلى المصلوب . . .

السيليستين هي الآن في كهفها ، قريباً من المدابغ ، على حافة النهر ، ومعها امبيقاتها[١] ، وقواريرها ، ومساحيقها ، مياه التجميل ، عطورها ، وأكسير الهوى ، ولغتها الداعرة ، آه ، كيف يستطيع هكذا أن يتحول القارىء ، بسنواته السبعة عشر ، أن يغدو فمه من قذارة ، ويتغضن الوجه البريء بألف شناعة . أين رأيت من قبل هذه العجوز الخائنة ؟ ويتلوّى المجنون في حلم لا يدركه من حوله . وانقطع عن رؤية قصر سانتانجيل فما يشهد غير ظلّ « الساكر ومونتي » الغجري ، حيث تضل مساء في المغامرة الوطاويط . آه ، هي ذي أنت يا قوّادة ، آه ، هي ذي أنت ! تلك ليست السيلستين ، بل العجوز التي تأخذ يد المريض ، كي تقرأ المستقبل . . . وهو لا يفقه شيئاً من كلامها ، ولا ما تعرض عليه ، وهي تلتفت حواليها ، خشية أن يفاجئها ، زيد أو التشيبادو ، وهي تجتذب قيساً إلى مغامراتها الكاذبة . . . غير أن سمبرونيو يتكلم مع الديوثة ولا يقرف من تقبيلها ـ

Hijo mio! Rey mio! Turbado me has. No te puedo hablar.Torna y doma otro abrazo[٢]

---

(١) آلات تقطير .

(٢) يا ابني! يا ملكي! بعثت في الاضطراب! لا استطيع أن اكلمك. إلتفت وهيمن عن بعناق آخر...

- . . . ولا يمضي عليهما إلا بعض زمن ، كي يتفاهما ويسلكا طريق بيت كاليكست . . . وهناك يحذره منها بارمينو الخادم الثاني . . . لما يعرف عنها ، ابن الخنزير !

لكن القارىء يتوقف مضطرباً ، من ضجة أحدثها كاتب إذ دخل ، يقرأ على وجهه ذهوله من الخبر الذي جاء به ، وقد اضطر إلى ازعاج الناس كي يقترب من أذن وزير المالية . واصفر سانتانجيل ، ونهض ، والتفت الحضور جميعاً إليه . الخبر يتعلق بفضيلة ميليبه ! في تلك الساعة ، كان السيد كريستوبال كولومبو ، قد ترك فجأة غرناطة ، وقد أغضبه ، أن الملكين لم يستجيبا لمطاليبه ، فرحل على بغلته ، من دون أمل بالعودة . . . وعلى هذا وقفوا جميعاً ، واختلط عالي حديثهم بسافله . لأنه لا تخفى على أحد هنا خطة وزير المالية الذي يتزعم مصير الكونفرسوس ، وهو الذي عرف ، خلال حرب غرناطة ، كيف يجنبهم أخطار التفتيش ، فغذّى من ماله الخاص خزانة الجيش ، وأثبت للملكين ، أن يهودي المولد ، قد يكون حبه يسوع عظيماً ، حتى لينفق ماله من أجل مجد الملكين ، ونصر الدين الروماني . أما الآن ، وما من عدو يكافحون ، وقد خضع العربي ، فعدد المستشارين الذين يحسدون كونفيرسوس قشتالة وأراجون كثير ، للمكانة التي يحتلون في الدولة . . . ولقد نجم عن المشاورات بينهم ، رجالا ونساء ، وربما عن أمانتهم لقضية المسيح وقضيتهم ، مشروع يقضي بدعم حملة الجنويّ بدنانيرهم ، فيمنحون بذلك أرضاً لحلم ايزابيلا وفرديناند ، ويحولانها عما يراد من دفعهما عنه . . . يقضي بتمويل اسطول كولومب ، وأن يفتحوا به ، وهو الذي يعرفون ، وليسوا وحدهم ، انه من عرقهم ، ولو أن الملكين لا يبوحان بذلك . . . أن يفتحوا بعلم وجرأة مهتدٍ ، الأراضي المتصلة بسيبانجو ، هناك حيث يوجد سرّ يبدل المعنى والاسم ، ويدعى الغرب شرقاً . . . هناك ، هناك ينقذون حياتهم وأموالهم ، ويثبتون انما عليهم تقوم عظمة المملكة الكاثوليكية ، أولا يحمل المكتشف ، إذا نجح في مغامرته العظيمة ، ذهب «أوفير»، فيتمكن من العودة إلى القدس، وينقذ فيها القبر المقدس ؟ ويدور بينهم رأي لا يجدون حاجة للاعلان عنه ، ان انتزاع أرض جدودهم من الاسلام ، لا يمكن إلا بالسلاح المسيحي ، في الأزمنة التي نحن منها ، هذا أوليس المسيح واحداً منهم ؟ كان عليهم بأي ثمن اللحاق بكولومب ، واقناعه بالرجوع . . . وعلى الرسول أن يقول له أن سموهما يوافقان على شروطه . . .- وأنتم تعرفون جيداً كم هذا الرجل عنيد الرأس . . .

صاح خوان دوكولوميا : « لا أظنكم تأخذون الأمر جدّاً ! ومتى كان الملوك يوافقون على مثل هذا الشطط ! ان كولومب لا يطمح بلقب أمير بحر قشتالة فحسب ، بل يطالب بنيابة الملك على ما يكتشف من أرض وعشر أرباح التجارة والفتوحات . . . ومليونا مرابطية[1] ! ويزعم أنه ندّ التاجين ! انه من الجنون أن نربط مصيرنا به ! . . . لقد نسيت . . . يريد أن يدع لسلالته ميراث ما يؤسس من ممالك ، حتى نهاية العصور !»

مع هذا ذهبت بياتريس دومويا إلى الملكة تحدثها في الأمر وانضم إليها عرّافها . . . المال ، يقدمه سانتانجيل : أوليس الأمر مسألة كرامة ؟ وليس يشين عظام الملوك ، إذا تطلبت مصلحة المملكة العليا ، أن يمنحوا ألقاباً ومنافع ، لا يستأهلها نجاح المغامرة ، ما دامت مشروطة بنجاح هذه

(١) عملـة .

المغامرة . . .

آه ، هنا مسرح آخر يختلف عن عشق كاليكست ميليبيه ! وجمع فرناندو دور وخاس محنقاً أوراق مخطوطته الناقصة ، وهو المهووس بقراءتها لهم ، وقراءتها إلى آخرين ، فقد بدأت تحاك الدسائس ، إذا كنا نسمّي دسيسة ما يصنع لخير الانسان ومجد الله . وأخذت ايزابيلا على عاتقها ما كان يرفض زوجها ، وبقيت مشكلة الوصول إلى الهارب ، الذي أنقذوا له أحد حراس الملكة على حصان اسباني ، وبدا من نافذة قصر سانتانجيل ، من القاعة التي عمتها الفوضى بعد أن توقفت القراءة ، الرسول يعلو السرج في الباحة التي يحرس فيها الخدم الكلاب ، وفتح الباب فجأة فانطلق حد الحصان الاسباني سلوقي بياتريس دومويا كسهم رماه قوس رغبة صاحبته . . .

نشيد ايجلامور

يا صيَّاداً انحل من مصلوب
تنهب العشب كمنجل
الحصان يخجل إذ يحسّ أنه بطيء وثقيل
قياساً بك يا أشقر مثل قمرٍ في آخر أيامه
عندما ينقص ويغدو شفافاً
ان الانسان هو الذي جعلك مثل قشرة ليمون

ألاحق بعيني الشهاب لا السلوقي
سريع حتى ليقطع جفوني
وما يعنيه أن لا يدري سبب طراده
وهو يجاوز الطرفة وخرائب البيرة القديمة
يعدو بالحصان لعله يلحق بكولومب
قبل حلول المساء قبل أن يجوز جسر الصنوبر
على الطريق ناحية قرطبة على فراسخ ثلاثة من غرناطة
شرفه أن يجري فلا يدري هذه المرة لماذا يجري
صورته لن تنقش على باب العالم الجديد
حيث يقبل كولومب الأرض ويمنحها اسم المخلص
لن يقول أحد أن الكلب كان في البدء ثم أمريكا
فهو في ذاته نهاية ذاته
لم يطلب أبداً أن ينصب أمير بحر
لم يدار قلبه ولا لسانه

وها هوذا لما يقف عند قدم المكتشف
يلهث حتى الموت كمن ظمأه شديد للماء

أنت حبيب منح حياته في نطفته
أنت جميل جمالا لا يوصف
أصعب من وصف السخاء المجنون
أنت أيها السلوقي في أول صفحة من هذه القصة أتخيلك
شبيهاً بايجلامور كلب آل مرسوناك مجنوناً
تحرق الأرض حتى إذا توقفت
كان فيك كطفل بعيني غزالة
لأنه لم يبق له جلد على قائمتيه الشاحبتين

أجهل في عدوه هكذا أية فكرة
يكن عن المستقبل

٥

يا ياسمينتي

لكني لا أرى المستقبل خيراً من الكلب
كيف أفهم شيئاً مما ألمح
ما تعني الكلمة أو ما تمسك به اليد
العالم يجري مختلفاً والشر والخير
اللذان كان لي باتا ذكرى

في دقة أشياء الماضي
وقارب زمانها يتركني على هواي
أتملى ملامحي ولو أنها امحت
ألقى فيها ربيع الآخرين شبيهاً بخريفي
كليل عاود بدءه

من يأتي بعدي يتكلم لغة أخرى
رداؤه يجعله حيواناً مجهولا
أشياء حياته من لون عمره
فيه طابع القرن ولو كان عاريا
في كلمته في وجهه

لا النهار ولا الليل لا السرعة ولا اللهب
لم يبق شيء من زمن ولدت فيه
لا أتعرف على الرجل ولا المرأة
ولا ينفع فيّ أن أتخيلها
يا أجساداً مقبلة من المستقبل بروح أخرى

يا طيوف مسرح على لوحة الغد
أحلام فجر خرساء حوارات طرشان
ايماءات الفم واليدين
على سبلك أسعى وراء حب مني يفر
ومن دونه لا معنى انسانياً عندي

يا ياسمينتي آذنت ساعة مرارة
البحر العظيمة التي سوف تطفو على قدري
وعلى خصلات جبيني يموت زبدها
يا ياسمينتي يا امرأتي بألوان الصباح
التي يتعطر منها عميق المساء

٦

أغنية للمس الحجر

أمشي جامداً عبر الديمومة
وطريقي مغلقة من كل جهة تحملني إلى كل مكان
أقطع يومي كسباح لا يدري ان كان يتقدم
لأن مياه الساعات تحيط به تعقله
والموجة أحياناً تنقلب فتطويه وترده
إلى غرق دائم بين البارحة والغد
جامداً بين رغبة ويأس ممزق
أنا نار في صحراء تحيط بها بهائم كاسرة
الصلاة توقفت على شفتي فقد تبدّلت الآلهة
أما أنا فلم أبع شيئاً بثمن بخس
اسمك يا حبيبتي عاشق من العرق العتيق
وأنا مالي
غير اسمك بوصلة في وسط البحر

أمشي جامداً أبحث عن نفسي
وحيداً ان كنت من دونك تحت دمار السنين
أفتح عبثاً بيننا الستر فترجع دائماً
وضبابات سرير الغياب العظيم دائماً مغلقة
أعدو جامداً   حيث لا أنت أضيع
حيث لا أنت   ومن أين لي
هذه المرة الجنون بالآتي من أين

لي اليقين أن الانسان كان دائماً تقدماً على الانسان وتسارعاً إليك بلا عودة
آه يا الحجر رقّى لركبتي روحي

٧
قــرن الـذهــب

يا شعبي المبعثر كسرب حجال
نيران أخرى تحترق في قراك
تتكلم عن إله آخر بلغة أخرى
أين تذهب بحثاً عن أوطان موهومة

الذين لم ينهدوا لركوب السفن
يجرون ظلالهم غرباء في أرضهم
يحلمون بعهد الاسلام تحت كلمات كاذبة
والعظمة السالفة تغذي غضباً جديداً

ابن عمّار ابن عمّار
أيها العربي من بلاد العرب
أية علامات عظيمة
حملها ذلك اليوم الذي فيه ولدت(١)

كنتم في عروبتكم تحلمون يا عرب والأشياء تبدأ دائماً بالنشيد
والثورات تتلو أغاني الغزل
جاءوا فشنقوكم على أغصان الزيتون

---

(١) بالاسبانية في الاصل

يا قرن الذهب أيا قرن الذهب تلتهب من كل ناحية
يا قرن الآلام الدامي من كل ناحية
ملك اسبانيا يخاف إذ يرى هلال
القمر يظهر قبل الغياب

ابن عمار ابن عمار
أيها العربي من بلاد العرب
أية علامات عظيمة
حملها ذلك اليوم الذي فيه ولدت(١)

هوذا الليل العظيم دون عدل ولا نهاية
لن يكون لكم العفو ولا الثأر
من قتلكم سوف تكون آحادهم
فيها يصلون لسيدهم وينامون على جوعهم

قديسوهم الذين من حجر يشيرون اشارات عاطفية
وتجوب جيوشهم على سفن البحار
وتلتهب في كل مكان على خطوهم المحارق
ينظمون أشعاراً ولهم أحلام صوفية عظيمة

ابن عمار ابن عمار
أيها العربي من بلاد العرب
أية علامات عظيمة
حملها ذلك اليوم الذي فيه ولدت

---
(١) بالاسبانية في الاصل

٨

دون خوان في الساكر ومونتي

والعجوز بثوبها الأصفر الذهبي التي تسهر على المجنون وترقب كلمات شفته وتجفف العرق عن جبينه

تفهم منهما غامضاً الألم الذي فيه عن المستقبل فهو يلم بمن أيامهم معدودة وترى في عينيه قبساً منه

ألم لا يهدئه اكسير والرجل في كرسيه يدور ألف مرة فلا يجد باب المقبل

ما عساها تستطيع له وهي التي لا فنّ لها غير الخدعة مهنتها ضرب الفال

أخذت من وشاح حلّته أوراق اللعب الملونة لعلها تجد جواباً جواباً لتمتمة الكلمات

آه ما عساها تخترع غير الأكاذيب بعد أن أوراقها على الأرض

ذاك هو كتاب الحكمة عبر البحار والجبال حمله شعبها المجهول من أين جاء من مصر أم من التبت

عدّي على قدميك حسب قواعد اللعبة الاثنتين والعشرين صورة التي آخرها فتاة عارية

تمسك عصا في كل يد واقفة على رجل واحدة والفخذ الأخرى انثنت إلى وراء

النسر والثور والرجل والأسد يحيطون بها بأسئلتهم التي هي مظاهر أبي الهول الأربعة

والمجنون يراها غامضة فالمرأة وحدها عنده معنى الأشياء الخبيئة

ولو أنه لا يسمع سؤال المتنبئة عن الحب أو عن حال الجريح اليوم وجرحه

ولا عن حلمه عما يؤ ول إليه الحب حلم يقضمه فيزداد به ايمانا

لأن الحقول التي تشرع نفسها لرؤ ياه فيبطىء ويضل

لا ترى غيرما ترى القوادة أي أنه في النهاية ليس شيء سوى خمر صبّت ورجل وامرأة في سرير تهلهلت أغطيته

ودراهم عدّت في غرفة مجاورة وأناس يتدافعون بالمرافق يتنصتون على تنهدات عاشقين وصيحاتهما

بعدها خيبة الأمل حين يغدو الذكر ملكاً يرحل بعد أن انتهى من حاجته

تلك سيادة التعسف وقرون الاحتقار فيها الزواج جنوح والاغراء وحده عيد

أيتها الهزيمة يا هزيمتي هكذا تكذبني شمس المستقبل
لقد كان المصير الذي غنيت وهما كما وهم كنت غرناطتي
أو هل كنا بعد كل حساب غير قطيع أسود مجنون
لا يقدّم له التاريخ أفضل من مصير الثيران

يا للأسف لست بحاجة للأوراق كي أرى خيراً وجه هذه الحرب التي ينتصر فيها بطل غريب

سرت في المستقبل دون أن أبدّل مكاني وغدا نفس المغارة وبعد غد بعد أمد بعد أمد حيث كالفلكي

الذي يذهب من سطح بيته عادة إلى النجوم فيسميها

تستطيع مرآتي المحدّبة أن تستحضر من سوف يأتون من حيث يرقد جسدي ذات يوم أو آخر في الزمان

أيها الزير هوذا في هذا الاطار الرجل الذي عدّو المرأة ذات مساء عند الغجر

أية طفلة تلحق به في ضوء القمر من ألف وواحدة بين شقراء أو سمراء واضربن بأيديكن وارقصن على عاره

وما يقول ذاك الخادم الذي يقدر أن يرى نفسه لدى عودتهما إلى اشبيلية «كونتاً» جزاء خدماته

أسرج الخيل أيها الكاتالاني لعل الفجر إذا انبلج يموت ضحكاً من تلك الخدعة

وقال الخادم عرس آخر ينتظرك أيها السيد في ليبر يخا فضّ بكارة هذه من دون تأخير أرجوك

كان لا بد من نصر صليب دون خوان حتى تكون

كان لا بد من اله غادر مثل ذاك ومثل جانوس له وجهان وجه السمو ووجه الخنا

كان لا بد لك من هذا الاله كي يباح لك كل شيء

كيما في عهد سيادتك في هذا الزمن الذي تهان فيه المرأة في زمن الاستهتار بالقبل فإذا وجد

أحد في أوج نكرانه يعالج ظمأ جسدك كذئبة

فهو دون فرانسيسكو دو كويفيدو فيلا جاس سيد لا توره دوسان خوان دي أباد كويفيد والشاك الذي رماه الهوى آخر الأمر

دون جوان
اتفه ما في الحب الامتلاك (١)

أتفه ما في الحب الامتلاك
يا حواراً
ونحن الذين ما بتنا غير ذكرى أشياء صارت عندكم بالية
كأشجار كستنا عظيمة تدع قشرتها تسقط على أقدامها
يا أصحاب المسيح أقولها لكم بملء صوتي نحن الآخرين أحببنا

لكن أي سحر يدعوك يا فاسقاً إلى هذه المغارة
وتلك الكلمة التي كانت تعني الحب ولا يؤمن بها بعد أحد
الآن وقد غدا رداء على كتفك في صباح بارد
ماذا يعني عندما تطلع الشمس على فراقك
ما فعلت طوال هذه الليلة بالحمامة يا طائر الصيد
الآن فروسية تعني في اسبانيا سوء السلوك
أحقاً غدا العالم تحت ظل الصليب المر

ويبكي المستقبل المهتوك كصبية خدعوها
ويذهب دون خوان تينوريو على مطيته والآس

(١) المقطع بالاسبانية في الأصل

وتين الصبير على جنبات الساكر ومونتي الذي كهوفه
تلوّحُ للزير وداعاً أبيض بمحارم من حوارة

وأنا أمشي جامداً في الزمان كي أجلو سره
يا جان الجحيم أرني السماء على قفاها ترتسم في ملامحك

٩

جـان دولاكـر وا

غرناطة ١٥٨١

في السنة ألف وخمسمائة وواحدة وثمانين حسب شمس المسيح يظهر وقد ناهز الأربعين

في كهوف المصريين رجل تحت الوسط في برنسه الأبيض
في دير الشهداء رئيس جديد للكرمليات
كي يهدىء الظمأ الممزق للسيد عند خطيباته
فيبني في الحمراء قناطر ماء

يحمل في عينه رؤيا سماوية ويجيء طليطلة كي يتم الترنيمة التي بدأها في السجن

gocémonos Amado صفاء الروح إلى الله حبيبها

لنفرح يا حبيبي ثم لنذهب كي نرى في جمالك
الجبل والتلة ينبجس منهما الماء الصافي
لندخل بعيداً في الدغل العميق
في البدء إلى كهوف الأرض العالية نذهب
ونحن متخفون

حب الله اختلاس حب مسروق
زنا السماء بالروح يا موعداً الهياً يا تحدياً الهياً
ومكان مرور من الجحيم إلى الجنة

ولسوف ندخلـــها
فنذوق خمر الزمان الغليظ

ما يقول وراء الكلمات أي
أي تجديف رائع أو سحر مقدس ولماذا
تبحث عند الغجر عن فراش رذيلة للسيد
عن أي تعليم يبحث بينكن يا قوّادات
يا من ترقصن بأثوابكن الملونة
حول الزوجين الصوفيين

تحية يا جان دولاكروا وقد جئت حافي القدمين
إلى أبناء الهند أولا كأنك
قادر على أن تأخذ منهم درس حكمة قديمة
كأنّ زندقتهم نفسها تسهر على شعلة ـ صغيرة
مثل التي في القلوب المصبوغة في هذه الحياة الضيقة
تحية إليك جان دولاكروا سوف أنتظرك لعل مراداً على نشيد الاسلام
يأتيني منك فيمنحني جنوناً آخر أؤمن به

جان دولاكروا لا يرى المجنون قبل مائة عام
جان دولاكروا لا يسمع السؤال المطروح
وما دامت تلمع نقطة ندى على جبين أكثر الزهور تواضعاً

جان دولاكروا يتحصن بكلمته بسبب السانت ـ هيرماندادو لا شك والكهوف
العالية هي عنده

أسرار الهية والحجر الذي يتحدث عنه
ذاك الذي بنى عليه الحواري كنيسته وذاك الخمر
الغليظ انبجس من حبات الرمان
يعبّر هنا أن من معجزات الله تخرج فتجفّف
الملذة الوحيدة ومتعة الروح

*

أسألك يا جان دولاكروا
لا كما يسأل القضاة
ما هو الانسان وما هو الحب
ما هو الليل وما هو النهار
يا جان دولاكروا

يقول النفس سراج
منه لا تخرج أبداً نار
ولا بد من أحد يعطيه النار
شعلة الحب هي من الله

جان دولاكروا أطلب منك
لا كلمات للتفتيش
بل أن تنير ليل
نورك المظلم
يا جان دولاكروا

يقول أن الشعلة تتوج
القنديل كما الروح القدس
الحواري والقنديل ليس قنديلا
إلا على قدر ما تنضج شعلته

جان دولاكروا أسألك
أية حكمة خفية
تجعل القنديل قنديلا
يا جان دولاكروا

شعلة الحب الحية
من أجلها خلق القنديل
لولاها ما كان سوى رصاص ثقيل
الشعلة هي مستقبل الروح

جان دولاكروا أسألك
قولا واضحاً ما هي الشعلة
انها مستقبل القنديل
إذا صدقتك

يقول من جديد أن القنديل
هو الروح والشعلة الحب

مرة أخرى أسأله
من أين يأتي الحب وما هي المرأة

جان دولاكروا   أسألك
ما هو المستقبل
سوف يأتي يوم تذكره فيه
يا جان دولاكروا

*

وبـــدة ١٥٩٥

عندما حان موت
جان دولاكروا على الجبل
تذكر الليلة الغجرية
وأطفالا بلون الكستنا

عندما حان حينه
تذكر خيراً من الصلاة والتوبة
الرقصات الطويلة
التي كانت كنيسته المستعرة

لما حان موته
في آخر لحظات الرماد
دخلت القيثارة غرفته
واشتعلت النار من أجل أغنية قاتمة

لما حان موته
فهم جان ألمه العنيف
وليل نفسه الحالك
ومسامير الله في روحه
جان دولاكروا

يا جان دولاكروا أعرفك أنت تشبه
كل الذين سجنهم طقس ودوجما

الذين فتشوا عن طريق مستقيمة إلى الله فتخلّوا عن عقالات العقل التي لا تنتهي

جان دولاكروا لست سوى اسم مسيحي لكل الذين هلكوا في الحب
جان دولاكروا أنت تموت ميتة أخرى لكنك مثل
منصور الحلاّج خارج عن دينك مثله لأن شريعة

الله دائماً أكانت من اليهودية أم من الاسلام وأنت تعلـم يحـكم بالموت على القديسين

قانون روما ومكة لا يغفران شطط الحب حتى في الله يا جان دولاكروا

وأنا مثلك أنت لا حدّ لهواي
أمرّ بسرير آلامك فيما وراء حب الله
لأن الجواب هو من هذا العالم على مسألة أنا موجود
من ابتعد عنه ضاع فيما وجد
غير الهوة على طرف المنعطف عندما يكون الجواب في العالم هذا
في العالم هذا الحب واكتمال الانسان
يا جان دولاكروا

١٠

مفكـــرة زيـــــد

تأبد نصر قشتالة بخضـوع المسلمـين وقـد غدوا زبائـن الملـكين الكاثـوليكيين ، وبتكاثر المرتدين ، حتى أن الملكين أقاما بلاطهما في غرناطة ، فما يوقفهما شيء عن اتمام نصرهما ، لا كلمة أعطيا في سانتافي ، ولا دلائل أمانة اليهود المهتدين . أذهب أحياناً إلى المدينة أيام السوق أستطلع أخبار الذين عرفت في بيت ربي ناحوم بن صموئيل ، ومنهم رجال ذوو معرفة عظيمة ، وقلب كريم : لكنهم لا يريدون الموافقة على الالتحـاق بنـا ، اجتنابـاً للتفتيش ، الـذي يتهددهـم . يذهبون أن هذا فرار يبررون به مقدماً التدابير ضد بني عرقهم ، ولو أنهم يرفضون تصديقها . هذا الشعب هو شعب الشريعة ، لا يفقهون في نهاية المطاف إلا أن النصر هو لما كتب ، بينما من طبيعة الغجر أن يروا في الشر القاعدة ، وأن يضحكوا من الأخلاق الحضرية ، فهي عندهم قناع للحياة في مسيرتها .

أرى أن بات قريباً الزمن الذي تتخذ فيه التدابير المطبقة في بقية اسبانيا ضد أمة داود فتمتد إلى مملكة غرناطة ، كما سوف تشمل العرب بدورهم ولو أنهم في الظاهر يتمتعون حتى الساعة بحقوق مساوية لغالبيهم .

ما يزال أستاذي في كهوف الساكرومونتي ، فريسة الدوار غالب الوقت ، لا يستفيق إلا كي يسألني . وكلما مكنتني أنوار عقله ، حدثته بما جرى لغرناطة . ويجيبني بنوع من الأناشيد ، لا يطاوعني قلبي على تسجيلها ، لأني لا أستطيع احتمال تمزقها .

لكني أرى أنه يخبىء عني بعض أفكاره ، فأنا ألاحظ فيه بعض أمائر نفاذ الصبر ، التي لا أفسرها بغير طول حضوري لديه . وتجيء الآن إلى قرب سريره عدة نساء ، أظن بأنهن يقمن بناء على طلبه بتعاويذ ، يضحك منها الكاليسيون فيما بينهم ، فيما يرتاح هو إليها على ما يبدو ، ومن هذا يتبين أنه ليس منهم . ولا فائدة ترجى من دفعه عن هذا الأمر . يريد أن يسبر المستقبل ، عيناه تتطلعان إلى أمام ، على القرون التي يعبر ، كما يبدو ، كأنما يجب أن يمر أولا بصحارى السا الطويلة ، لعله يصل ذات يوم إليها . وحدث له أن حدثني بذلك ، وأحنقه أني لم أصدق . وبعد ، لم لا تسكن هذه العجائز أبراج ما بقي له من أيام أخيرة يقضيها !

. . . .

أخبرني فارّ ، أن الملكين الكاثوليكيين ، أصدرا البارحة منشوراً يقضي بطرد اليهود من مملكتهما . نحن في الثاني من جمادى الثانية . غير أن أحداً من أبناء اسرائيل لا يؤمن بالواقع . يقولون ، انتظروا أن يعلن هذا الشيء !

. . . .

لا أدري أسَقَتْه النساء سحراً ، أم نقاعة روماني ـ تشال[1] ، أم خمراً ملقياً ، أظنهن سرقن دنه المعلق في آخر المغارة ، فلقد وجدت استاذي اليوم في اضطراب غريب : لا يراني أبداً ، لا يسمع كلماتي ، يبدو وكأنه يحدث أشباحاً ، لا ألمح أبدا . وحدق إلي فجأة بعين فارغة ، أنا عندها شفاف ولا شك ، ثم ، وكأن شعوراً ما استيقظ لديه بوجودي ، فدعاني بصوت عجيبة قوته ، وكأنه يدعوني كي آتيه من بعيد .

قلت له : « أنا هنا ، يا مولانا ، ألا تراني ؟ » .

عندها أنزل علي عينيه ، وقد عاد بهما ، من جهة ما وراء الزمن وقال لي : « أنت هنا يا بني ؟ أين كنت اذن ؟ في أي يوم نحن في حسابك ، وفي أي عام ؟ » حتى إذا أجبته أننا ، في العشرين من جمادى الثانية لسنة ٨٩٧ ، غضب ، صائحاً أني مجنون ، وأننا في الحادي عشر من محرم سنة ١٢٢٣ ، أي انقلاب الربيع من عام ١٨٠٧ المسيحي وأن الرياح ، دفعت عن ملقة إلى الجزائر ، سفينة عليها مسافر قادم من تونس ، يرقى الجسر ، يبحث بعينيه في اتجاه غرناطة . . . قال : « نظراتي لا تستطيع ، في اختلاط الأزمان أن تكتشف السا ، وكذلك نظراته لا تقدر على أن تلتقي بنتالي . . . لا يعرف هو أبداً ، أنها تعدو ، شقراء ، واسعة عينين سوداوين ، في أشبيلية ، عائدة من قادش ، في الأيام التي تسبق الفصح المسيحي ، وكل ما تقول يبدو وكأنه يعفى على أثرها ، كطير يرتجف خشية صياد وكلاب . . . وهو ، على جسر المركب الشراعي ، في رائحة

---

(١) نوع من الأعشاب يحضر منه الغجر سائلاً مغلياً .

القطران ، يستند إلى أحد الصاريين ، تحرقه شمس الشرق وملح الأمواج ، أصفر ناحل ، لقد جعل من هذا الحب الذي ولد له ، وقد مضى عليه ثلاث سنين ، دورة ثمانية شهور مر بهما مما يبدو له طرف العالم . . . إليها ذهب إلى القدس ، إليها راد مصر ، غير أن هذه الـدورة في عرض الأندلس كثيرة عليه كثيرة . . . كأن الرياح ساعدت هذا الزوج الذي يهتم بالأقاويل أكثر مما يهتم بزوجته . . . » .

يبدو لي أيضاً ، مما حفظت من هذا الدوار ، أنه تكلم عن خرائب قرطاجة ، وألف شيء أخرى لم أستطع التقاط أسمائها ، لأنها كانت ذبابات لامعة لا نرى منها غير نارها كما لا ندرك غير طنينها . . .

. . . .

أمن الممكن أن يكون المجنون قطع القرون ليعد يوماً يوماً أيام محـرم سنـة ١٢٢٣ ، على أصابع الحـاضر ؟ وفي الثلاثـين من حسابـه ، ظهـر عليه أن حمّـاه تهـدأ ، فتقـول له : « لقـد وصلا . . . » ماذا ينتظر ؟ ليس الزير هو القادم ولا القديس ، انهما زوجان . . .

(ما يلي ليس من مفكرة زيد ، وإنما من خيال ، معلق متأخر عنه ، لأن العواطف والأشخاص لا علاقة لهم بالمسمى قيس بن عامر ، ولا بالأخ جان دولاكروا ، لأن كلاهما يمكن أن يعني بالشعلة والمستقبل الانتظار ، لكن دون خوان يشتمها . في نهاية القرن الذهبي ، يمر شبح فارس الوجه الحزين ، وبوسعنا أن نناقش فلا ننتهي ، إذا كان تحول دوليسينه دي توبوزو هو من شطط الحب ، أو إذا كان كيخوته تقدما على مجنون الماضي ، خطوة باتجاه الانسان والمستقبل ، أم إذا كان حصانه على هضاب المانش ، يحمله إلى العالم الحديث الذي تنطفىء فيه أغنية الحب القديمة . لكنه يفصل بينه وبين لقاء العاشقين ربما في قرطبة أكثر من مائتي عام . . .) .

١١

العبـــــور

من يمخر البحر بغير الكليتين والكتف
وتلك السباحة في عمق المياه في جزر المرجان
وليس معه غير خشبة وعصا طويلة يهتدي بها
أما القارب فقد جعله على شكل انحناء جسده
ثم جاء يوم رقع الشراع وضاعف ثم ثلث المجاذيف
ثم صارت بعد مدينة تتحدى الموجة
ثم ضرورة آلة السدس والبوصلة والدفّة
فتكون السفينة على شبه العقل تمد حيزومها

من يقطع الأرض يعاني المسير وجهده
واتته الحيلة فزاوج بين قوته وقوة الحصان
لكن الفارس يجد أن أسرع جواد قصير النفس
يمتطيه فيعذبه ظمأ الوصول إلى مرمى نظره
يقضم نفسه دائماً حين يراه تسبقه رغباته
وكيف يزحم النور بالسرعة
آه كم أبطأنا في تعقيد العربات
قروناً كيما نعطي الحديد ذاكرة الحركة

الذي يقطع السماء فتسخر منه القبرة
ليس يكفيه أن يمتطي نسراً أو طائراً من حجر
ولا أن يتخيل التنين
لكن حلم الانسان يحتقر رحلات اللقلاق
فكان لا بد من عاشق بعيد عن حبيبه يخترع
البساط الطائر
وأي قلب عظيم يخفق في الصدر ينسق الخفقان على تنفس النجوم
الانسان الذي نسي الجناح في تحسين النار
هوذا على وشك الوصول إلى حيث الزرقة تنقطع عن أن تكون زرقاء

لكن لا السماوات لا الأرضون ولا البحر
بين المستقبل والماضي
لا مطية غير الوهم
عند من يقطع الزمان

١٢
الموعد

غرناطة في ١٣ نيسان ١٨٠٧

حلم كل منهما بالآخر طويلا حتى اتخذا أخيراً صورة زوجين
الكل بين ذراعيه يتبدل فيصطبغ بلون الهوى
العالم منه يأخذ معناه وتجلياته

وفي العاشقين ما يكفي من قوة لتغيير الحياة وقواعدها
كل حيل السعادة دخلت في الرهان
ورسمت رحلة الحب المزدوجة طرقها السرية
والتقت في قرطبة وغرناطة كي تكون لهما
كغرفة على قدّهما   ورغم كل تكذيب
ها هما وحيدان وقد خليا وراءهما الجمال العربي والسطوح
والقصور والأسطورة والسيول في الوديان
والخادم جوليان يخمر خمره في خابية
والمغارة التي ينتظرهما فيها المستقبل تفتح لهما مرفأ رحمة

يا صبراً عيل   يا صبراً نفذ   لو شاءا أن يراجعا الدرب لو شاءا أن يترددا أن يعدلا أن يعودا على خطوهما

كل ما يفرق بينهما   كل ما
يجمع بينهما يربطهما يكبلهما
يغير رأيهما ينذرهما لحياة التمزق
لو شاءا أن ينتزع أحدهما من الآخر ولا أحد
لا أحد في الموعد
إلا أنا على انتظارهما من أجل
الألم على انتصارهما عبثا أولا ثم تأخر
لا معنى له أولا ثم ينمو يمتد ما لا ندرك
من زمن ميت زمنٍ مجروح مشوّه مكسور مجنون
زمن مقطّع الأوصال مفضوح محطم فلا ندري كيف
نأخذه آه كيف نمسك به كيف ندرجه بأصابعنا فنحترق فيه
يا صبراً عيل يا صبراً نفذ كانا على وشك ألا يأتيا
ألا يقدرا ألا يريدا المجيء إلى حيث يذهب قدرهما
أو أنهما يفترقان قبل أن يجتمعا
قبل أن يكونا أصابع صلاة واحدة والزمان
الزمان يدخل في حلقي يخنقني يسدني يخبطني يربطني
يعيقني يجرفني يدخل أحشائي يحشوشي(١) في جرحي يبقرني
ويرين المساء على النور ويتفتت النهار
وتسقط أوراق الشمس فتشبه زهور المارجريت
تشبه الجنون   لا تشبهه

(١) يستعمل أراجون فعلاً جديداً فحذونا بالعربية حذوه .

لن يأتيا بعد السمرمر
لن يأتيا إذا عشى الليل
وتنطفىء القيثارة   أشعلوا الشموع
الرماد أبيض والدم أسود

ناتالي لها بريق فراشات عابر
تبدل ثوباً واسماً كل يوم
في فصلها الاسباني كانت دولوريس
وهو سوف يسميها في غرامه بلانش
التقيت بها في أزمنة قاتلة الانسان
والرؤ وس تهوي كل يوم على قرع الطبل
ما تعلمت من ريادة موسم دافيد
فيه ما كانوا يرسمون باقات زهر فحسب
النماذج العارية كانت تقلد الألم

أتذكر   رجع أخوها من النمسا
كان يريد تغيير الانسان وجعله أنقى
وهي تلتفت إليه بعيني أيلة مائلتين
كي تصغي لحديثه في الروضة الكبرى المظلمة
والبابوفيسم(١) كان سكرهما الفتى
كانا ينتشيان معاً بكلمات مرة
فتجعل شعرها جدائل طويلة
أحلام ميريفيل أبناء ما قبل برومير

كم كان بوسع الحياة أن تكون مختلفة
من الثورات تنبثق الامبراطوريات
ودولوريس التائهة تحت سماء الأندلس
تلتفت إلى الشرق بقلبها وتنهداتها
هي التي أرادت أن تخضع لهذه التجربة تلك الرحلة المعكوسة لأميرات بعيدات
الفارس الأجعد الذي في اسبانيا الأرملة
تتخليه في لعب النوافير

---

(١) مذهب بابوف الشيوعي .

لن يأتيا هذا المساء أقول لكم لن
يأتيا هذا المساء بشفاه جديدة
كي يعيدا إلى القبلة صفاءها القديم
لن يعيدا فتح عيون الأفق
لن يأتيا كي يحملا الدليل
على أن مستقبل الرجل والمرأة بعد كل حساب ليس سجناً
لن يسجلا أنفسهم زوراً ضد الذي لا يرى العظمة غير اغراء
ولا ضد الذي يحل محل الله الحب البشري
لن يجدا هذا المساء الطريق المنتصرة

يا غجريات ما كانت حاجتكن في تزيين الكهف بعباد الشمس وحلوة الليل

يا متنبئات كاذبات دعن استفهام الأيدي يسقط من أيديكن
الغد ما صار بعد يومنا هذا دعنه للغد

بينما كنت أتحدث هكذا على الدرب والخطو على الحجر يفوح غريباً بريح الخزامى

رأيت صاعدة وردة العشاق المزدوجة
الرجل الأسود من الشمس يجعل المرأة بيضاء
في حشاشة قلبه فيحسبها فيه الليل
جاءا كأغنية الروح العميقة
كموسيقى الجسد كالشعلة
كسر لا يطيق إلا بوحاً
كماء يفيض عن شفة القدح
ارقصن الروماليس هوذا فجر الليل
لا ميديانوتشه يغنيها الغجر

أوليباراتشي نصف ليل الثالث عشر من نيسان حين يبدأ زوجان ويتفتح المستقبل

١٣

أزمنة الزوجين ما جاءت بعد

على طرق اسبانيا التي مررتما بها

ألم تراجعا وجودكما
أو هل وجب يا فرانسوا رينه وناتالي دونوواي
أن يذهب كل منكما في طريق له
فرانسوا رينه ألم يتعب قلبك من الضلال
أو ما كنتما في نار الحب سوى قش

في الحياة المرأة والرجل كما في عمق غابة عظيمة يذهب أحدهما إلى الآخر دون أن يرى أو يعرف بعض ببعض وفي البدء كانت مغامرات مبهمة سرها انهتك من زواج ودير وراهبة وزوج وملكات عبر ن حتى اليوم الذي فيه في بساتين ميريفيل اكتشف الفيكونت فرانسوا رينه دوشاتوبريان سحراً خلل الأوراق ثم كانت تجربة طويلة أملتها عليه ناتالي في وجل عجيب

يا رحلة لم تكن في البدء غير صبا رقيقة
وفي ليل الحب تعاطيا حلماً
يدعك في الصباح قلباً ويدين فارغتين
لكن لماذا كانت الخيل هكذا سريعة
والربيع عجولا بالرحيل
كأنما تبدى لهما أنهما ذهبا إلى بساتين أرميد

لا ندرك شيئاً في هذه القصة غير ما لم يكن لقاء الأحبة
عالم متحرك يولد من الثورات والحروب وسقوط الملوك وقرع الطبول وفرسان ازينوا بالدم والبارود والمراكب البخارية وأنوال النسيج والأشجار المقطوعة ترتمي في الأنهار

تلك ليست سوى ميريفيل والسنون البطيئة
تنزع تاج سماء من يعيشون اثنين اثنين
الكل يتآمر كي يسئم الأرواح من سكرها
والطيور تنهش قبلنا الكرز
وتبلى القبل أسرع من الزهور
يتبخر الخمر وينحطم الكأس

خبئا يا عاشقين هنا طويلا اضطراب قلبيكما وليكره كل منكما الآخر على شراك الصمت قل لي هذه المرأة ـ الطفلة وقد كانت لك آه لماذا انتزعتها من بيت الله ربما لم تكن سوى مسخ فهل تصور لك اليوم لذة الاغراء الكذبة كما في الأمس

لا شيء في أيدينا غير حب وان
كان يظن أنه ينام فيستفيق غدا
كي يستقبل يوماً شبيهاً بنافذة
كي يولد من نفسه دائماً حتى الأبد
ويغدو كمعتوه على نفس الدروب
ثم يبتسم للمرايا عله يتعرف أفضل إلى نفسه

ما تقول ظننتها لوسيل عندما أخذني الدوار بهذه الطفلة التي ما بلغت الثامنة عشرة في الانسان لعلك تفهم ذلك انجذاب للحب وما كانت تكون عندي أكثر من لعب بوشاح أنا الذي خدمت في الجيش وعرفت المنفى لا شيء كما كان لا شيء يستعاد

نعم لقد بطل السحر الذي كان يعطر العيش
مات زمن الأنكوليا[1] في شهر أيار
وصاحب الوردة ظل على الأمل
لا شيء يكون لنا ما كان أبدا
أجمل الأمسيات باتت لنا سيان

لعبنا أكثر مما ينبغي لنا لعبة التهاون في الصداقة تعودنا أكثر مما ينبغي أن نكون غرباء العيش ليس ذاك الذي ندعوه حباً ما كنت تضع ما كنت تقول وأنت على حصانك إلى جوينة أوه يالكل ما سرقت مني بنظراتك

خمس سنوات تكفي كي تضل خطونا
خمس سنوات كانت كافية كي نصحو من سكرنا
لما تواقفنا أحدنا قدام الآخر نرائي
من الأول الذي كذب الآخر إذ ضمه
من ذا صمت لما عرف أن الآخر بكى من زعم الرحيل من زعم الرثاء

كل شيء يجري بيسر بين حبيبين ملاّ محرمة ترد رسالة ترد وهكذا يراجع الحب خطاه فلا يبقي منه أغنية قديمة يستعيدان أحياناً تمتمتها وينتهي بين أبناء الأرومة كل شيء على ما يرام فلا يبقى من الأمس غير النشوة

---

(١) الحوضية أو زهرة الحوض .

طويلا بعد ذلك عندما الجنون
حمل دولوريس إلى شواطىء النسيان
فهم رينيه أن كل شيء بدأ منه
آه هل يجد الليل بذرة له بين ذراعيه
منه جاء شقاء لوسيل وناتالي
كل ما يحب يعصف به الجنون

لا لم يكن كل عشق عشقت غير مشهد يرضي شبابك وهذا أنت شعر أشيب ليس سوى قناع وعزاء عن حب حطيم وأنت تعرف هذا الآن وأنها كانت وحدها جواباً تبحث عنه لأسرار الوجود يا بلانش أو ناتالي أرميد أو سيمودوسيه هل أخطأت حياتك التي لا تنتهي هل أخطأتك جنة أهديت لك قبل القبر

ما يكون الليل بلا صباح
ما يكون الحب إذا انطفأ
ان كنت ما انتهيت من سفرك
ماذا صنعت وحيداً بايمانك أنك تعيش
أحد نصفي قدرك
مثل رجل سكران

١٤

هيمن على المجنون تعب عظيم ، لما شارف الأزمنة التي يطير فيها الانسان ، لأن عدد ما لا يدرك من أمور ازداد ، بدلا من أن ينقص حسب ما تخيل دائماً . الأشياء التي يحيط الناس أنفسهم بها تتخذ صوراً وألواناً لا تعرف معها الغاية منها . الكلمات التي لا تترجم للغة القديمة تتضاعف دون انقطاع . كانت هنالك نار بلا نار وكلمات ساخرة . والموسيقى غدت غريبة كالثياب . وقلدت يد الانسان كل شيء طبيعي فأتقنته ، واخترع البلور الذي لا ينكسر ، ووروداً من دون رائحة ، وسمي هذا بالتقدم ، أما الحب الدائم فقد تبدى وهماً ، معدنه لا وجود له ، ومازج القش السبيكة ، وأصبحت فوارق العلائق بين المرأة والرجل لا تعدو الجزئيات . وبات ألزم أن نقهر السرطان أو نحرث من غير حراث من بناء الزوجين عل التوازن يكون محرك المجتمع الجديد الذي ازدادت شيئاً فشيئاً الثرثرة في أمره .

اجهاد عظيم ألمّ بقيس . لأنه بالرغم مما رأى من اختلاف الأدوات المخترعة ، ولوازم زمنه ، فقد خيل له أنه لا يلمح أي تعديل في آلام قرنه الأساسية . واستبدّ به الضيق ، لأنما كان الآن قرن السا ، وأن المعرفة تنقص على قدر ما تزداد ، وأن الألم لم يتبدل ، ولا الموت ، فأخذ يرتجف

من أجلها . من أجل ذراعيها الناحلين ، من أجل قدميها الصغيرتين يشدّ عليهما حذاء معتوه . . . من أجل كل زاوية رقيقة من جسدها ، تنسل من العين ، لا تدركها غير راحة يد تمسك بها ، والمفاصل الواهنة . . . من أجل عبيرها ، من أجل نورها ، وأكثر من كل هذا من أجل روحها . لقد اخترع سحر كثير ، وآلات غير أنها رافقتها آلام جديدة ، لا في العظام والأعصاب فحسب ، وانما في الأمل واليأس ، والفوارق في المعرفة ، واضطهادات جديدة ، وماذا أعلم ؟ وتعقدت الآلة الانسانية فطحنت العواطف ، وتزايدت المعارف في مناطق المجهول المظلمة فكانت على قد امبراطورية المعرفة وهي ما تفتأ تمتد ، كما أن الجوع ووجع الحب دفعا كائن اللحم والفكر في قوة لا عهد لنا بها إلى العزم على الخلاص منهما .

خوف عظيم داهم قيساً في استشرافه المستقبل . كل ايماءة منها ، كل خطوة ، كل نفس كان يرهبه . تبدّى له أن الكل تعقد كي يجرحها ، كي يصطادها في شرك ، كي تستشهد . لم يعان عمره هذا الاحساس الراعب . السلاسل ، العربات ، حنفيات الماء الساخنة ، أسلاك التلغراف ، الرادار ، كل أدوات هذه الأيام التافهة ، وما كان تعدادها إلا ليزيد في ارتعاشه ، الكل يوقظ خوفاً من أنه يغدو ديكور زمن تعيش فيه السا سجينة . الكل غدا بعينه حديداً أحمر إذا لمسته ، يعمي عينيها إذا نظرت ، يمزقها إذا سمعت ما يسمع .

١٥
مذكرات زيد

كان مضى شهران على بدء اضطهاد اليهود ، حين عانى النجدي تفاقماً في هذيانه . وباتت لا تستطيع النساء الهيمنة عليه أحياناً ، واقتضى أمره أشد الغجر قوة . كان ينهض من فراشه ، فيحاول التملص من الرقابة ، وانتزاع ضمادات جراحه ، ويحط الذباب عليه . كلماته لا ترابط فيها ، واسم السا يتردد فيها ، كنداء سفينة في خطر إلى الأرصفة والمنارات . وبدأ الصيف وهو ينم عن أنه صيف قيظٍ ، وتعود الفلاحون ، على الاستماع لقرع النواقيس ، بدلا من صوت المؤذن في أراضي الجوامع ، وهي تدعو لفتح السدود فتجري المياه في الزرع بأمر الله ، فقد تغير الرهبان ، من دون أن يتبدل زواج السماء بالأرض .

وجاء بعض الكاليسيين بأخبار من غرب الأندلس : أن حملة سرية تهيأ في مرفأ بالوش الأنف ، الذي يدعى الآن بالوس دوموخير ، اتخذ بها قراراً الملكان الكاثوليكيان منذ الربيع . وروى السواح أن قادة المشروع يهود ، يتلقون المساعدات من كونفرسوس قشتالة وأراجون . ولقد تحدثوا عن عجيب ما يبنى من سفن ، وعن حركة الورش ، وعن البحارة القادمين من مختلف البلدان ، متطوعين لغزو الهند الغربية . كان الأمر ما كان في أيام نوح ، لولا أنهم لم يأخذوا على السفينة من كل زوجين اثنين . ولو بدا أنهم جادون في انقاذ أبناء اسرائيل واسماعيل من خطر داهم . لقد أتى أمير البحر بخرائطيين وقباطنة ، من يهود ومسلمين اختلطوا برجال من أستوريا ، وقطلونيا ، ونافار . ولقد سجل أنفسهم في قوائم الحملة أناس من جهات عديدة ، منهم من لا يرى في الأرض غير خالة زوج أب ، ومنهم من فر رعباً من السانت ـ هيرمانداد ، وكانوا يتناقلون

أن الله أنزل برهاناً ، على أن جبالا ، تبدأ بعد المياه ، كلها من ذهب ، وأنهاراً يجري فيها الياقوت والزمرد . . . كان زوار منازل الغجر المبعثرة يحملون إليها الأنباء : فلقد جرى هذا الشعب الغامض ، كلما أعدت غزوة مسيحية أو اسلامية كبرى ، على أن يستيقظ فيه نوع من أمل عميق ، فيعود إلى أفواههم طعم الرحيل ، ويعاودهم الحلم القديم ، فيحتالون للابحار مع الجنود والبحارة ، بحثاً عن وطن بعيد ، وحياة أخرى ، المكان فيها لا تحدّه البحار .

وجمع العزاب في الكهف ، رزم نسيج وسلاح ومطارق . فصاحت أمهاتهم وبكين ، على معرفتهن ألا فائدة من ذلك ، وهن يفخرن في أعماقهن أن أبناءهن سوف يعمرون الأقطار المجهولة ، بل ربما انتصروا على العروق الصفراء . هذا الهياج كان ينعكس كله على حمى أستاذي ، فحاولت أن أشرح له السبب . لكنه ما كان ليصغي إليّ أبداً ، فقد زعم أنه في العام ١٣٥٥ للهجرة وهو الألف وتسعمائة وست وثلاثون من تقويم بيت لحم ، وتكلم مع أشباح هذا الزمن المقبل لا معنا نحن ، وجرّب أن يشرح لي بدوره الأحداث التي يشهد ، واستولى عليه الخوف ، لأن شارات قدوم السا إلى اسبانيا القريب ، باتت كثيرة ، فيما تهز النفوس حركات تحت أرضية ، من تهديد معارضة ، وقسمات بين الشعوب والأسياد ، فكأنما كل شيء في عشية عاصفة عارمة ، فالصيف يشتعل والطيور واطىء طيرانها ، وغيوم من حشرات تغادر المستنقعات إلى المدن ، ويستولي القلق على النساء في حبهن ، وما يعلم أحد أذاك هو الطوفان أم الحرب ، وهل يأتي الموت من السماء أم المياه . . . لا أفهم شيئاً من كلمات المجنون وماذا يريد من قوله مملكة المنطقة الساحلية ؟ هل يكون نسي سقوط غرناطة ، فأخذ ينتظر جنوداً مغاربة ، كما كان الأمل لسبعة أو ثمانية شهور خلت ، في قلب أبي عبدالله ، رغم كل المظاهر ، وهل يعتقد أن هذا الأمير يعود من اندرش في جحافل من البربر ، جمعها في افريقيا ؟ ولا أجرؤ على أن أثنيه أو أنتزع منه هذا الأمل المعتوه . لكني قدرت اليوم أني أفهم أنه يرى هذا الاحتمال بعين أخرى : وهو غير الحرب المقدسة وثأر الاسلام الذي تنبأ به بظهور المحاربين الصحراويين ، وإنما نازلة ، تنزل بشبه الجزيرة كله : وأفهم أن النجدي لا ينحاز للغازين ، وإنما يخفق قلبه مع شعب هذه الأرض ، وقد غدا على مرّ الزمن شعبه ، لأنه تعذب وفكر تحت نفس الشمس ، تفاعل فيه كل النشيد العتيق ، يحمل ميراث الآلام ، ما وراء العرق والدين ، في تفاهم غامض شبيه بانسجام الغابة العميق الذي تروي فيه ، الشجرة ، والعصفور ، والسنجاب والينبوع بعض لبعض ما لا يدركه من أقبل من أمكنة جرداء بفراعة ، وتبغ ، وبصل ، وخمر وخبز أسود :

لا شيء إلا كالذي كان غرناطة تتنازعها الشيع
الشعب وأنصاره في البيازين كما في عهد أبي عبد الله
والزغل ولو أنهم ضنّوا عليه بالسلاح يأتي المدينة
من قرطبة في كتائب مغربية مرتزقة ومعه الخطر

كل شيء كما كان في الساعة التي ينتقل فيها الحكم إلى أيدي الكلندريين

ويأتي ابن الانسان في الساعة التي يغدو المستقبل هزيمة اثر هزيمة

يا أغنية عميقة قبل الفجر لولا قليل لأمكن انقاذ كل شيء
كان النهار كوجنة فداست الحلم خطى الأجلاف
كل شيء كالذي كان   مضى زمن طويل في اعداد الطفل
في تكييف جسده للحب وروحه   زمن طويل كي يصنعوا منه
مفتاحاً للسماء لعلها تفتح أبوابها   زمن طويل للوصول إلى الجحيم
إلى جهنم إلى الغابة إلى السجن   إلى نشوء عالم يختنق
إلى الركوع أمام القتل إلى عهد الكذب والاهانة
كل شيء كالذي كان يا جنّة أحبطوها بلا منطق
أن تعيش منهكاً مجروحاً مهاناً مهزأ من أجل وليمة للشمس
لن نكون إلا من بني سرّاجٍ   مستقبل الإنسان غرق
كل شيء كالذي كان   البَرَدُ على القمح في ساعة السنبلة
لوح الأمل المخيف   وحشو الجمل القتالة   الضئيل
فخ الموعود ومحنة يسحقنا فيها صليب الايمان
وأسوأ ما في النضال أو أحسن ما فيه أن يصب شفيقاً في الوهم
انه حق نعطيه للمسخ على الحب حق نعطيه للشتاء على الوردة
انكم تدفعون ثمن جريمة غير محسوسة جريمة أنكم حلمتم وزنها من الدم
فلتتحطم كل القبل   كل السعادات الغائبة بين أذرعة مقطوعة
واللعنة على ثمرة المرأة الرقيقة آه كل شيء كالذي كان
....

هذا الصباح صاح أستاذي عالياً وجرى متوحش العدو إلى باب الكهف ، فقلب كل شيء ، وبعثر النار ، ومزق ثيابه ، مما اضطرنا للامساك به وربطه في سريره ، وهو زائغ البصر ، راجف الأعضاء . حتى إذا هدأ ، فهمت ما يقول : ها هم قادمون ! ها هم قادمون ! عمن كان يتكلم ؟

١٦
الساهـــرون

عبروا الظل بلا معبر   قفزوا مسالك الجبال
على خيل مسرجة بالقمر   في طراد دامي النحيب
والحدوات نجوم   جاءوا عبر القرون الخالية
في بزاة وزهور جاء أهل الفجر إلى مليجرانه

وغرناطة عند بزوغ النهار   يا قيثارة يا قلباً جريحاً حتى الموت
بين ذراعي ضبابة الحقول كسمراء عاشقة
ما زالت نائمة والشمس كادت تتورد على الأبراج
من جاء بكم إلى هنا ومعكم أغاني الماضي

انها أشباح ترحل ان رأتني أو فراشات تجتذبها آخر القناديل
هذا يمشي على البحر   رفيق الدّلافين
هذا للموت وذاك للحياة نرى الزمان يدق في صدغهما
وثالث جاء قلب الساعة على الأرض ككأس خمر
الشاعر هو من يعرف الشاعر قبل الاسلام كان عالماً أو متنبئاً
وهذا سليمان عينه على السماء   يرقص على مزماره
وهناك أورفه وأرنو ودانيال خارجون من الجحيم والنار تحت القارب
يقف فيه دانتي
هناك سينيكا الاسباني وبيترارك الفلورنسي
وأمير قرطبة المعتمد   وهناك
ابن حزم الذي يسمون ابن هزام وجمهور الصوفيين
والوصيفة حفصة بنت الحاج الرقونية
وهي تلبس للأبد ليل أبي جعفر الذي صلبوه
لكن أشواك الصباح تمزق لأيا فلأي حدادها
بات الجو شاحباً حل البكور وأغمض السواد آخر عيونه
أيها الشعراء يا من تولدون على مخمل الفجر في خطا ذئب

أمن أجلي ترك جامي فارس ورجع إلى مسقطرأسه مرسيه ابن عربي الاندلسي

من يتمتم من يتمتم
وعيناه كل الليل
كلبان في البستان كانا
والريح حيناً بعد حين
شجرة خزامى من رعب
من يتمتم   من يتمتم
ان الكوابيس تصنع جداراً
يحجب بين الموتى وبينه

فكل الموتى هم وخز ضمير

أولئك هم من ماتوا بعدي جمهورهم وراء حياتي
موكبهم ينزل من الثلج إلى البرتقالة ويرتد فجأة فيتسلق وراء الساكرومونتي هذا الدرب الأصهب كثعلب
ما تفعلون يا فرسان عبر السييرادوفيزنار
ان شمساً خانقة ترتفع آبهُا ثقيل وحار

كيف تميزون بين كيخوته على حصانه وبين سرفانتيس الأقطع ووراءهما سانتشو

وبين راهب العفو ودون جوان الذي هو ظله

وتيريزا عن يسوع أو مارية المصرية ومن هذه المرأة قاتمة الوجه وقد جاءوا بها من الكرمل على كرسي

يمشون شذر مذر وأحلام قرون الفوضى

مع كائنات الملحمة مع بشر من خيال
يبدعها الانسان بموسيقى ينعشها بالرعشات
مع عشاق حتى الموت ينيرون ألف عام
لأن الحياة حلم والأحلام أحلام هي
امش يا كرنفال هُوَى الله العظيم امش
مات الكونت اورجاز وانبهرت رئات الوصيفات
والتاريخ ليس سوى حكايات أحسنها نصوغها أغاني
ويمضي زورباران ويأتي جويا أكباش مشنوقة ودمى ـ معزى
لمن الباقات المزخرفة لمن تحملون البنفسج
هاته القويسات هذه الفرجيس ماين نيشت[1] هذه القرنفلات السود وتلك السواسن
الهذا الكانتاوور[2] الفتى عروس زهور البنادق

تحت جسر البيرة
أود لو تمرّ

(١) Vergiss-mein nicht ومعناها بالعربية لا تنسني.
(٢) Cantaor مطرب أو شاعر جوّال.

لعلي أعرف اسمك
وأجهش بالبكاء

في ذكراك لا جونجورا   ولا البورفير
فيها أن نقهر الجحيم بالجحيم   واليوم ما من مستطيع
لن يحضر موتك غدا ملوك مجوس مثل ميريمه
ولا واشنطن ايرفنج   ولا عاشق دولوريس الحزينة ولا موريس
باريّس وقد دعوته عبثاً إليك تحت الطرفات العظيمة
وياسمينات سان فانسان التي عطرت عمرك

كنت أصغر مني بسنة لكنّك سوف تظل الفتى في الأبد العظيم
فتى خالداً لا يرى أحد شعرك يبيض ولا جبينك تغضن
قل لجلاديك شكراً انهم جنبوك انحداراً ليست لديك عنه أية فكرة

فيدريكو جارسيا لوركا ما دام فمي لا بد له في نهاية النهايات من أن يسميك

الحصاد يحصد النفل ونشمها من الشرفة
الطفل يأكل برتقالا بلون دمك
لكنك كنت عبثاً كنت تريد أن يدعوا الشرفة مفتوحة
عندما تموت   إذا مت   هكذا قلت في أبياتك

يا لرائحة الموت على منديل الريح
واسبانيا تدلج إلى مصيرك
عالم يتقدم للموت   يرافقك
والسائر في المقدمة
لا يعرف أحد عنه شيئاً حتى ولا نمل بيته
لا التينة   ولا الثور
ايناسوسانشيز ميخياس في الساعة الخامسة مساء يا بطلا مجهولا

Por que te has muerto para siempre
Como todos los muertos de la Tierra
Como todos los muertos que se olvidan
En un monton de perros apagados

لأنه مات للأبد ككل موتى الأرض
ككل من ننسى من موتى في كومة كلاب مخنوقة
وعلى خطوه يتقدم شعب من رجال ـ جان
وجوه مخموشة ثياب محلولة والروح شعثاء
يغنون كلمات الهية غنتها شفتاك
وعلى عربات تتأوه كوابحها
غجر خيريز بطبولهم
في الساعة الخامسة مساء يحملون خمراً أحمر
يا للكم تذكر تشورورو تشورورو
في الساعة الخامسة مساء عند موت خوان دولاكروز
ويأتي راجعاً من الزمن جورج بورو
يا موعداً جنائزياً يا عرضاً قاسياً
صار معنى آخر للموتى الذين غنيتهم من قبل
كل مساء في غرناطة
كل مساء يموت طفل

١٧

مذكرات زيد

في آخر شهر في أوائل الثامن من سنتهم ، في هذا الفصل الذي يدعوه المسيحيون في تلاعبهم بالكلمات شهر أغسطس ، تيمناً بأمبراطور وثني ، وهو الموافق تقريباً لشوالنا سنة ٨٩٧ للهجرة ، اندملت جراح النجدي تماماً ، وعاوده صفاء غريب ، ولو أنه ما زال ضعيفاً . ولقد استطاع أن يشرح لي بين بين ما هي رؤ يا الزمن المزدوجة التي يعاني ، وكيف يحافظ على وضوح المستقبل والحاضر معاً وهو يقطع الزمن . لقد حال عنده كهف الغجر المظلم الذي يعيش فيه إلى مكان ذي نور غامر ، إلى مرآة ضخمة ذات قطع متكافىء ، يقعد في محراقها ، فتريه أقل اهتزازاتها صور عصر آخر . بات يراني ، يكلمني ، يعرف من أنا ، ويجهد في أن أشاركه رؤ اه ، وأن أرافقه في رحلاته الدائمة . . .

يعنى به الآن طبيب يهودي هو ، ربي ابراهيم بن ميمون ، الذي اختبأ في الخامس من شوال ، حين انتهت المهلة التي أعطاها الملكان الكاثوليكيان إلى شعبه كي يغادر خلالها اسبانيا . ويدرس هذا العالم الحكيم جنون أستاذي ، فيقول ان الزمان عنده هو المريض ، وهذا ما يصعب عليّ فهمه . ويبين لي ربي ابراهيم ، أنه على عكس الاحساس الفج لدينا ، الذي يجعلنا نعتقد أن زماننا هو زمان كل المخلوقات ، وانه قيمته مطلقة فيما يمضي وما لا يمضي ، والزمان هو مفهوم نسبي

عند الكائن ، وزمان الانسان تختلف عن زمان الحجر ، كما أن قيمته تختلف في الأنواع الحيوانية باختلاف ديمومة الفرد . والفيل الذي وجوده أطول من وجود الانسان ، تختلف فكرة الزمان عنده ، عما هي عليه لدى البشر ، وهذا الزمان نفسه ليس زمان الحشرة . وبعبارة أبسط ، ان سنة الكلب تعدل سبعاً من سني الانسان ، لأن كلباً في العاشرة من عمره يشيخ شيخوخة انسان ابن سبعين . وهو مع ذلك يعيش ما يعيشه الانسان : لأن كل دقيقة من حياته ، تعدل سبعاً من حياتنا . وهكذا إذا تأخرنا عليه بالطعام يكون ألم جوعه سبعة أضعاف ما هو لدى الانسان . ومن هنا الفرق في احساسات الكلب ، دوام غضبه ، وتبدل مزاجه بالنسبة لما نحن عليه . ويرى ربي ابراهيم ، أن هاجس النجدي ، راجع إلى تعايش زماننا العادي عنده ، في نوع من التمييز ، مع زمن آخر متسارع ، نوع من زمان الكلب ، يجعله في عيش متواز مع حياته الواقعية ، مكّنه من أن يقطع قروناً في شهور ، ويبدو أنه عاد فتباطأ ، لما وصل إلى القرن العشرين لدى المسيحيين ، إلى تكافؤ بين أيامنا الحالية ، وأيام ذلك العهد . ويقول ربي ابراهيم عنه ، ان النجدي ، منذ وصل إلى هذا التوازن العجيب ، يستطيع الحديث المتصل معنا ، لأن زمانيه التقيا في الديمومة .

ويقول أيضاً ربي ابراهيم أن تقلبات قيمة الزمان يجب ألا تبدو لنا ، على ما تبدو لنا عليه ، أي خيال فيلسوف ، لا تفقهه العامة : والحق ، أن كلامنا ، يعاني في حياته الخاصة هذه التقلبات . . . والطفل زمانه غير زمان الرجل الكامل . وزمان الساعة ، إذا اتخذناه زماناً موضوعياً ، ليست له عند الجميع نفس القيمة الشخصية ، فديمومته تختلف من انسان لآخر . والساعة أطول عند الطفل مما هي عند البالغ ، وأقصر بما لا يقاس عند الشيخ . وجلية الأمر أن الاحساس بالديمومة متبدل ، يتسارع بالقدر الذي يتناقص فيه ، ما يبقى للانسان من زمن يحياه . وكأن الانسان يشعر بهذا النقصان ، فتستولي عليه عجلة داخلية تراجية .

....

سهر ربي ابراهيم ليلة كاملة على المجنون . وفي الصباح كان شاحباً مما سمع من كلمات ، لكنه ضاع في تعليلات مدلولاتها ، فقال لي ان المريض يرى ، بالمعنى المتسامي للكلمة ، نازلة تنزل بغرناطة لها قصف عاصفة ، وثقل غيمة مظلمة . وما كان وهو المأخوذ في أحشائه بالرعب الحالي على بني اسرائيل ، ليقدّر أنها نبوءة لما بعد موتنا ، وقد منحها طابع اليقين اسم فرانكو في فم العجوز الملتوي . والأمر أن يهودياً في العام الماضي اسمه يوسي فرانكو ، اقتنع زوراً على الأرض المسيحية ، انه سرق ولا نعلم لماذا قرباناً مقدساً ، وجروه بالتعذيب للاعتراف بأنه قتل طفلا كرس دمه لطقوس دينه . ولقد استغلها الملكان الكاثوليكيان حجة ، بعد احراق هذا البائس في السادس عشر من محرم الماضي في قرطبة ، فقررا في الربيع طرد اليهود . روى الحادثة ربي ابراهيم وأضاف ان اسم فرانكو ، وهو كنية عائلة يهودية اسبانية ، سوف يبقى محترماً عند بني اسرائيل في العالم كله مثل اسم موشي وداود .

....

ربما لم يكن في مكنة الفتى ، أن يلم برؤ يا الزمان هذه ، لأني أجدني ضائعاً بين أقوال ربي ابراهيم ، وأحلام أستاذي ، وأنا لا أعلم ، هل يتعلق الأمر بالعهد الذي أنا منه ، أم بقرن بعيد .

كم هو صعب ، بعد أن اقتنعنا بورود ما يسميه النجدي بقرن السا ، أن نجدنا غرقنا في غد موتنا في غرناطة !

أفهم ما يعنيه الطبيب ، لكني لا أتوصل حقيقة إلى ادراك ما يجري في أستاذي إلى ذلك النور الذي ما زال عندي مظلماً . ما هو الزمان المزدوج ؟ كيف يمكننا أن نرى علي بعد قرون ، أن نكون معاً في سنة ١٤٩٢ وسنة ١٩٣٦ ؟ وأن نتتبع في نفس الوقت يوماً فيوماً ، ثانية فثانية ، ضيق العصرين ؟ وهناك أسئلة عديدة أخرى أطرحها على نفسي ، بعد أن سمعت اعترافات النجدي عن المستقبل ، وأنا أحتمل هذا الحاضر الفظيع ، يزيد في فظاعته ، النور الذي ألقي عليه قبل ما يناهز أربعمائة وخمسين عاماً ، ويبدو أن أربعة قرون ونصف لم تجعل الحياة أسهل بشكل محسوس .

....

قاطعني المجنون وأنا أكتب مذكراتي ، في لحظة شعور غريبة بعلته . أستأنفها في تسجيل أقواله .

....

١٨

حكايــة البحـــار والشاعـــر

ألا ترى على الموج البنت والمخضّبة وماري الرقيقة
تحمل إلى شواطىء اللاأين مدافعها وأعلامها
أبحرت قبل الفجر والبحر يبدو لها بطيئاً
ثلاثة أيام في بالوش بثلاث ليال فالسيد يعلم
أن اللعنة تنزل بمن يبحر في التاسع من شهر آب
الذي يقع تماماً في الجمعة الثانية من آب هذه السنة
ولكم من مرة راجع حساباته كم مرة استشار الأسطرلاب
في السبعة الأيام السابقة الوصول إلى عرض الجزر السعيدة
أول أرض يصلون بعد تلك الأيام السبعة القائظة
وثلاثة أيام انتظار قبل الابحار بسبب السكون الجامد
وأثلجت في تنريف فحام فوقهم سحرها ولمعانها
وشاع خبر هجوم برتغالي عليهم وما من هبة هواء
وباتت المخضبة بحاجة للرصيف لاصلاح عطل فيها

الاصلاح الآن   وهم على باب المغامرة
فلتدخل اذن متى استطاعت مرفأ الكناري الكبرى
أما نحن فنذهب إلى جوميرا لفحص الأشرعة والصواري
السماء والبحر من رصاص والزمان ثقيل كأنه يغلي
وهنا ليست غير توله غامضة يرسون فيها للتجارة
والمجهول يبدأ بعدها   والصبر قد نفذ
والمترنوم يدق من جزيرة إلى أخرى ايقاعاً مدارياً
الساعة سنة واليوم قرن آه ألا أستطيع المشي على الأمواج
أني لأمنح من يريد نصيبي من الجنة لقاء هبة صبا
أبادل مختارا جنتي بجناحي طائر
رمان دمي يحول زهوراً ونجوماً تحت جلدي
وينسدل في عيني الجاحظتين على كل شيء رداء قرمزياً
لا أنام أبداً لا أحيا أبدا أنا ساعة أدور دون راحة
ذراعاي على مينائها الخالد عقربان آه أني أنفجر أنفجر
أنا ما أنا غير صورة مخيفة تشبه الحياة
الانسان دائماً في آخر ساعاته في آخر جزيرة قبل الرحيل
على عتبة ما هو ذو قيمة والكل يبدو لي مائدة مترعة
كولومب ليس سوى حكاية أو استعارة طريقة أفضل للكذب
والحق أنه الانسان الذي يرى الحياة قصيرة والزمان طويلا
وعزيزي فيديريكو عند آل روزاليس يصغي   في الطابق الثاني
وليل الصيف كصمت كمنجات لا ينتهي
الآن لا نصيب له في الهند ولا أمريكا
عنده انتهت غرناطتي وانتهى النشيد
عنده مات الوهم العتيق كزيد أسود
عنده توقف الزمن العظيم كي تصعد خطوات الجلاد
وجاء الموت يفتح الباب على خلود البحر

سوف تقعد في قدرك
بين آخرين بلا وجه
يا شاعراً يا نوراً مظلماً
ذات يوم ذات ليلة ذات صباح

تحفر معهم قبرك
معهم تعد اللحظات
في قعر وادي الزمان
حيث يختنق نشيد الحمامة

قل لي هل تذكرت هناك
الموسيقى الناعمة الغريبة
التي كان للغجر والملائكة
يعزفها مانوويل دوفالا

لكن الموسيقى والأشعار
اختفت فجأة
فهل ذكرت البساتين
هل ذكرت نفسك

ماذا اخترت حياة أم موتاً
لكنه كان أسود على طريق موتك
دم التوت البري
وما يفعل من أجله شعرك

ماذا يغير لو أنهم وضعوك على الجدار
أو أطلقوا عليك كطريدة
في الوادي أم في الحقل
فثمار العليق كانت ناضجة

ولن نميز أبداً
عظامك وقد ابيضت بين الجماجم
ومن غرناطة أو ميلي جرانا
أغانيك للحقول التي أحببت

في فمه يدخل ماء المطر

دعوا عينيه مفتوحتين لعل نظرته تمحي
من أجل أن يتعود هذا الموت فيه
يجب ألا نخبىء وجهه بمنديل

وأنت يا أشباحاً جئت من عمق الزمان
كوني كوني ديدبانا يحرس موته
كل نجمة دمعة والسماء تنظر إليك
وملايين الآلام تتجمد في الغيمة

كل ما كان في الانسان من سام وعظيم
رفضه أغانيه وأبطاله
فوق هذا الجسد وضد هؤلاء الجلادين
اليوم في غرناطة يتجلى أمام الجريمة

وهذا الفم الذي غاب ولوركا الذي سكت
فملأ العالم فجأة بالصمت
ويتحول العنف ضد أصحاب العنف
الله أية جلجلة يحدثها شاعر قتلوه

آه لقد يئست من اخوتي المتوحشين
كنت أرى كنت أرى المستقبل على ركبتي
تنتصر البهيمة وترجمنا الحجارة
ونار العسكر تهمي على شواطئنا

ترى هل يبقى أبداً السوق اللئيم
فيقتسم الأرض بلا انقطاع
فيما بينهم أولئك القتلة الذين تخافهم الفهود
الخنجر يرتجف منهم إذا مسته يدهم

ترى هل يستمر النزاع دائماً والحرب
في تصرف الملوك ومن جبينهم خاشعة

ويولد طفل المرأة ولا جدوى
ويمزق الجراد دائماً القمح

ترى دائماً السجون والجسد تحت الدولاب
المذبحة دائماً يبررها الأصنام
ويلقون على الجثث رداء من كلام
الكمامة للفم والمسمار لليد

لكن يوماً يوم آت بلون برتقالة
يوم سعف يوم أوراق على الجبين
يوم كتف عارية يحب الناس فيه بعضهم بعضا
يوم كطائر على أعلى غصن

وفي أبسط بساطة سوف يسود
شباب الحب وعيون زهر العناق
وعطور أعمق وصباحات أشد بياضاً
واللانهاية الرقيقة تحيطني بها ذراعاك
... ...
أين تذهبين يا قلبي في ساعة الدموع هذه

١٩
مذكرات زيد

أحاول أن أدرك أين أستاذي . ان التفسير بالجنون لا يكفي . الكلمات المجهولة التي يصادف أن يضعها في أحلامه كأنها منارات على بحر مزروع أريانا . أو ، على العكس ، أريان سوداء ، ملقاة على أشياء أيامنا . لغة المَا بَعْد التي يتقدم فيها المتكلم ، فهل تصف هي فعلا عالماً يراه ؟ كل منها يعبر عن علائق بين ما يجري آنئذ وانسان السلف ، لكنها عندي أنا أوهام ، أنا الذي أتلقفها ، دون أن أنفذ إلى المستقبل . . . وهو يمزج لغتنا العربية شيئاً فشيئاً بكلام قشتالي ، ونحوه ، وصيغ زمنية في اللفظة لم نعتدها نحن ، وأكثر من هذا ذاك التقويم بشهوره الثابتة ، الذي لا يصف تاريخنا القمري ، منذ هجرة محمد ، وإنما الفصول الشمسية التي تختلط فيها الميثولوجيات مما قبل وبعد المسيح ، ويأخذ تفكير ابن عامر هذه الصورة التاريخية ، التي ترتدي فيها أشياء المستقبل منظر جحود خالد ، وانكار لما كان حقيقتنا ، حقيقتنا المنسية وقد كنا نعطيها قيمة مطلقة . . .

ظننت أني مستطيع متابعة المجنون ، ما دام ما يقوله لا يعدو عندي الخيال البحت . المستقبل لديه ، وأعني ما يسميه بذلك ، لم يكن عندي غير نوع من الشعر . لا يدركه الآخرون ، مثل الشعر عند العامة . حاولت أن أكتشف ، أو أخترع منه المعطيات ، في شبه اتفاق أو ديكوراً . . . لكن الصعوبة تكمن في أن هذه المعطيات لم تكن ثابتة ، كما أن من يستحضر من أشخاص ، ولقاءات الحالم المستيقظ كانت تفترض عالمهم المتغير ، وأحداثاً من شعورهم لا من شعوري أنا . لا من شعوري أنا .

ينقص لحظات البغتة ، والكائنات من جسد التي تبدو لعيانه ، ينقص الأفكار نفسها ، التي تسكن رؤ يا المجنون ، بعيني وعيني روحي ، تفسير التاريخ الطويل ، الذي من دونه لا معنى ، لأية حركة تافهة ، ولا لأية عملية في ذهن الانسان في وقت معين ، وكأنها مرقاة في الصيرورة ، ليست من دونه سوى دخان . القنديل الذي استخدم ، صندلي ، التحية التي أقول ، كل هذا لا معنى له إلا في قرينة ماضيه الضخمة ، فإذا ضاع هذا ما كانت غير أشياء من الآثار الغامضة ، غبار ، رائحة قبر . بين ما أرى ، وما عشت ، وهذه المشاهد العاطفية التي يتخبط فيها ابن عامر ، تنقصني حلقات أيام وقرون ، سلالات أفكار ، وملوك وحروب ، وأمم تولد وتموت ، وهجرات بشر ، وأديان ، ونحيب .

عندما أقرأ شاعراً ، أصنع من اختيار الشاعر عالماً أقبله كي أتابع قراءتي . هذا الدليل الذي اتخذت ، فارتبطت به بحبل الكلمات ، يجرني خارج معنى الأشياء العادي . يخلط بين الفم والوردة ، فيغدو عندي ذلك قانوناً ، أو أغلقت الكتاب . لكن ما أفعل في هذا الكتاب ، المنزوع الصفحات الذي هو النجدي ؟ فقد جاء يوم فهمت فيه أن لا استعارة في كل ما يقول . ولا بد لي إذا أردت ادراك أستاذي ، من المغامرة بفرضية واقع يأتي بعدنا ، رحلة لا أعرف لغتها ، ولا أستطيع معرفتها ، ينقصني فيها كل تفسير لما هو كائن بما كان .

. . . .

كنت البارحة أكتب جملة ، وأعدت قراءتها ، فواتاني مفهوم ، عما أجهد في التعبير عنه : أن نفهم المستقبل ، هو علم الآثار مقلوب ، هو عملية فكرية يجب أن تكون أسهل ، كما هو أسهل ، بدءاً من الحاضر ، النزول في الزمن من الصعود فيه . . . ويبدو لي هذا تجاوزاً في الصور ، لأن الزمن ليس جبلاً ، لكنها طريقة في الكلام ، وأن نصعد ، أن ننزل : لكن الصورة ليست هنا ، أردت أن أقول أنه أسهل أن أحلم في شرح ما أنا من أن ابني من الرماد ما بات غير موجود وكأني لم أكن . كلمة سهل ، تبدو لي منذ أن أصورها ، على هذا الأساس ، غير معقولة ، خيالية . وكأنها من فصيلة بلاغيّة ما كُتبتْ بعد : صورة النعت. كيف أشرح ذلك؟ هل تتضمن العلاقة بين الفم والوردة الكلمة ، هل تتضمن القبلة؟

. . . .

منذ أن سار زمان النجدي المزدوج بنفس الخطا على معزفيه ، يبدو أن أستاذي يعاني عذاباً فظيعاً من بطئه . كأن ألم الزمان الذي لا يمضي مربع الأسّ . لا مضروباً باثنين فحسب . وقد يكون المجنون ، قد تعود هذا العيش بمصراعين ، فحدثني عنه ، ولقد انقطع عن الغضب حين لا

أفهم أقواله ، وهو يبحث عن ايضاحها لي . يقول أن الرؤ يا المزدوجة لا تتم بلا دوار ، فهي كمن ينتقل سريعاً من منظار النجوم ، إلى العين المجردة على العالم القريب ، ثم عودة لذاك . أحياناً تختلط عليه الحقول ، وكذلك عادياتها ، ومن طبيعة فصول السنة ، أن تساعد على هذا الاختلاط : مثلاً ، في القرن الذي نحن فيه ، وفي الزمان البعيد الذي ينفذ إليه أستاذي ، في كليهما تطلع المارجريتا . وهكذا يجري كل شيء وكأنه في الاستعارة ، وأحد عنصريها ملموس عندي ، فيما يظل الآخر خاضعاً للتعليل ، متغيراً .

« ما تريد أن تقول ، يا مولانا ؟ » .

حينها في صبر من يود أن يوضح لطفل أن واحداً وواحداً اثنان ، لا واحداً ثم واحداً ، أي يعلمه ، أن التتالي ، ليس تتالياً فحسب ، وانما يولد منه حد يغنينا عن تعداد عناصره ، فواحد وواحد هما اثنان ، ورجل وامرأة هما زوجان . . . وهذا يحملنا بعيداً . . . شرح لي النجدي ، في أناة ، أنه كرجل ينطق باستعارة الفم والوردة ، لأنه من بلد لا تنبت فيه الوردة ، لم يرها أبداً ، فإذا ما يصف الفم عنده ، يعقده لدى الآخرين . . . وكذلك الأمر عند الوردة التي ليست زهرة ، وإنما وردة من اختراع المستقبل ، ينفي عنها كمال الصنع كل صفاتها ، فتحل محلها صفات أخرى ، وهذا يعود به إلى السا ، التي ، تتخيل ، كما يبدو ، وردات صفاتها ، ليست في الصورة ولا اللون ، ولا العبير ، وإنما من عنصر خارج على طبيعة الوردة ، موجود حسب ما نعلم في اطار العلائق البشرية وحده ، تلك العلائق التي رمزها العملة . . . وردة بالتقسيط مثلا . . . وتلك هي استعارة نوعية ، صورة نمت . . . أكثر من ذلك ، إذا أدخلتها في حكاية الفم هذه ما تغدو الاستعارة التي يتغير فيها العنصر الثاني ؟

أحاول أن أسجل هذه الأقوال ، لكن الوردة هي عندي وردة ، والفم فم ، وانه لكثير علي أن أسأل عن التناسق الموسيقي بين هذين العنصرين : فالموسيقى العلمية ليست من زماني الانساني .

. . . .

من ذاك الحشد من البشر جاء من كل ناحية فملأ سماء المستقبل ، وتحلق حول الشاعر القتيل ؟ أسماء لا حصر لها أحاط بها الحلم نفسه حول فيديريكو جارسيا لوركا ، حتى لقد ضعت ، فما أميز كائنات الواقع من مخلوقات الخيال . . . من هذا الكيخوته وهو في مروره فرجة بين القمم يتبعه جحش يحمل برميلا في سماء وسط بين الأحلام والحقيقة ، وهو يبدو هكذا في كلام المجنون الغامض ؟ ولماذا ، وقد رآه ، ربما بعد قرن منا ، يجده ، في العالم الاسباني ، في القرن العشرين المسيحي على دروب الأندلس ؟ لا أستطيع أن آخذ بياناً من أستاذي عنه ، ولا عن ذاك الافرنجي شاتوبريان . . . أجدني أمامه كفقراء المعرفة في المحادثة ، وقد أسقط في أيديهم بين علماء عندهم علم الماضي ، عن مصر أو فارس ، يمزجون كلامهم بشواهد من اللغات الميتة ، وتلميحات ميثولوجية ، ومقارنات أخذوها عن الكتب . الحديث عنه يطول ، ونظرته تمر فوق كتفي ورأسي ، كلمته راسخة في المستقبل .

ووافت أيام قرب السا ، ثقلت الثمار ، وغدا صيد الخريف أزرق رماديا .. ها هو العالم

كامرأة باغتوها في نضجها ، والليالي تنحل كشعر ، فتـدع للصباحـات ظمـأ لا يروى لما سوف يموت .

كان يقفز النجدي في المغارة ، لاهثاً ، كجُعل ضخم مجروح كيف كان يفسر مجـيء تلك العربة بلا خيل تجري باتجاه الجنوب ، كصلاة إلى قبلتها ، وكان هذا يتطلب مني كثيراً من مبادىء المستقبل كي أفهمه ، فلم أحفظ منها شيئاً ، ما خلا كلمة كميون ، يدل بها على العجلة ، ويذهب إلى أنها كما ظهر لي جميلة جداً ، قاسية وثقيلة كحجر قدت من غير اتقان ، عمارة من بناء الجمجمة الانسـانية ، صدغهـا عريض وفكهـا قوي ، وأن هنـالك سدوداً على الطـرق ، فوران بشر مسلحين ، وقرى تبدلت إلى أعياد ، ثم فجأة في ضوء القمر على عرض الطريق رجال جندلوا ، مكبلي الأيدي .

لم يكن الأوان أوان انخفاض الحرارة الأندلسية بحلول المساء ، وكان الغجـر على عتبـة المغارة نصف عراة يتحدثون فيما بينهم عن عابرين فاجأوهم وعن خيل سرقت عند نصف الليل حيلة ، وكان ربي ابراهيم قد نام على سرج من حجر ، وعلى ركبتيه تذكيرة أبي العلاء ، وابتعدتُ كي أشم الهواء . . . واستغلت ذلك النساء فتكوّمن على المجنون ، كخلية دبابير ملونة . حتى إذا عدتُ تفرّقن ، صامتات ، في نظرات لصوص . ترى على ماذا يتآمرن ؟

. . . .

أحقاً هو الانحدار ؟ يتكلم أستاذي كلاماً غريباً ، أعتقد معه ، أن هذا الفكر النير الصحيح وقع في شراك قارئات الحظ . أوما يتكلم الآن جاداً عن طرائق السحر ، وعهدي به دائماً يهزأ بها ! حديثه مليء بحكايات عن أرقام تخط لاستحضار الموتى ، ولقد وضع الساعة فرضية أن ما يمكن صنعه من أجل الماضي يمكن قلبه ، فإذا به يسمح لنا باستحضار الذين ما ولدوا بعد . . . وأنه ليحزننا أن نرى ما يصنعه العجز بمثل هذا العقل .

. . . .

تسود المغارة رائحة دم كريهة . فقد فصدت النسـاء جدياً ، ما زالـت جثتـه المسكينـة في المدخل . ثم وضعن الدم في قارورة ، ومزجنه بالأعشاب من أجل سحر ما . والنجدي في أوج الهياج : يرسم على الأرض أرقاماً ، قال لي ربي ابراهيم ، أنّه يتعرف فيها على علم القبالة . ومما لا شك فيه ، أن عملية سحر تحضر ولا أدري ان كان يجب علي أن أعترض عليها وهي ، على كل حال ، لا تعدو التدجيل ، بريئة ، تمنح الأمل والقوة لأستاذي ، الذي أغمي عليه طويلا ، هذا الصباح . . . وماذا يهم ، إذا كانت تلك النساء قادرات على استحضار السا ، أن يكون ذلك من حيل الجحيم ؟

. . . .

تحدثت إلى العجوز التي بدا لي أنها تقود كل شيء ، في ثوبها الأصفر الأسـود . وبمـا أن التاعس ابن عامر لا يفهم لغة الرومّاني ، فقد عبرت لي ، على خطوتين منه ، بذلك السخر الذي يتميز به حديث الكاليسيين فيما بينهم . اعترفت لي بأن ذاك غش محض ، وأن أحداً ، لا يستطيع احياء الموتى ، أو بعث أناسي المستقبل ، لكنها أضافت ، إذا لم تمنحه صورة من حلمه فإن هذا

الرجل ميت ، حتى إذا هددتها بكشف الحقيقة لأستاذي زادت فقالت : « أنت حر في قتله . . . » ولم تشأ أن تقول سر الذي ، على ما يبدو ، يدعونه في لغة السا ، حيلة . لكنني سوف أجرب أن أعرف أكثر من ظبية صغيرة تغازلني عيناها . . . نفس التي أعارتني ، من قبل ، قيثارتها .

. . . .

صورة من حلمه . . . يردن أن يعطينه صورة نفس الطفلة التي استجوبتُ . ومن التهريج الذي يحضره النساء ، سوف تظهر واحدة تكون السا المجنون : وقد وجب أن تكون شقراء ، ولقد اعترفت لي بالمسألة ظبيتي لما فاجأتها تصبغ شعرها . وحصلن على موافقة الرجال ، فباتت العشيرة كلها ، على بينة . . . ، ما عداي أنا وربي ابراهيم . واتفقوا جميعاً ، كما يعطوا الاحتفال مظهر النبل ، أن يحمل المريض ، على كرسي ، إذا لزم الأمر ، خارج المغارة ، إلى مكان مقابل للحمراء والبيازين . وهناك تتلى التعاويذ ، وتوضع في غيمة مصطنعة ، السا الكاذبة ، فتظل خرساء ، أو وجب عليها أن تتكلم لغات لا يمكن أن تعرفها . أجهل كم من الزمن سوف تبقى بيننا ، ولقد كانوا يعدون اخراجاً مسرحياً كاملاً ، كي يحيطوا اختفاءها بالأعاجيب ، مما يحلم به المجنون حتى آخر ساعات حياته .

هل أفضح له التزوير ؟ . . .

٢٠

فروّقه السا المزيفة

كنت التي الآن أنا
يغيرونني كما أعجب
لأني يجب أن أظهر مثلها
وحيث طارت الغيوم
أصعد كمطر

أغدو طيف حلم
صورته في الفكر
في جدول مقلوب
أو في سماء مكسوفة
قمراً كاذباً لدى الشمس

أناطرّة الحيلة
وردة شبح
مقارنة مستحيلة
الشرك المفضل

الشيطان الشبيه

أنا بنت ـ زهرة   أو زهرة العسل
لما أتمتم أصيح
لما أبكي أضحك
أنا تمثيل وايماء
خداع ـ الروح   خداع العين

والحب الذي استغلوا
رغبات قفر وشفاه خضيبة
قبل كاذبة   نحيب مصطنع
ايمان كاذبة   عناق كاذب
أنا هنا السا المزيفة

٢١

التعــويـذة الضــالــة

بأية معجزة فوق بشرية استيقظ من رماده
مثل علم على برج نسوا أن يأخذوه
كشباك بلا درفات في بيت تهدم
كطمر مزقته الريح والمجنون بلون الألم
جر المعتوه حمّاه   جر المعتوه جراحه
على الهضبة ومشى إلى ما كان الساعة غرناطة
وتشابكت الطرق في البعيد تتبعها خطا البغال

جلس المجنون على حافة الجمال الهالك هناك حيث ترى المعجزة تنبجس من النوافير
يا أرض المياه المصنعة فيك تروي الثلوج البعيدة ظمأ الأرض
عيناه على مجازفة الآتي وهو يحس التراب في فمه
والزوجان الحيان الزوجان الخالدان
كأنهما حل كل شيء
هل يولد الزوجان في النهاية بعد موته

انه يحدس كل الذين سوف يفشلون إذ ينهدون زوجين زوجين
يحدس بما يفرقهما في عالم الحب فيه لا يعرف
كيف يعيش بعد العناق
يحدس بؤس الرجل والمرأة الخالد
شاهد حي على محاولة لا تنتهي تتجدد
أطفال مساكين أطفال مساكين يضلهم كل شيء

لكن أنت الذي لم تكن سوى أنت

ماذا يستطيع وحده دون التي هي النار
دون التي هي البحر آه لماذا يستطيع

هوذا يرسم اشارات القبالة عمن أخذها لكن شيئاً لا يقوى على ردّه ولا الجحيم
التعويذة ترتفع إلى شفتيه يجب
أن تتحول هذه المرأة إلى هنا رغم قرون الزمن
أن تصعد إلى ينبوعها متحدية كل قانون طبيعي أن
تعود من حوالي نصف ـ ألف عام على نداء مجنون يرى في البعيد كيف يحول رماداً الملك الكاثوليكي
انه دعاء مجنون يأتي على لسانه صوت عميق من الظلمات
هل تقوى كلمات وجع ـ الحب هذه على حس الموت المحتوم
هل تقوى على الاتيان بتلك المرأة إلى هنا كما نهر إلى منبعه أو أغنية إلى موسيقيّ

المجنـــون

أدور في نور النهار ووجدان الليل
أحمل تلك المرأة في دمي كما تحمل غابة صوتها
كيف أستطيع الكلام عن شيء فلا يتحول لساني إليها
هي كل ما أحدس كل ما أحس كل ما ألمس
كل ضوضاء منها كل صمت كل اختلاج

قياس حياتي يا خوفي كل مرة من كل حركة
ساعتي الرملية العزيزة تفقدين في دقة السعادة دقيقة اثر دقيقة
موسيقى بعد موسيقى وهذا الفرار فيّ منك كانهيار
يا جموحي المقيم حدّك أموت حدّك أقيم
فريسة حب بلا نوم فريسة صخب خالد
منك في روحي وجسدي في صحراء ذراعي العظيمة
آه لو أني أستطيع أن أملي على العالم في كل مكان خاتم خطوك
أن أدفع حيث ذهبت حيث أردت حيث عشت حيث رأيت حضورك للتجلي
أن أشكل في شبه فضيحة صلصال الكلمات على مثالك
هذا الكلام قليل عليك قليل على صورتك والوسواس
من دون قدرة سحرية أن تقول إلى هدف هواه
السا مرسومة على السماء مثل شارة الخروج من الفلك
السا أبدعك أناديك بالحوارة السا انهضي وامشي

المـؤلـــف

يا معتوهاً مسكيناً واقفاً في عمرك وهزال ما كنته تدور حول نفسك تستدعي إليك هزء النظرات التي زعمت أنك توجهها إلى ما تحب

يا مجنون يا من عشت بعد قصيدك يا شبح شبابك وقوفاً هنا
لن تتجاوز عتبة ما يحيق بالانسان بين ولادته وموته
فهو لا يجوز له آخر الأمر غير أن يملأ في يأس عينيه من جمال العالم المر

سوف ينكرون عليك حقك في الاستحضار العظيم ينكرون عليك موهبة تجسيد ما لا يرقى إليه هنا أمام المنظر المشرع فوق الدارو وصوته يسخر منك

أنت لست إلا خليقتي وخادمي تذكر ذلك أنت الذي ليس لديك من سلطة إلا ما أمنحك فقد استغليت طويلا صبري والاسم الذي يهب الحياة والثقة بحبه الذي دمر طويلا بوهمه الحقيقة الصارخة

أرحل بهذا البلى قلبك وجنونك وضجيجك
هأنذا أقف حيث كنت ترافس ناسياً أنك لعبتي

أنت لو كنت لساني ألا أستطيع أن أنتزعه مني فيسكت فإذا بك صرة دامية على الحصا

لم يعجبك أنك غرفت مني النفس والوجود لم يعجبك أنك أخذت مني كل ما يضفي عليك مظهر الكائن وأن تتنفس أن تنزف وتحب ألا تعلم يا غافلا عاقاً أني أستطيع أن أرميك على

هواي كخرقة على أرض لقد استغليت ما فوضتك به عن غير دراية مني وما لا أعلم من ضعف أو انحراف عقل فاستوليت على اسم عذابي الرائع فجعلت منه حلية شفتك وجرحك يا قرمزاً سرق من حياتي

هاأنتذا تزعم أنك تدخل معك في نور غرناطة المصلوبة وفي دوامة شعب في تابوت نهايته فوضى عظمة مبعثرة

لا كاسم تأوهت به في البؤس والحرب لا كعطاء من جنوني وخطأ مرآة بين قرنك وقرني

لا كامرأة من جسد تلفزة زمان فيا لا أعلم من مسرحية ملعونة اخترعت
السا المزيفة وقد باتت حقيقة وربما صارت جميلة ربما صارت عارية
حذار من مشاهد الخيال من غش الغيمة
حذار فلا مكان لامرأتين في الكون والديمومة
حذار فلا مكان لانعكاسها في كل أمواه البحر
حذار فلا مكان عند قدميها المقدستين لاهانة شبح
تركتك تغني في كل مكان عشقك بعشقي
ما دامت خليقة دوارك خارج النظر لا يحلم أحد بأن يقارنها بالحياة بحياتي
ألا تفهم أني لا أقدر بأية حال أن أطيق طموحك ألا تفهم
أنك إذا أخذت بيد هذا الكائن من سحر
فجعلته يتجاوز الباب الذي كان يصطفق على الحلم في نصف الليل
إذا أعطيته الجسد والحركة بين الناس

ألا تفهم أني لا أقدر أن أطيق عبادة الكفر هذه وأني سوف أبعثر غبارك وغبارها

أني أبعثر لهبك وأدوس نارك حتى يسود الجمر
ألا تفهم أن لن تكون عشت أنا أم مت غير معجزة وحيدة هي السا
ولتزُلْ أنت وشعبك وغرناطة لقاء حضورها وحده
يا حباً كنت أفقي وما هيتي ومأساتي
لقاء اشارة تنهدة شك حركة خفقة جفن
ليهلك اليوم كل ما ليس شمسي
بدءاً منك يا دمية ذاتي
أو أختنق في زندقة وليد إلى الشنيل إلى الشنيل إلى الشنيل
يا فساد نفسي إلى الشنيل يا شخصية انبعثت من وشائج الخيال
ولتُتوّجْ السا الوحيدة على كل كلمة قيلت

المجنـــون

ألا تشفق على عشاق غرناطة يا انسان المستقبل

من تعتقد أنك تعاقب إذا حطمت المرآة التي كنت تنظر إليك فيها
لست أنا غير انعكاسك واللهب فوق قلب يحترق
وهذا القنديل حدّ قدمك هو الذي يجعلني ايماء مزدوجاً
ان أطفأته لا يبقى لك غير الظل وينتقم لي الليل فيمزقك
احذر أن تطعن بسكينك استعارتنا
لأن أعضاءها إذا تمزقت فقدت معاً معناها ودمك
وما الحب إن لم يكن بحراً   كلمة من دون بخور
زهرة العناق تموت أمام العين   وتضمحل الموسيقى في الأشياء
كل شفة تبلى على القبلة إذا انتزعت منها الوردة
وها أنت تأخذ مني حب السا وهو من حبك مرسوم
حطم قلبي إذا شئت   أوليس قلبك من نفس البضعة
أولا تفهم أنك ان انتزعت مني داخل ذاتي
حطمت المستقبل إذ تدفعني عن سبيل من أحب
أخذت مني اليد التي ظننت أني ممسك بها   فظللت
وحيداً مطلقاً وحيطاً عارياً بلا فائدة وحيداً ويائساً
كل ما أحسست يخفق في لم يكن اذن غير دوار حلم
أنت نفسك اذن والزمان الطويل بعدي لم تكونا غير كذبتين

هذا الشاهد الذي ليس هذا ولا ذاك

وهوت صاعقة صمت على الرجل المخدوع الوهم على الرجل المحروم مدى مسيرته
على الرجل المقلوب الرؤيا
صاعقة صمت ملأت تلك المدينة ذات السقوف التي كانت تتحدى الزهور
صاعقة صمت علقت أمائر الغضب والأسباب التي يموت الناس من أجلها
فما من مكان هنا إلا من أجل بداية نحيب عظيم
نحيب يصعد من الأحشاء إلى الشفة مخيفاً مكسوراً   نحيب
يشبه نزع الروح بل أسوأ لأن الانسان يظل حياً معه   نحيب
من أجل ما سيكون غير هذه الحياة لأخرى عبثاً تنتظرها وعبثاً عبثاً تنتظرها
لكن هذا النشيد ذاع من دون أن تغنيه
هذه السعادة المخنوقة في راحة اليد كمنديل بللته الدموع
هذا الخيال الذي سقط أرضاً كصقالة فلا ترى بيتاً بني بين ذراعيه
لا مكان هنا إلا للكلمة التي خنقوها إلى الأبد
سخف قدر صمموه فضاع كما تنسى لحناً

المجنـــون

واقف هنا فيما لم يكن بعد كل حساب إلا الذي قد كان
حدّ نافورة في زاوية شارع أو في بستان مهجور
لن أكون إلا ما أنا ما كنت أكون غير ما كنت لا شيء آخر
وحيد بلا فائدة وحيد وممزق في حلمي أوه لو أن الحلم ينزف حيث يكون الجرح لكن لا

انه ينتزع منك دون أن تستطيع القول أين الألم دون أن تقدر
أن تتحقق بأصبعك الجرح والدم
اذهب وكأنهم اقتلعوا منك اللسان والأعضاء
مع ذلك تمشي وتتكلم تبدو وكأن شيئاً لم يتغير فيك والآخرون
لا يرون عاهتك يزحمونك بلا هوادة
تتألم حتى لا تستطيع صراخاً أو بكاء أو تأوهاً تتألم
فتسلك مثل كل العابرين وتعود
إلى العالم الآلي والكل منه يبدو أن ليس غير هدف ظاهر محدود وضيع
وتحل ساعة الأكل أو ساعة النوم أو تلك التي في النهاية
فلتأت فلتأت في النهاية فلتأت آه
تأخرها في المجيء يذبحني
أنا البهيمة تغتالها السكين بلا رحمة لكن
في بطء ألستم على بعض الانسانية فتشحذون هذه السكين المثلومة فلا تقطع
أستجير بكم أن تشحذوا قليلا السكين لعلكم تنتهون مني سريعاً

أنتم لا تودون أن تجنبوني أناقة العذاب وقوة الفولاذ في الجلد والعضلات والأعصاب والغضاريف

أنتم تقتلونني خسة تقتلونني لأياً لأيا تدعون لي لماذا تدعون لي زمن التفكير بالمرأة التي انتزعتم مني

كأنكم فاجأتمونا قبضتم علينا فرّقتمونا في الحب أحدنا عن الآخر وأصيح بكم يا جلادين أصيح بكم

انتظروا على الأقل حتى أموت منها حتى أموت بها كأثم

٢٢

وتلفظ ابن عامر النجدي بجملة حطت من قبل مرة على شفته : وحيدا مطلقا وحيطا بلا فائدة عارياً . . . أعادها وهو يقيس المرارة ، أعادها كسمّ في الروح، وما من أجل أن يسكر بها ، وإنما تأكيداً للشقاء ، وقراراً منه في أن يحدق إلى وجه الشقاء ، إلى عينيه وامتداده ، الشقاء الذي لا يمكن له أن يقاس . ربما ، لو استطاع أحد أن يرى في قيس ، في تلك الساعة بعد غرناطة ، على حدود موت شعب ، عند هذه النقطة من انحلال الاسلام ، فعلى كل ساحة ، وعند كل عطفة شارع ، ميت لا يعنى أحد بدفنه ، ميت بالجوع أو بالسكين ، أو بالطاعون أو الثورة ، كل رجل وكل امرأة قعد في بيت سوف يؤ خذ منهما ، والنظرة تتوقف على منظر يمحى في بؤ بؤ العين ، وعلى البحر تتأهب سفن . سوف تنهار تحت ثقل الهجرات المتعاقبة ، من الجسر حتى العنبر حيث يخيم الفرار . . ربما لو رأى أحد ما يجري في قيس لقال كلمات الاحتقار ، ولهز بكتف حكمه عليه . . . ربما . أو فهم أن الخراب هو نفسه ، أكان خراب امرىء أم شعب ، ألا وقفة حتى الهوة . ان السقوط على نفس الفظاعة كائناً ما كان سببه . لأن قيساً بن عامر النجدي يقيم هنا القدر الانساني أكان قدر طفل تفارقه الروح على طريق المنفى ، أم قدر ملك ينهد للموت دفاعاً عن مملكة افريقية ضد الذين لم يستطع لهم رداً عن ملكه نفسه . . .

قيس ، وقد بات الآن وحيداً لا يفكر بنفسه تحت اسم المجنون الذي اتخذه ، وانما باسم حمله الآن ، وهو الذي كانت تناديه به أمه ، اسم الفتى ، اسم العاشق الذي له من ينتظره هناك مساء في الظل . . . قيس يحلم بالذين انبثقا عنه في الزمان المقبل ، هذان الزوجان اللذان انفصلا ناحية الأيام التي لا يعرف الناس بها ، أن شعباً ركع ، وأن رجلا في قمة اليأس ، في غرناطة الأندلس ، ترددت في قلبه بلا رحمة طبول جنائزية مرت بالمدينة على خطا الغالب . . . هذان الزوجان اللذان سوف يؤ ذن لهما **أن يشيخا معاً** . . .

من أين يجيئك هذا الصدى في كلمات اتحدت ، من أين هذا الصدى لشيء لا يعقل ؟ شاعر يسمى بول فيما بعد . وما الصدى في فمه غير نحيب على الانسان المهلهل ، المنفصل ، العاطل عن الزينة . وكأس الزوجين الحطيم ، يا لك يا ليلة آخر تشرين الثاني ، ليلة وحيد ، نهار آخر انطفأ : **لن نشيخ معاً** . . . عمن كان يقول ، وكيف ، هذه الجملة المنسية : **يعيش بلا مستقبل** ؟

وتقدم قيس بن عامر النجدي حتى تلك الشرفة على الهضبة ، وما زالت يُرى منها في المقدمة البيازين ، أخدود الدارو ، وهو يقسم منحدر البساتين إلى سطوح ، كل منها انفصل بين جدرانه ، وسياج الأزهار يتجه إلى منحدر الأشجار ، والأسوار ، وفي الناحية الأخرى يتسلق إلى الحمراء ، وقيس ابن عامر لا يستطيع أن يُشيح بفكره عن الزوجين ، وما يرى ليس الدارو بل غمازة على زاوية فم مرسومة بين منحدره وبينه ، بينها وبينه ، تحجبه عنه ، كما تحجبه البيازين عن الحمراء . . . لكنه الزمن العصّي ، الزمن الذي كالنار لا تلعب به عبثاً ، أخدود الزمن الرهيب الذي لا تراجعه أبدا ، لا تلك الحسرة العميقة كثمرة تنضج وتكبر بالدموع ، الدموع التي لا تصير إلا قشرة ، بداية درع ، وفي كل غلطة أمل ، في كل خطوة تصطدم باليأس القاسي ، بجدار الموت ، في كل خطوة وهم مضطربة ، يعود لي فحسب كبحر يعلو ، كمد ، أم تراه جرس وقعه

في ، يدق في ، في ضجة جناحي نسر في قفص عظيمة ، أين أنا ؟ وكنت أقول . . . كلمات قاسية رائعة ، اني أضيع ، كل ما أقدر أن أجابه به ما لا يرحم مع أن الأمر لا يتعلق بي ، تلك الكلمات المعتوهة ، الكلمات السماوية ، **سوف** . . . أتسمعين هذه الكلمات أيتها الأذن الداخلية ؟ **سوف** . . . أوه ، الآن أفهم الأعمى ، وما يعني عنده النور . . . الشيخوخة . . . أو هل يتراءى الجمال في غير القسوة وحدها ؟ . . . **الشيخوخة** . . . أذكر ما كنت تعنيه هذه الكلمة عندك في احتقار قوتك المتعجرف (قوتك ، يا حب !) والتجريد في فمك الجميل وما زال طفلا ، شبابك . . . **الشيخوخة** . . . ربما قالوا لك أنك لا بد من أن تشيخ ذات يوم ، يا له أمر مر ، أمر معجز ! رمز سعادة حقيقية ، الشيخوخة ، الشيخوخة . . . لكن ما كان يقول الآخر ؟ لكن ما الذي على طرف هذا الفعل . كلمة صغيرة أيضاً ، الكلمة التي تعطيه رقة الموسيقى ، تجعله يلمع ، تمنحه اعراباً باهراً ، **ان تشيخ** . . . آه ، في مرارة كنت تقول عنها وقد تحابا : **سوف يشيخان معاً** .

وأنت ، عندما تحين ساعة موتك ، **وحيداً مطلقاً وحيداً بلا فائدة عارياً** ، ليديروا رأسك ، لا إلى قبلتك ، وعيناك إلى الجنوب ، وإنما نحو زوجي المستقبل ، أما الذين يغسلون جسمك ، ويقتسمون ثيابك أجراً عن أتعابهم ، فلينظروا جيداً ، إلى هناك ، إلى حيث تتجه آخر نظرة طويلة منك ، إلى الشمس والقمر ، بعيداً **يشيخان معاً** . . . لن يفهموا شيئاً من الطقس الجديد ، أية كلمة من تلك التي تعود في نفسك الأخير ، حتى إذا غسلوا جيداً جسدك بأيديهم الطويلة الثقيلة الجافية ، وسدوا بقطنة معطرة بالناردين ، أنفك وفمك وأذنيك ، ومخارج الجسد السفلية ، سوف أتوسل إليهم ، ألا يغلقوا عينيك وقد انفتحتا على الفراغ ، تريان ، ولو عميتا على الحياة ، ذينك الزوجين وقد منحا ما لم تؤت في الخلود نفسه . . . سوف يروون هذه الكلمات التي سرقوا من نفسك ، دون أن يفهموا شيئاً . . . ما له ، ما به ، قبل الموت ، أهو الهذيان ، راجعه ، أم صلاة ، أم ترتيل . . . **سوف يشيخان معاً** .

معاً ، معاً ، آه ، هي ذي الكلمة التي أبحث عنها كقلب ضائع ، سر من ظل ، مفتاح سقط في عمق الماء . . . **سوف يشيخان معاً** .

ولسوف تدخل النساء بيتك ، ويبدأ مهرجان الصياح والولاويل ، وتتمزق الثياب ، وينشب الظفر في الوجنة ، وتنحل الشعور وتنتزع قبضات ، ويعلو الانتحاب ، وتغني النائحة وتبكي ، وماذا تقول عن المرحوم ؟ كان طيباً ، أحب أمه ، مطيعاً وبسيطاً ، وتقياً تقى كان الناس لا يفهمونه ، كأغانيه يلحق بها الصبيان في الشوارع ، لا يأخذ من خيرات العالم إلا قليلا ، يقاسم الفقير خبزه الأسود . . . وسوف يتخذ حادثٌ صغيرٌ في الكلمة الواهلة مكاناً أوسع من قده ، هو قصة لا يذكرها الميت ، رقيقة مثالية ، وربما كاذبة ، وذاك من أجل ألا يبقى منه إلا ما استطاع له سبيلا ، ما كان يجب أن يفعل ، ويعود النظام فيهيمن على كل شيء وتغلف فضيحة البارحة في ثوب جاف يتقدم به إلى الله ، يرفعونه وهم يقرأون أبياتاً دينية حتى قبره المفتوح ، في حيلة لعبة ، أو هل يرضى ، النجدي ، لنفسه ، بهذه الأرض التي حفرت له ، أولا يتطلع في الدقيقة الأخيرة من على الأكتاف التي تحمله ، فيرفض تواضعاً ، أو بما لا أدري من احساس معقد ، تلك الملكية التي يمنحونه ، لي أنا الذي لا أستحقها ، ويلقون جسده في دفعة واحدة . . .

ويهيلون الرمل فيمحى فيه خطوه ، وموسيقاه ، وهينات روحه ، وأنغام ما قال من كلمات ، يعجز الخط عن تخليدها ، رغم اختراعات النحويين ، وهذا التنقيط الهوائي أضافه للحروف الساكنة . . . ينهال عليه الرمل كحكمة كل حكاية قيس وشعبه ، رمل لا نهائي ، ذكرى الأصول الرائعة ، العودة للصحراء تنطفىء على حدود الانسان والملاك ، رمل تطارد فيه الاعلام ، وزمن الجاهلية ، والتيه الطويل ، رمل آسيا وفيها تهاجر القطعان إلى مراع ربيعية ضئيلة مدمرة ، رمل افريقيا وفيها العشائر تدور على نفسها شيعاً وكفراً ، وانتفاضات المتزمتين العظيمة في الأقطار القاحلة . . . يهيلون عليه ، على قيس ، كل النشيد الذي جف على رياح الصحراء ، كل نشيد الرمل كأنه اضطهاد لما كان ، وتلك الحجر تفتتت راحت ، تناثرت . . . يهيلون عليه الرمل الأبيض جعل من مغرة ، من ارجوان ، وسواد ، وبريق ، ولون موزع . . . عليه رمل الماضي بخفقة جناح تسقط طيراً في حلقه الجريح . . . أين أنا أيضاً ، في هذه اللحظة مما بعد نفسي بالكلمات ، بغبار الكلمات ، مجبول ، مثقوب ، مطعون . . . أعصار الرمل . . . لهاث الرمل على فمي وفي عيني سيله . . . أين أنا ، أما زلت أنا ، في ساعة الرمل هذه حيث تموت الكلمات ؟ وقيس لم يعد حتى ألماً ، أو لا شعوراً ، لا ردّ فعل ، ولا انعكاساً ، لا شيء سوى فريسة الرمل الجاهلة ، لا ، حتى ، حتى ولا هذا ، حتى ولا ذاك الذي عليه قدم الحفار العارية ، تمهد الرمل تثقل ، تدوس ، لحظة وتلح ، حتى تنسدّ النافذة على العدم ،فتدرس تماماً مع الأرض التي يمشي عليها الأحياء ، وهكذا أخيراً تلعة القبر ، كندبة ، على الجرح الانساني ، وتنزل الحجر . . .

لكن أحداً لن يكتب على الشاهدة ، تحت الأشجار العظيمة ، حيث تجيء فتضل بعد حين الأرامل ويلعب الأطفال ، الحروف التي رجا أن تحفر ، في الساعة الأخيرة ، ولم يعرف العلماء ، من أية سورة أخذت هذه العبارة المنتزعة المشوهة ، فوضعوا مكانها آية قرآنية . . . لن يكتبوا الكلمات الخفية لآخر شفة له . . .

. . . سوف يشيخان معــاً . . .

وماذا يهم ما دام كل شيء يتبعثر غداً ، ويدنس ، الظل والقبر ، وتجيء أزواج من الزنادقة فتجلس ، وعشاق عابرون ، والزنا والفساد ، يتكلمان لغة غريبة ، هنا ظلمة شعب آخر القبر عنده ذراعا مصلوب مفتوحتان ، يأتي فيعانق ، ويغازل ، ويقيس الكلمات العاطلة عن الرغبة ، فلا يدري معنى الحروف الكاذبة على الحجر ، ولا أنه كان مطرباً ، ولا أنه ردد بصوته ليلة كاملة ، عمّن ، عن أي حب ، ربما عن شعب بكامله ، كسخرية قدر ، لحن وصية خابت ، طموح الانسان الوحيد ، أمنية قلبه العظيمة في غرابتها .

سوف يشيخان معــاً .

٢٣
السا المزيفة بين قوسين

يا طفلة أشبه بزهرة ندّ طارئة

يا كذبة ارتجلوا لا تميز بين اللعب والحياة
يا شريكة في جريمة بريئة وسط ضحك ثم جد
لم يعطوك حق الدخول إلى المشهد ولما رأت السا الكاذبة
ألا دور لها في عالم الكبار الشرير
قعدت في زينتها والمساحيق تسيل على وجنتيها
هيا اطلبوا من الأطفال أن يرتضوا بالخذلان والمسبة
وبكت أنها في الأبد الخالد ورقة لا يلعب بها أحد
هأنذا رأس أصفر وخضب ما حول عينيّ بلون بنفسجي
سوف يشيرون إليّ بالأصابع كيف أنجو من الأولاد
أين تريدون أن أختفي أين تريدون أن أفرّ
أعرفهم أعرفهم جيداً أعرفهم أكثر مما ينبغي

وعدا الأشرار وراءها يصيحون بأسماء الأعضاء
وتتعثر قدماها الصغيرتان العاريتان على دروب بلا غد
ويعلق ثوبها العليق كأغنية غجرية
وخافت الأطفال حين التقطوا حصا
حتى إذا رموها بها آه يا للظبية المسكينة المسكينة
خفق قلبها في قوة لا تدرك معها
يميناً أم يساراً أم هو الجبل يغشها
أين السماء والوادي أين الحقول والسبيل والتلعة
ولما جرحتها الحجارة لما دمها الذي بلون القريز
سال على كتفها الرقيقة آه ماذا ماذا ماذا
فعلنا وطارت سمانة صائحة وفي السماء العنيفة المرائية
كان الظلم قاسياً على طفلة سقطت على ركبتيها الاثنتين

يبدو لكم غريباً أني أقص عليكم هذه القصة الخارجة عن الموضوع أو ليس سبب ذلك أني رأيت فيما بعد في شمس شعب ما تجرّ إلى الساحات العامة عبر الصياح بنات مجهولات احترفن رفقة الجنود وقد حلقت في فظاظة رؤوسهن(١)

انتهز الحديث عن السا الكاذبة أن السحر جريمة خيالية خيالي أيضاً أن تنتحل حق اهانة امرأة في جسدها أو رجل في روحه .

وأن الظلمات ما زالت بعضاً فوق بعض والبشر يستطيعون مجابهة الخطأ والجهل بشمس العقل العنيدة لأنهم قادرون على أن يخطّوا عبر الليل الانساني خط الخير والشر المجردة

---

(١) يشير إلى اللاتي عاشرن الجنود الألمان ابان احتلالهم لفرنسا في الحرب العالمية الثانية .

ولتضربني ذراع العدل ان لم أقله وليس مهماً أن أكون الآن وراء الحياة حيث العذاب لا يوجع مثل القبول

وينغلق القوس مع الماء وقد خيم على الأرض وابتعد من هنا النحيب

٢٤

أي كائن أنا ومن أين الصورة

أي انسان أنا أم انعكاسها من أنا الذي ينظر واقفاً في رحاب الأزمنة أم الآخر الذي يحلم فيما وراء ـ المرآة

أأنا الذي يقلب نفسه يبحث عنها في الماضي أأنا الذي يمشي إلى المستقبل يتقدمه بجنونه

أأنا فيما كان أم فيما سيكون
أأنا المجنون أم من اخترعه
ماذا أتكتفي بجواب وحيد
بحياة واحدة وأنك لم تكن
غير عابر على درب وحيدة

لقد اكتشفت في صبر المستقبل في شغفٍ اكتشفت المستقبل الذي لا تمسه إلا من أجل أن تفر من ذاتك الذي يعاود بدءه في كل لحظة من ذاته

ولا أقول انه خيبة خالدة انه
من خيبة ظنك يولد الأفق على كل خطوة
لقد اخترعت المستقبل على صورة أفضل ما في ذاتي فهل أظنني الله
لقد أبدعت في صبر انسان المستقبل مختلفاً عن هؤلاء الأناسي
جميلاً طيب الروح أعني حتى ليركع كل الماضي أمامه على ركبتيه

مع ذلك لا أستطيع لا يقدر أحد أن يتنبأ أن على قيد خطوتين من هذه المسيرة التي يرتفع بها السلم اليوم

يتبدّل كل شيء سريعاً بما يبعث على الدوار فحاضر معطياتي
هو انطلاق خطوي الصغير ما يفتأ أن يغدو تافهاً من ـ الماضي
من ـ الماضي ألا تفهم المعنى المعطى لهذه الكلمة من ـ الماضي تعني

خرج من الماضي بات في الماضي وبه تمضي بعد ذاتك
ومن أجل أن يكون لهذا المستقبل الخيالي الذي أعطيت نفسي العمق والرؤ يا
من أجل ألا يكون تجربة قصيرة نظرة كائن انساني يتنبأ عن الربيع في الشتاء
عدت في الزمان إلى ما قبل حياتي
رجعت أربعة قرون قبل ميلادي
وبحثت في غرناطة الضائعة في قرن السا عن قانون التقدم والميكانيزما
التي يتجاوز فيها الانسان الانسان وكل جيل
قضيب أعلى من السلم
أعدت اختراع الماضي كي نتجاوز هذا الحاضر الذي يحول سريعاً ينصرم سريعاً
أعدت اختراع الماضي كي نرى جمال المستقبل
حتى إذا دارت المرآة نحوي رأيت وجهي
وقد خدّدته الرياح والسنون
وقد لطخته فأبلته قرون عديدة
يا مزقا في علم
فيها كل ارزاء الانسانية على الأرض
والتاريخ مكتوب في تجاعيد جلدي
كشيء يتذكر في كل شيء خشبته ورحيله
كسفينة عجوز تتأوه من كل دفات الماضي
والعواصف والفصول والحروب والمحيطات والأمراض
لكنك إذا لففت الشريط معكوساً وجدتك قلت نشيد طيور لا وجود لها
حتى إذا دارت المرآة إليّ رأيت بشاعة وجهي
ها قد آذنت الساعة التي فيها رفاق الرحلة واحد بعد الآخر
يتوقفون فجأة أحدهم في سرير ليس سريره والآخر على الدرج أو لم يكن بكل معنى الكلمة درجا فالأخبار تنتقل سريعاً
لكنه المدخل بل ولا حتى العتبة الكرسي حدّ الباب وقف كي يأتي بالصحف ثم وفجأة
الصمت صمت يمتد فيغدو الصمت
الشفة شاحبة بالكلمة والعين يغمرها غياب
لماذا هذا اليوم لماذا هذه اللحظة غدت فجأة لديهم الأخيرة
ما هذا الضنى الطارىء ما هذا الرفض
لم يريدوا لم يستطيعوا أن يسيروا أبعد   قالوا وَبَعْدَ

بَعْدِهِمْ يبدأ المستقبل
هل أقعد أنا أيضاً مثلهم فجأة وأنا أرى أمامي اللانهاية والامتداد
وقد يئست من طول الجهد كي نتقدم قليلا
مع هذااعطيني يدك كي نذهب معاً
معاً ألا تريدين حتى المنعطف ربما بعده
يتغير المنظر ويكفينا أن نراه تغير
حتى ولو كان البحر دائماً البحر أو حتى إذا لم نخرج من الغابة
الطريق قاسية وتتوقفين أنت
تقولين لو أنها لا تصعد لكانت تكون أسهل لكنها هي ذي
تصعد يا غرامي تصعد فلنجرب
أن نصعد معها قليلا مهما كان قليلا كي نجدنا سوف نجدنا دائماً أقرب إلى النجوم
من يعرف ما هناك غير بعيد تلك الثنية في الأرض انها سوف
تكون هذه المرة القمة حياتي كلها
رغبت في هذه الدقيقة رغبت في طفولة بهذه الدقيقة
هي ذي هنا أخيراً القمة
الآن ما يعنيني ذاك الطريق الذي ينزل وراءها
لأني رأيته سهلا ينزل على مد النظر
آه سهل انه على الآخرين من دون
سهل وليستغنوا الآن عني

دائماً اعتقدت أن من واجبي الوصول إلى القمة
كأني حملت معي الانسانية كلها كاملة
كأني كنت أقودها معي إلى هذه الشرفة على الغد
كأني إذ أقودها إلى هنا أنتهي من مهمتي
آه أي طفل أي طفل نحن
أي طفل مسكين صغير في جمهور يلعب بخرق ملونة

كلما وجدت قمة فلنصل إليها فإذا وصلتها أنت الذي كنت تضحك
من الذين أضاعوا حياتهم في تسلق جبل
من كل العناء الذي تحملوا من كل ما يعتبرونه عندهم هيمالايا
والهوة التي يسقط فيها الرجل من الجبال فلا يسمونها باسمه

فإذا وصلت تلك القمة المستهدفة بين المستقَبل والماضي
فإنك في مكان الوقوف بلا رحيل ويستمر هنا الجمهور كله
وليصعد الطريق ليصعد أو فليهبط
فالجمهور بات فيما بعدك بعيداً ضجته لا تسمعها أذنك

الجمهور النسيان الذي ندعوه الانسانية
مع ذلك هنا القمة هنا على الأقل قمة نفسي واسخروا مني لكني بلغتها
لقد تدحرجت حتى الآن تحت أقدام الجمهور
ولقد تركني وذهب أنا الذي لن أتقدم بعد
وأنا ما انتظرت سوى ذلك

وإذا كنت المجنون إذا كنت ما حلم به
أو كانت الآية معكوسة وأنا الذي به حلمت
فما أهتم بذاك إلا أقل من عبير الظل
وهذا الإسم في قلبي بلا أذن ولا عينين

خاتمة

[١٤٩٢-١٤٩٥]

أغاني القرن العشرين

هنا تقف فيّ هذه القصة وتمحي غرناطة فما أنا إلا أنا هنا في النهاية أقيم قوتي أو ضعفي على الأقل والانسان المحدود هنا في النهاية أَقْبَلُ لكل شيء فيّ حدّه واليوم الذي ينتهي ويسقط الحجر على قدمي المتعبتين بل ربما لم يكن الأمر في النهاية تعبا فحسب يسقط أبعد بلا فائدة حملناه أبعد قليلا قليلا

أمزّق أسمالي أدوس ما نثرت آه أقلب أقلب صفحة ما كنت وأفتح راديو العالم الذي فيه الآخرون

ولّى الزمن الذي تحول فيه الحكاية حكمة فما من حكاية ولا حاجة بنا لاستعارة يأخذها عنا العالم لا وجود إلا للتراجيديا الخالدة

ولا فرق في أن يكون نهار أو ليل اسبانيا أم أمريكا لا وجود الا للتراجيديا الخالدة

أنت قاعد في بيت في المدينة تكتب كلمات على مثالك تجمجم بجملة تأخذك حيث لا تعلم

أنت تناضل ضد الزمان وراء طاولة وتظن أحياناً أنك تقلبه تعبره تتجاوزه

تصور على الورق أفلاكاً من اشارات تدل بها مسافراً لا يأتي أو يمر من دون أن يراك ويزيد فيستعمل روحك كسيكارة

تظن أنك تكتم سراً رائداً تظن أنك وجدت الحجر الفلسفي وما من أجل الذهب بل من أجل

الانسان وتنهض كصيحة وأنت تزرع الغرفة تجأر بصوتك في الغرفة الفارغة تروح فيها وتغدو بين ألفاظ تقذفها عبثا شفتك على الجدار في ديكور حياتك

تتوقف في حركة وتضحك من نفسك بلا مرآة وما تنتهي من ضحكتك حتى يعاودك الأمر كحمى يا دمية يا دمية ذاتك

مع ذلك تصطك كل عظامك أيها القرن العشرون هنا وفي كل مكان الطاعون ما كاد يبدل اسمه والموت قميصه وعلى غير ما انتظار أرسلوا الكلاب وراء الفارّ وفي الشارع اضطراب ثقبوا الظل نفسه ما تركوا مكاناً لضلال خطاك وهم يطلبون منك على طرف كل حقل حساباً عن أحلامك

أنت كأم كثير ابناؤ ها فلا بد من أن يموت أحدهم في مكان ما

منحت نفسك ستة شهور كي تبدع الأغاني فإذا هي الحرب فجأة في مكان ما كشراع صوار سقط أو ثورة أو جوع أو شعب يتحطم

وأنت لم تفقد في هذه المدة غير حياتك

*

لا مطر   سكتت الريح   الليل عميق
امتلأ كقلب بصيحات عظيمة اختنقت
كل ما لا نقول يرتمي على العالم
رماد أيامنا الطويلة يا كلمات شطبناها
انها الساعة التي باتت نظراتي لا تخدع فيها روحي
لا شيء يضلني لا النور ولا الضجيج
عِلْمٌ فظيع فيّ يحترق بلا لهب
وأرقب العالم الذي يتهدّم في ذاتي
ويمر الزمن في أسفي يده على وجهي
وأنا أستعجل أكثر منه مائة مرة
فليمض وليمح الذاكرة والعمر
والحب الطائش يبدو كلباً مجروحاً
لحظة على السطوح يرقل قطار عربات
يجب أن نؤمن أن السماء تستمر في الخارج
انه يقترب ويزيد ينقص ويتوقف
والطائرة تذهب بعد أن جاءت
تلك هي حياتي يجب أن أدرك حدها
أن أهدىء في فؤادي هذا الطائر الذي يقفز
أما أنت التي تنامين أما أنت يا حلمي ويا لازوردي
أنت أغنيتي وخوفي أنت زمني المستحيل

كنت دائما ماء نقيا على حمَاي
يا جنوني العزيز يا حكمتي وخمري
أنت دمي مثله كنت تفرين على جرح
فأشرب به دائماً كي يعود إليَ
أصغي إلى غيابك قريباً مني يتنفس
قولي أي شاطىء تسكنين لستُ فيه
أية زهور تقطفين لا أعرفُها
في أي مكان تجلسين مساء فلا أجلس فيه
ها أنت ها أنت من دوني قريباً مني ترتاحين
في هذه المدرسة هنا ما الذي يحل
آه ما أصعب أن نتعود هذه الأشياء
انها تشبه إلى حد بعيد ما هو قادم إلينا

*

لعل الله يجنبنا أن نعيش مائة عام
في ضجيج الأبيات والنثر
فإذا مدّ لي الموت فسحة من زمان
لن يتبدل شيء أبدا
يعود الفيروز والوردة مائة مرة
مائة مرة أحبك وأنتظرك
مائة مرة أسهر وترتاحين

مائة مرة قواف مكرورة
مائة مرة الليل مائة مرة النهار
مائة مرة تعود القبل
مائة ألف مرة ومرة الحب
الربيع الأخضر والرصاص الثقيل
تهب الرياح وتمر الغيوم
ويصيح اللقلق على الأبراج
الحياة أم الموت أيهما أبطأ
الحياة أم الموت أيهما أسرع
الكلمات باتت قليلا ما تتشابه

السماوات أصبحت معادة
وباقة الاقحوان هذه
التي قلبها أصفر وعقدها أبيض
هل نلعب لها لعبة نعم أم لا

هل فقدنا العقل
كل طريق ينعرج من بدئه
كل جملة في غير أوانها
وكل كلمة بلا قوة
وكما تفعل الشجرة والقشرة
والدخان بالبيت
يطلّق المعنى الشفة

لا تضحكوا من الأفكار العتيقة
التي تبلى بين يدي العجوزين
انها ضرورية مثل
ملجأ قلب يدنسه كل شيء
خفيفٌ مَنْ يدينُها
ويفضل عليها عطراً آخر
تفضيل التويست على البافان

بحثت لك وجدت
لكم ولي معاً
سر الحياة والحلم
لكم ولي المسألة
لا تحل إلا بالقصيد
احتقروني ان عرفتم
صيغة أخرى لقول أحبك

عندما تكون لكم أذرعة من نايلون
وعيون من رادار ودم من ذرة

يغدو الحب عندكم أسمر أو أشقر
والقبل لذعا أو بلسما
ويصير لكل قلب مترونوم
لكل شيء قلب مقياس
وتصغون إلى أشباحنا

*

كنّا اثنين لم نكن غير واحد وعلى الأقل على الأقل
استطعت أن أؤمن بذلك
نحن أقول نحن في دواري وقريباً أم بعيداً
أكون عشت أكون قضيت أياماً بيضاً أو سوداً
على ركبتيك

نحن أقول نحن كي نكون سعيدين كنّا اثنين
لا أجرؤ أن أقول
كيف كيف تتصورون أننا كنا سعيدين
كانت عيوننا تلتفت فترى في الأحسن الأسوأ
مساكين أهل العشق

أما كان ينبغي لنا كيما نكون سعيدين عيوناً مغلقة
ألا نسمع شيئاً
لكنما اليوم ازداد البؤس
حتى لتحترق الحياة والرياح طعمها رماد
دمنا يضجّ

كل السعادة يا سعادتي كنا أخذناها
عن جهل
لكننا هل نستطيع حقاً أن ندفع ثمن الجهل
العالم حولنا ونحن جزء من عذابه
شئنا أم أبينا

أنتم تعرفون ألا حب سعيد
ذلك جاء في الأناشيد
ويلومون القائل يودون أن يثبتوا

بنا نحن أنما وجدت في العاصفة
جنّــة

تحت الغيمة آه هل تظنون أن السماء زرقاء
على هواكم
أنظموا اذن أبياتاً عن جمال الشمس ابان المطر
١ كما يتنكر الناس في خميس نصف الصوم
إذا طاب لكم

أيها الأبناء أيها الأبناء ما دمنا نموت ما دمنا نتأوّه
ما دمنا نبكي
ما أفعل بقلبي الآخر الذي وضعوه
كمرآة مرة خلل العذاب
فانفلق

*

أسمّي الحاضر حضورك
بين العلم والذاكرة
فيه الليل والنهار يتعادلان
يكتفيان بالنوم والنظر

أنا لاأذكر إلا الغياب
لا ماضي لي إلا اليأس
كل ما كان أستعيده
بدءاً منك وأنت المرآة

أتخيل على مثالك
مستقبلا أعرفك فيه
أنا لا حلم لي إلا بالأمل
أنا لا أحب غير ايماني بغد

الحب فيه لا يكون جنوناً
بل يكون زادنا

ضد الموت ونشيد
عشاق استوحوه من مسائنا

مـذكّـرات مـنّي

ما عندي عن الآتي بألوان فاقعة غير رؤ يا غامضة

ألحف في تخيّله أريده أجمل وأنقى أو كيف أعيش سحقا لحلمي ان لم يكنه وليمح معي

المستقبل هو نحن وقد تجاوزنا أيام كغسيل نظيف

... ...

ولئن رأى فينا من سلف مستقبلهم
هل تظنون أنهم كانوا يحبون ما جعلنا غير ما كانوا

... ...

ونسمي تقدماً هذا التغير الذي يحيل أحلامنا بلا جدوى

... ...

ما أمامنا يشبه البحر أو هل أجده أقل جمالا ان كان فيه غرقي

أنا أعمى عما لا أستطيع تصوره إلا بدءاً مني أطرش عن الجملة التي لست سوى نغمتها

وكيف أستطيع الرضى حين يغسلني الزمان فلا يبقى مني غير طعم من ملح يضيفه البحر إلى الغرقى

... ...

استيقظت على عادتي دائماً مع الفجر فجرحت في روعة الشمس الطالعة رؤ يتي وما ثمة شيء يبدع مني نشيداً لأن الصمت كان يغني من دوني وينكسر ما أكتب بين أصابعي كصدف

ويختمر الحلم المهصور في دفتري
هنالك صباحات كهذا لا معنى فيها ولا نظام
لحظات عجيبة ضائعة

... ...

جئت مع ذلك كي أقول أزرق على أبيض ذلك الذي يجعل عيني لامعتين دائماً
في الظل وأدور في فكري حتى ما أستطيع أن أطيق دثاري

جئت حافي القدمين أشعث من دون أن أمرّ بالماء فيهذب وجهي
جئت خائفاً من أن أنسى تسلسل ذاتي
والبناء الهش في كأبيات نظمها سجين لا يذكر شيئاً غير الكتابة
يتعلق بمعجزة التناغم واصطدام الكلمات ككريستال تسحره تفاهته
المستقبل والذاكرة كأن هذين الاثنين لم يتزاوجا أبدا
يا فخذي البارحة والغد في ضعف تعانقا

... ...

اني أنحرف يجب أن نرسم عن الطبيعة وعنها فحسب لكن هذا
عليّ مستحيل

... ...

أمامي الصباح ودهشة الطيور هذا ليس جداً في عمري

... ...

كل ما تعلمت من الحياة أنسيه نفسي على مدّ النظر أو ما كان يجب أن أبقى في الظل مع كل الذين ما زالوا نائمين لكني فجأة وجدتني غير مستطيع وأني أختنق من جمودي ومن أن أكرر إلى ما لا نهاية ما فكرت به حتى لا أضيعه فجربت كقفازين مجموعة كلمات اثر أخرى كان يجب أن أفاجأ قبل أن أتحرك ما يتحرك فيّ هو كرأس على مخدة ما يفر مني هو عظاية ذاتي يا تشابيه بلا جدوى

... ...

لما انته من دهشتي إلى ما لا نهاية بالصمت لا صمت أخشاه وفيّ ما يمسك بي مستيقظاً فالصمت في نهاية الأمر هو هذه الضجة الغالبة في ضجة ما يفكر ويدمدم أعلى من أي شيء

بيّنوا لي لِمَ أعود إلى أول السطر بدلا من أن تسألوني الحساب عن الفواصل
فجأة أغضب من صغار ما يهتم به الآخرون
أغضب حتى أحمر وأربد أو أتخيل على الأقل لأن
المرآة ورائي
تلعب فيما لا أعلم من سخر دون أن تقول

... ...

بعد هزيمة أُحُد ، تحصّن محمد في المدينـة ، وأحاطهـا بخنـدق . وكان ألـم لم يستعـد له المحاصرون ، لأنما جرت العادة في ذلك الزمن أن يخرج الناس مساء من المدينة ، لقضاء حاجتهم في الصحراء ، فما كانت لديهم لذلك الوسائل . كان الخندق من وجهة نظر الحرب تقدّماً ، لكنه ككل تقدم ، نجم عنه شر لم يتنبأوا به ، لأن المرء لا يستطيع أن يفكر بكل شيء .

لما جاء الملكان الكاثوليكيان أمام غرناطة فضيقا عليها ، كانت الشقة بعيدة عن الذي حاق بالمدينة فما يفكر بها أحد ، رغم أهوال الحصار ، مع أنها اخترعت مبدأ مجارير القاذورات . ولو كان الغرناطيون على شيء من العدل ، أما كان يجب عليهم آنئذ ، أي عبر الجوع والطاعون والموت ينزل بهم ، أن يعترفوا بالتقدم الذي حصل بعد عهد النبي ؟

إذا التفت إلى وراء ، أكبرت تفاصيل الحياة القديمة وما جرى فيها من تغيرات عظيمة . لم يعد محتوماً علينا أن نبرد شتاء ، ولأنْ لا يجد ثلث الانسـانية أكلـه ، هو تحسـن هائـل في الشرط الانساني . التفت بعيني إلى الماضي فأؤمن بالأفضل .

لو أني ، لا أتخيل المستقبل ، بل أراه ، وأحكم على ما هو أمام ، لا ما هو وراء . . . ما كان ينكرني المجنون ؟ أما كان وجهي الآخر المسكين يسكر من الطيارات والكهرباء ؟ أطلقـوه في باريس ، في قرن السا هذا ، فيظن أنه في الجحيم . ما هو تقدم عندي ، هو عنده شهادة . ان انسان الماضي ، حتى ولو كان من الطليعة ، كما نسميه في كلامنا العسكري ، كُوّن من أجل عالم ، مخلوق له جسده وكذلك أحلامه . تقدمنا هو رعبه . ولا أدري ما كان يفكر محمد في المجارير .

مع ذلك هذا هو التقدم

ألا يعلم الذي ينحو عليّ باللائمة أني التفت بنظري إلى الماضي ماذا يقول ويفعل . إذا أردتم أن أدرك الآتي ، لا فظاعة الآتي فحسب ، دعوني ألقي نظرة على ما كان . ذلك هو الشرط الأول لبعض التفاؤل . ربما كان هذا أفضل من اليوتوبيا ، فهي نبع خيبة البشر ، نوع من العلم - الوهم نفضله ولا شك على الرواية التاريخية ، هذا إذا كنا ولو إلى حدّ ضئيل من بشر العمل .

. . . .

شيء واحد عبر الزمان كشراع كبير أبيض شيء واحد وتستطيع الريح أن تدور وتضل السفينة

شيء واحد عبر الزمان شيء واحد من عذوبة ماء واحدة شفافة دائماً
وتمضي القوانين وتمضي طرق الاعدام والصورة التي يصنع عليها الحذاء
وما كان أكثر قيمة من الحياة تحت أنوار مختلفة
الآلهة الجالسة في الأعالي والملوك يهيمنون على الأقدار
فلا كلمة تغنّى كانت تنتزع الدمع من الحجر
شيء للسكر لا يغرف إلا من سم ابرة
شيء واحد يبقى في بيت من ألف طابق

شيء واحد عنيف ورقيق يسقط كل سبب عابر
شيء واحد على قدّ ما يتغير دائماً شيء واحد ينهبونه عبثا
وتزدهر هذه الأرض ثانية بعد الحريق
شيء واحد الحب ولكم أن تصفوه
إذا احتفظت الكلمات برسم الشفة والصرخة تخرج من الأحشاء
شيء واحد منه لغتي فيما وراء الذاكرة والاختراع
شيء واحد عظيم عند الجميع ودواره
شيء واحد الحب وتنقلب العيون
ابنوا أبراجاً تجدوا على أعلاها
تنهدة قائمة وذاك الانتظار وفي الضياء أو الليل
اثقبوا القارات من أجل يدين تبحثان بعضاً عن بعض
امنحوا فرصة « بال » مقنع مجنون للذين يفر بعضهم من بعض
حوّلوا حوّلوا الفصول من أجل فصل حبي
في فصل حبي صنعوا الشارات على الطرق
لن يكون نهر إلا لظمئك ولا كرزة صغيرة
إلا وهي صورة فمك تروح تتحدث عن القبلة
....

شيء واحد فوق القياس على قدّ الانسان
شيء واحد على قدّ الحياة والموت
لا الفقير لا الغني ولا الحكيم أو المجنون
شيء واحد يصنع من كل شيء رقصة
شيء واحد كامل وما هو إلا اندهاش
....

هوذا آت زمن المستحيل
يا ولادة جديدة
ها قد قهرت ثورات الانسان الأرض والشمس
وأنت تأخذين الأفلاك من قفاها
قريباً سوف تصنعين لنفسك ربطة عنق من المجرة
لكن أتستطيعين ذات يوم عبور السهل العظيم
فتقطعين الدرب بلا درب ثم تبدأين دائماً من جديد

وتعرفين السرّ من دون مفتاح حبّك
يا حبي لقد خلقت لتلك السماء التي لا تكفيها الحياة

. . . .

ما يقولون   ما يقولون   الخلود
ليس كافياً   ليس كافياً   كي أنسى
وأنا ما انتقيت الجنون
إلا كي يكون سبباً كحب يرمى للطيور

*

أجهل حقاً لماذا أستمر
على طريق اللاأين نأتي ثم نرحل
فلماذا اذن من هناك جئنا

نموت كما نحيا أي فضل في هذا
نحيا كما نموت نبدّل المأوى
أولا نبدّله   أو عاجلا
نموت كما نموت   والرهان صفر

أخائف أنا من الموت أو أني أحسب الأمر
أم جبن أمام حركة لا مردّ لها
اعتقدت دائماً أني ذات يوم أصفق الباب
كنت أراني معاً   السهم والهدف

أنا لست سجين الآخرين

لست أيضاً سجين نفسي

قد ظننت طويلا أني أبدّل إلى ذهب
ما المس بجناح أو كلمة
قد ظننت طويلا أن لي القوة
أن عندي الكحول أني أنا اللهب
أحياناً أحياناً ما زلت أظن

أخيراً رأيتُ في غفلةٍ منّي
يديك تسرقان من تحت عينيك الدموع
وأنا ما حيلتي بالدموع إذا همت
ماذا تفكر السيوف بقطرات الدم

ذات يوم أرحل والسبب جهشة منك
ذات يوم كالأيام الأخرى أنهض عن المائدة
ذات يوم من أجل جهشة سوف يبدو لي كل شيء
لا يطـــاق

لن يفهم أحد أني كنت أكاد أقضي بقطرة ماء
بشعرة كانت كافية كلمة أريد
بجملة لم تكتمل آه مثلما بكلمة لم أفه بها
أنا أفهم الذي
هل تسمعين
عيناك إلى لحظة غريبتان
وأنا لا أقدر على شيء حتى
أن أقسم هذا القلب أن أقسم

يتوقف الزمان من طول ما فكرنا به
تثقل الكلمات من طول ما خفت
قليل علي إذا قلت أحبك

كنسيج ممزق
نعيش معاً منفصلين
بين ذراعي أضمك غائبة
وجرح ديمومتنا
هل قضى أن نحس به هكذا عميقاً
لما السماء على قدّنا

قليل علي إذا قلت أحبك

هذا الوجود وداع
ونحن كلانا ما لنا عين
إلا على النور ينخفض
نتهيأ للرحيل
ثم نقول لم العجلة
هذا هو معنى الشيخوخة

قليل علي إذا قلت أحبّك

كأني أبدا أبدا
ما قلت أني أحببتك
كأني كنت خائفاً أن يفاجئني
الليل وتحط على عنقي
أصابعه في قفازي ملكة
وأغدو إلى أبدي بلا أيار

قليل علي إذا قلت أحبّك

عندما لا يبقى من الأشياء
غير ذكرى رعشتها
وصدى موسيقات ميتة
فيظل ألم الصوت
كلما انطفأ غدا أقوى
تلك كلمات قليلة على الأغنية

قليل علي أني قلت أحبّك
وما كنت لأقول إلا أحبّك

*

الآن يمضي كل شيء وكأني
فقدت حقي في أن أتألم علناً

لا حاجة للقوافي إذا لم تجد الأبيات آذانا تسمع
لا حاجة للمقاييس إذا لم يكن هنالك من نقيس
وأنا أبدأ من أول سطر ذاتي مدفوعاً بسخر الصمت
أنا اخترت أن أبدأ
في أول خط ذاتي كسمكة تعضّ
وينكسر الخيط وتفرّ الفكرة

الآن لا أستطيع حتى أن أريك نجمة البحر تلك
التي تتكون على قدمي في ناحية ما على الشاطىء
الداخلي حيث أضيع
لن تصغي إلى روحي حدّك مثل
ماء يتقطر
على طرف الحياة ترقى بيننا ما لا أعلم أية ضبابة
يا لخَفَر الصيحة

الآن تخشى كل كلمة أن تحكمي عليها
ألا تعجبك ويفوت أوان تصحيحها
أوْ أن تجرحك
وما الجرح شيء إذا كان أمامنا الوجود
ونستطيع أن نشفي الوجع الذي صنعناه
لا ضير إذا غنينا خطأ بشفتين نديتين
لا ضير إذا رمينا في النار ما نستطيع أن نبدأه من جديد

الآن سأحتفظ لنفسي بأفلاكي السوداء
لن أفتح لكِ جحيمي وحيداً سوف أحترق فيه
تلك أول أسرار عندي منك على هذه الأرض
شيء ما كأنه عكس البوح
سوف أرود دونك هذه الغرف المغلقة
وعيناي مفتوحتان على نوم آخر

أنتظر ذات مرة لا يكون فيها للفجر حد

الآن سوف أتعلم الصمت
ومن يعلّمنيه خيراً منك فيك أموت كضجة البحر
أنت سبب فكري وتمتمتي
أن أكون جملة من دونك عبث
أنت من دونك مالي سوى مرآة وجودي
أنت يوم حسابي

أنا الآن في مدرسة ما سوف يأتي
أتعود الهول فأغدو لأيا لأيا لا أحسبه
يجب أن نتعلم هذا كل على حدة لأنما يكمن هنا
هدف هذا التعليم القاسي الذي لا يمكن أن نقسمه كخبز
حتى إلى قسمين
أين أتدرب على ألا أكون أفضل مما في هذا القصيد الذي ينكرني
أمحو كل يوم قليلا ظلي وأثري فلا تبقى
ورائي ضجة النزع الوقحة

الآن أبعد عنك ما لم يوجد إلا لك
ما يعبّ منك ماهيتي ونشيدي
سوف أخبئك أنت في عمقي أنا سوف استلّك بعد الآن من اللغة سوف
أخنقك في فمي وتصيرين هناك خافقة على شفتي
مثل عذاب من رفض قبلة سوف تكونين
أرَقي
لسوف أخشى أكثر من كل شيء أن أتحرك حدّك فأوقظك
يا غرامي   يا امرأتي   يا كلمتي الوحيدة

الآن أتدرب على هذا الليل الذي نحن

مذكرات من لا أعلم من

لما اضطر المجنون ، في أعالي ماليجرانا ، إلى الرجوع عن الشعوذة التي تأتي بعون الغجر إلى عين مغارتهم المظلمة بتجسيد حبّه ، في ليلة من ليالي فالنسية في القرن العشرين ، فيه مفارق

الطرق من زمرّد ريحاني ، والبيوت اكواريوم في تلاعب أضواء الانذار . . . آنئذ كان الناس يظنون أنهم يكتفون بهذه « السلفتة » الشاحبة كي يُقَصُّوا طيران الطيور التي على شكل صليب معقوف ، وربما كان ذلك ذكرى عندي من عمر العشرين لما كان ثياب الجند من أفق كي لا يراهم العدو . . . الحرس الوطني أزرق في تلك الزرقة ، والبنادق من فولاذ غرابي ، ثم سألت الشاحنة القادمة من الشمال عن الطريق .

هكذا أقصيتْ حوالي مدريد السا في رحب السماء الأرضية عن طريق الأندلس ، فلم تصل أبداً إلى غرناطة المستعبدة ، وفيها كانت تبكي في أسمال حيلتها طفلة ، شوهت الحجارة تنكرها ، بعد أن لاحقتها وهي دامية عصبة من الأوغاد . . . وعلى هذا لبست فيما بعد السواد ، وعاشت كفأر في مملكة القطط ، وهي التي جعلت نفسها في مدة لا تزيد عن زمن لعبة الحجلة(١) السا الخيالية .

يا لاختلاط ، وبؤس وروعة الزمن المزدوج !

وعاد فاتخذ النجدي مكاناً له في الكهف ، كفلكي أعمى وسط آلات لا يعرف أحد كيف يستخدمها بعده . كان يختنق في هذه الديمومة ، غير قادر على أن يجد في هذا السجن قضباناً نشرت بمنشار ، أو حبلاً ذا عقد أو سراديب تؤدي إلى المستقبل أو الماضي ، كان لا يستطيع موتاً أو حياة ، لا يدع من نشوته الداخلية عبير زهرة تنبجس فجأة ، أو موسيقى ما تفتأ أن تختنق . وخطكما في اليوم الذي تذكر فيه الكتابة ، حروفاً من لغات مجهولة ، وزين برموز السا الغامضة وحدته في مكان أسود ، ثم نقش في الحجر جملة من حروف كوفية رائعة التكوين ، لم يستطع غير زيد وحده ، بعد ذلك ، إلا إذا كان توصل أخ ناتالي دونوواي ، الكسندر لابورد ، في رحلته الاسبانية ، أو اثنولوجي ما في الشاحنات النابوليونية ، إلى قراءتها على ضوء روحه لا ضوء قدّاحة :

يا حب آه أن
نقول أننا سعداء
يا للأنانية الغريبة

كل ما نعرف خلال ثلاث سنوات عن الشعلة التي فيه تمزّقه فلا تخرج لولا الكلام منه عبر الأنف أو الأذن . كان يعيش في حلم مقلوب ، كمائدة لا يرفع عنها الطعام أبداً .

في الخارج كانت الفصول تمرّ في ثياب زانيات . وعادات جديدة تتكون في الأندلس ، يطول بنا المقام لو شئنا لها رواية . موسيقيون جوّالون يمزجون بأغاني التمزق موسيقات من طرف العالم . والأسطورة تنبت بين المرمر المخلع ، فيفر عشبها المجنون من على الجدران والسطوح . . . وفي انقلاب عجيب غدا الايمان الملعون بامرأة من لحم ودم ، في عيون المسلمين ، لا وثنية في ساعة المسيح تلك ، بل مقاومة ، بل رفضاً للكنيسة ـ الملكة ، يحمل في عطره الاسلام ، وبضاعة مهربة من عهد العرب . وهكذا أخذت أغنية كتبت عن عيون السا معناها .

---

(١) لعبة الحجلة : من ألعاب الأطفال : تتمثل في القفز على رجل واحدة يدفعون بها حجراً لادخاله ضمن أقسام مستقيم مرسوم على الأرض .

وانتشرت أغاني هذه المرأة ، ومما حفظ عن ابن عامر في الروايات التي خطّها زيد ، وتعاظمت حلقة الأبيات العربية تنسخ دون ونى ، بعض صحيح وبعض منتحل ، يسمعها الناس في بساطة ، حتى لقد تأخرت السلطات الكاثوليكية ، وأرسل الكاردينال دومندوزا من يبحث عن مطرب الطرقات الذي يبدو أنه اختفى أيام الغزو ، وصاحبه زيد ، الكاتب ، وقد ندّ نبأ عن وجوده في ظاهر غرناطة ، إذ تعرف عليه مسلمون مرتدون ، من المستعجلين في اثبات اخلاصهم للغالبين .

مع ذلك ، ظلاّ زمناً طويلا لم يكتشف أحد منهما ، حتى حين جاء فرسان من السانت ـ هيرمانداد يوماً إلى أطراف منازل الغجر فقبضوا على ربي ابراهيم بن ميمون ، وقد وشى به فلاحون ، ضعف لهم فعالجهم . في تلك الحقبة ترك المجنون في هذيانه دون رقابة طبيب ، حتى أن تلك البنت المشوهة التي اخترعوها كي تكون السا الكاذبة جاءت في ذلة فطلبت من زيد أن يقبل في أن تعتني بأستاذه . ومنذئذ باتت ترى ، حدّ فراش النجدي وهو في لا وعيه يتخبطبين أشباحه ، السا الكاذبة بلا وجه ، متربعة ، تشتغل صابرة في نسيج أو بساط ، وتسهر على العجوز ، فتقوم بما ينفر من حاجات ، وتجهد ما وسعها الجهد أن تتجنب ، حين يأخذ به الهياج ، ما كان يجب ، ويحدث ، من ربطه على سرير العشب الذي ينام عليه ، كما كانت تتفادى الهول فتمزج العشب خفية برقيق النعناع .

... ...

وانقضى شتاءان على هذه الحال . كان زيد من جهته يحمل قيثارة السا الكاذبة ، فلم تشأ هذه أن تستعيدها . وفي قلبه حداد سمحا الفتى . كان يذهب إلى الأعراس فيربح مالاً من صوته : ولقد هدأ الخوف ، وفي الظاهر حمى النسيان هذا الولد الخطر الذي بحثوا عنه . ومنذا يستطيع التعرف عليه وقد صار مكتمل الرجولة في الثامنة عشرة ؟ لكنماً في ربيع ١٤٩٤ ، لما خان يوسف بن قوميا ، الحاجب ، أبا عبدالله ، ووضعه أمام واقع هو بيع أملاكه للملكين الكاثوليكين ، وهي تلك التي وافقا له عليها إبّان التسليم ، وعمّت المرارة في المملكة القديمة ، يوم رحيله عن أندرش ، بين من بقي من العرب ، حتى بين الذين ضحكوا لما رأوا اليهود يطردون ، أما أولئك الذين اختاروا الصليب ، فقد بدأوا يخافون انقلاب الحظ عليهم . وما أن ركب السفين أبو عبدالله حتى عمّت الخشية من ثورة المسلمين ، فعمد من عمد إلى مراجعة محمومة للملفات ، فإذا بأولئك قد اختفى منهم خلق كثير ، منهم من تبعثر في الجبال ، ومنهم من اختبأ في القرى الضائعة .

في تلك الأثناء علم البولجار ، أي زعيم قبيلة الغجر في الساكرومونتي ، من بعض الكاليسيين ، الذين استأنفوا في المدينة صناعة السلاح ، في الساحة الصغيرة التي اسمها الآن السان ـ ميشيل ، في مكان قصر الملوك الزيريين القديم الذي تهدم وقد روي عنه أنه كان يتصل مع القصبة بالسراديب : فلقد علم أحد التشيبادو وهو ذو صلة مع زوجة أحد حراس السجن أن حملة تعدّ ضدّ الساكرومونتي للقبض على المجنون ، فقد عرف سكير على مخبئه . وعقد الرجال اجتماعاً ناقشوا فيه ان كان يجب تسليم المجنون ، وقد غدت أيامه معدودات ، فلا يسري العذاب الذي يجره وجوده على النورية . لكن المشكلة زيد ، الذي يظن أنه من دم غجري . . . واتخذ القرار

بتسييرهما ، في قافلة صغيرة ، يحرسها بعض الخيالة ، إلى البشارات ، فما زال العرب والغجر فيها أصعب منالا على المجمع المقدس .

وفي الطريق هاجم الموكب ، جماعة من العسس ، مع أنه احتال فسلك منعرجاً. وتحاشى طريق جسر الطبلات الواسعة ، ثم صعد الشنيل باتجاه نبعه ، كي يجتاز الشلير من خلف ، يولد الشنيل ويسميه الاسبان الأومبريا في السيرانفادا، وما يدعوه العرب بقولهم نوفرة جهنم . كان يحرس النجدي فارسان ، وهو محمول على نوع من الكرسي تجره بغلتان ، ومعه خادمته بثيابها السوداء ، واتخذوا درب الذرا كي يمروا من ناحية الشمس . في تلك الأثناء ، نصب زيد ورفاقه كميناً على مدخل الوادي ، كي يهاجموا منه العسس ، لعلهم يؤخرونهم ، على الأقل ، الزمن الكافي فيكون المجنون في مأمن . لكن الأمور سارت على غير ما يريدون : فلقد قوّى القشتاليون حملتهم ، بعد أن لمسوا في الساكرومونتي فرار الذين تبحث عنهم ، فمزقت المدافعين اربا ، وأخذت زيداً ، بعد أن جرح جرحاً صعباً . لكن العسس لم يجرؤوا على التقدم بين صخور الجبل ، واعتبروا أن مهمتهم انتهت ، حين وضعوا يدهم على الشاب ، وهو أخطر من العجوز ، الذي يقول الناس فيه أنه فقد عقله .

وهكذا وقع زيد في أيدي التفتيش

. . . .

عاش المجنون حوالي سنة في ربض صغير من نواحي قاديار ، بين مسلمين يخفون أمانتهم للماضي تحت وجه الموديخاريس ، ولقد وجدوا في النجدي أثراً من العظمة الغرناطية فأسكنوه ورفيقيه الغجريين ، وتلك البنت القريبة من الخرس التي كانت تخدمه ، وكان أهل المنطقة يزورونه ، حين اعتقدوا أنه صوفي ، وانتظروا منه المعجزات . في كل تلك المدة لم يصلهم أي نبأ عن زيد ، فبكته السا الكاذبة في صمت ، لأن قلبها غادرها مع قيثارتها .

كانت ترى كل يوم ينحدر ذلك الذي تدعوه، مثل زيد ، في اجلال **مولانا** . كانت تضمر سراً في فؤادها : فهي لم تَدَعْ شيئاً إلا وعملته من أجل أن تعيد القوة للمجنون ، بحثت له عن الغذاء في القرى ، مزجت الحليب الذي يجعل المرء حكيماً بالخمر الذي يجعله مجنوناً ، ـ حسب نصيحة أخذتها عن ربي ابراهيم ـ لأنها لم تكن تحلم إلا بأن تفتح للمجنون باب المستقبل لعله يجد السا الحقيقية .

أو لم يخيل لها ، في بساطتها ، أن المعلم إذا لم يستطع ، كما من قبل ، ريادة الزمان ، واجتياز شلير القرون ، وامتطاء صهوة ذرا المستقبل ، فإنما ذلك مردّه فحسب إلى نقص في القوة وشر الحمّى . كل ما عرفت عن البسطاء وفضائلهم ، كل ما تعلمت من العجائز ، يخدمها الآن في تثبيت أملها في أن ترى المجنون يدعو إليه تلك الألسا ، وما زال ضميرها يؤنبها أنها أرادت تقليدها ، أما إذا لم يتمكن فليفعل ما هو أبسط ، أن يذهب للقياها ، على حصان ـ الزمان .

ربما كان السحر يفعل فعله . كان ذاك اليوم صيف جميل كديك . فلقد رأت السا الكاذبة ، منذ أسبوع أو ما يناهزه ، في عين المجنون فجرا يطلع . كان النجدي يخرج من الظلمات ، كانت تشارف شفته أحياناً كلمة مفهومة ، واستطاع أن يقعد في فراشه . . . هذا البؤبؤ عم كان يبحث في

البعيد أن يدرك ؟ أكان يصعد ناحية نبع السا ، وتلك الأيام التي دارت فيها الشاحنة من فلنسية إلى مدريد ، في قلب حرب غبية ؟ أو ناحية أرض الفرنجة ، التي كانت بستانه ؟

تضرّعت إليه الخادمة : « أين أنت يا مولانا ؟ »

لم يجب ، ولو أن الساهرين برزوا حواليه من كل جهة ، وقد جاءوا من كل الأزمان ، سليمان ، دانته ، أورفه . . . وكيخوته وتيريزة يسوع . . . جميعاً . . . جاءوا يحضرون اعدام المطرب ، وأشباحهم تمتد فوق وادي فيزنار ، حيث غدا جارسيالوركا هدف القتلة كطير من حديد مدهون في ساحة البازار . . . من أجل من أتيتم هذه المرة من الآخرة يا عظماء فرسان الموت ؟ أمن أجلي أمن أجلي أنا الذي أشرفت على الموت ؟ لكنه كان يشم جماحه في عروقه . . . وتحولت نظرته عن اسبانيا ، ومرت بصقلية والبحر . . . كسفينة تقاذفتها الريح ، ما لا أعلم أي فلك نوح جرفه الطوفان إلى القوقاز . . . أيان يذهب ؟

وأعادت الخادمة : « أين تذهب يا مولانا ؟ »

وغابت عن نظره الأندلس ، وأرض الفرنجة ، صعد الفرات نفسه ، وسورية . . . أين يذهب ؟ دار الجبال التي يجنح فيها الفلك ، فوصل إلى أرض كلها بهاء . حيرات أيا مدينة تيمور ! وهوذا أمام النعش . . . واسمع عنقه تختنق ، وأسمع إسماً يردده وكأنه غدا جهشة جامي ! جامي ! جامي !

وتمتمت الخادمة : « ما تقول يا مولانا ؟ »

والتفت النجدي أمام النعش إلى حيرات شاعر المجنون وليلى ، والحداد يرأسه الوزير السابق عند التيموريين ملوك المدينة ، المقرب ـ الحضرة ، وهو الشاعر ميرعلى شير نيفابي . جامي ! لقد مات جامي العظيم الذي سوف ينسى المستقبل أنه كان يدعى نور الدين أبو الرحمن ، والشعب يسجد في ثيابه البيضاء ، آه لقد تحطم شيء في قلب مطرب غرناطة ، كل ما كان صدى فيه لهذا الصوت البعيد . . . ويراه أنه ما بقي له عينان إلا لألمه ولا أذنان : بات لا يرى من اجتمع حوله من أولئك الذين جاءوا إلى فيديريكو، كأنما من أجل أن يشهدوا ، في ساعة موته . نبع فكره جفّ . الأرض التي وضع عليها قدمه الحافية ، احترقت . صدر نفسه لا يتنفس أبدا . كيف يجد بعد الآن إلى السا طريق الأجنحة والريح وهو مدين بها إلى شعر جامي الحيّ ، وموسيقاه الملهمة ، ونشوته التي من نار ؟ كنتُ السهم وأنت الذراع التي تشدّ بالوتر ، والقوة التي تجعلني أطير عبر العاصفة إلى الحبيبة . الآن ، تراخت السهم ، السماء مظلمة ، وانغلقت أوراق الغابة . . . جامي ! جامي ! أنا ما كنت غير امتداد نشيدك !

جمالك الخفيّ جعلني ما أنا عليه
كان الماهية في قلب الكلمة
موسيقاك العميقة هي نبع صوتي
وما الحب ان لم يأتني من مدرستك

مرآتك كانت القلب العظيم الذي يمسك
بالنور ويضفيه ليلى على الأشياء
ووراءه يقوم ليل البشر
ما نسميه الله ليس سوى شعرك

فهمت من كلماتك لون الفيروز
الذي يتبدّل على لمس جلد الحبيبة
قنديلك انطفأ فيّ وغامت عندي الأشياء
خطا عذابي مثل يدين تتصالبان

أصمتي يا ينابيع وأنت يا حساسين
آه حين يغيب جامي ما أكون أنا الذي بقيت
شفتي شاحبة من صمت وعيناي تموتان
آه إذا غاب جامي ما تكون عندي الغابات

مذكرات من لا نعلم من . . . لأنه من كان شاهد الأيام الأخيرة ؟ أو هو اختراع عربي بحت . . . لا يعلم أحد . إلا إذا تخيلنا هذه الصفحات كما تتجلى الكلمة . أو أنهم الساهرون ، أن أحداً منهم كان شاهداً على طريقته ؟

في صيف ١٤٩٥ ، دخل النجدي في أيام نزعه ، وما يلي هو كل ما بقي لنا من موته ، ونجهل اليد التي كتبته ، والأسباب التي دفعتها .

ما انتحل عن الأيام الأخيرة

١

. . . ولكم كان النهار جميلا عندي

أضرب جلد الطنبور بخفّة أصابعي
انه مطر يقفز على الزمان والسطح
برد من حبّ قاس يسقط في هوى الصمت
والملح فوق النار يؤزز ثم يثب
كلمة تخفى خوفاً يتردد فلا يطاق
همهمة قطعان بحر يحاصر الرصيف
خطو الشقاء ثقل السماء وكل ما يحمل الانسان
امش إلى الموت الذي ندعو حياة
يا وقع كل لحظة
اسمع الصدغ المنطفىء أطفىء القنديل تقدم إلى ما ينتظرك

من الآتي إلي يشبهني في مرآة هذا الصباح الممتقع
أضربُ على طنبور قلبي أهمّ بالهجوم على ذاتي
أنا جندي مَنْ ذاك الذي يجهلني عدوّ نفسي
إذا تنفست احترقت بالنار التي في نفسي وضعت
إذا تكلمت هدّمتني وما أقول هو رمادي
الظلمة أمامي وهي تولد من نوري
والعدم يولد من قوّتي وضياعي في دمي
أنا الدودة التي تأكلني والقبر الذي أنزل فيه وأبعد ذكرى لديَّ
النهار كم كان جميلا عندي
إلى ذاك الفم من تراب إلى تلك اللذعة أعدو
يا طنبوراً قاتماً لا شيء لا الحب يبطىء ضربك
تنزل أخيراً كدثار ثقيل على المحبين وعلى صيحاتهم

دحرج صوتك على العبير الذي فيه القبل تتفسّخ
على ركام الجثث وعلى أسرة تنحل فيها كل الأشياء
أجساد تشابكت ولذات تعبت وسعادة سعادة تبدأ من جديد
العناق الطويل كرقم في جسد عيناه انسكبتا
يا حياة يا موت لا توقف ضجّتك التي تساوت في ظلّ مستقرّ
أضرب أقوى زد في القوة ما دام هنا هو الحفل الأخير
أذرعة اتحدت وافترقت أضرب الأرق الأخير
يا حياة يا موتاً مزدوجاً انكاراً أن التناسق ممكن فينا

٢
الزجل الحقيقيّ حتى الموت

يا بستاني من ماء عذب وظلّ
رقصي أن أكون قلبي مظلم
سمائي نجوم لا تحصى
قاربي حلو تجديفُه بعيداً

سعيد من مات حبّاً

لغيري النهاية المرّة
كما الطائر يصنع وهمه
ويذهب النهر إلى البحر
أو يرحل الزمان دخانا

سعيد من مات حبّاً

سعيد من غدا أطرش
على غناء ليس عن حبّه
أعمى عن يوم ما بعد يومه
عيناه عليك وحدك مطبقتان

سعيد من مات حبّاً

حبّاً عظيماً يغلق الشفتين
فيغدو وما به حاجة لشيء
غير ذكرى الورد
تعطر منك إلى الأبد

سعيد من مات حبّاً

ذاك الذي يموت غذاباً
الذي العالم عنده من دونك خدعة
الذي لا يذكر غير ألوانك
الذي يكفيه أنه سمّاك

سعيد من مات حبّاً

قال يا ابنتي يا روحي العزيزة
الزمان الذي عرفتك يا امرأة
الخلود ليس سوى اغماءة
في النار التي تأكلني

سعيد من مات حبّاً

قال يا امرأة وليسكتْ
عن الاسم الذي يشبه الجمرة
الاسم الذي يشبه الفم الأحمر والفريزة
التي تكونت بين أسنانه إلى الأبد

سعيد من مات حبّاً

قال يا امرأة وتنتهي
هكذا الحياة هكذا الحلم
أكان ذاك في ساحة الاضراب

أم في السرير المألوف

سعيد من مات حبّاً

يا عشاقاً شباناً انه عمر
دخول الحلبة والسفر
مجنون ذاك الذي يظن أنه حكيم
اصرخوا في وجه من يلومكم

سعيد من مات حبّاً

٣

يـــا زنـــديـــق

حلم في ساعة ضعف أنه كان جالساً حدّ الزيزفونة تلك التي جرى كما تعلم عنها حديث يكاد ينتزع الروح
قريباً من بستان المروة
شجرة خضراء شهباء على الطريق العريضة مشرعة لعاصف الريح
تذكّر فيما قيل بالذي ينسى الله فينساه الله
ربّما لأنه طوال حياته فشل في حمل الثمر
ربّما قد تاهت خطاه لأنه لم يؤمن
وهوذا وقد حطّت عليه هامة طير عظيم
أعرفه أعرفه لطول ما انتظرته
أو أنه ما كان غير ظلّ يسبق الانسان
لما دخل الغرفة في عناء السفر
وكنت أسمع قدميه العاريتين على البلاط الحارق
دخل الغرفة وطرد الخادمة
وقال بذاك الصوت الذي يأتي من بعيد في الصحراء
دعوني وحيداً مع الذي خلقته

هذا أنت اذن أيها الاله الذي يشبهني
حتى لأجدني ان ركعت قدامك كأني أمام مرآة
أو أنك أبي كما جاء في الكلمة
حدثني اذن عن لذة أمي لما أولدْتني
أكانت عيناها ناعستين كخمر بنفسج
وأنت كنت تعرف جيداً أنك تخرق شريعتك
لأنها كانت امرأة رجل آخر وأنا ابن الخطيئة الالهية
قضيت حياتي بانكارك

أصغ في الساعة التي أتلاشى فيها أتظن أن الحقيقة ليست على شفتي   أصغ
أقدر أن أقولها بوجهك أنت لا وجود لك
لو كان اله كيف يمكن أن تموت صورته
أنت الرمل الذي تبعثر قدمي الفانية
نصري هو آخر نفس يمحوك كدليل أقدّمه
اضطرب ما شئت في هذه الغرفة قبل أن أحول صمتاً
اضطرب يا زائر الدقيقة الأخيرة
أنت الذي جئت توطّد النظام وتجلو الريب عن ابتسامة الميت
أنت الذي تخلط الكلمة وتستلّ التنهدة الأخيرة في انتفاع لصّ
فإذا جلست على صدري تستطيع أن
تثقل بكل وزنك وهو عدم ليس منه ترزح أضلاعي
ولا يلتوي فمي من اسم هو ليس اسمك
أحقاً أنك تفرض على نفسك المشقة في كل انسان
فتأتي كي تعطي معنى لرحيله وتأخذ نهارك من ليله
آه انك لا تستطيع فهم سخري
وذاك الفرح الغريب أن الماء سوف تظل من دوني تجري في البستان
ويأتي من دوني الفجر فيعتمد بمرفقيه على الربا

لقد مررت أنا في هذا العالم دون أن أثبت الله هل تفهم
هذا العيد في أذني الأخيرة لقد
رقبت طويلا طويلاً لحظة ذاتي هذه
هذه اللحظة التي أرمي فيها نفسي كثياب فأكون

في النهاية كامل العري
وحيداً وذاكرتي تمحي فيها عيناي البخيلتان
على كل ما رأيت كل ما أحببت
كل ما احتفظت به لي وحدي في هذا العالم

ولا تنخدع بما تظنه الألم
انه صيحة أخيرة من الجسد الذي يسخر منك
يا موت يا اله أيّاً ما كان اسمك
تستطيع أن تحتفظ لنفسك بخوفك وجنتك

ثم رفع مرة أخيرة حجر جفنيه
كل شيء كان على عادته في البيت
كان هناك من يغنّي في البستان أو أنها نار أوراق
نهض ونظر إلى كل شيء في مكانه وابتسم

ثم دون أن يهتم بارتداء ثيابه كتب هذه الآية من سورة خيالية **يا زنديق**
لن تجدّف على اسم الاله لأنه لا وجود له

قد تجدون مفارقات املائية بين نصّ القصيد ونصّ المعجم ، عن هوى حيناً وعن اهمال حيناً آخر ، الرجاء أن يعطي القارىء الحقّ دائماً للمعجم فهو يسمح له بتصحيح الأغلاط ، إرادية كانت أم لم تكن .

عفـواً عـن أخطـاء المؤلـف

تلك ترجمة حرفية لأصعب كتاب فرنسي مما أعلم أو قرأت . أردت أن أثبت أن اللغة العربية قادرة بمرونتها العجيبة على كل الألوان مهما كانت فذلكة الكاتب ، تطوي كلّ الرياح ، تنطوي مع كل الرياح كبساط سحري شفاف براق ، قوس قزح فيه كل بهرج الأمطار والشموس ، ومعاني الذات الانسانية كيف كانت تجلياتها وعبقريتها .

كأنّ أراجون أراد أن يضل القارىء في ما ابتدع من متاهات . قلد الأسلوب العربي القديم ، أيام سقوط غرناطة ، كي يضعنا في ذلك الجو ، فعمد فيما عمد إلى عدم وضع النقط في الجزء الأكبر من جنونه بالسا . كذلك كانت الترجمة. سرت على دربه لم أجاوزها .

لكني واجهت ظروفاً لم أتمكن من تفاديها . أحداث لبنان ! كنت أعمل وحولي الدمار والدم والقنابل المجنونة . لم أتوقف . أردت أن أكون مجدياً على طريقتي . . . ثم الاسكندرية ، عودة إلى التجوال من دون هدف ، غير القرية البعيدة وغبارها المستحيل على عيني العاشقة . . .

جهدت في أن تكون الترجمة بلا خطأ . . . لكن !

عفواً عن أخطاء المترجم .

فهرس

ARAGON

LE FOU D'ELSA

POÈME

الثمن ٤٣ ل.ل أو ما يعادلها

دار الكلمة للنشر تليفون ٨٠٣٧٤٠- ص.ب ٥٢٨٨ / ١٣- بيروت- لبنان